

حوليات جزائرية

بقلم
أ. بيليسي

المجلد الثالث



حوليات جزائرية

بقلم:
أ. بيليسي

قائد الأركان ورئيس مكتب العرب بالجزائر في 1833 و 1834
انشاء مستعمرة يتطلب حكمة أكثر
منه انفاقا (المصاريف)
راينال

المجلد الثالث

حوليات جزائرية

الجزء الأول

الكتاب 17

إعلان

يحتوي هذا الكتاب على إدارة النشر كلوزيل والفوائد داسمون. بعض الوثائق الرسمية ذات الصلة، والفرجونة إمامي الجزء الثاني، إمامي شكل مدونات في الجزء الأول، قد نشرت سابقا في كتيبات النشر كلوزيل والعديد من الأبحاث وكذا في كتاب ديجوير. فيما يخص الوثائق الأخرى التي استعملتها، فأعطيت لي من طرف الأشخاص الذين تخصصهم شخصيا لم الحصول على أي وثيقة بفضل الوضعية الإدارية التي شغلتها في إفريقيا. كان علي أن أوضح هذا الأمر حتى لا أنهم بالثناء الأسرار.

يوجد في الجزء الثاني مقالان لم أكتبهما الأول من طرف السيد لانتورديان، وفيه شرح مفصل للهجوم على قسنطينة، والآخر عبارة عن كتيب من طرف السيد مانجاي، ويروي حالة القنينة في مدينة الجزائر قبل الغزو.

أ. بليسي

وصول المشير كلوزيل إلى الجزائر بصفته حاكمها عاما - الكولونيل موريس - تعيين البايات - حملات في منطقة الجزائر - أحداث عنابة وسجاية - حملة معسكر - قتال في سبغ - قتال في الهيرة - دخول الفرنسيين إلى معسكر وإحراق المدينة - انتهاء حملة معسكر.

وصل إلى الجزائر المشير كلوزيل، الذي عُيِّن حاكمها عاما للممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا، يوم 10 أوت 1839، يومين بعد رحيل الكونت ديلون، الذي سبقه في الوظيفة. ذكريات إدارته القصيرة عام 1839 كانت مزودة له بشكل عام، ورأى فيها الكثير من الناس خلاصا للمستعمرة.

أن يكون له مفعول سريع، ورأى في ذلك العقلاء التدابير الحكيمة التي تهدف إلى وضع حد للأعمال العدائية. كان الجميع سعداء بذلك، وأعرب الأوربيون بمظاهرات صاخبة باعترافهم المسبق للحاكم الجديد، وثقتهم في المستقبل.

ظهر الكوليرا في الجزائر بعد أيام قليلة من وصول المشير كلوزيل، وخصّ اليهود في المقام الأول. حدث نفس الشيء في وهران العام السابق. فُشرت هذه الأفضلية في اختيار الداء ضحاياه في هذا الجزء من السكان بالقذارة التي يعيشون فيها، محشورين في منازل صغيرة وغير صحية. فتحت لها الإدارة ملجأ في بوزريعة، الموقع الأكثر صحية في ضاحية الجزائر. وجدت هناك العناية اللائقة، الهواء النقي والطعام الجيد.

شغل السيد فيالار، الذي تحدثنا عنه من قبل، منصب مدير هذه المؤسسة. كرس نفسه تماما لهذا الفعل الخيري مادام هذا الوباء مستمرا، بمساعدة كثيفة من أخته، رئيسة راهبات المستشفيات. وقد حلت هذه النساء بالجزائر منذ بضعة أيام فقط، عندما ظهرت الكوليرا، وبذلك لم تتسن لهن الراحة، بل دخلن في معركة ضد الوباء فور وصولهن.

ومنذ ذلك الحين، واصلن توفير الرعاية والمواساة للفقراء والمرضى، دون أي تمييز بسبب العرق أو الطائفة. والمسلم الذي يدرك أنه أنقذته أيدي مكرسة ليسوع المسيح، يتعلم ألا يلعن ديننا حث على مثل هذا

الأشخاص المتعقلين، الذين لا يتفقون مع هذا الحماس، اعترفوا مع ذلك للحاكم الجديد بإرادة قوية قادرة على التغلب على العديد من العقبات، إذا وافقها توجه سليم، وبموهبة عسكرية كانت تستدعيها الظروف التي كانت تسود في إفريقيا آنذاك. كان من المستحيل، من ناحية أخرى، أن لا نكون ممتنين للحماسة التي دافع بها عن مصالح ممتلكاتنا الإفريقية. مع اجتماع كل هذه الأسباب، تلقى المشير لدى وصوله إلى الجزائر العاصمة العديد من النهائي الخالصة.

ذهب نائب العمدة، السيد جيرو، نيابة عن المجلس، إلى حد المنح له في خطاب رسمي، لقب المحي، ولكن هذا التأهيل سرعان ما سقط في غياهب النسيان مثل كل الألقاب التي يثيرها الحماس، قبل أن تصدقها الأفعال الحقيقية.

مع هذه الثقة في النفس التي لا يكللها إلا النجاح إذا اتسمت بالاتزان، أعلن المشير أن تعيينه كحاكم للجزائر دليل قاطع على النوايا الحسنة التي يكتنها ملك الفرنسيين للمستعمرة.

منذ هجمات العرب المعادين والتي كان لا بد من إيقافها بسرعة، قال هذه الكلمات المطمئنة للسكان الأوروبيين: "في غضون شهرين، سنحدّ من هجمات الحجوطين." هذه الكلمات التي تداولتها الألسنة بررت على ما يبدو الآمال التي وضعت في المشير كلوزيل. فهم من ذلك الأعداء اللدود ون الثلقائيون للسكان الأصليين على أنه تهديد بالإبادة الذي من شأنه

التحالف الخالص للبشرية.

ولم يكن السيد قبيلار الوحيد من سكان الجزائر الذي أتاح له

الكوليرا فرصة التحاق في العمل الخيري.

من بين الذين تميزوا في هذا الطرف الصعب هناك السيد جبرو، نائب عمدة⁽¹⁾، جريبي مدير المستشفى المدني، مونتييرا، وهو قس كاثوليكي، تولير و لافون، وهم تجار. بشكل عام، لم يخف السكان الأوروبيون وبيلات هذا الوباء. لهذا السبب لم يعرض منهم إلا القليل. هذه الفئة من السكان قوية ومتعافية، وذلك، تماما مثل عيوبها، متأصل في طبيعة تكوينها. قام ضباط الصحة وطلاب المستشفى التعليمي بواجباتهم بظان، وذهبوا أبعد من ذلك في كثير من الأحيان، وتضرر العديد منهم من هذا المرض. وأظهر زملاؤهم في وهران نفس الحماس في عام 1834، وكذا في بون، حيث دخل الكوليرا أيضا في عام 1835.

عانى العرب أكثر منا من الكوليرا، خاصة في مدينة البليدة التي تضررت كثيرا. هكذا ركع تحت سيطرة الوباء الجنس اللذان كانا يتنافسان على الأراضي الإفريقية. وعلقت الحرب لمدة شهرين وظلت راكدة. وأخيرا، استعادت الحرب أنفاسها عندما ولى المرض.

قال كلوزل أن أول شيء يجب القيام به هو التار من الهزيمة في المقطع. لذلك اتخذت الحكومة قرارا بالقيام بحملة ضد معسكر، لكن ظهور

الكوليرا وتهاون الحكومة في إرسال التعزيزات اللازمة لمثل هذه العملية آخر هذه الحملة.

في غضون ذلك، وللاستئثار باهتمام الناس الذين كانوا متحمسين لرؤيته في العمل، كَوّن المشير بيالك وعين بايات وهمية لها. في 9 سبتمبر، أصدر أمرا بتعيين بن عمر⁽²⁾ في منصب وهمي بايا لمليانة وشرشال. في الخامس عشر من الشهر نفسه، عين شيخا تركيا يدعى محمد بن حسين، الذي نجا من الإبعاد عام 1830، في منصب باي للتيطري. لم يرق هذا التعيين لجزء من سكان هذه المحافظة الذين كانوا يودون الاقتراب منا، لأنه كان يزعج بن عودة المختاري في مشاريعه، ولم يعترف بهذا الباي. قررت الإقضاء بهذا المثل القبائل الجنوبية، ولكن قبائل الحاييين والدوريين وكذا قبيلة حسن بن علي التي تنتمي إليها زوجة الشيخ محمد ارتأت إرسال نواب إلى الجزائر للتأكد من نوايا الفرنسيين أكثر منه للاعتراف بالباي الجديد، وهذا ما أثبتته الأحداث بعد ذلك.

هذه الخطوة البسيطة أثارت استياء معظم القبائل، فانتاب النواب الخوف من التعرض للاعتقال وسوء المعاملة، إذ لم يتجرؤوا على اتباع الطريق العادية، بل أتوا إلى الجزائر خلسة من طرق غير مباشرة.

تلقاهم المشير بامتياز، وجمعهم في قصره، أين أعلن رسميا محمد بن حسين بايا للتيطري وأخذ منه اليمين بالوفاء لفرنسا، وأعطاه سيفاً

(1) السيد كويش، عمدة الجزائر، عاد إلى فرنسا منذ عدة أشهر ولم يعوض بعد.

(2) هو نفسه الذي عين بايا للتيطري سنة 1830.

وعندئذ (1) كما قُدم لجميع الثواب برانس وهدايا أخرى اعتاد العرب التعامل بها.

ثلاثة أيام بعد الحفل، غادر اللواء رباتيل مخيم بوفاريك مع طابور من 2000 جندي لمراقبة حسين باي على طريق محافظته. وكان من المفترض أن يتم الترحيب به من قبل الكثير من الناس. ولكن عند الوصول إلى سفح الجبل، على أراضي قبيلة موزاية، أدرك العامة أن ذلك كان مجرد وهم، وأنه في الواقع لابد من القتال، إذا أرادوا التوغل في الجبال. كان رجال قبيلة موزاية مسلحين. دخلنا في مفاوضات معهم، ولكن دون جدوى. كان عدد جنود اللواء رباتيل قليلا جدا، وكذا المثوبة للتفكير في المرور بقوة.

من ناحية أخرى، المرور من جهة المدينة لن يكون مجديا، لأن إقليم التطيري لم يكن يساندنا. وكان رأي قادة القبائل العودة إلى بوفاريك. تبعاً لذلك، بعد أن خيم الطابور قرب مزرعة موزاية في 4 أكتوبر، تراجع في الخامس أكتوبر في الصباح. قبيلة موزاية، التي لم تطلق رصاصة واحدة أمس، شرعت في أعمال عنادية ضد مؤخرة الطابور. حدث اشتباك صغير حيث أصيب السيد برو بجروح بليغة، وهو ملازم أول في الفوج الأول من قناصي إفريقيا، وقُتل جواده. تخلت عنه الفرقة، فدافع عن نفسه ببسالة ضد ثلاثة أعداء، على الرغم من ضعفه، ولكنه كان قد مات عندما

التحق به الرائد لاموريسير والتقيان غران وبونوران.

ترك اللواء رباتيل في بوفاريك حسين بن محمد وعاد إلى الجزائر. بالقرب من المشير، الذي كان ينبغي أن يفهم من تلك اللحظة أنه لا يكفي اتخاذ قرارات رسمية لخلق مناصب البايات في إفريقيا. ترك أيضا السيد المقدم ماري في بوفاريك رقعة السياس والزواف (2). كانت مهمته خوض حملتين صغيرتين التي تدعوها العرب غارة، ونحن غالبا ما نستخدم أيضا هذا الأسلوب في أفريقيا كمواساة لنا بعد الفشل السياسي للحملات الكبرى. في ليلة 7 إلى 8 أكتوبر، غزا هذا الضابط السامي حوش بن برونح وحوش بن صالح في المرجية، حيث كانت تتجمع عدة عائلات من بني خليل، الموالون لقبيلة حجوط، وقمنا بنهب الماشية وسبي النساء والأطفال.

في ليلة 9 إلى 10، سار السيد مرعي، داتها مع الفرسان الجزائريين والزواف، على منزل مرابطين سيدي حبشي، على سفوح جبال الأطلس، على بعد فرسخين من بوفاريك. وأتهم سيدي يحيى، أحد المرابطين، بأن له علاقة مع الحاج الصغير (3)، الذي كان نسيبه، وأنه يستقبل الحجوطيين. فدمر منزله. أما إخوته فلاذوا بالهروب، لكن تم القبض عليه مع زوجته وتم تحويله إلى الجزائر. عند عودتهم من هذه الحملة، تعرض الزواف لنيران بعض القبائل، وقُتل لهم رجلان.

(1) جنود فرنسيون بلباس جزائري أو مغربي.

(2) الحاج محي الدين الصغير بن سيدي علي بن مبارك كان أبا تابع لنا تحت حكم اللواء برتران ودوق روفيفو، وكان في هذه الأونة باليا لمليانة مواليا لعبد القادر.

خسر مرابطي سيدي حبشي الكثير في هذه الحملة، والتي أثرت سلباً على عقول المواطنين. ثم تبادل النساء والأطفال الذين وقعوا في سبي يوم 7، بعد أيام قليلة، مقابل عائلة عربي موال لنا كان قد اختطفه الحجوطيون.

بقي محمد بن حسين بضعة أيام فقط في بوفاريك، بعد أن ملّ من الدور الغامض الذي أوكل له. فقرر إذن التنقل إلى محافظة التيطري مع بعض الفرسان الذين كانوا حولهم، بعدما لم يرغب الفرنسيون أن يرافقوه بأنفسهم. وأعرب عن أمله في إنشاء حركة شعبية لصالحه. فذهب إلى بوفاريك أثناء الليل، عبر الأطلس دون أن يلاحظه أحد ووصل عند حسن بن علي، حيث انضم إليه عدد قليل من الأصدقاء من عائلة زوجته. وبعد عدة زيارات فاشلة لإقناع القبائل الأخرى، تحلّ عنه حتى أتباعه الضعفاء. لجأ حينئذ عند نسيه، الذي اضطر في كثير من الأحيان لإخفائه في مطبوعة عن أعدائه الذين كانوا يبحثون عنه. عرف مشروع تعيين باي في شرشال نفس مصير تعيين باي التيطري، فقد سمح المشير لبن عمر بتجنيد بعض المتطوعين، ولكن هذا الأخير أن يجمع حوالي مئة متشرد، براتب فرنك في اليوم. كلف معاونوه، القائد درانسي، لتعيينه نيابة عنه، ولكن بن عمر كان يعرف جيداً أن شعب شرشال لن يرغب في استقبله، وكان يخشى خصوصاً بني مناصر.

لهذا السبب قاوم، وقد تم استخدام القوة لكي يركب في القارب، هو وأهله. كان خائفاً إلى حد أنه بكى كثيراً في شوارع الجزائر في طريقه إلى الميناء، وكان يصرخ بأنه قد أرسل إلى حتفه. وصل القارب البخاري الذي كان بقله، والذي وضع تحت تصرف السيد درانسي، إلى شرشال في ظروف مناخية سيئة للغاية. وجدنا صعوبات كبيرة في جمع بعض الناس للإتيان بهم إلى القارب والذين صرحوا أن مواطنيهم لا يكثرثون بين عمر، وإذا نزل من القارب سيذبح. بالتالي، أعاده السيد درانسي إلى الجزائر. كان بن عمر أوفر حظاً من الشيخ محمد، وتمتع بكل طمأنينة بين أفراد أسرته بمعاش 6000 فرنك الذي قدمت له الدولة.

نتائج العمليتين السياسيتين الأوليين للمشير كلوزل أثارت سخرية الجيش. الآراء الرسمية نصحت أن يكون أكثر تحفظاً في تقييمه لأفعال السلطة. لذلك قرر المشير أن يتخطى بدايته المؤسفة بالقيام بحملة كان يتوقع منها نتيجة أفضل. تمثل هذه الحملة في السير ضد الحاج الصغير، باي مليانة الحقيقي، الذي ظهر في السهل بقوات يقال أنها كبيرة. وقد حان الوقت أيضاً لتحقيق الوعد الذي قطعه فيما يخص قبيلة حجوط التي أصبحت تتجراً كل يوم أكثر فأكثر.

في 17 أكتوبر، ذهب المشير رفقة حوالي 5000 جندي إلى معسكر

بوفاريك الذي تعرض أمس ذلك اليوم لهجوم فاشل من قبل العرب. في يوم 18، غادر المشير المعسكر على رأس ثلاثة ألوية صغيرة بقيادة اللواء روبل والعقيد مارت وهكت. كان اللواء رباتل في الحملة التي ذهبت إلى أراضي حجوط. على مسافة قصيرة من المعسكر ظهر العدو، ولكن بأعداد قليلة، وما لبث أن تلاشى بعد إطلاق النار من طرف بعض المشاة والمدفعية ورجع إلى العفرون عند مدخل ممر ضيق حيث عسكر الحاج الصغير. استراح الفيلق قليلا عند الشفة ثم سار إلى معسكر العرب الذي كان يبعد بها يقرب من ثلاثة أميال.

عند اقتراب القوات الفرنسية، أرسل الحاج الصغير أمتعته في طريق مليانة وصفت المشاة على مرتفعات الضفة اليسرى لوادي بورومي الذي ينبع من ذلك المكان. اصطف مئات الفرسان على الجانب الأيمن لحجب التراجع، فهجم عليهم المشير كلوزل بكوكبتين من القناصين وفصيلة من فرسان الحرس الوطني المتمركز في الجزائر. لم تتوقع العرب هذه الصدمة وتراجعوا، لكن ظهور مسيل حال دون ملاحقتهم. على الضفة اليسرى، هاجمت الفرقة التي يقودها اللواء رباتل شخصيا قوات الحاج الصغير التي كانت في طريقها للتراجع إلى مليانة، لكنها واجهت مع ذلك الزواف من تلة إلى أخرى.

كبدناهم بعض الخسائر. في هذه المعركة، جاب اللواء رباتل خط

المواجهة من جهة إلى أخرى مع فرقة صغيرة من المقاتلين، فوجد خلف تلة عددا كبيرا من جنود العرب، فهاجمهم دون تردد رغم العدد القليل من جنوده، وقتل عدوا بيده، وهرب الآخرون. ولكن لما لم يكن في خطة المشير التوغل في الجبال، ترك الحاج الصغير يواصل طريقه إلى مليانة، وجمع قواته على الضفة اليمنى من النهر حيث عسكر. في اليوم التالي 19، دخل المشير إلى السهل. عندما بدأ المسيرة، أطلقت بضع طلقات نارية من بعيد على الطابور، لكنها كانت قليلة جدا ولا تكاد تذكر، حتى أن الزواف الذين شكلوا المؤخرة لم يهيموا بالرد. سار المشير عبر أراضي حجوط بأكملها، متوجها نحو بحيرة علولة، وحرق جميع المنازل في طريقه، وحتى كل أكوام التبن، الأمر الذي أدى في تلك الليلة واليوم التالي إلى فقدان علف الأحصنة. فضلا عن ذلك، لم نلتق أي كائن حي، باستثناء امرأة وطفل قبضنا عليهم. في المساء، خيمنا على ضفاف البحيرة حيث وجدنا بعض الحيوانات المهجورة. يوم 20، ذهب المشير لزيارة قبر الرومية، ثم قاد الطابور نحو حواف الشفة حيث أمضى الليل.

يوم 21، وصل إلى البليدة التي وفرت الحيز للقوات، واغتنم هذه الفرصة اللواء رباتل لزيارتها. بات في بوفاريك في تلك الليلة ثم عاد إلى الجزائر يوم 22.

لكن انتشرت الإشاعة، لا ندري كيف، في هذه المدينة، أنه قد تم قتل أو القبض على جميع المحاربين الحجوطيين، وهكذا وفي المشير بوعده، خرج جزء من السكان الأوروبيين للترحيب به، على رأسهم المجلس البلدي والوكيل المدني الذي ألقى خطابا لتمجيده. أضيئت المباني العامة ليلا بعد النصر العظيم. فرحة السكان كانت غامرة، لدرجة أن الذين شاركوا في الحملة حاولوا سرد الوقائع الحقيقية لجمع ذلك الغلو، إلا أن هذه المهمة قام بها الحجوطيون أنفسهم، لأنه في حين كان يُحْضَل بإبادتهم في الجزائر ناروا لإحراق أكواخهم واستولوا على قطعان حلفائنا.

في يوم 21، لما كان المشير في طريقه إلى بوفاريك، أغار الحجوطيون على مزرعة بابا علي ونهبوها، وهي لا تبعد سوى بميل واحد عن جسر واد الكرم، وهي أيضا ملك للسيد كلوزل نفسه. عندما عُرِفَت هذه الحقائق، فإن معظم الناس، وهم دائما على استعداد للذهاب من النقيض إلى آخر، أبوا إلا أن يعتبروا هذه الحملة كنزهة أثارت مشاعرهم. ومع ذلك، أجبرت هذه الحملة الحاج الصغير للذهاب إلى مليانة، وكان لهذا تخفيف طفيف للنتيجة المؤسفة لحملة التيطري وشرشال.

تلقى المشير كلوزل لدى عودته إلى الجزائر، بعد مسيرته إلى حجوط،

خبرا بأن ترددات الوزارة في بعث التعزيزات فيها يخص حملة معسكر قد توقفت، ويجري توجيه التعزيزات اللازمة لإفريقيا. استعد بالتالي للذهاب إلى وهران، ولكن قبل أن تتبعه، يجب تعريف القارئ بالأحداث التي حدثت في عنابة وبجاية في الأشهر الأخيرة من 1835.

في عنابة، نُظِمَت حملة صغيرة في أكتوبر ضد بنو صالح. السبب: سطا بنو صالح على عرب قبيلة عيشاوة ورفضوا إرجاع ما نهبوا. اشتكى العيشاوة للشيوخ الذين أجابوا أن سلطتهم لم تُعَد معترفا بها، وبالتالي لن يتمكنوا من منع الفوضى. من أجل وضع حد لهذه الفوضى، سار اللواء أوزر نحو بني صالح. لم يشارك إلا جزء من القبيلة في التمرد، والكثير منهم قرع عند قدوم اللواء، بينما كان الجزء الآخر غائبا، لأنه قام بعمليات سطو أخرى على قبيلة العيشاوة. استولى اللواء على قطعانهم ودخل إلى عنابة. في اليوم التالي، أتاها المتمردون أنفسهم لطلب العفو. بذلك رُدَّت لهم ماشيتهم، إلا ما خصص لتعويض العيشاوة وما اختلسه الفرسان الجزائريون المساعدون.

لم يحدث أي شيء غير عاد في عنابة منذ هذه الحملة حتى ذهب اللواء أوزر في شهر مارس التالي، كما سنروي لاحقا. لم تقم القبائل بأي عمل عدائي، لا بينهم ولا ضدنا.

إلا أن لصا يدعى العربي ارتكب بعض الجرائم قرب عنابة، ولكن لم يُقبض عليه.

وصل المشير كلوزل إلى الجزائر مع نية إخلاء بجاية، أين كان يرتني تعيين حكومة محلية خاضعة للجزائر. كان في معتقده أنه يمكن التخلي، دون عائق أخلاقي، عن هذا المكان الذي كان يخرجنا، في الوقت الذي كانت الحكومة على استعداد لنشر قوات على نقاط أخرى. ونتيجة لذلك، أعلن الإخلاء وأعطى أوامر للاستعداد لذلك. حماية بجاية جندت بين 3000 إلى 4000 جندي، الشيء الذي أثر بقوة على العقلية العسكرية للمشير. لكن شرع السيد عقيد الهندسة لומר بإضعاف وتدمير هذا التفكير ونجح في ذلك، حيث أقنع المشير أنه يمكن الدفاع عن بجاية بسهولة من قبل حامية من 1000 رجل، شريطة الشروع في بناء منشآت دفاعية جديدة. عندئذ أقصيت كل عوائق الاحتلال، ولم تعد قضية التخلي مطروحة.

وكان هذا التغيير مفاجئا حتى أن السيد العميد جيرو، الذي كان يحكم بجاية، وصلته في نفس الوقت أوامر بالإخلاء وتعليمات من كبير المهندسين تلغيها. لكن لم يكن واثقا من الدفاع عن بجاية بألف رجل فقط، لذلك رفض إجراء يستهجنه، وبالتالي طلب استدعاءه. وقد حل محله السيد ديلاروشيت، عميد من خط 63، تولى هذا

القائد مهامه في لحظة سيئة. أصبح الحرمان والعزلة مؤلمين، وخاصة منذ الإعلان عن الإجماع الذي أعطى الأمل لتحسن الأوضاع قريبا. واستولى الملل والإحباط والاشمئزاز على هذه الحامية الشجاعة. لذا بذل السيد ديلاروشيت كل جهده لمعالجة هذا الوضع. شرع إذن في إنشاء غرفة للقراءة للضباط، وكذا مسرحا اجتماعيا للجنود. ثم أمر بزرع الحدائق. باستخدامه الذكي لهذه الطرق الصغيرة، رفع معنويات جنوده. من جهة أخرى، لم يخفض عدد الباقين في الحامية إلى 1000 رجل، بل شعرنا باستحالة ذلك. رغم ذلك، اقتصرنا على كتيبة إفريقية 2 وقليل من المدفعية وسرية مهندسين، فقد كانت هذه الحامية دائما مكونة من أكثر من 2000 رجل في عام 1836. ولم تتغير إلا قليلا منذ ذلك الوقت.

تحت قيادة السيد ديلاروشيت، احتلنا نهائيا موقع دموس الذي كان، بطريقة أو بأخرى، المقر الرئيسي للقبائل في هجماتهم ضد بجاية، والذي كان يشكل نافذة لهم على المدينة، من مسافة صغيرة. من هناك، كانوا يرون كل شيء في الموقع المركزي وفي المعسكرين المتحصنين. كان بإمكانهم الوصول إلى دموس من السهل أو من الجبل، وكانوا يسيطرون على تراجعهم، لأنه لم يكن في إمكاننا أن نتخذ أي إجراء للالتفاف حولهم من دون أن يلاحظوا ذلك. تقرر الاستيلاء على هذه النقطة في الزيارة

التي قام بها المشير إلى بجاية يوم 28 أكتوبر أثناء هجوم للقبائل. أزالنا هذا الاستيلاء إمكانية نظر العدو إلى الموقع المركزي، وفي الوقت نفسه أعطانا نظرة إلى المرعى، مما جعل رعي ماشيتنا أكثر أمنا.

يوم 7 نوفمبر، قبل طلوع الشمس، استقرت قواتنا على السنار الذي تشكل فيه ديموس النقطة الرئيسية. كان هناك برج قديم، كنا نعتقد أنه مطحنة قديمة. تم سد الثغور في هذا البرج، ثم وضعنا تحصينا في الطابق العلوي. بعد ذلك بنينا على أنقاض المنازل القديمة صورا محصنا موصولا بالبرج، وأطلقنا على هذه المنشأة اسم حصن كلوزل. سعى القبائل بهجماتهم لإيقاف الأعمال. يوم 7، قضينا اليوم كله في تبادل إطلاق النار على التلال.

تتكون حامية بجاية من كتية إفريقية الثانية، كتية من الخط 13، فصيلة الرواف ومقرزة من الفوج الثالث لسلاح فرسان إفريقية. لقد أدت كل هذه القوات واجبه، المشاة في الجبال، وسلاح الفرسان في السهول.

يوم 8 نوفمبر، هجر القبائل قرى دار النصر، زيتون وطارمينا. استقرت مراكزنا المتقدمة في القرية الأولى، وأصبح بذلك عمال برج كلوزل في مأمن. في السهل، هجم فرساننا على فرسان الشيخ أمزيان الذين تم تفريقهم. أرسلت عليه قلعية ليامون، المتمركزة في بجاية، ضربات مدفعية متواترة. أصيب أمزيان في العملية. حل هذا الشيخ مؤخرًا محل شقيقه سعيد وليد أورباح، الذي توفي من جراء المرض. يوم 9 كان هادنا

جدا، أصيب دلاروشيت بجروح طفيفة أثناء حملته الاستطلاعية على الصومام.

في صباح يوم 10، احتل مرة أخرى القبائل قرية دار النصر⁽¹⁾. ولكن استرجعها منهم جنود كتية إفريقية الثانية وفصيلة الرواف. كان كل شيء يسير على ما يرام حتى الآن، ولكن السيد دلاروشيت لم يكف بالبطء على المرتفعات، وأراد أن يتمكن أيضا من السهول. من أجل ذلك، أنزل الكتية 13 وفصيلة الرواف، وشكل طابورا بدون اتصال بينها. اغتم العدو هذا الخطأ وهب على الرواف الذين كانوا بعيدين جدا عن الكتية 13 لكي تنقذهم، فأجبروا على التراجع بعد أن خسروا عشرة رجال. أصيب القائد دافبي الذي كان يقودهم بجروح بليغة. وفي اليوم التالي، يوم 11، خرج القائد العام مع كتية إفريقية الثانية إلى ساحة المعركة لدفن الموتى.

لدى عودته هاجمه القبائل، لكنه صددهم وكبدهم خسائر كبيرة. في الأيام التالية، لم يظهر القبائل إلا بأعداد صغيرة، حتى يوم 19 عندما توقفوا تماما عن الظهور. بما أن أشغال حصن كلوزل انتهت، عززت هذه المنشأة من اليمين واليسار بتحصينين جديدين، بُعِث استكمال المنظومة الدفاعية الجديدة. أطلق اسم دورياك⁽²⁾ على تحصين الجهة اليمنى، واسم رباتل على تحصين الجهة اليسرى. أحل المعسكر الحصن، لأن الوضع فيه كانت غير صحية للغاية. ثم عادت الكتية 13 وفصيلة الرواف إلى الجزائر. تم إرسال

(1) سميت دار النصر، لأنها كانت مقر القائد العام لقوات الموحدين الذي انزعج بجاية من روحه الإستراتيجية المبنية على ملاحظة من القائد
(2) اسم ضابط قتل عند الاستيلاء على بجاية.

الكوكبة الثالثة لمقاتلي إفرنجيا إلى عنابة، ما عدا مفرزة صغيرة.

لقد تطرقنا في الكتاب السادس عشر لأحداث محافظة وهران، حتى إخلاء مسرغين من طرف القايد إبراهيم الذي تراجع مع الدواير والزماله حتى خطوط تحصيناتها، خوفا من بني عامر. حدث هذا التراجع يوم 27 أوت، تحت تغطية اللواء دارلانج. يوم 29، ظهرت فرقة كبيرة من العرب أمام مراكزنا المتقدمة وهاجموا الدواير والزماله الذين لاذوا بالفرار، ولكن سرعان ما تمت ملاحقتهم من طرف القوات الفرنسية.

في ليلة 31 أوت، قام قايد الدواير، عده بن عثمان، بهجوم على مسرغين مع 50 فارسا و 59 من المشاة، وفاجأ بني عامر، وقتل لهم عدة رجال وسلبهم بعض الخيول. لحسن الحظ، عاد إلى وهران بعد هذا الهجوم المخاطف والجريء. بعد أيام قليلة، شن القايد إبراهيم من جهته هجوما سريعا على الغرابة، ونجح هو أيضا في محاولته.

لم يكن اللواء دارلانج قادرا على التحرك نظرا للضعف الشديد لحامية وهران، ولم يكن يستطيع سوى تأمين حلفاءنا داخل الخطوط بعد هجماتهم. في 2 أيلول، تغيرت الأمور بوصول كتية الخط 47. وهكذا، يوم 14 من الشهر نفسه، ذهب السيد دارلانج إلى موقع فيغي، على بعد ثلاثة أميال من الموقع المركزي، وبني معسكرا محصنا. هذه العملية كانت جد مفيدة للدواير والزماله، لأنها فتحت مراعي جديدة وخصبة لمواشيهم، التي لم تكن تجد سوى القليل من العشب داخل خطوطنا. في 6 أكتوبر، قام اللواء باستطلاع عميق إلى طليلات، حيث وجد الهياكل التي بناها اللواء تريزل في جوان السابق سليمة. في طريق عودته،

وقع تبادل لإطلاق النار بين مؤخرة جيشه وبين مائتين إلى ثلاثمائة من العرب. في اليوم نفسه، قام قائد الكتية فريول، من كتية الخط 66، والذي كان يحكم في مستغانم، بغارة وسلب العرب الكثير من الماشية، كانت حاميتها بأشد الحاجة إليها. يوم 31، قتل العرب أحد أتراك مستغانم بالقرب من الموقع المركزي، ثم قر اللقطة إلى مازغران، فقام القائد فريول بغارة ثانية قُتل بعض العرب أثناءها. يوم 25، هاجم العرب مستغانم، إن كان ممكنا وصف نيران البنادق الموجهة ضد مواقع محصنة هجوما. بعض طلقات المدفعية كانت كافية لإنهاء هذه المعركة النافهة.

منذ بعض الوقت، سُرق حظيرة الثيران للحامية الصغيرة في أريزو من طرف بعض الغرابة الذين قتلوا لنا بعض الرجال، ولكنه لا جدوى من الخوض أكثر في تفاصيل قليلة الأهمية بالنسبة للقارئ.

لم يظهر عبد القادر طوال هذه الحرب الصغيرة التي أوكلها لحامية القبائل، للاحتفاظ بحق الشجب. سلوكه الخلد والمتحجب، إضافة إلى الرسائل العديدة التي كتبها إلى الكونت درلون، بعد معركة المقطع، تثبت أنه كان لديه إحساس بالعاصفة التي كانت على وشك أن تهب عليه، وبالتالي كان يريد أن يُنسي فوزه هذا أكثر مما كان يريد أن يفخز به. ومع ذلك، كان يستعد بقصاري جهده للقتال رغم أنه كان يريد اجتنابه.

حالما تقرر القيام بحملة ضد معسكره، أمر المشير باحتلال الجزيرة الصغيرة، أو بالأحرى صخرة حار شغون، التي تقابل مصب العاطفا. يوم 30 أكتوبر، استقر هناك رئيس الكوكبة صول مع 150 رجلا. كان هذا الاحتلال تديبرا

محتلًا، لأنه ألقى الخشية في قبائل المنطقة الغربية الذين كانوا ينتظرون من لحظة لأخرى اجتياح الفرنسيين لأراضيهم، الأمر الذي أقعد في منازلهم المحاربين الذين، ثولا ذلك، معززوا قوات عبد القادر. كان لها أيضا تأثير على موقف كولونيل المشوار في تلمسان. كانوا مراقبين من قريب لبعض الوقت من قبل بن تونة وضافت عليهم الأحوال. ولكن ذلك القاييد توجه نحو الساحل للدراسة التحركات الفرنسية، فأصبح حصار المشوار أقل صرامة. هكذا تمكن الحصن من الحصول على الغذاء، ثم نظم غارة نجح فيها.

في النصف الأول من شهر نوفمبر، وصل إلى وهران الفوج 11 لمشاة الخط، وأفواج 2 و 17 من المشاة الخفيفة، وكذلك حراس الميدان أودينو وبيريغو⁽¹⁾. تم إرسال السيد دغيروي، نائب التموين، إلى الجزائر لقيادة العمليات الإدارية. نظم للمرة الأولى في أفريقيا، في هذه المناسبة، النقل الإضافي بمساعدة موارد الجماعات المحلية. تم استئجار أكثر من ستمائة من الإبل لهذا الغرض من عند الزمالة، خصصوا لنقل المواد الغذائية.

يوم 21 نوفمبر، وصل إلى وهران المشير كلوزل، الذي كان يقود حملة معسكر شخصيا، يرافقه دوق أورليان، الأمير الشاب الذي أراد أن يشارك في الحملة. وقد اصطحب المشير معه كتيبة الزواف المتمركزة في الجزائر وفصيلة النخبة من كل فوج كان هناك، وهم الفوج 10 الخفيف وأفواج الخط 13 و 63. كان جيش الحملة العسكرية يضم حوالي 11000 رجل، ومتكونا من أربعة ألوية واحتياط، متشكلة ومسيّرة على النحو التالي:

(1) قد أرسل أيضا السيد اللواء ديميشل إلى أفريقيا لعملة معسكر. ولكن المشير أبقاه في الجزائر.

اللواء الأول - اللواء أودينو.

الدواير والزمالة وأترك إبراهيم.

الفوج الثاني من قناصي أفريقيا.

الزواف.

الفوج الثاني الخفيف.

سرية متخصصي المناجم.

سرية النقاين.

2 قذافو الجبال.

اللواء الثاني - اللواء بيريغو.

ثلاث سرايات النخبة من الجزائر.

الفوج 17 الخفيف.

2 قذافو الجبال.

اللواء الثالث - اللواء دارلانج.

الكتيبة الأولى لمشاة إفريقيا الخفيفة.

فوج الخط الحادي عشر.

2 قذافو الجبال.

اللواء الرابع - العقيد كومب.

فوج الخط 47.

2 قذافو الجبال.

الاحتياطي - المقدم بوفور، من فوج الخط 47

كتيبة من فوج الخط 66.

سرية متخصصة المناجم.

4 قذائف الجبال.

سرية مدفعية ميدان.

كان الموسم متقدما قليلا لخوض رحلة استكشافية في بلد بعيد، خالي من الطرق والجسور، وكنا خائفين من الأمطار في أفريقيا التي تكون غالبا قوية في فصل الشتاء وذات استمرارية مخيفة، ولكن قرر المشير أن يتكل على حظه. مكث خمسة أيام في وهران، من يوم 21 حتى يوم 25. يوم 23، تم الإعلان عن إبراهيم بايا لمعسكر. كان الطقس رديئا جدا منذ وصول المشير، لكنه تحسن يوم 25. في يوم 26، تم وضع المقر الرئيسي في معسكر لفيغيي. كان لدينا بعض المشاكل في آخر لحظة لجمع الإبل التي كان من المقرر أن تأتي بها الزمالة والدواير. هؤلاء العرب أبعدها بعدما اتناهم الشك في شيء ما، واضطرونا لإخراج بعض الجنود لاستعادتها.

يوم 27، خرج اللواء أودينو بلو، الرابع، إلى طليلات، وكتيبة إفريقيا اللواء الرابع. في يوم 28، وضع المقر العام في نفس المكان، أين اجتمع كل الجيش الذي غادره يوم 29، متجها إلى سيغ، مع اللواء الأول في المقدمة، تتبعه مدفعية الاحتياط، الأمتعة، القافلة، الإبل والسيارات. كان يحميها عن اليمين اللواء الثاني، وعن اليسار اللواء الثالث. أما اللواء الرابع، فكان

في المؤخرة. كان الجيش، بهذه الطريقة، يشكل مربعا كبيرا، يضم في وسطه الإبل، السيارات والأمتعة. كان الاحتياط يسير أيضا في وسط هذا المربع رفقة القافلة.

اجتاز الجيش غابة مولاي اسماعيل دون أن يلتقي بالعدو. عند الخروج من الغابة، قام بعض الفرسان العرب، لوقت قصير، بتبادل إطلاق النار مع المؤخرة، وقبضوا على متقاعص واحد. وصل الجنود في المساء إلى ضفاف واد السيغ، إلى مكان يدعى مرابط سيدي عبد القادر متاع الأربعاء، حوالي ميل من مكان تقاطع طريق معسكر مع الواد. عسكر الجنود في شكل مربع على الضفة اليسرى، بينما أقامت كتيبة ورجال إبراهيم وحدهم على الضفة اليمنى. في الليل، الأنوار الكثيرة المشتعلة كانت توحى بتواجد العدو في الجبال.

توجد ثلاث طرق مستعملة تربط بين سهل صراط وسيغ وبين معسكر، تعبر الجبال الفاصلة بين هذا السهل وسهل غريس. الطريق الأول، عند المجيء من وهران، وهو طريق مباشر، يمر عبر خانق كروف وواد همان. هو طريق صعب للسيارات، وتمر على الجبال لمسافة ثمانية أميال تقريبا. الطريق الثاني، لا يصلح في أغلبية للسيارات، ويمر عبر المخنق الذي ينبع منه واد الهبرة. تبعد معسكر بخمسة أميال من هذه النقطة التي تتواجد على بعد خمسة أميال شرق كروف. الطريق الثالث،

على بعد ثلاثة أميال شرق الثاني، يمر بالمرايطين سيدي إبراهيم وسيدي
جرارة والعين الكبيرة، طوله من ستة إلى سبعة أميال، يمر على الجبال،
ولكنه صالح للسيارات.

قرر المشير اتباع الطريق الأول، غير أنه لم يخف انزعاجه من عدم
تكن السيارات والعربات من المرور. لذلك ارتأى أن يترك السيارات
والمدفعية في سبغ تحت حماية ألف جندي اختارهم من الفرق المختلفة
التي تشكل الجيش. لهذا الغرض، أمر بتشييد موقع محصن، وشرع
الجنود في ذلك يوم 10. أثناء ذلك، أقام عبد القادر على بعد ميل ونصف
فرق موقعنا، في سفح الجبل، عند مرايطين سيدي عامر المايجي. بعث من
هناك بن العزيز، أحد قادته، إلى محيم إبراهيم برسالة سلام. تمثل المهمة
الصعبة للغاية لهذا الضابط في إقناعنا أن الأمير يريد السلام، لكن يجب
تقديم الطلب بذلك له. لما كان من المستحيل التفاوض في هذا الشأن،
رجع الراسل بعدما عرضنا عليه بكل وضوح وجهة نظرنا.

كان الطقس رافداً، وكان الجيش لا يطلب سوى القتال، بما أنه كان
مزوداً بالثورة والدخيرة. مسلات الشعير الكثيرة وكومات العلف
المعددة التي وجدناها غير بعيد من المخيم سمحت لنا بتعليق الحيل،
بما يعني أن كل شيء كان على ما يرام.

يوم أول ديسمبر، أراد المشير أن يتعرف عن قرب على القوة الحقيقية

للعدو، الذي سكن في الجبل، فسار نحوه بالفرسان والزواف وكل فرق
التخبة. عندما اقتربنا، نرى العرب عيامهم والتحقوا بسفوح الجبال تحت
ضربات مدفعيتنا. لاحظنا عندئذ أن قواتهم لا تتجاوز 4000 رجل،
تراجعهم المتسرع أوحى لنا بأنهم أصيبوا بالإحباط لكن تبين لنا في ما
بعد أن تسرعهم كان سببه المفاجأة عندما رأونا قادمين، ثم ما لبثوا أن
استعادوا الثقة في أنفسهم وجاءوا يهاجمونا بدورهم. سرعاناً للقناصين،
اللتان غامرنا كثيراً نحو اليمين، سقطنا في مأزق⁽¹⁾. اضطررنا أن نرسل
لهم المشاة لحماية دخولهم في الطابور، الذي عاد إلى المعسكر، بعدما أدى
مهمته الاستطلاعية. لاحق العرب بكل ضراوة الطابور، مشكلين نصف
دائرة خلفه، ولم تتمكن لا مدفعيتنا ولا قناصلنا من تأخيرهم إلا قليلاً. من
جهتهم، تاور جنودنا بكل رزانة ودقة. مع ذلك، استدعى المشير ثلاثة
كتائب من المعسكر لتغطية التراجع، الذي تم بنظام دقيق.

هذه المعركة، التي لا نستطيع أن نقول أننا فزنا فيها، غيرت أفكار
المشير، الذي لم يخل من طريق الكرووف وعن فكرة ترك جنود في معسكر
سبغ، الذي تم بناؤه في مساء 2 ديسمبر. في صباح يوم 3، عبر الجيش
واد سبغ على جسر من حوامل، وضعتها مصلحة الهندسة، بالرغم
أن الواد لم يكن عميقاً إلا بقدر بعض أصابع. اتجه نحو الهبرة في نفس
التريب الذي كان عليه يوم 29.

(1) قل في هذه القضية السيد نارتو، ملازم أول مساعد للمشير للوزل، وقد تصرف
بشجاعة.

تأخرت مؤخرة الجيش عند عبور الواد، لضرورة طي الجسرين، إلا أنها نكلت من طرف حوالي ألف من العرب طوال النهار بطلاقات نارية، كانت أكثر إزعاجاً منه خطورة. للحظة، افترقت المؤخرة عن بقية الجيش الذي كان يسير بسرعة. كان الأمير يتبع طريقاً موازياً لطريق الجيش الفرنسي ويسير بمحاذاة الجبال، مترقباً لتحركاتنا. تفطن لانحلال الطابور الفرنسي، وقام بتحريك جانبي لاستغلال الوضع. لكن مع ظنه أن مدفعيتنا، التي تتكون من أربعة مدافع رديئة، أقوى من مدفعيته، باعد أقصى ما يمكن بين طريقه وطريق جيشنا، مما سمح للمؤخرة بالالتحاق بباقي الجيش قبل أن يتوغل بينهما. حدث التواصل بعد اجتياز غابة، بعد عبور السبخ.

لما ضم المشير كل ألويته، أجرى تغييراً في الاتجاه نحو اليمين لكل لواء، ماعدا اللواء الرابع الذي بقي مع القافلة والاحتياط على الطريق القديم. بهذا التحرك المنفذ بنظام والمصمم بإحكام، أصبحت الألوية الثلاثة الأولى متدرجة في رمشة عين، من اليسار ويترتيب معاكس، وسارت في هذا النظام نحو الجبل أين أبعدت العدو. بعد ذلك، أجرى المشير تحركاً مماثلاً من اليسار، فسارت من جديد نفس الألوية المتدرجة من اليمين وفي الترتيب العادي في الاتجاه الأصلي. حدث كل هذا في نظام هائل، الذي كان يوحي ببراعة الجنرال والتدريب الجيد للجيش. كان من المستحيل تطبيق المبادئ التكتيكية بقطنة أكبر على المقتضيات الإستراتيجية لتلك اللحظة. من جهته،

ناور عبد القادر في ذلك اليوم بأفضل ما كانت تسمح له العناصر الرديئة التي كانت معه. لما اضطر أن يتخلل عن هجمته عن الجانب، سبقنا عبر الجبال على طريقنا، وأقام في موقع هائل يقطع فيه عمودياً اتجاهنا، مستنداً يميناً إلى الغابة ويساراً إلى الجبال. اتخذت مدفعيته موقعاً يساراً على تلة قريبة من الجبال، أين كان يستطيع التراجع في حالة الهزيمة. انتظرنا بهذه الطريقة في هذا المكان الضيق أين كان يسيطر على تراجعهم. اختيار هذا الموقع والتدابير التي اتخذها للدفاع عنه تعتبر من الأعمال التي تشرف بها الألوية الأوروبية، لكنه نسي أنه كان لديه جنود عرب. تجاهل العلاقة الوطيدة الموجودة بين طريقة استعمال شعب للحرب وبين عاداته وتقاليده وتنظيمه الاجتماعي أمر خطير.

أربعة مرابطين من سيدي مبارك كانوا يتواجدون في مقدمة وضعية الأمير. عند الوصول إلى مستواهم، أصيبت قواتنا بوابل من الرصاص من مشاة العدو الذين توقعوا خلف المرابطين. رفض جنود إبراهيم الدين كانوا يسرون في المقدمة الهجوم عليهم، ولكن اللوائين 2 و 3، الذين كانوا وراءهم، واصلوا مسيرتهم كما لو أنه شيئاً لم يكن وفرقوا بقوة اختراقهم وحدهم عدواً غير معتاد أن يحارب في صف. في الوقت نفسه، أمطرت مدفعية عبد القادر، التي كانت مزودة كما ينبغي، اللواء الأول. قواتنا التي لم تتعود على القذائف كالعرب، الذين يثلقون في استطلاع بسيط ما تلقته قواتنا

في كل الحروب معهم، فوجئت للحظة، لكن هذه اللحظة كانت قصيرة.
طلب اللواء لودويغ الإذن من المشير للمناورة بقية الاستيلاء على مدفعية
الأسير، ولكن كان ينبغي تنعيم في الجبال وكان الوقت متأخراً، فرد على
المشير أن يتركهم عن يمينه ومواصلة السير. أصيب هذا اللواء بجرح في
الخط بعد إطلاق النار، فعلقه العقيد مان من الفوج الثاني في قيادة اللواء.
ترجع العدو، الذي ظهر في كل مكان، إلى الجبال، وحتى بعض الفرسان
الذين ظهروا على الجانب الأسير وكفأ الذين تبادلوا إطلاق النار مع المؤخرة
ترجعوا وتكن مكتوا في السهل. واصل الجيش مسيرته، ووصل جند
متأخر إلى الجبل إلى المكان الذي تتبع منه هذا اللواء من الجبال، والذي يبدأ
من الطريق الثاني الذي تكلمنا عنه أعلاه.

هذا اليوم باستثناء الخطأ الطفيف في الصباح، عندما انفصلت المؤخرة
عن بقية الجيش، كانت درسا عظيماً في الحرب لحباطنا الشباب. درس دوق
أورليان بالتفصيل ما حدث، وذهب إلى كل مكان يسمح له أن يرى جيداً ما
يجري، ولم يحب الخطر، أو دون الظاهر بالبحث عنه. أصابته كدمة طفيفة
في الفخذ.

في الليل، كتل العدو بأصوات القلابة مرتفعت خلف الجبل، وذهب المشير
بنفسه إلى مسيرة الإسعاف لطقس الجرحى، لمعرفة ما إذا كان يتخرج منهم في

مسيرته. كان عددهم قليلاً، ومع ذلك كان يشاع أنه سيركهم في مستعالم
قبل أن يسير نحو معسكر.

في صباح يوم 4، غادر الجيش الجبل على جسر الرصاص الذي القته مصالحة
المتقدمة دون الحاجة كما حصل في سبع. هوجت المؤخرة، تماماً كالسبب ذلك
اليوم، ولكن العدو كان أقل بكثير. أخذ المشير أولاً اتجاه مستعالم، الشيء
الذي أكد إشاعات الليلة التي مضت. ولكن بعد فترة راحة طويلة نسبياً
وبعض التردد الفعلي أو الظاهري، غير الاتجاه وسار شرقاً لاحت العرب
الذين كان عددهم 2000 على الأكثر، المؤخرة وساروا على الجانب الأيمن.
بيننا وبين الجبال. كانت المدفعية الخلية ترسل عليهم من وقت لآخر قذائف
وصواريخ كنغرف.

بعد المشي بعض الوقت إلى الشرق، وصل المشير إلى بداية الطريق الثالث.
عندئذ تحول فجأة إلى اليمين، وتوجه إلى الجبال. احتل اللواء الأول، الذي
تولى قيادته اللواء ماريو، واللواء الثاني التلال الأولى عن يمين وسار
الطريق. أما الدافلة واللواءين الآخرين فتوقفوا في السهل. تم طرد بضع
مئات من العرب بسهولة من الجبال، وأولف آخر اللوائين أولئك الذين
كانوا في السهل وبأكبر عدد. لما انتهت مهمة الاستطلاع، استأنفت الدافلة
وهذه الألوية طريقها ودخلت الجبال. ولما رأينا العرب نهائياً على طريق

الجزء الأول

معسكر، انصرف بعضهم إلى قبائلهم، والبعض الآخر التحق بعيد القوم في الهبرة، من أين انطلقوا إلى معسكر في نفس اليوم.

رأينا بعد ساعات قليلة طابورهم على اليمين، كان يسير في الطريق الثاني وخيم الجيش، يوم 4، على شكل مربع غير منتظم، قرب مرابطين سبي إبراهيم، في الجبال. وفي يوم 5، عند الفجر، تحرك الجيش من جديد. السير في هذا الاتجاه يتبع بشكل عام الوديان، وأقحم فيه المشير القافلة والاحتياط. اتبع اللواء الثاني تلال اليسار، بينما اتبعت الألوية الثلاثة الأخرى تلال اليمين رفقة المشير. كنا نتوقع لقاء العدو في ذلك اليوم، ولهذا كان من واجبا الحذر، وبالتالي السيطرة على المرتفعات. لم ير اللواء الثاني إلا بعض العرب، على الجانب الأيسر، وظن للمحظة أن عبد القادر كان متواجدا عند مرابطين في سيد جرارة، ولكن لم يكن كذلك. أما الطابور الأيمن فقد التقى بعض العرب من قبيلة بني شغران، الذين كانوا متشرين على تلة لتغطية تراجع أسرهم وقطعانهم، إلا أنهم لاذوا بالفرار عند طلقات النار الأولى للزواف والكتيبة الخفيفة الثانية.

واجهت القافلة ثلاث مسايل لم تعبرها حتى تدخل جنود الهندسة لجعلها سالكة، مما أدى إلى إعطاء تقدمها بشكل ملحوظ، وقد فاتها الطابوران وانكشفت. واقترب منها العرب، الذين شاهدتهم اللواء الثاني على اليسار، وبلغ الرصاص حتى سيارة الإسعاف. حيثئذ، أخذ أحد ضباط الأركان على

عائقه أن يطلب كتيبة من اللواء الثالث، قادها ومنع العدو من الاقتراب.
ابتعد الطابور الأيمن عن الطريق لما اتبع اتجاه التلال. وسرعان ما
اضطر للهبوط، عابرا وادي عميق، وصعد إلى تلال أقرب للطريق. بعد
فترة وجيزة، واجهت القافلة طلعة حادة، وصرح جنود الهندسة أنهم لن
يتمكنوا من جعلها سالكة قبل حلول الظلام. عندئذ أمر المشير بوقف جميع
الألوية حيثما كانوا : اللواء الثاني في عين كبيرة، الأول إلى الراء قليلا،
الثالث عند المرباط سيدي محمد، والرابع مع القافلة. هذه الأخيرة، بفضل
النشاط الهائل لقوات الهندسة والسيد لموسي عقيدهم، تمكنت من عبور
الحائق في الليل. في نفس الليلة، تلقى المشير أخبارا متناقضة عن عبد
القادر، لهذا السبب قرر تعجيل مسيرته على معسكر. يوم 6 في الصباح،
ذهب مع اللواءين الأولين والإبل ويضع قطع المدفعية الجبلية للوصول
بسرعة إلى هذه المدينة. غادر بقية الجيش والسيارات تحت قيادة اللواء
فارلانج، مع الأمر بمتابعة نفس الاتجاه إذا سمحت صعوبات الطريق
بذلك. تم التخمين أن يصل هذا اللواء إلى معسكر بعد يومين من وصول
اللواءين الأولين.

وفي أعالي عين كبيرة، من الشرق إلى الغرب، توجد هضبة واسعة عند
حس معسكر، تشغلها أخاديد غير عميقة. نصب في سهل غريس. توجد
لها بدايتها قرية كبيرة، أو بالأحرى بلدة صغيرة، تدعى البرج. فتقدم شيخ

هذه البلدة بنفسه إلى المشير ليعلن أن سكانها لن يعملوا السلاح فمتى إذا سلمت بلدتهم من أيدينا فأعطوا وعدا بذلك. أعلن المشير للشعب وللغرب الذين رافقوه أنه سيعطي 30000 فرنك لأولئك الذين يسلمون عبد القادر، لكن ذلك لم يؤثر عليهم. وفي ذلك الحين، ترددت شائعات أن الأمير كان يتظرنا في عين الفرس، على طريق معسكره، على بعد ميلين من البرج، ولكن عند الوصول إلى ذلك المكان، لم نجد سوى يهوديا من معسكر فقط، الذي قال أن عبد القادر قد غادر المدينة مع السكان المسلمين بأكملهم، وما بقي فيها سوى اليهود الذين ثبت أملاكهم وتكلم بهم من قبل العرب في أثناء فوضى الإخلاء. عندما تلقى هذا الخبر، عجل المشير بقوات إبراهيم إلى الأمام، ثم تبعهم بنفسه على مسافة قصيرة مع عدد قليل من الجنود، وترك وراءه الألوية التي لم يكن في استطاعتها السير بسرعة. أصبح الطقس رديئا، والسير تحت المطر كان صعبا للغاية. وصلت القيادة العامة، وحدها تقرينا، في بداية الليل إلى معسكر، وكانت تستطيع مجموعة من 300 فارس اختطافهم وتسليم كل من قائد الجيش الفرنسي وولي العهد المفترض لعبد القادر. لم تصل الألوية إلا بعد ساعتين.

استقرت قيادة أركان الجيش والزواف والمدفعية وبعض الفصائل في المدينة، واحتلت بقية الجيش الضواحي، بينما أقام ولي العهد والمشير معا في بيت عبد القادر. تم العثور في المنازل كلها تقرينا على كميات من الحبوب

والأمتعة، وحتى بعض المؤن الأخرى، وكانت العديد من الخدائق المحيطة بمعسكر تزخر بالخضر. وبعد يوم من وصولنا، جلب الفلاحون العرب الثيران، بأعداد صغيرة. هذا صحيح، ولكن ذلك كان بداية التسوق. كان يمكننا أن نبقى شهرا في معسكر دون استفاد مواردها. وكان عبد القادر قد رحل إلى كاشيرو، على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب، مع السكان الهاربين. وفي يوم 7، كان الجيش يعتقد أنه أتى إلى معسكر ليضع سلطة جديدة محل سلطة عبد القادر، ولكن فوجئ عندما علم أنه سيغادر في اليوم التالي. فمن الصعب أن نقول ماذا حل المشير على استعجال التراجع، دون أن يحاول جمع الناس حول الباي الذي عتبه. كنا نعرف أن قبائل الشلف وفليشة والبعض الآخر لا تؤيد الأمير. ولو بقينا بعض الوقت في معسكر، كان يمكننا أن نقدم لهم الخيار في أن يقرروا، وخاصة لو حاولنا الدخول في مفاوضات معهم. من جهته، أراد إبراهيم أن يضم إليه على الأقل الدواير والزماله الذين كانوا لا يزالون مع الأمير، لكنه لم يحصل على تأجيل الرحيل حتى يوم 9 إلا بمشقة. وهذه الأربع وعشرين ساعة لم تمكنه من شيء. أعطاه المشير خيارا: إما العودة إلى مستغانم أو البقاء في معسكر، في قلعة صغيرة، ولكنه فضل الخيار الأول.

وتساءل الجميع في المقر العام لماذا جئنا إلى معسكر، ولم نستطع أحد الإجابة عن هذا السؤال. لكن أخيرا أعلن أن معسكر موقع سيء للغاية،

دون تأثير على البلاد وحيث كان لا لزوم لوضع باي هناك، وبالتالي كان علينا حرقها لكيلا نتركها لعبد القادر. كان هذا تناقضا : لأنه إذا لم تكن هذه المدينة ذات أهمية، لماذا نكثر نحن إن احتلها الأمير؟

جاء هذا الفرار يوم 8، وانتشرت الأخبار سريعا في الجيش، الأمر الذي أدى إلى فوضى كبيرة. ظن الجنود أن الشروع في التنفيذ كان فوراً واضطربنا للمناداة إلى التجمع لاستعادة النظام العام في صفوف القوات. في اليوم نفسه أحرقت أبواب المدينة، وكذلك عربات المدفعية التي وجدت في معسكر، نحو عشرين، والخطب، والكيريت، والجبال... باختصار، كل ما تم العثور عليه في ترسانة عبد القادر.

في صباح يوم 9، غادر اليهود المدينة بحزن، وبالشئ القليل الذي بقي لهم، وتجمعوا في مقبرة الشرق على الطريق المؤدي إلى مستغانم، ثم أضرمنا النار في كل مكان. يبدو أن الجدران قاومت وحدها هذه النيران.

بسبب إهمال أركان الجيش، لم تكن الجبال المخصصة لنقل الذخيرة في مكائنها، لذلك اضطربنا لترك 150 000 خرطوشا لتلثمها النار.

انسحب الجيش بعد ذلك، سائقا السكان اليهود أمامه، وتاركاً الانقاض ورواءة الدخان الكثيف، مدقوعا بالرياح الغربية، تابع الجيش طويلا، مثل الندم الطويل الذي ترسله الهمجية إلى الحضارة.

أمضى المشير الليل مع كتيبه في قرية البرج التي حرقها سكانها. في يوم 10، اجتزنا الجبال في المطر الغزير والضباب الكثيف الذي لم يسمح لنا أن نرى أين نضع أقدامنا. في كل لحظة كانت الحبول والجبال خاضعة تيهوي إلى المسایل وترتطم بالصخور. كان اليهود يزحفون في الوحل أكثر مما كانوا يمشون، ووجدنا بعض الصعوبة في تمييز أشكالهم. هلك العديد منهم من البرد والتعب. أظهرت قواتنا مشاعر العطف والكرم أكثر من المعتاد⁽¹⁾ وجمعت الأطفال المتخلى عنهم.

يوم 10 في المساء وصلنا إلى المرباط سيدي إبراهيم حيث تم تجميع الجيش بكامله.

كان اللواء دارلانج، كما رأينا، في الجبال مع السيارات، في حين كان المشير يهاجم معسكر. في اليوم الأول من الانفصال، عمل المهندسون بجد على إصلاح جميع السيارات باستثناء عربة الأعلاف التي اضطربنا للتخلي عنها، فوصلت كلها على مضية عين كبيرة. في اليوم التالي 7، وصلنا إلى مشارف البرج. لما كانت الحبول تفتقد العلف، أردنا شراءه على السكان الذين رفضوا بكل وقاحة أن يبيعوه لنا، فقرر المشير احتلال القرية، وأخذ ما يحتاجه.

يوم 8، بعث له المشير، عن طريق مرسل عربي الأمر بالرجوع إلى سيدي

(1) رأيت أحد قناصي إفريقيا يحمل على جواده طفلين مسعورين، حتى أنه كان يضع السكوت ثم يضعه في أحدهما ليظلمهما.

مرسوما في هذه المدينة يُقسم إلى ثلاث بيالك محافظة وهران، وهي: بايلك تلمسان، بايلك الشلف وبايلك مستغانم. يمكن تطبيق هذا النظام على بلاد فارس أو أي دولة أخرى، ولكن ليس على الجزائر. يجب على السلطات تجنب مثل هذه التصرفات التي لا تخدع أحدا.

في 18 ديسمبر، عاد المشير كلوزل إلى وهران، وقد ركبت البحر الكتيبة الثانية الخفيفة، منقوصة من فرق النخبة، متجهة نحو الجزائر، لتحل محل الكتيبة 10 الخفيفة التي عادت إلى فرنسا في فبراير.

إبراهيم. أجريت هذه الحركة في يومي 9 و 10، يوم جمع الجيش. عانت ألوية اللواء دارلانج الكثير من المطر والجوع خلال هذه الأيام الأربعة. عند الانطلاق من وهران أعطي لكل رجل كيس صغير من المثونة لمدة خمسة أيام، مع التوصية للحفاظ عليها لوقت الشدة.

لم تحارب الألوية الأولى في طريقها من معسكر إلى سيدي إبراهيم، لأن لا يمكن أن تسمى قتالا تلك الطلقات النارية القليلة في مؤخرة الجيش. أما ألوية دارلانج فتبادلت مرارا وتكرارا إطلاق النار، وأحيانا بشدة، مع حوالي ألف من العرب.

يوم 11، نزل الجيش بأكمله إلى السهل وعسكر في موقع اسمه مسرى، على أراضي مجار. حدث أيضا تبادل لإطلاق النار ذلك اليوم. يوم 12، وصل الجيش إلى مستغانم، حيث أبحر في السفينة الدوق دي أورليان.

قرر المشير إتمام هذه الحملة، مع استعداد لإغاثة مصطفى بن اسماعيل وحامية المشوار في تلمسان عن قريب. تم شحن المعدات إلى وهران، حيث وصلت الألوية عن طريق البر، من 16 إلى 21. أما اليهود، فاقسموا بين وهران ومستغانم، وساعدهم بسخاء إخوانهم في الدين.

ترك إبراهيم في مستغانم مع الأتراك. لم يستطع المشير استبداله مكان عبد القادر، فرغب في محو القتل السياسي لحملة معسكر بوهميات، فوقع

الكتاب 18

أحداث وقعت في الجزائر خلال بعثة معسكر. - المفاوضات مع عبد
القادر. - المشير كلوزل يسير نحو تلمسان. - دخول الفرنسيين إلى المدينة.
- مساهمة تلمسان. - احتلال المشوار. - قتال في العطار. - دخول القوات
الفرنسية إلى وهران وعودة المشير إلى الجزائر. - حملات اللواء بيريجو في
محافظة وهران.

بينما كان اهتمام الرأي العام منصبا على محافظة وهران، كانت الجزائر
العاصمة مسرحا لبعض الأحداث ذات أهمية ثانوية، ولكنها مع ذلك ينبغي
أن تذكر. عزز الحجوطيون ببعض المهاجرين من القبائل التي رضخت
لنا، مما جعل توغلاتهم مستمرة في المناطق الداخلية من خطوطنا، وكانوا

يضابقون باستمرار اتصالاتنا، فسار ضدهم طابور من المشاة والفرسان تحت قيادة السيد ماري، ليلة 27 إلى 28 نوفمبر. فاجأ قريتين عربيتين مجاورتين للقلعة، شعبية ودواودة، وغنم منهما.

بعد يومين، توغل الحاج الصغير، باي مليانة، في الساحل مع 600 فارس. تموقع في المرباط سيدي عبد المؤمن، غير بعيد عن معاملة، وسار على القرية العربية الدويرة بنصف جنوده. قامت هذه المقرزة بنهب الماشية وسرقة الناس في طريقها. ناقوس الخطر سرعان ما دق وانتشر الخبر إلى المخيم. في حين أخذ المشاة السلاح⁽¹⁾، كان الفرسان، المتكونين من مرب واحد لقناصي أفريقيا وبعض السبائس، قد ركبوا الخيل وساروا بسرعة نحو العدو. النقيب دو سيني، الذي قاد الفرسان، قسمهم إلى مجموعتين: الأولى سار مباشرة على الحجوطيين والآخر ناور لقطع تراجعهم. هذه الحركة المزدوجة نجحت تماما.

لما رأى الحجوطيون أنفسهم أنهم هوجوا من الأمام ورغم كثرتهم فزعوا وتخلوا عن غنائمهم واندحروا. قتلنا لهم عشرين رجلا، بينما تراجع الباقي إلى احتياطي الحاج الصغير، الذي عاد لتوه إلى مليانة عندما شعر بهزيمته.

(1) مخيم الدويرة واسع جدا ويسغرق وقتا طويلا لتفقد وحدات القوات المختلفة، المتصولة بقنوات كبيرة وغير ضرورية. وكان الفرسان، الذين يقع مقرهم بالقرب من القرية، قد لاحظوا العدو قبل ذلك المعسكر. لما كان الخطر ممكنا، قرر قائد دو سيني بإخراج الفرسان وأن ينظر الأمر بالهجوم على العدو السيد فرجي، وهو ملازم أول عند السبائس، هو الذي شاهد الحجوطيين قادمين، ولما بدأ المعسكر تصرف هذا التصباط بكل شجاعة أثناء القتال و قتل جواده ثمانية.

وكان الصراع حول المخيم قد انتهى عندما وصل مشاة معسكر الدويرة إلى أرض المعركة. السيد القائد دو سيني، الذي قاد الهجوم بذلك، وشجاعة، هو نفسه الذي قتل، لما كان برتبة ملازم، خلال تمرد 1832، قائد بني موسى بن أوشقون. ففي الوقت الذي سارت المقرزة الأولى للحاج الصغير نحو الدويرة، توجهت مقرزة أقل عددا نحو أولاد متديل، لكنها صُدت من قبل فرقتي الانضباط التي كانتا تسهران على أعمال الطريق.

في 31 ديسمبر، أمر اللواء رابايل اللواء دي ميشيل أن يسير ضد الحجوطيين، الهائجين دائما والذين لا يشعرون بالإحباط إطلاقا. أخذ معه قوات كبيرة، تتألف من جميع الفرسان، وجزء من الكتيبة الحفيفة العاشرة، وكتيبة إفريقيا الثالثة، وفصائل الزواف التي بقيت في الجزائر، وبعض فصائل الانضباط. انطلق هذا الطابور من بوفاريك على الساعة الثامنة صباحا، متجها نحو غابة خرايسية، الملجأ العادي للحجوطيين. فاجأت عند الفجر العرب الذين كانوا هناك واستولت على عدد كبير من الماشية، بعد معركة قصيرة حيث خسرت القليل من الرجال. بعد ذلك، أراد اللواء دي ميشيل العودة من طريق القليعة ومقطع خيرة، ولكنه تاه في الأدغال وتعلد عليه العثور على الطريق الصحيح. بعدما بحث عنه طويلا، قرر الرجوع من طريق بوفاريك، ذهب لينام بين الشقة

وهذا المعسكر لأنه مشى أربع وعشرين ساعة من دون انقطاع تقريبا. في 2 يناير، عاد إلى بوفاريك. لكن عندما غادر المخيم حيث أمضى ليلته، جاء بعض العرب لتبادل إطلاق النار مع مؤخرة جيشه، فجلب معه نصف الغنائم فقط، لأنه فقد الباقي في الغابة، وسقط أربعة متقاعصين أحياء في أيدي العدو.

كانت هذه الحملة، مثل كثير من الأخريات، دون جدوى. لم تُثن عزيمة الحجوطيين، بل أصبح هؤلاء أكثر شدة، ولكن أدخلوا في الحرب مبدأ الإنسانية، وقد كان غير معروف حتى الآن عند العرب في تعاملهم معنا؛ أصبح لديهم سجناء. هذا التحسن في الأخلاق العربية الذي يزداد يوميا كان يجب أن يلاحظ.

مبدأ اتخاذ السجناء كان أول تنازل من الحرب للإنسانية. وأخيرا، يقبول من كلا الجانبين، حدث تبادل السجناء. حصل التبادل الأول لفائدة الم رابط سيدي يحيى الحبشي، الذي أبدل مع أسرته مقابل السجناء الأربعة الفرنسيين الذين قبض عليهم في حملة اللواء دي ميشيل وأربعة أوروبيين من غيرهم قبض عليهم في ظروف مختلفة. لم يمكن لسيدي يحيى العودة إلى دياره، فذهب إلى مليانة، مع شقيقه، وانظما إلى عبد القادر.

وقد عاد هذا الأخير، بعد أيام قليلة من رحيل الفرنسيين، إلى معسكر ومعه السكان المسلمون. كانت النيران قد انطلقت بعد نزول المطر ولم تحلف

خسائر كبيرة كما كنا نعتقد، بل توجد ضاحيتان لم تمسهما النار قط، وهما عين البيضاء، أين أقامت أسرة عبد القادر، وعقوب اسماعيل. هذا الأخير كان محتلا من طرف الدواير والزمالة، الذين كان لديهم أقارب يسكنونه. أما عين البيضاء، فقد احتلتها كتيبة بيريفو، حالما عاد الأمير إلى معسكر، قصد بني شغران الذين بدوا على استعداد للقطيعة معه، ولكن سرعته وحزمه أبقاهم تحت هيمنته. عندئذ جند رجالا من هذه القبيلة ووضعهم تحت قيادة الشاذلي، قائد بني شغران، ووجههم إلى مدينة صغيرة، القلعة، للقبض على بعض السكان الذين رغبوا في الالتحاق بنا. كان الشاذلي رجلا مرهقا وماكرا. ففي محاولة لكسب أصدقاء في جميع الأطراف، بعث سرا إلى هؤلاء الرجال المزمع القبض عليهم وأخبرهم بذلك. عندما وصل إلى القلعة لم يجدهم، لأنهم هربوا إلى الجبال. من هناك ذهبوا إلى مستغانم، عند الباي إبراهيم، أين لم يتوانوا في مدح الشاذلي. هذا القائد بعدما تلقى من سكان القلعة ولاءهم لعبد القادر، عاد إلى جانب الأمير الذي استقر على الهيرة مع نحو ألفين من الفرسان وسبعمائة من المشاة. كان يؤثر من هناك على القبائل لإبقائهم في طاعته.

ومع ذلك، شهد عبد القادر ردة أحد رجاله، وكانت حساسة للغاية، لكنها جاءت إثر خطأ. ذلك الرجل هو المزارقي، أحد آفاته. هو ابن شقيق مصطفى بن اسماعيل، كان عدوا للأمير، ولكن قضى معه خمسة عشر شهرا

في اليوم التالي اختفيا وذهبا دون شك عند عبد القادر ليطلعانه على ما رأيا وسمعا في وهران.

كتب ابني سيدي العربي في نفس الوقت تقريرا لإبراهيم باي أنها على استعداد للاعتراف به، لكنها لم يظهر أي عداوة للأمير. هذا الأخير لم ينزعج للمراسلات التي تتفاوت في الأهمية والتي كانت تتبادلها القبائل البعيدة مع أعدائه، بحيث كان يعلم أن الأهم هو منع القبائل القريبة من وهران من الانضمام إلى المزابي، إذا خاطرتهم الفكرة، مشكلين بذلك نواة للمقاومة العربية لسلطته. ونتيجة لذلك، نقل معسكره إلى سهل المليط. في يوم 28 ديسمبر، هاجم الدواير والزمالة المواليين لنا على بعد مسافة قصيرة من وهران، وقتل لهم أناسا واستولى على الكثير من الماشية. جاءت بعض القوات من وهران لمساعدة حلفائنا، ولكنها وصلت بعد فوات الأوان. يومين بعد ذلك، كتب الأمير إلى القبيلتين، اللتان كانتا حتما مرعوبتين من الهجوم الذي شنّه عليهما، وحثهما على العودة إلى عقده. أكد لهما صداقته، مبرهنًا بذلك أنه ليس هو الذي هاجمهما يوم 28، ولكن بني عامر، الذين تصرفوا دون أوامر. سُلمت هذه الرسالة إلى المزابي الذي أرسلها لبني عامر، على أمل أن يفسد علاقتهم بعيد القادر، ولكن لم يحدث ذلك.

على الرغم من أن الدواير والزمالة لم يُظهروا استعدادهم للانضمام إلى عقد الأمير، لم يكونوا مرتبطين بالباي إبراهيم. جاءوا في يوم من الأيام

وخدمه بكل وفاء، وأصيب حتى في القتال في الهبرة. لكن، وكما في كثير من الأحيان، تجعل المصيبة الإنسان غير عادل. لذا، بعد انهزاماته المتتالية، أظهر الأمير شيئا من عدم الثقة للمزابي، ما ولد عند هذا الأخير خشية مبررة، وربما واستفاقت عنده الأضغان القديمة.

تبعًا لذلك اتصل المزابي سرا بالباي إبراهيم، ولما تأكد أنه سيُرحب به، لجأ إلى مستغانم، رفقة جزء من الدواير والزمالة الذين ضلوا أوفياء لعبد القادر بعد التمرد الثاني لقبائلهم. لما علم المشير بهذا الأمر الذي لم يكن هينا، أرسل له النقيب جوزيف ليطمئنه بحسن نيته ويأتي به إلى وهران، ورافقه عندئذ الباي إبراهيم وقصور المرفي، القائد السابق لبورجيا، الذي كان قد نُحِل أيضا عن الأمير رفقة عدد قليل من رجال فصيلته. رحب المشير بالمزابي ومنح له راتبا وعينه برتبة ملازم للباي إبراهيم، وكذا آغا سهل وهران.

ارتد ضابطان آخران عن الأمير، القائد ذو المظلة⁽¹⁾ وابن الأغا، الحاج بوعلام، وذهبا إلى وهران أيضا ليرضخوا للفائز، ولكن نيتهما بدت مشبوهة، وكانا على وشك أن يقبض عليهما عندما أعلنّا، كما لو كانا يريدان أن يبرهنّا على أنها منشقان حقيقيان وليسا بجواسيس، أنها قتلا قاضي معسكر، عدوهما الشخصي، في فوضى إخلاء تلك المدينة. وبما أن هذه الجريمة كانت معروفة، لا يمكنهما التفكير في العودة إلى الأمير. ثم تركا بعد ذلك أحرارًا، لكنهما كان يُنظر إليهما باحتقار كمجرمين. ولكن اتّهما أنفسهما زورا، لأنهما

(1) كان من أول الضباط من بيت الأمير. كان يحمل مضطه الشخصية وكان يمتشي دائما بالقرب منه.

يطلبون من المشير أ يضع محله رجلاً يُدعى مصطفى بن عثمان، الذي كان والده باي وهران تحت الأتراك. دون أن يأخذ طلبهم على محمل الجحد، رد المشير أن تنصيب باي جديد يتطلب تكلفة كبيرة، فإنه بذلك لن يغيره إلا إذا وافقوا على دفع هذه التكاليف. منذ ذلك الحين، سكتوا عن مطلبهم ولم يفكروا قط في مصطفى.

ومع ذلك، منذ عودته من معسكر شرع المشير كلوزل في الاستعدادات للحملة التي خطط لها على تلمسان. فبطونها أثبت من جديد أن الاحتياجات الهائلة للجيش المتحضرة تعطيها الأفضلية على الجيوش الهمجية، لم تجده هذه من سرعة وسهولة الحركة. من جهته، عاد عبد القادر إلى حملته منذ خمسة عشر يوماً، على الرغم من خسائره، وكان على أبواب وهران، بينما لم يكن الجيش الفرنسي قادراً على الخروج. تعب المشير من هذا التأخير، وأقدم أكثر من مرة على التخلي عن الحملة. في واحدة من لحظات الحرج تلك، سمح لليهودي دوران، شقيق رجل الثقة للكونت درلون، بمراسلة الأمير لتحقيق الهدنة على أساس الولاء لفرنسا. أجاب عبد القادر أنه قبل أن يعترف بالسيادة عليه، يريد أن يعرف ما هي المكائنة والضمانات التي ستعطى له. ما لبث دوران أن يُعلم المشير بهذه الإجابة، فسلمه هذا الأخير تصريح أمان لميلود بن عراش،

وكلفه أن يكتب للأمير أن يبعث بن عراش إلى وهران للنقاش معه في كل هذه الأمور عندما وصلت الرسالة الثانية إلى مُعسكر الأمير، كان ميلود قد غادر إلى مدينة معسكر، وكان عبد القادر يُعدّ للخروج في مسيرة إلى تلمسان لمحاربة رجال أنجاد الذين كانوا يسعون لفتح المشوار. كتب لدوران قائلاً إن هذا الحادث لا يجب أن يوقف المفاوضات، ولكنه مضطر لمنع أعدائه من تحقيق مشروعهم، لأنه إن كان خلاف ذلك سيتغير موقفه، وبالتالي تكون الشروط التي تقدم له أكثر صعوبة.

رجال أنجاد، من حزب الغوماري، وتحت قيادة الابن البكر لهذا الشيخ، اقربوا بالفعل من تلمسان، لكن عبد القادر سار بخفة وسبقهم تحت أسوار المدينة. وكان مصطفى بن إسماعيل وجزء من كولوغلي المشوار قد خرجوا من مواقعهم بكل تنهات لملاقاة رجال أنجاد، فانقض الأمير عليهم، وقتل البعض منهم ودفع بالبقية إلى المشوار. وعلى الفور غير اتجاهه وسار نحو رجال أنجاد فهزمهم، وأصيب الشاب الغوماري بجروح خطيرة.

لكن، بعد أن علم المشير بأحداث تلمسان، ولما رأى أن الأعمال التحضيرية للحملة انتهت أخيراً، تخلّى عن طريق المفاوضات، وخرج من وهران يوم 8 يناير على رأس 7500 رجل مشكلين ثلاثة ألوية⁽¹⁾.

(1) رواية حملة تلمسان، كما ستقروها، نشرت في الجرائد عام 1836. الشيء نفسه ينطبق على حملة اللواء بيريغو إلى الشلف، وكل الحملات الصغيرة الأخرى التي حدثت في نفس الفترة في الجزائر.

تم التشكيل الأول، بقيادة اللواء بيرينو، من فوج 21 لقناصي إفريقيا،
الزواف، فصيلتين من القناصين، كتيبة النخبة⁽¹⁾، الخفيف 17، والدولير
والزماملة و 2 من قذافي الجبال.

التشكيل الثاني، بقيادة اللواء دار لانج، مكون من كتيبة إفريقيا الأولى،
فوج الخط 66، و 2 من قذافي الجبال.

أما الثالث فيتألف من فوج الخط 11، تحت قيادة العقيد فيلمورين،
و 2 من قذافي الجبال اللذان التحقا بهذا اللواء.

يوم غادر الجيش، قضى الليلة في بريدية، ويوم 9 على ضفاف واد
مالح أوريو سالادو، في المكان الذي قُتل فيه بربروس من قبل الإسبان
في 1517. وصل الجيش إلى واد سنان يوم 10 وقضى الليلة هناك. في
يوم 11، بات في عين البريج، حيث توجد الكثير من الآثار الرومانية.
ابتعد اللواء الأول بثلاث أميال وعسكر على ضفاف واد يسر، نهر كبير،
مقارنة بوديان هذه البلاد. يوم 12، عسكر الجيش كله على ضفاف واد
أميغر.

في الليل، تلقى المشير رسالة من مصطفى بن إسماعيل يعلمه فيها
أن الأمير والحضرة (سكان المدينة) أدخلوا المدينة، وعسكروا على جبل
عشوبة، على ميل ونصف شرق تلمسان.

(1) تكونت هذه الكتيبة من أربع فصائل من النخبة لواء القناصين الخفيف ومن ثلاث فصائل
النخبة آتت من الجزائر.

يوم 13، غادر الجيش واد أميغر عند الفجر، بعد بضع ساعات
من السير، نزل إلى سهل تلمسان الجميل. جاء مصطفى بن إسماعيل
لملاقاة المشير، وكان له حديث طويل معه. هذه المواجهة بين هاتين
التيين، كلاهما في أوج عطائهما، وكلاهما شهير في وطنه، قدمت للجيش
عرضا لا يفتقر للعظمة⁽¹⁾.

دخلت القوات الفرنسية إلى تلمسان على الساعة الواحدة. وصل
أول لواء من طريق معسكر، وقد تلقى أمرا بالسير إلى أقصى اليسار في
مطاردة لبعض فرسان عبد القادر الذين كانوا في هذا الاتجاه، لكنه لم
يستطع الوصول إليهم.

وقع احتلال تلمسان بنظام كبير. كانت المدينة مهجورة، باستثناء
منطقة المشوار المأهولة بالكولوجي واليهود، ولكنه وجد فيها وفرة
الموارد الغذائية، لأن السكان قد سارعوا في الهروب، ولم يكن لهم
الوقت ولا الوسائل لياخذوا كل شيء. يوجد عدد كبير من المطاحن
داخل وخارج المدينة، والتي أعيد تشغيلها، ووزعت المشونة على الجند
بانتظام.

يوم 15 جانفي، أمر المشير بالسير نحو موقع عبد القادر اللواء الأول
والثاني، وفرسان مصطفى والمزاري، وكذا الأتراك والكولوجي الذين

(1) مصطفى بن إسماعيل رجل فصل وبارز، من أصل تركي أكثر منه عربي، لهذا
السبب لا يؤثر كثرة ألقاب السكان الذين يرون فيه رمزا حيا لتنظيم قدرته.

جدد تسليحهم في الليلة التي مضت (١). عند اقتراب هذه الجيوش التي كانت تناور لاحتوائه، ابتعد الأمير بسرعة. أربعون أو خمسون من أتباعه سقطوا بين أيدي معاوننا الذين قتلوهم.

في الليلة الموالية، جاء سيدي حمادي بن سقال، القائد السابق لتلمسان، رفقة السكان المماريين، ليسلم نفسه للواء بيرغوا، الذي كان يعسكر في قرية إيدر.

اللواء الذي كان يقوده دارلانج ناور في السهل ليقطع على الأمير طريق معسكر، وبات تلك الليلة في مولاي حلو، على بعد ميلين من تلمسان.

يوم 16، لمت ألوية الحملة أيضا بعض المماريين في خوانق الجبال، لكننا فقدنا الأمل بالالتحاق بعيد القادر وبين نونة، قائد تلمسان، الذين أوشكنا أن ندركهم في الليلة التي مضت. يوم 17، عادت الألوية إلى تلمسان، مصاحبة معها حوالي 2000 شخصا، أغليتهم من النساء والأطفال، مع القليل من الرجال.

فقد عبد القادر في هذه الحملة جزءا مهما من أمتعته، وبعض الخيول ووراية استولى عليها فارس شجاع من الزمالة، اسمه محمد بن قدور. لم يحكث قرب تلمسان إلا لاعتقاده أن القوات الفرنسية لن تقيم فيها

(١) في الاستعراض الذي قام به بهذه المناسبة فقد الأركان، تلك من وجود 775 تركيا أو كولونغا قندين على حمل السلاح من بين هذا العدد الذي يمثل الكولونغا أكثر منه من الأثر الك، 343 لم يكونوا مسلحين. هذا يعني أن 420 رجلا حرموا المشاة مدة 5 سنوات.

طويلا، كما فعلت في معسكر، غير أن المشير كانت لديه مشاريع أخرى في تلك الآونة.

لم ير الجيش منذ انطلاقه من وهران إلا بلدا حزينًا وعملا، إلا أن ضواحي تلمسان أهدته مشاهد خلابة. لا يوجد أي مكان في هذه البلاد أين تنمو النباتات بهذه النضارة. يوجد شمال الهضبة التي شيدت عليها المدينة سهل شامع وجميل ومزروع. يحمي المدينة من ريح الجنوب جب مرتفع، تكسوه الثلوج أحيانا في فصل الشتاء. الماء متوفر، بينما الأرض خصبة. يُبرز الجبل عدة نتوءات، تشكل عددا من الطوابق مكونة من تربة أين تثبت نباتات أوروبية وأخرى إفريقية، مختلطة، متفرقة، مختلطة من جديد، حسب الارتفاع وهيئة المكان. تنحدر الجداول من طابق لآخر، وتحيط كل شيء في طريقها، تنبعث منها الحيوية والفرحة. على بعد ربع ميل شرق المدينة، توجد قرية سيدي بومدين الجميلة، وعلى بعد ميل إلى الجنوب قرية عين الخوت. إلى الغرب من تلمسان، يتمتع المتجول بأثار المنصورة. هي قلعة محصنة قديمة، توجد في وسطها بقايا مسجد كان يبدو عظيمًا. لم تكن المنصورة سوى معسكر محصن شيده إمبراطور مغربي جاء دون جدوى يحاصر تلمسان.

على 500 جندي عزم المشير أن يتركهم في المشوار، ومكافأة للجنود الذين شاركوا في الحملة. طُبق هذا الإجراء على الكولوغلي خاصة، لكن لما أعلنوا أنه يستحيل عليهم تلبية كل هذه النفقات، لأنهم صرفوا من أموالهم الخاصة طيلة ستة سنوات ⁽¹⁾ وقد أرهقهم ذلك، سُجن أعيانهم. لقي اليهود نفس المعاملة.

(1) هامي الرسالة التي كتبها للمشير كلوزل بالمناسبة مصطفى بن إسماعيل، باسم الأتراك والكولوغلي :

"نحن رعاياك، أطفالك أيها الأمير. لمدة ست سنوات ونحن في حالة حرب ضد العرب في المدينة وما جاورها. جنت بجيشك المنتصر فهاجم وحد أعدائنا الظالمين. وتسالنا عن تسديد النفقات التي بُذلت من قبل جيشك منذ وصوله من فرنسا: لا تطبق هذا الطلب بالنسبة إلى مواردنا، بل لعله أكبر من قدرتنا لدفع جزء من هذه النفقات. وبناء عليه، فإننا نناشد رجعتك ومشاعرك الجيدة تجاهنا نحن، أطفالك، والذين لا يستطيعون تحمل هذا العبء، لأنه لا يوجد بيننا لا أغنياء ولا تجار، ولكن الضعفاء والفقراء. نحن جميعاً ندرك الخسمة التي قدمتها لنا، ونحن ندعو الله أن يجزيك فيما يخصنا، سنقدم كل ما لدينا، وهذا هو القول: المنازل التي نعيش فيها، المنازل الريفية وغيرها من المبانى التي لدينا. يرجى أن تعطينا مهلة، لأننا رعاياك وأولادك، وأنت سلطاننا، ونحن لدينا فقط الله وأنت لدعنا. نحن تحت أوامرك وعلى استعداد للتبعك كجنود حيثما نريد."

يوجد المشوار ⁽¹⁾ أو القلعة في جنوب المدينة ومتصل بأسوارها. هو موقع لا يفيد للدفاع إلا ضد العرب، لأن أي مدفعية أوربية تُسقطه في بضع ساعات.

كانت تلمسان عاصمة مملكة عظيمة، فاحتفظت ببعض آثار مجدها القديم قائمة بكل شموخ في وسط حدائقها الخلابة وغابات الزيتون الضخمة، تظهر لنا تلمسان بيوتها العربية التي لا يتألفها القدم رغم تساقطها والمبينة على أسس المنازل الرومانية.

تشبه في ذلك الشعب الماهر الذي جعلها مزدهرة، فهي قادرة على الاستيقاظ من سباتها العميق. لكن الاحتكاك بنا، والذي يجب أن يعطي الحياة أينما حدث، كان بمثابة الكارثة لها.

رؤية هذا البلد الجميل الذي احتلته القوات الفرنسية بهذه السهولة هيح غيلة المشير كلوزل. حدث نفسه أن هذه المنطقة من البلاد ستصبح من أغنى مناطق العالم تحت رعاية إدارة كفئة. لما أقنع نفسه أن هذا الأمر قد تم، ظن أن أهالي تلمسان الحزينين والمجروحين أناس ذوي ثروات كبيرة. أخذت هنا أفكاره اتجاهاً ساطعاً، ففرضت ضريبة على السكان لم يعلن عن قيمتها.

كان هدفها بداية رد الأموال التي صرفت أثناء هذه الحملة، ثم النفقة

(1) كلمة مشوار تعني مجلس الشيوخ. لما يطلق على مبنى، فمعناه الكلمة اللاتينية Curia كوريا.

أحد يهود وهران، المدعو لاصري، الذي تبع المشير وكان حائظ أسرار، الرائد جوزاف والمدعو مصطفى بن مقلش، ابن باي سابق، هم الذين كُلفوا بجباية هذه الضريبة.

تبرر الحرب أحيانا أشياء، لكن مخطط برينوس لم يكن له أن يصيب الأحياء والحلقاء⁽¹⁾.

في الوقت الذي كان عماله منهمكين في إدخال الجباية، كان المشير ينظم في كتية المتطوعين الذين سيشكلون حامية المشوار. شغل

(1) وجاء في كتيب مجهول، وزع على المحضين في عام 1836، أنه قبل عدة أشهر من حملة تلمسان أن الترك وكولو علي المشوار، الذين كانوا حريصين على أن يشرع فيها، كانوا قد كتبوا إلى المشير كوزل أنهم سيتكفلوا بدفع تكاليفها. هذا خطأ، لم يكتب أحد شيئا من هذا القبيل. لذلك لم يشر السيد كوزل لهذا في "التفسيرات" التي نشرت في 1837. وعلاوة على ذلك، فإنه ليس من الضروري اللجوء لهذا لإثبات حق القائد العام لجباية الضرائب في بلاد مغروية. على ما أعرف، لم ينكر أي أحد على المشير كوزل هذا الحق. قلنا فقط أنه لم يستخدمها استخداما سليما، وفي هذا كنا على حق. كان بالتكليف نهورا وبخلاف أن نبدأ في البلد الذي عزوناه بالضغط على الجزء من السكان الذين دعوا، خصوصا أن هذه الفئة من السكان كانت فقيرة. صحيح أن المشير كان في وهم كامل في هذا الصدد. لأن هذا كان يعتقد في فكر الكولو علي، فإنه على الأرجح لم يكن ليفكر في فرض الجباية عليهم، لأنه يقول لنا في تفسيراته، أنه لو فرض الجباية لاجبوا إلا الأغنياء. في هذه التفسيرات، قال المشير أنه، لولا اعتد رحلته، الإدارة الفرنسية كانت معونة تماما عن جباية الضريبة، وكان زعماء السكان الأصليين هم الوحيدون الذين تعاونوا معها.

الضباط وضباط الصف الذين انخرطوا في هذه الكتية وظائف تحول عادة لذوي الرتب العليا، فأعطاهم المشير عهدا أن يطلب لهم الرتب اللاتفة بهذه الوظائف. أسندت قيادة هذه الكتية للمقرب كاهينالكه من الهندسة، ضابط مُقدَّر كثيرا في الجيش.

إقامة حامية في تلمسان أجبرت المشير في تأمين المواصلات بين هذه المدينة ووهران التي تبعد بأكثر من ثلاثين ميلا.

وقلت لجنة الميزانية في 1837 عن هذا في تقريرها أن الحكومة تعتقد أن الخطأ كان حيث وُضع العذر في الواقع، وفقا للوائح في هذا الموضوع، فترك إدارة الجيش هم المسؤولون عن ضرائب الحرب. ولكن، من ناحية أخرى، فإنه ليس صحيحا القول أن زعماء السكان الأصليين تصرفوا بعفوية، بل الجباة الثلاثة الحقيقيون هم الذين نكروا أسماءهم إنها حقيقة واضحة، والجيش كله يعلمها، ومن المستحيل إنكارها على محمل الجد. نستطيع أن نطالع في ذلك تقرير اللجنة المشار إليها أعلاه، ولكن هؤلاء الثلاثة، الأول والثاني بالتأكيد لا يمكن اعتبارهم من زعماء السكان الأصليين للتلمسان. أما بالنسبة لمصطفى بن مقلش، فقد عين في 2 فبراير، بينما بدأت الجباية في 21 يناير مساعدا، لكن هذا ليس له أهمية قصوى.

إربابا بلاد استثنائية، إذن، فلكثر من أي مكان، يجب أن نأخذ بالمضمون أكثر منه بالشكل. في هذه الحالة كان المضمون إجراء سينا وليس في محله، بغض النظر عن الشكل الذي أدخل فيه. فوضت أيضا ضريبة في قسنطينة، دون أن تتدخل الحكومة الفرنسية في التفاصيل، ولا أحد امتنع على ذلك، لأن قسنطينة اعتُلت بالهجوم الطائفي ولم تكن في نفس الموقف الأخلاقي الذي كان فيه الأتراك والكولو علي الذين لم يكونوا أعضاء بل حلقاء.

فطن الأمير أن هذه الاتصالات ستعبر عبر مصب الطافنا وجوزوا
رشفون الصغيرة، مما بقي سوى عشرة أميال براء، لأن المسافة الباقية
ستكون في البحر.

بالتالي غادر المشير تلمسان يوم 25 جانفي رفقة الكتيبتين الأولى
والثانية، وكذا بعض سرايا القناصين والمساعدين من السكان الأصليين،
من أجل الاستطلاع على مجرى الطافنا وتشديد موقع حصن عند مصبه،
ثم إقامة الاتصال مع رشفون. تُركت الكتيبة الأولى لحماية تلمسان. لم
تتل هذه العملية النجاح المنتظر. وصلت فرقة الحملة إلى الرمشي، عند
ملتقى الطافنا ويسر، دون أن يلتقي بالعدو. لكن قيل للمشير في الليل
أن جيش عبد القادر يملك في الخائق الذي يلي هذا المكان. بالفعل،
أضواء كثيرة كشفت عن تواجد العدو على ضفتي الطافنا، ليلة 25 إلى
26، التي قضتها الفرقة بين الوادين.

في صباح يوم 26، أمر المشير كل قواته بعبور واد يسر، ما عدا كتيبة
11 للخط التي بقيت على الضفة اليسرى لحماية الأمتعة والمرضى الذين
نقلوا إلى رشفون، ومن هناك إلى وهران. تلقى اللواء دارلانج، قائد
اللواء الثاني، الأمر بتسليق المرتفعات مع الكتيبة الأولى الحظيفة لمشاة
إفريقيا، المساعدین العرب تحت قيادة مصطفى، و 300 كولوغلي بقيادة

الرائد جوزيف، أقام العقيد دي غوي في أسفل المرتفعات مع الفرقة
الثانية لقناصي إفريقيا والكتيبة 66 للخط للاقامة العدو في السهل، عندما
يطردهم اللواء دارلانج من مواقعهم. الكتيبة الثانية 66 للخط تموقع
بين العقيد دي غوي والأمتعة. هاهي الآن مواقع العدو: كان عبد
القادر يستند إلى الجبل على اليمين مع 2000 فارس، بينما كان ألف من
المشاة يتموقعون على مرتفع في أسفل الجبل، عند الدخول إلى السهل.
أما قبائل وهاصة، فكانوا يحتلون مرتفعات الضفة اليسرى للطافنا،
بعض هؤلاء الفرسان عبروا الواد وتموقعوا في السهل، قبالة الفرقة 11
للخط. شكل العدو بهذه الطريقة نصف دائرة حول جيشنا.

بدأت المعركة على العاشرة صباحا. استهلها مصطفى بهجومه مع
جنوده على قوات عبد القادر. كان الأمير تحت نيران مدفعية دارلانج،
لهذا لم يتطرق خصمه أكثر فتزل إلى السهل. تفرق عنه جزء من جناحه
الأسير الذي صعد إلى المرتفعات ولم يشارك في المعركة. تشجع مصطفى
بهذا الفوز الأول، وبمساندة الكولوغلي، أخذ بملاحقة الأمير. لكن
عند الوصول إلى السهل، أدرك العدو العدد القليل من ملاحقيه، عاد
على أذرائه وهم يطرد الأعوان نحو الجبال، إلا أن العقيد دي غوي
هجم عليه بفوجه، المدعم بالكتيبة 66 للخط.

أظهر العجوز مصطفى بن اسماعيل في هذه المعركة خبرته في الحرب ورسالة مفعمة بالحيوية، وكذا المزارى الذي تألق بشجاعته ومهارته. لاحق الملازم سافاريز أحد حاملي لواء الأمير، وأوشك أن يمسك به، إلا أنه هوى في مجرى الطافنا، من أعلى الهاوية التي تحدد الواد. رغم ذلك، فقد استطاع أن ينقل الراية، الذي استرجعها عربيا نزل إلى الواد من منحدر سهل. الليلة التي تلت معركة يوم 26 كانت هادئة، وكانت أضواء العدو قليلة، مما كان يوحي أنه انسحب مرة أخرى. في صباح يوم 27 أراد المشير استطلاع غنى الطافنا قبل الولوج فيه، فبعث بسرية استطلاعية كبيرة، لكن أثناء التحضير لإرسالها، وصل السيد دي متويان، قائد الفرقة الثانية لقناصي إفريقيا، والذي أتى بالعلف، فأخبره أن طوابير عديدة من الفرسان والمشاة جاءت من الغرب وتسير تجاه معسكرنا. بعدما تأكد من صحة هذا التقرير، اتخذ المشير التدابير للقاء العدو، الذي كان يضم من 8000 إلى 10,000 رجل. غادرت القافلة السهل وتوقعت على هضبة تشرف على طريق تلمسان، إلى الخلف قليلا من وضعيتها الأولى، بينما احتل اللواءين المرتفعات على يمين ويسار هذا الطريق. مكث الفرسان في السهل، عند أسفل المرتفعات، ووضع الأعوان في الجناح الأيسر للمشاة الفرنسيين. لم تكد

تصرفت السرية التركية لهذه الفرقة، تحت قيادة الملازم مسمر، بكل شجاعة في هذا الظرف، بينما قتل الرقيب محمد سليمان ثلاثة فرسان من جيش عبد القادر، ولذلك رقي إلى رتبة رقيب أول في أرض المعركة. وجد الأمير بعض الصعوبات لعبور الطافنا من جديد، لأن العقيد دي غوي سار في ملاحقته معتليا الواد. أثناء ذلك، اعتل المشير الواد من الضفة اليسرى، رفقة بعض الفرق من الكتيبة 66، مقتل العرب تحت نيران مدفعية الميدان. انتهت المعركة على الساعة الرابعة، واختفى العدو. جمع المشير قواته وبات تلك الليلة في الموقع الذي قضى فيه الليلة التي مضت.

خلال هذه العمليات، هوجمت الأمتعة بشدة، لكن رد فعل سرية واحدة، بقيادة القائد برنار، والمعززة بفرقة المقنبلين التابعة للكتيبة 11 للخط، بقيادة القائد ريبتر، كان كافيا لتفريق المهاجمين.

لم تكلفنا عملية 62 جانفي سوى 3 قتلى وبعض الجرحى. عند عودتهم إلى المعسكر، كان الكولوغلي يحملون رؤوس العرب على حرياتهم. بعدما طلب منهم الفدية أولئك الذين جاؤوا لغوثهم، بدوا محبطين ويشين، لكن دم أقدم أعدائهم مما في تلك اللحظة تدمرهم من حلفائهم المتلبسين.

هذه التحضيرات تنتهي حتى هاجم العدو الأعوان والفرسان.
التحدر الكولوغلي وتراجعوا نحو لواء دارلانج، حتى القربان
اقتربوا من خطوطنا، قلنا عنهم أن العدو كان ذو عدد كبير. بدأ إطلاق
النار كثيفا على اليسار وفي الوسط، لكن لم يدم سوى بعض الدقائق
لأن العدو ما لبث أن يبدأ في إطلاق النار ثم الانسحاب بانتظام لكن
بسرعة، دون أن يبرر ذلك تحرك للجيش الفرنسي، بل كان راجعا إلى
الوصول المفاجئ للواء اللواء بيريقو الذي كاتبه المشير الليلة التي
مضت. توغل هذا اللواء على يسار طريق تلمسان، وهب ضد مؤخرة
العرب. لهذا السبب فضل عبد القادر الانسحاب، لكيلا يجد نفسه
منحصرًا بين جيشين. عسكر الأمير على بعد ميلين من معسكرنا، في
اتجاه منبع الطافنا.

كانت معركة يوم 27 قصيرة ولم تكن دموية، لكن تركت لنا الانطباع
السيئ أن عبد القادر لم يصب بالإحباط الذي كان من حقنا انتظاره.
كان المشير يريد الهجوم عليه في معسكره يوم 28، وأمر بذلك في برنامج
ذلك اليوم. كان علينا استعلاء الطافنا باتباع المرتفعات للوصول إلى
موقع العدو، تاركين القافلة عند التلال والهجوم بكل القوى الأخرى
على معسكر الأفارقة. لكن هذا المشروع لم يُنفذه بسبب مصاعب

الطريق، ولأننا لاحظنا أيضا عند الإقتراب من عبد القادر أنه اختار
موقعه جيدا ولن تكون لنا أي مقدرة على قطع الطريق عند تراجعه.
عدل بالتالي المشير عن هذا الهجوم المقرر وعاد إلى تلمسان يوم 28 على
الساعة الثامنة مساء.

لما أدرك العدو انسحابنا أرسل ألفا من الفرسان الذين تبادلوا إطلاق
النار مع مؤخرتنا. بعد نصف ساعة من إطلاق النار الشاف، انسحب
العدو محتفلا بطلاقات نارية ما كان يعتبره انتصارا. في الواقع، رغم
أن العدو انهزم في معركتين، فقد أرغم المشير على العدول عن مشروعه
إقامة الاتصال مع رشغون.

في هذه الأثناء، أرسل المقدم بوفوره الذي كان يحكم وهران في غياب
اللواء دارلانج، زوارق إلى رشغون، بأمر من المشير⁽¹⁾ بحملة بالمعدات
اللازمة لشرح الطافنا، لكن هذه الزوارق وصلت حين دخل الجيش
عائنا إلى تلمسان. تواجد هذه الزوارق في هذه الأثناء آثار مخاوف
قبائل وخاصة الذين كاتبوا المشير، بأسلوب يظهر علامات الولاء له.
غير أن هذه الزوارق ما لبثت أن غادرت المكان، فلم يرسل القبائل أي
رسالة أخرى.

كنا نطمح أن تعترف بالسلطة الفرنسية قبائل بني ورنيد والتكروسل

(1) مكثت الاتصالات بين وهران وتلمسان تمام عن طريق مراسلين عرب، كانوا لا
يسمحون إلا بالتكلم مع كل المخاطر التي مكثت محيطهم.

للتعذيب اقتدوا أنفسهم بذهب نسايم وصياغتيهم وكلوا أسلحتهم الفاخرة. قبل العرض⁽¹⁾، ولكن قُدرت هذه الأفراس من طرف لاصري، الذي تسلمها بثمن بخس. كل ساكن كان يدعى بدوره أمام

ظلم كبير، في إفريقيا وغيرها، ويمكن استخدامه عند الشك، ولكن ليس في العمليات العادية للحماية، حيث ملكية دافعي الضرائب التي يمكن احتجازها تبقى دائما ما هو مطلوب. للجميع رأي في العقاب البدني، الذي يسلط بصورة قانونية في بعض البلدان حيث توجد هذه العقوبة.

يمكن للمرء أن يقول أن الضرب بالعصا هو وسيلة ممتازة لتسليط عقاب بنسب الجريمة، وله ميزة أنه لا يطبق إلا على الجاني، في حين أنه في كثير من الحالات، احتجاز رب عائلة فقيرة يؤدي إلى خراب هذه الأسرة. يمكننا استخدام هذه الحجج للحفاظ على التشريعات القائمة في إفريقيا في هذا الصدد، ومن هذا المطلق تحدث السيد لورانس، الذي يستشهد به السيد كتوزل⁽²⁾ عن الضرب.

ولكنه لم يخطر ببال السيد لورانس، أو أي شخص عاقل، الخلط بين القاعدة والتعسف في تطبيقها. لكن لا يحاولون أن يجعلونا نصنف، من خلال التفتيش البالية على حساسية أهل الخير، أن السكان الأصليين لا يكونون سعداء إلا عندما يتم نهب أموالهم وسحقهم تحت العصا.

(1) وهذا يعني أن لاصري أخذ المجوهرات لنفسه كدائن للضرائب بالتقاضي الذي ستقرر به هذا ما نفهمه من تفسيرات المشير كتوزل الذي عارض أن تظهر هذه المجوهرات في الضريبة، رغم أن الذين دفعوا هذه الضريبة طلبوا أن تظهر. اعتقد أن عرض المشير جنير بالتنازل، لأنه كان يظن أن تظهر كمن المجوهرات سيؤدي إلى تجارة متنوعة ورغب في تجنب ذلك (تفسيرات المشير كتوزل، صفحة 69). ولكن الطريقة التي استخدمتها القيت عليه رغم

والخواسب وقبائل أخرى من ضواحي تلمسان، وحتى قبيلة بني عامر، لكن كان علينا التخلي عن هذا الأمل، بعدما هوجم العديد من مواقعنا المتقدمة، مما أكد للمشير أنه لا يزال محاطا بالأعداء. من الوهلة الأولى أين أظهرت هذه القبائل رغبتها لموالاتنا تسرعنا إلى مصادرة خيولهم، مما أدى بهم إلى الابتعاد عنا. ارتكبنا نفس الأخطاء مع رجال أنجاد الذين جاءوا ليعرفوا المشير بشيخهم، طفل صغير، الابن الأخير للغوماري والوحيد لعائلة مات كل أعضائها في مقاتلة عبد القادر. الأشخاص الذين كُلفوا باستقبالهم والتحدث معهم قابلوهم بغطرسة، ولم يجدوا الحصان المهدى للمشير جيلا بما فيه الكفاية، وأمروهم جلب آخرين، ليس فقط للمشير، ولكن لأتباعه أيضا. ذهب هؤلاء الرجال مع الوعد بالعودة بما طُلب منهم، ولكن ذهبوا فوراً عند عبد القادر ليأبىعوهم.

ماذا حدث في تلمسان بشأن الضريبة لم يكن ليزيد من عدد أنصارنا، فقد سجنوا حتى بورسالي، قائد المشوار، لكن سرعان ما رأوا أن السجن لا يكفي، فاستعملوا التعذيب الجسدي⁽³⁾. المساكين الذين أخضعوا

(1) وهذا يعني الضرب بالعصا، ما يسميه التواء كتوزل في تفسيراته وسيلة لإكراه الناس العاديين في إفريقيا. صحيح أن الضرب بالعصا شجع به الأحكام والقوانين للتجرائم والجحش، وتلصق به، لكن في مجال الضرائب هذا

الحياة ويعلم بالنصيب الذي يجب عليه أن يدفعه، ويتعرض للضرب بالعصا حتى يدفع. غالبا ما كان يستدعى الفرد نفسه عدة مرات، إما قنوا أنه لا يزال عنده أموال. وكان يجري كل هذا باسم فرنسا، فتم الجيش بالحجل والسخط.

لما أخذ كل ما يمكن أخذه، وأصبح جلياً أن العصا لن تأتي بالمزيد من الأموال، أعلن عن التخلي عن الضريبة، وسيتم اقتطاع المبالغ التي دُفعت بالفعل من الضريبة السنوية لباليك تلمسان، والذي حدد بـ 200.000 فرنك⁽¹⁾؛ دُفع مبلغ 35.200 فرنك نقداً، الوارد من الضريبة، للمتصرف في صندوق الجيش، الذي تلقى الأمر بتسليمه

نوابه الحسنة وشجعت هذه التجارة الممنوعة، لأن لاصري الذي كان في الواقع دون مناقش، اشترى بالسعر الذي أراده من أناس تحت العصا يفترض أن يكون تقدير المجوهرات أكثر عدلاً لو دفع للضرائب مباشرة، مما كان يحول دون استعمالها لمصلحة شخصية.

الحاجة التي كان فيها الكولون على اللجوء إلى مجوهرات نساتهم لتسديد الضرائب بالتأكيد قليل مقنع على فقرهم. يبدو أن المشير كلوزل كان متأثراً بذلك في الأول، ولكن يبدو أيضاً أنه أقتنع أن هذا لا يثبت شيئاً، لأنه يقول في تفسيراته، في الصفحة 47، "في أفريقيا، نذهب إلى السوق بالمجوهرات"، الشيء الذي لا اعتقد أن أحداً شاهدته قبله. ربما هناك خطأ مطبعي أو مداخلة في النص.

(1) يوجد هذا القرار في رسالة من المشير كلوزل إلى مصطفى بن مقلش. يبدو أنه منذ ذلك الحين صدر أمر مؤرخ في 6 فبراير، والذي حدد بـ 150.000 فرنك الضريبة المفروضة على سكان تلمسان كرسوم المشاركة في الحملة

لمصطفى بن مقلش، المعين. بايا تلمسان يوم 1 فيفري فقط. لكن لم تكن تلك هي وجهتها: 29.000 فرنك دفعت بها أجور الجيش، بين ما دفعت 6.000 فرنك لقائد المشوار.

هذا المبلغ من 35.200 فرنك هو الجزء الوحيد لاستعمال الضريبة الذي تم الاعتراف به قانوناً من قبل السلطات أثناء إقامة المشير كلوزل في تلمسان⁽¹⁾.

ولمصلحة حاميه المشوار. وينص أيضاً على أن هذه الضريبة ستسدد لتلمسان بعد جباية أموال الباليك.

تم تجاهل هذا المرسوم، الذي لم ينشر في أي مكان، عندما تمت طباعته في مكتب، من دون اسم المؤلف، والتي تم ذكره في الحاشية في الصفحة 54. مع ذلك، نرى في تقرير لجنة الموازنة في 1837 أنه تم إرساله إلى الوزير، يوم 14 فبراير 1836. يوم 28 من الشهر نفسه، أعطى أمر حقيقي هذه المرة ونشر في صحيفة أعمال الحكومة، لضريبة تلمسان، المحددة دائماً بـ 150.000 فرنك، بالكثير وضوح صفة القرض القسري. كل هذه الأفعال الوهمية التي كُتبت بعد فوات الأوان تثبت الحاجة التي شعر بها المشير لإضفاء صفة الشرعية على حدث لا شرعية له. وأخيراً يقول تقرير لجنة الميزانية أن المشير، الذي علم جيداً طبيعة هذه الضريبة بعد شكاوى الرأي العام، كان في حاجة لوضع حد للنقاش. ونتيجة لذلك، تم الإعلان عن تسديد الضريبة غير المستعملة في صحيفة لومنتور. تم التصويت على الأموال من قبل الغرف لتسدد كلية، بناء على بيانات الدخل المقدمة من طرف الجباة، والتي تبلغ 94.444 فرنك فقط، ولكن حتى الآن لم يتم تنفيذها بسبب تشتت ذوي الحقوق.

(1) لم ترد إلى الإدارة أي معلومة رسمية حول ما أنتجته الضريبة، ناهيك

بينما كان المشير على الطافنا، جزء من عرب تلمسان الذين أتوا بهم جيشنا إلى هذه المدينة يوم 17، غادروها من جديد للإفلات من الأتراك الذي سُلط عليهم. كان الكولوغلي على وشك أن يخلدوا حللهم، لولا

عن 35.200 فرنك المنقوعة لأمين الصلوق. جعلها الإعلان عن التطر عن الضريبة تعتقد أن هذه الثروة تركت للباي الذي عهده السيد المشير. لكن سرعان ما علم أن هذه الثروة كانت تتبع المشير إلى وهران منقولة في سيارة إلى مقر القيادة. في وقت لاحق، تم اكتشاف أن لاصري ذهب من وهران إلى الجزائر، وصرح للجمارك 110.000 فرنك من الذهب والفضة، وأنه تم بيع المجوهرات عند السادة باكوي وبلار، تجار في الجزائر وأن لاصري نقل غيرها من المجوهرات إلى تونس. مما أفضى بعض الشائعات التي لا محالة جرحته. ويتروك على ذلك هذه التفسيرات التي أرغمت هذه الشائعات أن يعطيا في حاجة لإعطاء قيم المجوهرات والأشياء الأخرى مثل الفضة التي نقلها لاصري من تلمسان، ينبغي تبديلها نقدا من جانب واحد، ومفاد هذا أن لاصري كان عليه أن يحصل على المقابل النقدي لهذه المجوهرات ويضعه للباي على هذا الشكل إلى غاية المبلغ النقدي في حدود المبلغ المدون في دفتر الإيرادات لقيضة الضرائب الذي تمثله هذه الثروة، أو بالأحرى الذي هي رهنه. ومن أجل سلامة هذا الرهن، وضعه المشير في إحدى عرباته. ولكنه لم يشارك مباشرة في العملية التي رغب أن تكون الإدارة الفرنسية بعيدة عنها؟ فهل من المستغرب أن يعترض الناس الذين لم يكونوا يعلمون ما يدور في ذهن المشير بعض الشكوك الغامضة والمؤلمة؟ سوء الظن هذا أمر مؤسف ربما، ولكن ألم بسببه السيد كلوزل نفسه؟ ألم يكن أول عمل لأول قيادة له في إفريقيا معاندا، في هذا الصدد، تشهير سلفه؟ ثم في قضية تلمسان، ألم يكن من الطبيعي أن العنف المرتكب، المشير للتوعى، جعل العقول أكثر شكا؟

أنهم لم يكونوا مشتبهين عند عبد القادر. وفي اليوم نفسه الذي قرر فيه إنهاء الضريبة، تجمع حشد من هؤلاء الساكنين وأغلقوا الشارع أين يقطن المشير، هاتفين بأنهم أظهروا الولاء لفرنسا بحسن نية، وإذا كنا نريد معاملتهم بدون شفقة، كأعداء أخضعوا في المعركة، ستغرق بين القبائل.

لم تكن هذه سوى كلمات فارغة انتزعها اليأس، لأن الساكنين كانوا يعلمون يقينا أن حاجة القاهرة لجبرهم على القبول في تلمسان. كانوا قد عَيَنوا للإثبات للسكان الأصليين أنه من الأفضل لهم أن تكون أعداءهم من أن تكون أحبائهم.

هذه الحقيقة المحزنة تدوم منذ تسع سنوات، ولتخفى أن يتغير هذا الحال من أخطاء وأفعال تستحق تسمية أقيح.

رسائل وجدت على بعض العرب الذين قتلوا في معركتي الطافنا أعلمت المشير أن عبد القادر استعمل كأعوان في هاتين الحالتين معاربة من ضواحي وجدة.

لذلك إن يلوم المشير سوى نفسه بعد الإشاعات التي جرحته كنت أودّ السكوت عن حكاية تلمسان، لكن لما كان ذلك مستحيلا، كان علي أن أعطي تفاصيل كافية لكي يتسنى للقارئ فهم طبيعة حدث استقطب الاهتمام في فرنسا. ولم أذهب أبعد من ذلك.

كتب المشير لقايد هذه المدينة التي لا تبعد إلا بثلاثين ميلا عن تلمسان، ليشتكي من هذا الخرق للحياة، وكانت عاقبة هذا الأمر مهمة العقيد دو لارو إلى مكناس.

حتى وإن لم يستطع المشير أن يؤمن الاتصالات بين تلمسان وهران، ولم يقم سيطرة فرنسا على المنطقة، إلا أنه أصر على مشروع إقامة حامية فرنسية في المشوار. كان في الإمكان أن تصبح هذه الحامية مفيدة، لو عرفنا كيف نجمع حولها وحول الكولوغلي أهالي أصدقاء. كان ممكنا التوصل لذلك، لكننا فعلنا كل شيء للوصول إلى العكس. حيث كان ربما من الأجدر هدم المشوار واصطحاب الكولوغلي وعائلاتهم إلى مازغران، كما فكرنا في ذلك حينئذ، لكن عندئذ كنا سنسلم المدينة بأسرها لعبد القادر، ويصبح هدف الحملة تخليصه من الكولوغلي. بهذا نرى أنه عندما نخطئ بداية، لا يبقى لدينا نهاية إلا الخيار بين الأخطاء.

قبل مغادرة تلمسان، جمع المشير العرب والكولوغلي وحثهم على التعايش في السلم، قطبوا تلقائيا ما قيل لهم. ربما القمع الذي تعرضوا له بدون تمييز أذهب الأضغان القديمة التي كانت بينهم.

بعدما مؤن المشوار بوفرة وعززت دفاعاته، أوكلت قيادته للقيب الكفء كافينياك. بعدها خرج الجيش عائدا إلى وهران، يوم 7 فيفري،

عملا معه مثولة شمانية أيام، أي كلما كان متوفرا تقريبا في مدينة لم تصلها المؤن منذ شهر. من أجل خداع العدو أو لمعرفة جزء آخر من البلاد، لم يرد المشير أن يأخذ الطريق التي أتى منها، سار على طريق معسكر وأثار الشك عن نواياه عند السكان الأصليين. سار الجيش بجناحه الأيسر في المقدمة، ويات قرب واد أميغر ليلة 7، وليلة 8 قرب واد سيرة، في أماكن أقرب بكثير إلى منبع النهرين من حيث عبروا قبل شهر. وكان هذين اليومين متعبين جدا، بسبب صعوبات الطريق الذي يختار أرضا جرد وعرة. قوات الهندسة العسكرية أزاحوا الحواجز بفضل قوة عملهم. يوم 9، وصل الجيش بلى تجاوز ذروة الجبل الكائن بين وهران وتلمسان، ويات بالقرب من منبع ريو سالادو، أبعد من المكان الذي يفرق فيه طريقي وهران ومعسكر. في ذلك اليوم، جاء المئات من فرسان العدو للمناوشة مع مؤخرة الجيش. في الليل، تسلس بعض العرب إلى المعسكر وسرقوا أسلحة.

يوم 10، استأنف الجيش سيره، إلا أن العدو ظهر بأعداد أكبر من أمس ذلك اليوم. على الثامنة صباحا، أتى عبد القادر نفسه ليهاجم مؤخرة الجيش بأعداد معتبرة. لكن لم يكن له أن يوقف مسيرته لولا العقبات التي اعترضت طريقه والتي تطلبت أعمالا كبيرة. حينئذ كانت هندسة الجيش منهكة فيها بتفانيها واهتمامها العاديتين، تموقع اللواء

الذي كان يقوده بيرغوا، والذي كان يشكل مؤخرة الجيش، بعد هجمات العدو. عندما أصبح إطلاق النار أكثر حيوية، حدث حادث ليس له أهمية تذكر في حد ذاته، ولكنه يثبت خفة العقل وتقارب الطباع بين الشعبين المتحاربين. فجأة خرج خنزير يجري، خائفاً من ضجيج الأسلحة النارية، ومر بين الخططين العربي والفرنسي، أوقف المتقاتلون على الفور إطلاق النار على بعضهم البعض، وبدتوا توجيه طلقات على العجل الجديد، مع تبادل النكت من جهة لأخرى، لما نجا الحيوان بنفسه، استأنف القتال. كما يفعل المرء في الصيد.

لما انتهت أعمال الهندسة، واصلت قافلة الأمتعة سيرها تحت حماية اللواءين، ولما ابتعدوا مسافة كافية، أمر المشير المؤخرة أن تدخل في الخنادق، بينما كان يحتل هو المرتفعات مع اللواء الثاني. ضاعف العدو حينئذ في حماسه وجدد هجماته، وبدأ مصمماً على تكبيدنا خسائر كبيرة. لكن المشير، دون أن يقحم قواته، شل خصمه بمناورات. أمر كل الجيش أن يتراجع بتدرج، دائراً تارة على جناح، وتارة على جناح آخر، مقدماً دائماً للعدو شوكة تستطيع الالتفاف به.

لما أدرك عبد القادر عجزه أمام هذه المناورات سحب جيشه بعيداً عن مدى المدفعية. استأنف الجيش سيره وبات معسكراً في آخر سفوح المرتفعات. في تلك الليلة، هوجمت بعض المواقع. في اليوم التالي، يوم

11، وصل الجيش إلى سهل غرب سيخة فمسكر على بعد ثلاثة أميال من بريدية. كان ذلك آخر يوم من الحملة. يوم 12، دخل المشير إلى وهران.

بهذا انتهت حملة تلمسان. القوة المادية لعبد القادر لم تضعف إلا قليلاً، بينما ازداد نفوذه المعنوي مما حزننا من اعتبار بسبب إجراء مشنوم. لكن المشير نشر إعلاناً يصرح فيه بتخيم أكثر مما يقول الحقيقة أن عبد القادر لا يفكر إلا أن يخفى في خواتم الأطلس والصحراء ثمرد وحياته، وأن الحرب قد انتهت.

في الحقيقة لم يكن في تصرف عبد القادر لا خيانة ولا تمرداً، بل كان من طرف السيد المشير قصوراً عن سحقه، لأنه ترك له دائماً أسبقية الوسائل المعنوية التي لم يعرف أبداً السيد كلوزل استعمالها.

أثناء الحملة التي رويناها، كانت جماعة وفيرة من فرسان قبيلة الغراية تناور في الريف قرب وهران، وهاجمت مرتين فرق الحامية اللوالية ذهبن بحططين، وأين قتل بعض الرجال. الدواير والزماله، المحرومون من مقاتليهم الذين تبعت أغليتهم الجيش، كانوا مرغمين على اللجوء بين المواقع المحصنة والمدينة. ثم هذا التحرك ليلاً وقوضوها. صراح النساء والأطفال بلغ حتى الموقع المركزي أين نشر الرعب، رغم أن العرب لن يجرؤوا أن يهاجموا هذا الموقع.

في أواخر فيفري، عاد المشير إلى الجزائر أين كان عائدا منذ ثلاثة أشهر.
ترك اللواء بيريقو في وهران وكلفه أن يخرج ثائرة بال جيش إلى البراري. لم
أن اللواء دارلانيج بقي دائما حاكما لإقليم وهران.

قبل أن يغادر، ذهب المشير لزيارة رشفون، أين قرر إنشاء موقع محصن
عند مصب الطافنا تحت رعاية اللواء دارلانيج، الذي كان عليه فتح خط
اتصال بين تلك النقطة وتلمسان، ما لم نستطع تحقيقه من تلمسان بعد
أكبر من الجنود من أولئك الذين تركوا في مقاطعة وهران. الزواف وفرق
النخبة المشكلة في كتائب صعدت في الباخرة إلى الجزائر.

كان اللحم مفقودا في وهران. كان الدواير والزمال، حلفاؤنا الوحيدون،
مرهقين، وكان العرب الآخرون يتعدون بعناد عن أسواقنا. كنا ملزمين
أن نذهب لنحضر بأنفسنا ما متعنا منه. يوم 23 فيفري، خرج اللواء
بيريقو من وهران مع 4000 جندي، وسار نحو السبخ يسير حيث على
الطريق المتوسط بين طريق معسكر وطريق طليلات. وصل إلى ضفاف
الواد في صباح يوم 24. الغرابية، الذين أذهلتهم المفاجأة، فروا إلى الجبال
عبر مخق الكروفي، تاركين قطعانهم. لم نلاحقهم إلا قليلا، لأن الجنود
كانوا جد متعبين. قضى اللواء بيريقو ليلته في الموقع المحصن الذي شيد
أثناء حملة معسكر، والذي لم يتجه العرب لتدميره. في صباح اليوم التالي،
25، أراد هذا اللواء أن يتقدم في طريق الهيرة، غير أن الصعوبات التي
وجدناها في توجيه القطعان التي غنمناها من العدو ألزمتنا على العودة

على أدراجنا، وباتت تلك الليلة في طليلات. حدث اشتباك حفيف في
غابة مولاي اسماعيل، في الليل، بحث عبد القادر بعض الجنود وحدث
تبادل لإطلاق النار مع الكتيبة 66 للمخط التي كانت متوقعة على تلك
يوم 26، شرع الطابور في العودة إلى وهران، أين وصل نفس اليوم. تبعه
العرب لبعض الوقت، مع إطلاق النار من بعيد. جلب معه حوالي ألفي
رأس من الماشية، مما أعاد الوفرة.

خرج العقيد كومب من مستغانم مع جزء من الحامية، قدور المخفي
وبعض العرب يلتقي باللواء بيريقو، إبراهيم باي والمزاري، الذين
قادروا وهران بحرا نحو مستغانم، أجبروا أن يتوقفوا في أرزيو في
هذا الميناء. أخبروا بتحريك العقيد كومب، فذهبوا للقاءه. لما وصل هذا
العقيد إلى السهل، علم أن اللواء بيريقو قد انسحب إلى وهران. فعاد إلى
مستغانم دون أن يلتقي العدو. يوم 14 مارس، خرج اللواء بيريقو للمرة
الثانية من وهران مع الكتيبة 11 للمخط، الكتيبة 66 للمخط، الكتيبة 17
الخفيفة، بعض سرايا قناصي إفريقيا، ثلاثة مدافع ميدان، ثلاثة مدافع
جبلية وفرسان مصطفى بن اسماعيل. بات في يتبع غديل، ثم يوم 15،
توجه نحو المقطع، مروراً بأرزيو القديم ومعسكر ما وراء الواد.

يوم 16، انضم إلى العقيد كومب والباي إبراهيم والمزاري اللذان
راسلها وأمرها بالتحرك. حدث ملتقى الجيشين في مكان يدعى آسيان

الجزء الأول

(الآبار). كان مع العقيد كومب 700 رجل من ال 47 للخط، بينما لم يكن مع المزارى وإبراهيم سوى 150 من المشاة و 50 فارسا. ظهرت في ذلك اليوم فرقة من العرب، من قبائل بني شغران، وحبيب شراقة، وحيان وبورجيين، تحت قيادة أحد ملازمي عبد القادر. سار مصطفى إبراهيم والمزارى مع مساندة الطابور بأسره نحو العدو الذي أبعده إلى ما وراء الهبرة، بعدما سقط له حوالي أربعين رجلا. من بين الموتى، كان قائد القلعة، محمد بن جليل، وحامل الراية، أخذت رايتين. بات الجيش في الضفة اليمنى للهبرة، قبالة الموقع الذي احتله المشير كلوزل يوم 3 ديسمبر، في طريقه إلى معسكر. نزعنا للعدو ثيرانا وكباشا وحوالي خمسين حصانا. كانت نتيجة هذه المعركة خضوع البورجيين.

يوم 17، توغل الجيش في جبال بني شغران. استعملت في هذه العملية الخيالة الفرنسية والخيالة المحلية و 1600 من المشاة. خطفنا لبني شغران ماشية، خيم وقطع من الخبز، كما سينا 43 امرأة وطفلا. في تلك الأمسية، جاءت قبائل حيان، بني غادون وجزء من بني شغران ليعلنوا خضوعهم لنا. قرر اللواء بيرغو المكوث على ضفاف الهبرة لإعطاء الفرصة لقبائل أخرى أن تبدي رأيها. استغل المشير هذا الوقت لبناء موقع محصن، لأن التجربة أثبتت لنا أن هذه المنشآت تقيدنا كثيرا في حملتنا، ولا تتطلب المكوث فيها على الدوام. لأن العرب

لا يحسنون استعمالها للدفاع عن أنفسهم ولا حتى يكلفون أنفسهم بتدميرها.

لما كان اللواء معسكرا على ضفة الهبرة، جاءه سكان أرزيو⁽¹⁾ القدماء، الذين كانوا متفرقين في سهل صراط، يطلبون منه الإذن بالعودة إلى ديارهم التي بقيت مهجورة. فأعطي لهم الإذن بذلك، شريطة احترام قوانين النظام العام، لكن الأحداث التي ألغت نجاحات اللواء بيريجو لم تمكنه من الاستمتاع بذلك.

لو نجحت هذه العملية، لكانت أول مرة تنجح فيها حملة عسكرية فرنسية في إعادة إعمار مدينة في إفريقيا، لأننا حتى تلك اللحظة لم نحسن سوى التدمير.

يوم 21 مارس، غادر اللواء بيريجو الهبرة وأقام عند ماضر، المتمون ل قبيلة المجاهر القوية. يوم 22، تقدم إليه سيدي شعبان وليد العربي، ابن المتوفى سيدي العربي وشيخ القبيلة التي تحمل نفس الاسم، رفقة قائد مقالية. هذا الحدث المهم ضمن خضوع تقريبا كل سهل الشلف. منذ ذلك الحين، مسيرة اللواء بيريجو كانت تشبه التجوال. انضم العرب

(1) يتعلق الأمر هنا بما نسميه أرزيو القديم، وليس بالموقع العسكري الذي نسميه أرزيو والذي يسميه العرب المرسى (الميناء). انظر الكتاب الثاني لحوليات جزائرية.

بجمعهم إليه، وأصبحت البضائع متوفرة في سوقه، والتصالاته مع مستعظمي
من أين كان يحصل على ما لم تستطع القبائل توفيره له، أصبحت آمنة. استطاع
هذا اللواء بكرامته وشأسته، وكذا عدله الصارم والانضباط الذي فرضه
على جنوده، أن يحصل على حب وتقدير السكان الأصليين الذين أصبحت
احتياجاتهم وقضاياهم في علمه بفضل مثيرته وعمله الدؤوب.

يوم 24، غيّر موقع معسكره إلى الواد الصغير إلى، ويوم 25 إلى المينة أين أقام
يوم 26، أين جاءت لزيارته كل عائلة سيدي العريبي. يوم 27، بات في صور
كرميتو، على الضفة اليسرى للشلف، بين المينة والبحر. ذلك اليوم، أجبرنا
على مقاتلة فرقة من قبائل بني ذروال التي جرحت لنا عشرة رجال، من بينهم
المزاري. هُزم هذا العدو الضعيف بسهولة، ولكنه تراجع إلى الجبال ولم ينجح
لنا.

صور كرميتو، أين عسكر الجنود يومي 28 و 29، هو مدينة رومانية قديمة
ومهجورة، وتوجد في موقع جميل يشرف على الشلف. يوم 30، ذهب الجنود
إلى ينبوع شيدية، ناركين مستغانم على اليمين. بعد أوامر جاءت من الجزائر،
خُففت تعداد حامية مستغانم إلى 400 جندي، ما لم يرق للياي إبراهيم. بات
الجيش يوم 31 في غديل ودخل وهران يوم 1 أبريل.

دلت هذه الجولة السعيدة على كل ما كنا نستفيد منه في حملة معسكر من قبائل
الشلف، لو علمنا كيف نتصرف معها، لأن هذه القبائل أقل تشبهاً بعبد القادر.

لو أعطيناهم بأيا منهم وليس تركيا وحرفنا القليل من الأموال لتتصيه، لكوننا
قوة عربية منافسة للأمير. من بين كل ألويتنا التي كانت موجودة في إفريقيا في
ذلك الحين، كان يريقر الأجدد أن يتم هذه المهمة، ولكنه غادر في الأيام الأولى
لأفريل وتركها غير كاملة لم يكن متعبه واضحا في مقاطعة وهران التي كان
يحكمها غيره، لكي يبقى مدة أطول. بعد مغادرته، أفلكت لثنية القبائل التي
كانت يوما خاضعة لنا، كما سنروي في الكتاب اللاحق.

بينما كان اللواء يريغو يحثي نحو الشلف، خرج اللواء فارلانيج، على رأس
فرقة صغيرة من 1200 جندي، متجها غربا حتى بريدية، أين شيد بعض
المواقع المحصنة. لم يقاتل كما لم يحصل على أي خضوع. كان عبد القادر في عين
الحوت، بالقرب من تلمسان. كان ينتظر هناك فرصة سانحة تمكنه من النصر،
ولم تلبث أن ستحت له هذه الفرصة.

الكتاب 19

عودة المشير كلوزل إلى الجزائر - حملة الأطلس - استدعاء اللواء أوزير
- جوزيف المملوكي، باي قسنطينة - سفر المشير إلى فرنسا - الحملة النعسة
للواء دارلانج - معسكر الطافنا - الهزيمة والقبض على باي المدية الذي نصبه
المشير - اللواء بيجو في إفريقيا - قتال وانتصار في صيكاك - أحداث بجاية -
الغتيال الرائد سلومون.

عند عودته إلى الجزائر بعد حملة تلمسان، وجد المشير كلوزل المنطقة في
الحالة التي تركها فيها، أي تحت ضغط الحجوطيين. يوم 1 مارس، خرجت
من بوفاريك فرقة استطلاعية كبيرة، تحت قيادة اللواء راباتل، مشكلة من
كتيبتين صغيرتين للمشاة، من الفوج الأول لقناصي إفريقيا، الساتس
النظاميين، مدفعي ميدان ومدفعين جبليين، لتستطلع الطريق المباشر نحو
القلعة. عسكرت هذه الفرقة الصغيرة في الشفة، في ليلة 1 إلى 2 مارس.
في الصباح، استأنفت سيرتها بهبوط الشفة على الضفة اليمنى. حوالي 150
حجوطي نحدوا رغم قلة عددهم أن يعبروا الواد ويتبادلوا إطلاق النار مع

وأما إن لم يهاجم لن يهاجم. لكن لما كنا أحياء الأحقاد، لا نهدئها كثيراً
مع ذلك، ظن الوزير الذي كانت تطلعه تقارير مرضية عن إفريقيا،
بأنه يستطيع التغلب من نفقاته وإعادة جيش الاحتلال إلى حدوده
العادية، أي الذي كان عليه قبل حملة معسكر. أرسل التقدم دو لارو، أحد
أمواله، إلى الجزائر بأوامر في هذا الصدد. كان السيد المشير يعلم أكثر من
أي واحد مساوي هذا التدبير غير المناسب، لأن مبالغاته الرسمية كانت
إحدى الأسباب فيه. لذلك، حتى وإن ظهر متحمساً لتطبيقه، بكل ما
في وسعه لتخفيف آثاره وتأجيل العمل به. كنا في شهر مارس، أثناء حملة
بيرغو في الشلف، بينما كان المشير نفسه ملزماً أن يخرج محمد بن الحسين
من الورطة التي أدخله فيها. هذان السيان كانا كافيان لعدم التسرع،
أظهر مزايهما، وبعد تعيينه للعودة إلى فرنسا كلا من الكتبة 13 للخط
وال 66، وال 59، والكتبة الثلاثة لإفريقيا وبعض فصائل الانتظام،
قرر تأجيل الذهاب إلى ما بعد نهاية حملة بيرغو وكذا الحملة التي كان هو
بنفسه يفكر فيها.

هذه الأخيرة، التي كانت شأن الخاص والعام، كانت تبدو أن تؤدي
بنا إلى المدينة ومليانة. لهذا فقد تكلم المشير بهذا الشأن بطريقة لا مجال
للشك بعدها.

مؤخرة الجيش. تركناهم يتقدمون إلى أقرب من نصف ميل، ثم قام الفريق
بمهاجمتهم ومجاوبتهم بفريقين من القناصين، بينما اجتاز الواد السيل
الذين كانوا على رأس الطابور ليقطعوا عنهم طريق الانسحاب. عاد
العدو أدراجهم، عابرا الواد ملاحقا من القناصين، لكن أحد الفريقين
الذي هاجم متوقفا، وجد نفسه متفصلا عن الثاني الذي كان في مساندة
استدار عندئذ الحجوطيون وحدث اصطدام عنيف.

لما التحقت الفرقة الثانية بالأولى بدأنا بالتراجع نحو الطابور. استغل
اللواء رابائل هاتين الفرقتين عند عبوره الواد مع بقية الحيلة الفرنسية.
دخل السبايس في مستنقع فأوحلوا فيه، فلم يشاركوا في هذه المعركة
الصغيرة التي مات لنا فيها قناصان وسجلنا فيها خمسة جرحى، من بينهم
ضابط. دخلت الفرقة الاستطلاعية إلى بوفاريك في الأمسية.

في اليوم التالي، تفقدت ضفاف واد بوفاريك، بين منبع الواد والمعسكر،
لكن لم نجد عدوا. فقد العرب ثمانية رجال في معركة 2 مارس. من بينهم
قدور بن لوطو، مهاجر من بني موسى.

هذه العراكات المتعددة في إفريقيا لم تكن تعني شيئا ولم تكن تحتمل
مصالحتنا. كان اللواء رابائل يحسب ذلك، رغم أنه اغتنم الفرصة لإظهار
شجاعة مميزة. أبلغ الحجوطيين مسبقا أن تحركاته في الشفة غير عدوانية،

لكن حينما أتت لحظة التنفيذ، وبعدما تذكر ما حصل له في العطاء، علم أنه من الخطر على سمعة اللواء أن يعلن دونها حاجة على مشاريع قد لا يمر على التخلي عنها، لذلك أطلق على حملته لفظ استطلاع والتي لم توجب شيئا يذكر. يوم 29، اجتمعت أربعة ألوية صغيرة في بوفاريك، تحت قيادة الألوية ديميشال وبرو، والعقيد كوتيفغاس وهكت.

غادرت في صباح يوم 30 واتجهت نحو مزرعة موزاية، وكانت الطليعة تتقدم بقية الجيش بميل.

أطلقت بضع طلقات من الحجوطيين عند واد الشفة. بعد أن عبروا رأى المشير على اليسار، عند سفوح الجبال، عددا كبيرا من العرب والقبائل على استعداد لاستقبالنا. أراد أن يهاجمهم السبايس المساعدون الذين تقدموا الجيش للهجوم على الفور، ولكن رأى أنهم كانوا يتبادلون إطلاق النار مع العدو ببساطة، فقرر إقحام السبايس النظاميين بقيادة اللواء راباتل.

عند وصوله إلى مكان المعركة، لاحظ اللواء أن العدو محمي بميل عميق بها فيه الكفاية. عبر اللواء حيث لا المسيل، لكن لم يخطو مئة خطوة حتى وجد مسيلا آخر كانت لقبائل مصطفة على حافته. أطلق هؤلاء

النار بكثافة على السبايس وأسقطوا منهم العديد⁽¹⁾. لم يفكر اللواء من تلك اللحظة إلا في كيفية إخراج السبايس من ذلك المأزق. إلا أن الانسحاب دون تعطية من المشاة أمر خطير، فأرسل في استطلاعهم، ومكث يقاتل بشجاعة حتى وصلوا. عندئذ تم الانسحاب بنظام. استأنف الطابور سيره وبات على بعد ميل من موزاية.

في صبيحة يوم 31، وصلنا إلى مزرعة موزاية، وترك هناك المشير كل العربات تحت حراسة مفرزة من الجنود المحكوم عليهم بالأشغال ذات المصلحة العامة، والذين سُلموا أثناء هذه الحملة وأحسنوا التصرف أثناءها.

دخل الجيش في الجبال في الترتيب التالي: الطليعة تحت قيادة اللواء برو، مشكلة من الزواف، الثاني الخفيف، كتية إفرقيا الثالثة ومدفعي جبال، وصار في طابورين. سلك الأول طريق المدية المشقوق، بينما استأنف الثاني سيره متبعا خامصات الجبل، على يسار هذه الطريق. صار اللواء راباتل خلف اللواء برو بالثالث عشر الخفيف ومدفعية الميدان وكل الأمتعة التي احتفظنا بها. ومن جهته تابع المشير السير على اليمين مع كل الفرسان، الثالث والستين للخط ومدفعين، وسلك طريق مليانة بعض الوقت، مفرقا بالمدفعية جمع كبيرا من العرب الذين توقعوا فيه.

(1) من بين المعزوين يوجد القليل من كتال، الذي اختارته جمعه رصاصة

دوت الأبواق، وهجم الزواف، مطلقين صرخاتهم القتالية على العدو، بمساندة الكتيبة الثالثة لإفريقيا والثاني الخفيف.

طُرد القبائل من أعلى القمة حتى تدحرجوا وراء الممر الجبلي. وقد حققت هذا مقدمة الطابور المكونة من الرجال الأكثر رشاقة والذين كان حماسهم يسبق أوامر الضباط. بعدئذ، تموقع الجيش على التلال وعسكر هناك.

يوم 2 أبريل، اشتغلت مصلحة الهندسة العسكرية بكل حيوية وهمة على إنشاء طريق يُمكن من عبور الأطلس بسهولة من هذا الجانب، وقد تم هذا العمل تحت حماية المشاة الذين لم يفترؤا في صد هجمات العدو. يوم 3 أبريل، استأنف العمل والقتال. نجح القبائل في انتزاع موقع كان في حوزة 25 قناصا من الكتيبة الثالثة لإفريقيا، لكن سرعان ما استعادوه هؤلاء بمساندة مفرزة من الزواف بقيادة القائد ديمون دردون. عند انتشار خبر وصول الفرنسيين إلى الممر الجبلي، هجر المدينة أغلبية سكانها، باستثناء الكولوغلي، بعض الحضرة واليهود. حيث خرج الشيخ محمد بن الحسين من مخبئه وذهب إلى المدينة أين استقبله الكولوغلي. أعانته في هذه القضية نجل بومزراق، باي التيطري الأسبق، الذي سجنه المشير عام 1830. كان في مقدور هذا الشاب الحازم أن يكون قائدا لفرقة ما، لكن هواء وفجورة أفقدها الاحترام والتقدير من الغير، ولم يكن في وسعه إلا أن يكون تابعا للغير. ناصر في هذه القضية بن الحسين. كتب هذا

اتجه بعد ذلك يسارا واقترب من بقية الجيش الذي توجه بكامله نحو هضبة تتوسط المنحدرات السفلى الخفيفة للأطلس والمنحدرات العليا الحادة. دخل الطابور الأيسر، الذي كان في مقدمته الزواف، في مواجهة عنيفة أسقطت من ثلاثين إلى أربعين رجلا بين قتيل وجريح. قضى الجيش ليلته على الهضبة، بينما نُقل الجرحى إلى مزرعة موزاية التي لم تكن بعيدة من مكان الاشتباك.

يوم أول أبريل، كان الهدف بلوغ الممر الجبلي المدعو الشية، والذي اشتهر اسمه بعد معركة 21 نوفمبر 1839. تلقى اللواء برو الأمر ببلوغ هذا المكان مرورا بالتلال الموجودة على اليسار، رفقة الزواف، الكتيبة الثالثة لإفريقيا والثاني الخفيف. لم تسمح وعورة المسلك بإلحاق المدفعية بهذا الطابور. افتتح الثالث عشر للخط سالكا الطريق المشقوق. وصل اللواء برو إلى التلال، غير أنه لم يستطع التسلق إلى القمم التي تشرف على الممر الجبلي بسبب التعب الشديد للجنود. في هذه الأثناء وصل الثالث عشر للخط إلى أسفل المنحدر، لكن كان من التهور تسلقه بدون تغطية عن اليسار من طرف اللواء برو الذي تخلف. أراد المشير أن يرسل له الأمر بأن يسرع، لكن نظرا لابتعاد هذا اللواء تردد في تعيين الضابط الذي سيقوم بهذه المهمة الخطيرة مع تواجد العدو في كل مكان. تطوع السيد فيلنوف، قائد في قيادة الأركان، لهذه المهمة، وكان جديا معظوظا بالوصول إلى مقصده. تم تنفيذ الأوامر بكل ذكاء وفي التوقيت المحدد.

لم يعد اللواء أدراجه، بل كتب إلى الباي وواعده ليوم الغد في أراضي هذه القبيلة، وكلا الفريقين جاء من طريقه. لم تظهر قبيلة وزرة أي مقاومة، وابتعدت بعدما أعلنت أنها لا تريد لا الفرنسيين ولا البايهم. غضب محمد بن الحسين من احتقارهم له، فانتقم منهم بإحراق منازلهم. بعد ذلك افترقا هو واللواء وعاد إلى المدية أقل إحباطا من اليوم الذي مضى. من جهته، ذهب اللواء للمبيت في زبوج لزهارة.

في اليوم الموالي، 7 أبريل، اتجه نحو الممر الجبلي أين وصل باكرا، من أين استأنف الجيش بأكمله الطريق نحو الجزائر. أرسل جزء قبيلة موزاية الأقرب إلى الطريق ببعثة إلى المشير لتظهر خضوعها، فاشترط منها المشير بعض الثيران وبعض الرهائن الذين سيجندون مع الزواف. ولما لم يحققوا أيا من الشرطين، أمر المشير بإحراق أراضيهم.

بات الجيش في مزرعة موزاية يوم 7، أين استعاد القوات والعربات التي تركها هناك، وتوجه في اليوم التالي إلى بوفاريك. في ذلك اليوم، ما بين مائتين إلى ثلاثمائة حجوطي تبادلوا إطلاق النار مع المؤخرة. قُتل في هذه العملية الصغيرة أحد أبرز قريساتهم، محمد الحاج وليد رابح، الذي عينه عبد القادر قايد. يوم 8، بات الجيش في بوفاريك، ويوم 9 دخل المشير إلى الجزائر. سجلنا في هذه الحملة التي دامت عشرة أيام 300 رجل بين قتيل وجريح، أي أكثر مما سجلنا في حملتي معسكر وتلمسان.

الآخر، عند دخوله إلى المدية، إلى المشير طالبا منه أن يقدم استعراضا لمصلحته، الشيء الذي لم يكن في وسعنا رفضه، بل كانت توافق مشاريع المشير. نتيجة هذا، أرسل اللواء ديميشال إلى المدية قائدا لكل الحيلة، الثالث والستين للخط ومدفعين جبليين. بدأ الفرع على الكولوغلي، ولم يكن مع محمد بن الحسين سوى بعض الفرسان العرب. كانت تقريبا كل المنازل مهجورة، وخيم الحزن والشك على الوجوه.

من الواضح أن عدم فرار الكولوغلي كان راجعا إلى أن هؤلاء لم يكونوا ليجدوا نفس الاستقبال عند العرب كالذي وجده الحضر الذين غادروا المدينة. بذل اللواء ديميشال كل ما في وسعه لعطمان هؤلاء السكان، إلا أن كلماته لم يكن لها إلا تأثيرا محدودا.

توصل إليه الباي بالكوث بضعة أيام، لكن أوامره لم تسمح بذلك. راسل المشير في ذلك الأمر تلك الليلة، غير أنه، في اليوم التالي على الزوال، لم تأت الإجابة، فكان مجبرا على اتباع الأوامر التي تلقاها في البداية واتجه نحو الممر الجبلي، بعدما وزع على الكولوغلي 600 بندقية و 50000 خرطوشا جلبت لذلك الغرض.

عند وصوله في المساء إلى زبوج لزهارة، تلقى اللواء ديميشال الإذن بالبقاء يوما إضافيا في المدية لتأديب قبيلة وزرة التي عارضت عليا الباي الذي عيناه. لما كانت قبيلة وزرة أقرب من زبوج لزهارة منه إلى المدية،

لما انتهت حملتي الأطلس والشلف، أبحر الثالث عشر للخط، والكتيبة الثالثة لإفريقيا وقصائل التأديب إلى فرنسا مغادرة إفريقيا، وجاء الحادي عشر للخط من وهران إلى الجزائر ليعوض الثالث عشر.

غادر المشير الجزائر يوم 14 أفريل، بعدما استدعاه إلى باريس الوزراء الذين خشوا أسئلة مجلس النواب حول قضية الجزائر وأيقنوا أنه لا يوجد أحسن منه للإجابة عن هذه الأسئلة والدفاع عنها. من جهته، غادر الجزائر أيضا مدير الشؤون المدنية، السيد لوباسكي، لكن إلى غير عودة، لأنه لم يكن يتفاهم مع المشير بعد الخلاف الحاد بينهما، سنرد ذلك في كتاب آخر.

سردنا الأعمال السياسية والعسكرية للسيد المشير كلوزل في الجزء الأول من قيادته في إفريقيا، الذي أظهره لنا مهيبا للعدو، كما في 1830، وكذلك طائش ومتهور في علاقاته مع العرب في نفس السنة، لا يعرف البلاد ولم يرد معرفتها، وأخيرا بإعطائه الثقة لأناس ليسوا بأهلها⁽¹⁾. لكن ما كان يغتفر في 1830 مع انعدام دروس الخبرة، هل يغتفر بعد هذه الدروس؟

وضع السيد المشير نفسه كالرجل الوحيد الذي في مقدوره تسيير

(1) انظر المجلد الأول لحوليات جزائرية، الكتاب الخامس.

مسائل مثل كاتنا الإفريقية، واستخدم الصحافة لنشر هذا الرأي، لكن ما لبث أن انقلب عليها لما أصبحت لا تعمله أو تتوفر على معلومات أكثر. في 1833، سافر إلى إفريقيا دون شك ليدرس ويتفقد ويقدر وضعية البلاد وأيضا ليثبت أفكاره ويصن خطة عمل للمرحلة التي سيعود إليها إلى الحكم. كل هذا كان يؤملنا في أن نجد حاكما عاما في 1835 أحسن من اللواء الذي كان كلوزل في 1830.

خلال تواجد المشير في تلمسان، أعطى للرائد جوزاف شهادة باي قسطينة⁽²⁾. هذا التدبير كان السبب في النهاية المؤسفة لسنة 1836 في إفريقيا. في انتظار الظروف التي ستؤدي به إلى قسطينة، كان عل جوزاف أن يسير أمور القبائل التي تحالفت مع فرنسا بفضل الإدارة الأبوية للواء دوزر.

لكن كان جوزاف ينوي استعمال طرق أخرى في عمله والتي لم يكن ليرضى عنها دوزر. تقرر إبعاد هذا الأخير من عنابه، فصح المجال أمام الباي الجديد.

(1) صلب على الحكومة تفكك هذا التعيين، ولم تصادق عليه إلا لاحقا. كتاب الوزير إلى الحاكم العام قائلا: "رغم الشكوى الخطيرة إثر التجاوزات التي حدثت في تلمسان، وافقت الحكومة على ترك جوزاف يتمتع بلبق الباي الذي منعه من أداء كل مناصبه، فقرر أن يسير ويقرض نفسه عليه سبعين في المائة".

السيد دوزر، على غرار السيد كلوزل، اكتسب ممتلكات عقارية عديدة في إفريقيا. مصطفى بن كريم، الذي عوله دوزر ثقته كان في أمين الناس رجلا ذا مكائد ويحب المال. من جهة، كان صاروك، قاضي عنابة، قد أثار بعض الشكاوي ضد شخصه. عند تقريب هذه الظروف الثلاث، أشيع أن ممتلكات دوزر التي اكتسبها عن طريق هذين الرجلين لم تكن نتيجة معاملات شريفة، بل يعني أن اللواء استخدم وضعيته ليمتلك دون أن يدفع الثمن المناسب. كانت تستلزم هذه التهم توضيحات أكثر. إلا أنه كان على السيد المشير كلوزل، الذي كان عرضة لتهم مشابهة، أن يسير بحذر في هذه القضية الشائكة. لكن لم يكن الحال كذلك. وبناء على طلبه، أمضي قرار إنهاء مهام حاكم عنابة وأرسل إلى الجزائر. في الوقت ذاته، كان اللواء دوزر مرهقا من المتاعب التي شلّطت عليه، وقدم بنفسه طلبا للعودة إلى فرنسا. قبل طلبه باستخفاف ولم يخبره، بقرار إنهاء مهامه الذي اعتبر ملغى، وظهر بذلك أنه انسحب من تلقاء نفسه.

كانت المتاعب التي أثّرت حول السيد دوزر تكمن في التحقيق الذي قُتِح ظاهريا في شأن مصطفى بن كريم وصاروك، ولكن في الحقيقة كان اللواء مستهدفا أيضا. كُلف بهذا التحقيق الوكيل العام

الاضطراب الذي أحدثه التحقيق أظهر بعض ميزات اللواء دوزر. عُلِم أنه رغم زيادة أسعار العقارات، تنازل لضابط عجوز يسعر الشراء بأرض استصلحها. عُلِم أيضا أنه لما اشترى قانونيا قطعة أرض على صاحبها الذي كان يظنها لا تصلح إلا للرعي، دفع ثلاث أضعاف السعر للبائع، دون أي ضغط من أي جهة، بعدما عرف أن هذه الأرض تصلح لأغراض أخرى وأن مالكها الأسبق لم يعرف قيمتها.

(1) أتهم مصطفى بالتسليم وتبديد ممتلكات مستحقة عليه.

(2) عُلِم دائما أن الممتلكات مصطفى لم تطل سوى هذه المجالات (انظر الجزء الثاني من مذكرات جزائرية، ص 69).

الجزء الأول

انتقد اللواء دوزر لعدم وجود ما يكفي من التحسينات المادية في
عناية، واستخدام العناصر العسكرية في غير الأشغال المنوطة بها. وهذا
النقد مبرر أكثر من غيره، لأنه في الواقع، في جميع أنحاء الوصاية، عناية
هي المدينة الوحيدة التي قام فيها الجنود بأقل أشغال ذات منفعة عامة.
وكان للسيد اللواء دوزر أعداء من بين المستعمرين في عناية. هؤلاء
الأعداء اعتبروا لطفه مع المواطنين الأصليين وتعاطفه معهم جريمة،
تكاد تكون خيانة في رأي البعض من الناس. مؤسفة جدا هذه الكراهية
الوحشية التي تحرك هذا العدد الكبير من الأوربيين ضد أناس لدينا
الكثير من المصالح المعنوية والمادية في جلبهم إلينا. أشرنا إليها في العديد
من المرات ولأن نغتر في الاستمرار في قتالها.

السيد دوزر يحب العرب وكان هؤلاء بحونه أيضا ولكن لم يتردد في
قمع اللصوصية بقوة، عندما يتجرؤون على ذلك، لكنه لم يكن يسمح
أن يُرتكب ضدهم أي ظلم. بعض الأوربيين يمتلك أراضي لم يريدوا
استغلالها حاولوا الربح منها بحجز القطعان التي تذهب للرعي فيها
وحتى التي تعبرها، طبقا لعادات وتقاليد البلاد. وقد اشتكى اللواء في
الكثير من الأحيان من هذا التصرف. ففي يوم من الأيام، حُجز عدد
كبير من المواشي بهذه الطريقة، فأصدر أمرا بتسريحها فوراً.

اعتبروا استخدام القوة العسكرية في المنع السياسي لهذا الظلم الشنيع اغتصاباً.

لما ضُحي باللواء دوزر من أجل مجاملة المملوك جوزاف، ذهب هذا الشاب المغامر إلى عنابة التي دخلها تحت طلقات المدفعية التي قدمت له التحية بصفته بابا. وعُين رئيس الأركان، العقيد دوفيرجي، ليحل مؤقتاً محل اللواء دوزر. أتى هذا الخيار من الدوافع الحقيقية التي استدعى اللواء من أجلها. قاد عنابة العقيد كوريار، من الفوج الثالث لقناصي إفريقيا، بين رحيل اللواء دوزر ووصول العقيد دوفيرجي⁽¹⁾.

سردت في المجلد الثاني من حوليات جزائرية العلاقات المرضية بين قبائل عنابة مع الفرنسيين، تحت إدارة اللواء دوزر. كان بإمكان الأوربيين السفر بحرية في البلاد على مسافة بعيدة، ويمكننا القول أنه باستثناء اللصوص الغزوليين، لم يكن لدينا أعداء في دائرة نصف قطرها خمسة عشر ميلاً. يبدو جلياً هذا الوضع مع إقامة معسكر الدرعان، على بعد خمسة أميال من عنابة، وهي المنشأة التي شُيّدت بعد وقت قصير من وصول العقيد دوفيرجي. حتى ذلك الحين، لم يقيم بجولات خارج عنابة سوى بعض التجار وبعض الضباط الساحين الذين كانوا مشغولين مع أعمالهم وخدمتهم عن قصة سفرهم، تتم فقط من رحلات عنابة. الذين كانوا منهكين أكثر في أشغالهم، بدلاً من

(1) وصل دوفيرجي إلى عنابة في نهاية مارس 1836.

تجنيد 280 في الجزائر، أما بقية كتيبته جندوها باستخدام الصحافة عند وصوله إلى عنابة. تشبه هذه الصحافة تلك التي نجدها في المجر أو في إنجلترا، أين الحرية مترفة، غير حقيقية. جاب أعوانه المقاهي والمحلات وحتى المنازل لاختطاف كل رجل يستطيع حمل السلاح. لهذا الغرض اشتكى السكان الأصليون قائلين أنهم لا يعارضون حمل السلاح للدفاع المشترك، في صفوف الحرس الوطني، لا كجنود باي ليست له حتى الصلاحيات في المدينة. بالفعل، عُيِّن جوزاف بايا على قسنطينة، ليس عنابة التي وُضع سكانها تحت الحماية المباشرة للإدارة الفرنسية. تولى الدفاع عنهم السيد ديزان، نائب المسير المدني، واستعاد من جوزاف كل الرجال الذين جُندوا عنوة. تكونت فرقة مشاة الباي عندئذ من متطوعين فقط، ولم يستطع تجنيد سوى 300 رجل، وكان لجوزاف أيضا سرايا السبايس النظاميين الذين كان قائدهم، وكذا السبايس غير النظاميين المنتشرين بين القبائل الخاضعة لنا.

فور وصوله إلى عنابة، نشر جوزاف إعلانا يخبر فيه العرب بمنصبه الجديد ويطلب من الأشياخ أن يأتوا لمبايعته. من الناحية السياسية، نستطيع أن نقسم منطقة عنابة إلى دائرتين لهما نفس المركز. نجد في الدائرة الأولى الأقرب إلى عنابة، القبائل أو أجزاء القبائل الخاضعة لنا، المعترف بالسلطة

أن يقصوا أسفارهم. لكن معسكر الدرعان جذب الفضوليين، وكان التحدث في كل الصحف على هذه المنطقة المزدهرة. للأسف هذا الازدهار الذي نتج عن تسيير الإدارة السابقة بدأ في الاندثار بسبب أخطاء الإدارة الجديدة، وذلك في الوقت الذي كان الحديث عليه كثيرا. بسبب الحماس أو المكر، نُسب هذا الازدهار إلى جوزاف الذي كان في الحقيقة يدمره. عندما عينه المشير كلوزل في منصب الباي، لم يحدد مهامه ولم يمنحه راتبا ثابتا. لم يكن جوزاف ليشتكي من هذا الأمر، وهو الذي رأى في كلمة باي كل الصلاحيات التي تركتها غامضة السلطات الفرنسية. تمكن حينئذ من خلق خدمات حقيقية في الجيش الفرنسي، على الرغم من شبابه وأعماله السابقة الملتبسة، وظن أنه يستطيع تحقيق ما أراد إذا تُركت له حرية اختيار الوسائل.

أولا، أراد أن يكون له مصرفي، واختار بالطبع لاصري. عقد مع هذا اليهودي صفقة تنازل له بموجبها على مدخول كبير من مداخيل الباي لك مقابل سلفة. كان ينوي أن يكون هذه المداخيل من السطو على القبائل العربية لأدنى الأعداء. شرع الباي في هذا النمط من التسيير فور وصوله إلى عنابة.

أذن له المشير بتجنيد 1000 من الأتراك والكولوغلي والعرب. استطاع

الفرنسية، وكان فرسانها يوالوننا. في هذا الصدد، سردنا في المجلد الثاني بعض التجاوزات لحوليات جزائرية. أما الدائرة الثانية، فتتكون من القبائل التي لا تعترف بسلطتنا، لكنها مسالمة وتربطنا علاقات تجارية حسنة وحسن الجوار. اعترف أهالي المنطقة الأولى دون مشاكل بالباي، رغم تحسّرهم على اللواء فوزر، بينما تناقل أهالي المنطقة الثانية للاعتراف بجوزاف.

أحدى هذه القبائل، قبيلة رجاء، قابلت إعلانه بأعذار، بقولها أنها كانت بعيدة من عنابة وتحشى انتقام أحمد باي إن اعترفت بجوزاف، كما وعدت أن تبقى محايدة على الأكثر وأن تُبقي علاقاتها التجارية مع عنابة. عندئذ قرر جوزاف أن يبدأ عمليات السطو بقبيلة رجاء، ورغب لو أن العقيد كوريار أعانه بالجنود، لكن هذا الأخير لم يتلق أوامر في هذا الشأن، بل أمر فقط ألا يعرقل عمل الباي. لذلك وعده بإرسال بعض السرايا على الطريق الذي يسلكه والتي ستحميه في حال الإخفاق.

سار إذاً الباي نحو الرجاء بجنوده فقط، ونهب الديار الأولى على طريقه أين سطا على 2000 ثور و 1200 كبش. غادر الرجاء أراضيهم بعد هذه الحملة ولجئوا عند بني مهنى، هذا يعني أنهم من محايدين أصبحوا معادين. لما جاء وقت الحصاد، أظهروا للباي خضوعهم ليتمكنوا من

حصص أراضيهم، ولما فرغوا من أعمالهم عادوا عند بني مهنى. بعدما رضي جوزاف بنتائج هذه الحملة الأولى، قام بحملة سطو ثانية بعد أيام قليلة على أولاد عطية، تشابك بعض رجال هذه القبيلة في عنابة مع العيشاوة بشأن امرأة اختطفت واتهموا بأنهم جاؤوا بالقرب من المدينة لتخريب ممتلكات أوروبية. فوجئ ونهب ثلاثة من دوارهم واختطف منهم العديد من الماشية وتسعة أسرى. لم يطلق سراح هؤلاء إلا بقدية.

انتشر الخبر بعد هذا السطو أنه تم القبض على قاتلي الضابطين الفرنسيين اللذين اغتيلوا أثناء جولة للصيد، قبل بضعة أيام، من طرف العرب، لكن القنلة الحقيقيين لم يعثر عليهم أبداً. بعد هذه الإهانة، تلقى أولاد عطية إهانات أخرى من طرف عمال الباي.

نتيجة لذلك، هجر أغلبية أولاد عطية أراضيهم كما فعل الرجاء.

لمت عمليات سطو أخرى مماثلة للتي سردناها على قبائل أخرى.

أحدى هذه الحملات كان لها طابع عسكري أكثر من اللواتي سبقتها، وتتمثل في الهجوم على الرزقي، الذي يترأس أغلبية الحناتشة الذين كانوا يساندون أحمد باي ضد بن يعقوب. لكن في طريقه وجد قطعياً من

هذين الرجلين أعطاه قوة جديدة، بداية بتهدة الأوضاع بعد الضجة التي أحدثتها تصرفاته.

بدأت عندئذ قبائل الشرق كلها خاضعة ومنقادة. وبعد ذلك نصبت مقرزة مكونة من 5 أتراك في القالة، تحت قيادة ضابط فرنسي. هذا المكان الذي كان قديماً مقر الامتيازات الفرنسية أصبح في قبضتنا. أنجز بعض الفرسان الضباط بعض المراسم، مما سهل توزيع البريد والمراسلة بين عنابة وتونس. لم ير جوزاف كل المحاسن التي بإمكانه التمتع بها بعدما يبسط نفوذه و يلبي احتياجاته المالية. لم يتمكن من التفكير في المستقبل بوضع نظام معين، بل كان كل همه استغلال الحاضر. والعقيد دوفيرجي لم يكن له لا الوسائل ولا الإدارة لتسييره. من جهة أخرى أراد أن يدعي لنفسه بعض الانتصارات التي كان يظن بكل مداخلة أن يحققها جوزاف. بذلك أصبح دوفيرجي لا يرى ولا يسمع إلا بجوزاف بعدما تبعه في كل ما يخص عنابة، لكن كان يقول للمقربين منه أن جوزاف يتخذ مخططات وضعه هو العقيد لإخضاع البلاد بأسرها، وما جوزاف إلا معين تحت أوامره.

حينما ظفر جوزاف بحسناوي وتخلص من رقابة دوفيرجي، أصبح جبروته بلا حدود. هذا النمط من التسيير العنيف جلب له أموال طائلة أثناء الصيف، لكن لم تلبث بين يديه إلا قليلاً، لأنه أنفقها في

الثيران، ملك للعناييل، الموالية للرزقي، ولم يتمالك نفسه للاستيلاء عليها. أشهر عرب المنطقة السلاح ضده وأرغموه على التقهقر حتى وصل إلى ميدان مشجر أين التقى بمشاته الذين افترقوا عنه بعد خطأ في التحرك، عاد إلى عنابة حيثل دون أن يزعمجوه.

إذا كانت تصرفات جوزاف تنفر منه العديد من العرب، كانت تجذب إليه بالمقابل بعض الناس، الذين يشبهون قطاع الطريق في العصور الوسطى، والذين ينحازون دائماً للطرف الذي يقوم بالنهب. كان حسناوي خصم الرزقي في قبيلة الحناشة أين كان له رجال كثيرون، وكان يبحث منذ وقت طويل على دعم فرنسي من عنابة. وكان قد كتب في هذا الشأن العديد من الرسائل للواء دور الذي شجعه على المكوث في موضعه والمحافظة عليه حتى تبت الحكومة في شأن قسنطينة. هذا ما فعله الحسناوي. لكن عند تعيين جوزاف، واستقواء حزب الرزقي بعد كل التجاوزات التي قام بها جوزاف والتي أثارت كره العرب له وللفرنسيين، لم يستطع الحسناوي أن يبقى أكثر مع الحناشة، وانضم إلى جوزاف بحوالي 200 فارس. تلقاه الباي بترحيب كبير وأشركه في كل سطوة وأهدى له الهدايا. جلب جوزاف إليه أيضاً القائد سليمان، أحد الملازمين القدماء لباي قسنطينة، الذي لجأ إلى تونس، وهو شخصية مهمة وماهرة. ضم

المهدايا على أولئك الذين كان يظنهم أوفياء له وحاجاته التي لا تدخل في نطاق الميزانية الممنوحة له.

كان للرائد جوزاف كاتبا يدعى خليل، قاضي سابق لعنابة. في الأصل لم يرد هذا القاضي العيش تحت السيطرة الفرنسية، فهاجر إلى تونس عام 1832 عند سقوط عنابة. كانت له مراسلة منتظمة مع الباي أحمد الذي أوكل له بعض المهام. لما علمت السلطة الفرنسية، أجبرت باي تونس على تسليمه لها، فاقنيد إلى الجزائر مع كل المستندات التي كانت في حوزته والتي وجدت في منزله. أغلبية هذه الوثائق كانت مكتوبة بالأرقام والأخرى لم تكن ذات أهمية فضلا عن ذلك لم يكن خليل ليتابع قضائيا، لأنه لم يكن تحت سيطرتنا في أي يوم من الأيام واعتقل في بلاد معاهدة، بعدما حبس بعض الوقت في الجزائر، أرسل إلى عنابة أين وضع تحت الحراسة، أي حراسة السلطة المحلية، لما كان خليل رجلا ذا أهمية، أراد جوزاف ضمه إلى فريقه ونجح في ذلك بعد الإلحاح. لما رأى خليل أفعال جوزاف وتبعه على ذلك، فأصبح مشكوكا في أمره.

في إحدى الليالي، بعد ما قضى السهرة في لعب الشطرنج رفقة الباي في الذرعان، اختطف من عيمته وقطع رأسه، دون أن يعلم الضابط السامي قائد المعسكر بهذا الإعدام. قيل إن خليل أراد أن يستم

جوزاف، لكن لم تقدم أي بينة بذلك، إلا رسالة مزعوم أنها من أحمد باي يجنده بها للقيام بهذه الجريمة. علاوة على ذلك، لم يقدم أي دليل بالشروع في الجريمة ولا حتى النية بالقيام بها، رغم الرسالة المزعومة. أمر جوزاف باعتقال يهودي وعربي بتهمة التواطؤ في الجريمة مع خليل. لكن انتزعتها منه السلطة المدنية وأطلقت سراحهم بعد ثمانية وأربعين ساعة بعدما لم تقدم أي شكوى ضدهم⁽¹⁾.

أقصى موت خليل الرعب في كل مكان، مما أجبر بلقاسم على الهروب من عنابة، خشية أن يصيبه ما أصاب خليل، كان بلقاسم قائد سابقا لسطورا وكان يعمل رقبيا عند السبائس ولجأ إلى الجزائر بالقرب من اللواء رابتل الذي كان يحكم في غياب المشير. كان بلقاسم بدراية كبيرة بما يجري في البلاد، وكان يحظى بثقة اللواء دوزر، وكان بذلك مشكوكا فيه لدى الإدارة الجديدة.

أتى إلى الجزائر وفي حوزته اتهامات خطيرة ضد جوزاف، لكن لم يكثر بها. غير أن السيد ملسيون دارك، المحاسب العام العسكري لجيش إفريقيا، كان قد أشار من قبل إلى أن هذا النشل المستمر للماشية المرتكبة من طرف جوزاف كان في مصلحة التموين الجيد للجيش.

(1) من الشك أن يكون أحمد باي لقم على اغتيال جوزاف، الذي كانت سياسته القسرية تقتضيه. ومن جهة أخرى، لم يكن لجوزاف أي مصلحة في اغتيال خليل، لأن يكون قد مكر به أحد أعداء خليل من العرب. هذا هو الرأي الذي كان منتشرا آنذاك بين السكان الأصليين.

كان الجزء الكبير من هذه الماشية يصدر إلى تونس أو يباع مباشرة إلى المالطين، مما أثار مخاوف السيد ملسيون أن تستنزف ثروات البلاد بناء على هذا التقرير، أرسل الوزير للواء راباتل طالبا منه منع تصدير الماشية في شرق البلاد حتى إشعار آخر، وأمضي قرارا في هذا العدد يوم 20 جويلية. وأصبحت السلطة المركزية بهذا في وضعية تسليحها لمكافحة التجاوزات التي هي مسؤولة عنها في البداية. كما بعث الوزير برسائل توبيخية إلى جوزاف، لكن هذا الأخير لم يكثر بها، لأنه كانت لديه رسائل من المشير تدغم ما كان يقوم به⁽¹⁾.

هذا النظام العنيف والمتهور أتى بشواره أخيرا: ابتعد عن عدد كبير من العرب اقتداء بالرجات وأولاد عطية. أما أولئك الذين كانوا يظهرن الخضوع لنا، كانوا على اتصال سري بأحمد باي، الذي طلب منهم التريث قليلا، حالما يأمرهم ويمكنهم بالجهر بموالاهم له. أشياخ بني محمد، والسقا، وعرب اعوان وجندل لم ينتظروا تلك اللحظة، وذهبوا إلى قسنطينة لإظهار الولاء لأحمد باي، كان تفكير العرب بسيطا جدًا، بحيث كانوا يقولون: بما أن باي الفرنسيين أفسى علينا من أحمد، فمن الأجدر العودة إلى أحمد.

بهذا استطاع جوزاف أن يدمر في بضعة أشهر ما شيده اللواء دوزر بإدارته. تفطن جوزاف بنفسه إلى أن معظم القبائل ستقلت من يده،

وبذلك كل ما في وسعه لإخفاء هذا التدهور، واستطاع أن ينجح بوسائل سخيفة رجالا ذوي مكانة عالية حول نفوذه الحقيقي، لكن ما لبث أن انقلب عليه هؤلاء الرجال الذين أصبحوا في منزلة المتهمين له وللمشير. استغل جوزاف بفضل الوضعية التي مكنته منها السيد كلوزل، وبكل احتيال، إعجاب إدارتنا الساذج لكل ما هو غريب وعجيب.

استقنا الأحداث لتبرز خاصية إدارة جوزاف في عناية، التي كان لها تأثيرا كبيرا على الأحداث لتجاهل التفاصيل التي قدمناها.

قام السيد العقيد دوفيرجي، أثناء قيادته في عناية، بتحركات مع الجيش، فضلا عن بناء معسكر الذرعان الذي سباه معسكر كلوزل. وقام يوما بجولة استطلاعية في أراضي الرجات أين عسكر، وفي اليوم التالي، عاد إلى المعسكر وقام في اليوم الموالي بجولة استطلاعية أخرى إلى أسكور، أين توجد بعض الآثار الرومانية.

وبعد بضعة أيام من ذلك، خرج بجيش أكبر نحو قالمه، مدينة رومانية محربة، على طريق قسنطينة. وفي شهر سبتمبر، قام باستطلاع إلى المعالقة ولم يكن وقتها بن عيسى، أحد ملازمي أحمد باي، بعيدا من هناك، لكن لم يذهب دوفيرجي إليه بل أعلن تواجد بطلقات مدغمة.

في طريق العودة إلى الدرغان، تقدم بن عيسى بدوره وأجابته بصلية أخرى.

رأينا في ذلك الكتاب السابق المشير كلوزل، قبل مغادرته وهران، كلف اللواء دارلانج بإقامة معسكر عند مصب الطافنا، ليسمح بذلك إقامة اتصالات مع تلمسان. طبقا لهذه الأوامر يوم 7 أفريل⁽¹⁾ غادر وهران هذا اللواء قبل أن تصبح قواته قليلة بعدما قلصت إلى أدنى حد إثر رحيل الحادي عشر للخط، خرج على رأس 200 قناص إفريقي، و 150 عون عربي، و 1000 رجل من السابع عشر الخفيف، و 500 من الكتيبة الأولى الخفيفة لمشاة إفريقيا، و 800 من السابع والأربعين للخط، و 300 من السادس والستين، و 180 من الهندسة، وأربعة مدافع جبلية، وأربعة مدافع ميدان وستة عربات إدارية.

بات هذا الطابور في لوفيجي تلك الليلة. وفي اليوم التالي تقدم على أراضي بني عامر وقضى الليلة على ضفاف واد رسول.

وفي يوم 9، وبعد مسيرة يوم، أقام على واد غيمر. من هناك يؤدي خانق عميق إلى الهضبة التي يعلوها جبل تسالة، الذي يقطنه العرب محمي من

(1) في تلك الأونة، كانت الأوامر التي تلقاها من عند المشير، في جزيرة رشغون يوم 14 فيفري، واكتنتها تركية المشير للمشروع لتنفيذ بناء معسكر الطافنا، الذي قنمه العقيد منير التعريزات يوم 14 أفريل. لهذا اليوم الذي ألقته لجنة الميزانية في 1837 على اللواء دارلانج بأنه تحرك بدون أوامر يبدو لي غير مبرر. (انظر في الجزء الثاني من هذا المجلد التقرير المنصوص عنه)

قبل جنّ طيب، يضع تحت حمايته أيضا أولئك الذين يحتمون به ويلجئون إليه. عزم اللواء أن يفتح طريقا يؤدي إلى هذا الجبل، وكلف في ليلة 9، الجنود بالشروع في ذلك. استأنف العمل يومي 10 و 11 لكنه كثيرا ما انقطع بسبب الأمطار، أثناء هذين اليومين، أفرغت السيل المظمورة التي تملكها بني عامر، انضم إلى مصطفى بن اسماعيل ثلاثة دواوير من الزمالة، الذين كانوا في عقد عبد القادر منذ القطيعة.

حلت الحبوب المختلصة على أظهر البعير وأرسلت إلى وهران تحت حاية هذه الدواوير الثلاثة و 15 فارسا من فرسان مصطفى.

استأنف الطابور سيره يوم 12 متوجها إلى الطافنا، وبات عند واد سيدي عبد الله بركام. وعبر الطابور يوم 13 واد المالح (ريو سالادو) وخيم على ضفاف واد سنان بعدما اجتاز سهل زيدور على طول حوالي 3 أميال. وفي يوم 14، غادرنا ذلك المكان ومررنا بالقرب من ينبوع قطارة، أين بقم سوق أولاد خالفة. ذلك هو اليوم الذي رأينا فيه تجمع عرب مسلحين، 200 فارس من أولاد عبد الله، الذين دخلوا في جدال مع رجال مصطفى وصرخوا لهم أنهم لا يريدون الانضمام لا إلى الفرنسيين ولا إلى عبد القادر. وعند الزوال، تموقع الطابور عند واد غازر، وفي الأمسية جاء فرسان العدو يتلاعبون بخيولهم أمام موقعنا، وهاجموا جنودنا الذين ذهبوا للاستسقاء.

الجزء الأول

يوم 15 غادر الطاهور واد غازر، وكان يحمي جنبه الأيسر فرسان مصطفى، و ظهر العدو في هذا الاتجاه، بعد مسيرة قصيرة، توقف الطاهور عند جبل دار العطشان، منذ تلك الصبيحة لم يزل مصطفى يطلب المدفعية، واشتبك مع العدو الذي كان عدده في تزايد مستمر. كانت تلك مقدمة جيش عبد القادر المكونة من الفرسان، استطاع مصطفى أن يشيها في أول الأمر، لكن لما رأى المشاة يتقدمون بكثرة، أرسل إلى اللواء دار لانج طالبا منه الإعانة. قدم هذا الأخير تموقع قناصي إفريقيا لتغطية تراجع مصطفى، لكن مشاة عبد القادر الذين وصلوا إلى ميدان المعركة تحركوا جانبا وقطعوا على مصطفى طريق التراجع ووجد بذلك قناصوا إفريقيا أنفسهم في وضعية حرجية. حدثت هذه اللقطة في منحدر ينزل في دار العطشان، لما رأى اللواء دار لانج وضعية مصطفى، قدم وضعية كتية السابع عشر الخفيفة ومدفعين. هذا السند سمح للفرسان الفرنسيين بالخروج من وضعيتهم، غير أن مصطفى أتى بنفسه عند اللواء دار لانج ليطلب السند ليسحق العدو، ولم يكثر تنفيذ الأمر بالتراجع، خلال غيابه تراجعت قواته حتى اقتربت من كتية السابع عشر الذي هوجمت أيضا بعنف.

لم يكن اللواء يريد معركة وإفحام الطاهور فيها، لكنه رأى أنه لا مناص

من ذلك. تقدم اللواء مع قواته، تاركاً الأمتعة تحت حراسة السادس والستين للخط وجنود الهندسة في الجبل. كانت العملية قصيرة لكنها كانت ملتهبة وقاتل مشاة عبد القادر، المكونين من القبائل المتواجدين في المنطقة، بكل شجاعة، ولم ينهزموا إلا عندما ضربوا بالمدفعية. تراجع عندئذ العدو جازاً موتاه، ومن جهتنا، مات لنا 10 جنود وأصيب 70 بجراح.

انتهت المعركة على الساعة الثانية عشر، لكن اتخذ اللواء فوراً تدابير لمواصلة السير نحو الطافنا، رغم كل محاولات مصطفى بن اسماعيل أن يجبره على تغيير رأيه، وقد برر مصطفى محاولاته هذه بقوله للواء أنه من الخطر التوغل في الجبال بعد معركة لم تحسم بعد، وأن القبائل سيهاجمون جنوده قبل وصولهم إلى الطافنا، وإن وصلوا سيطوقون من طرف الأهالي الذين يربعهم انهزام ساحق. وأضاف أنه من المستحسن أن يعسكر الجيش في هذا المكان، مما سيرغم القبائل على مهاجمتهم، لكنهم سيهزمون لأن وضعية الجيش تلك تسمح بذلك، مما سيؤدي إلى فتح بلادهم، لكن لم يتبع اللواء هذا المنطق، بل أيقن أن إعطاء حركة الجيش ستعطي للقبائل جراحة أكبر. فاستأنف طريقه الذي لم نعتبره أي مشاكل سوى بعض مصاعب الطريق. في أحد التوقيفات الذي لم يدم

الجزء الأول

إلا حوالي ساعتين، جاءت فرق من جيش عبد القادر لتبادل القصف لكن بدون إصرار. وصل الطابور ليلا على ضفاف العطار، على بعد ميلين من مصبه. وفي يوم 16، وصل اللواء دارلانج إلى مصب الطابور قبالة صخرة رشغون أين أقمتنا منذ خمسة أشهر حامية صغيرة. أقامت قواته على الضفة اليمنى، بينما شيد موقع محصن على الضفة اليسرى. كانت حيتل حامية رشغون تحت قيادة القائد فرانكونين، من الكتيبة الأولى ونجح في ذلك بمساعدة يهودي من وهران الذي عمل جاسوسا في إقناع بوحاميدي في هجر عبد القادر.

التقى فرانكونين وبوحاميدي على الضفة، تكلموا في شأن السلام ولكن بدا سوء التفاهم بينهما، لأن السيد فرانكونين، طبقا للتعليمات التي تلقاها، لم يتفاوض إلا للتفريق بين الوخاصة والأمير، بينما ظن بوحاميدي أن التفاوض على السلام كان مع عبد القادر وكان مكلفا بتبليغه ذلك، وربما تظاهر بذلك، لكن في لقاءات أخرى، توضح كل شيء. أوضح السيد فرانكونين لبوحاميدي ما كان هذا الأخير يحتمله، ورد عليه هذا القائد أنه لا يريد هجر عبد القادر وقد أبلغه مساعي السلام هذه، وأن الأمير يريد السلام، لكنه يريد أن يتفاوض مع ملك الفرنسيين، لا مع الأتربة الذين يتغيرون مرارا وبالنسبة لا يوجد أي

شيء مستقر بذلك. حيثئذ انقطعت المفاوضات.

هذه هي أحوال الطافنا حين وصول اللواء دارلانج إليها. أما في نلسان، لم يهاجم القائد كافينياك إلا مرة واحدة من طرف العرب ولكن استطاع أن يصدّهم دون عناء. منذ أن أصبح معزولاً، لم يرسل إلا رسالتين للواء، والمراقبة النشيطة التي فرضها عبد القادر لم تسهل الأمور التي ازدادت صعوبة. كانت تعليقات اللواء فتح الاتصالات عن طريق الطافنا رشغون، لكن ليتحقق ذلك كان من اللازم التمرکز بقوة في مكان التزول، كما أمر بذلك اللواء. وكان سبب أكثر إلزامية للتحصن في هذا المكان، وهو ما تنبأ به مصطفى بن اسماعيل: كان القبائل كلهم مسلحين، و ما زاد من غضبهم الإفساد الذي قام به جنودنا ومصطفى بنفسه على ضفاف الطافنا. أحرقت دار بوحاميدي التي كانت تجاور المعسكر. بدأت أعمال التحصين يوم 17، اليوم الذي تلى وصول اللواء دارلانج يوم 20، وصل عقيد الهندسة لومرسي إلى الطافنا ومعه حصنين وأخشاب للبناءات المختلفة، فانتعشت وثيرة الأشغال عندئذ.

لكن عبد القادر كان يجمع جنده، وكل يوم كانت طلائعه تهاجم اللين يموتوننا بالعلف، لكن لم تظهر بعد قواته. في أمسية يوم 24، قرر

اللواء استطلاع قوات العدو، ويتأكد أنه لم يحاصر في معسكره كما راوده الشك في ذلك.

خرج بالمشاة، تاركاً الحراس والعمال، وتوقع في مرتفعات الضفة اليسرى للطافنا، أين التحق به الفرسان عند طلوع الشمس، ثم سار كل الفريق الاستطلاعي في اتجاه المرباط وقرية سيدي يعقوب، غرب طريق تلمسان، ظهر بعض العرب في الأفق وفرقوا بقصف مدفعي، انتشر السبايس النظاميون على بعد ميلين داخل الأراضي، مخالفين في ذلك أوامر اللواء، الذي توقف مع المشاة، لكنهم سرعان ما عادوا وعمل أثرهم بعض مئات من القبائل، الذين كان البعض منهم قد ظهر على جوانب الطابور.

بدأ الطابور حركة تراجعية نحو المعسكر، لأن طلائع العدو التي ظهرت كانت توحي أن عددا كبيرا من الجنود سيلتحق بها عن قريب. وبالفعل ظهر جيش العدو من كل خاتق واستولى على كل التلال. هذا لم يخف جنودنا الذين كان عددهم لا يتجاوز 1800، بل بالعكس، أظهرُوا حماسة للقتال شجعت اللواء أن يتخوض المعركة وكاد يفعل لولا أن رأى عدد جنود العدو في تزايد مستمر، مما أجبره على التراجع في شكل طابورين، مع قناصين على الجوانب وفي المؤخرة.

ثم انقض العدو حيثما على قناصينا بعنف وشدة لم نرها إلا في

معركة المقطع. في العديد من المرات، أجبر جنودنا لاستخدام الخراب، مهاجمين العدو، رغم الأوامر التي أعطيت لهم بالاكتماء بالدفاع، مما أدى إلى كشف الجوانب وإبطاء الشير حوصرت إحدى الفضائل من طرف القبائل، لكن هجوما قويا من الفرسان تحت قيادة النقيب برنار، فككت الحصار.

عند وصولهم إلى ميدان منخفض محاصر من كل المرتفعات، تعرض الفرنسيون إلى نيران كثيفة، طبيعة ذلك الميدان لم تتيح أي فرصة للمدفعية التي كانت تنقصها أيضا الذخيرة، خاصة مدفعية الجبال. هزم القناصون ووصل العدو إلى الطابورين.

لم تحدث معركة أكثر شراسة في إفريقيا من تلك، وصل القبائل حتى مدافعنا، وبذل جنودنا جهدا عظيما لردهم، جرح اللواء والعميد موسيون، رئيس أركانهم والقائد لاغوندي، مساعده. لم تنجو مؤخرة الجيش إلا بأعجوبة. وصلت قواتنا أخيرا إلى حصن الطافنا على الساعة الواحدة. لو كان السير أطول، هلكوا جميعا.

في هذه المعركة المؤسفة، فقدنا 300 رجل. في حين كان اللواء يقاتل الجيش الرئيسي الذي يبلغ تعدادهم من 7000 إلى 8000 رجل، اقترب طابور كثيف من المركز الذي كان لا يزال مفتوحا ولم يكن فيه إلا 600 رجل تقريبا. ولو تم الهجوم على المعسكر لأخذناه. فقد عبد القادر العديد

الجزء الأول

من الرجال يوم 25، لكنه فاز بالمعركة. كان اللواء الفرنسي محاصر في معسكره، ولم يستطع الاتصال بتلمسان ولا العودة إلى وهران برًا. أقام الأمير مركز قيادته العام في ندرومة، بلدة صغيرة بالقرب من الطافنا. تموقعت فرقة من جيشه على طريق تلمسان، عند ملتقى الطافنا ويسر، وتموقعت أخرى على طريق وهران. كانت طلائعه تأتي كل يوم لتطلق النار على المواقع الفرنسية المتقدمة وتضايق المعلقين. أصبح من المستحيل الخروج من المعسكر أين كانت تتقدم الأشغال بوتيرة مرتفعة لأن التحصينات أصبحت ضرورية وحيوية، كان من المقرر بناء تحصينين فقط في معسكر الطافنا، ولكن استطعنا أن نجعل من هذا الموقع حصنًا حقيقيًا كلف ما يقارب 800 ألف فرنك. لم تسمح حالة البحر المضطربة بالاتصال برشغون فاكتفى الجنود طوال أيام عديدة بحصة غذائية صغيرة من الأرز ولحم الخيل التي قتلت في المعركة. لم يظهر الجنود أي احتجاج ولا حتى همسة، بل تصرفوا بكل شجاعة واستسلموا للأمر الراجح، رغم كل ما كان يؤدي إلى الإحباط، مثلما يحدث في مثل هذه الظروف الصعبة، أين نرى اختلاف بين القادة. استغل عبد القادر هذه الظروف بكل مهارة لزيادة نفوذه بين القبائل. أرسل إلى سهل الشلف فرقة عسكرية صغيرة استطاعت رغم قلة جنودها أن تدخل كل هذه المنطقة في عهد الأمير، وأجبر المجاهر كل من إبراهيم

بني والمزاري، المقيمين في مازاغران، على الذهاب إلى مستغانم. بالتالي أجهضت كل الجهود الجبارة التي قام بها بيرغون. عاد الغرابية لاجتياح ضواحي وهران وهاجموا القوافل التي كانت تربط بين وهران ومعسكر لوفيني، واستطاعوا في إحدى هجماتهم الدخول والتسلل وراء الخط المحصن.

بلغ حماس العرب أوجه لعبد القادر الذي ظهر بفوز جديد بعد نكستين، فأخذت القبائل تدخل في عقده الواحدة تلو الأخرى حتى البعيدة منها، مثل قبيلة أولاد سيدي الشرك، التي كان قائدها تربطه علاقة حميمة بعبد القادر و أراد أن يعطي المثل في المباينة.

لكن لم ينخدع الأمير بهذه العودة إليه لكل هذه القبائل وكان على دراية على أن هذا النصر قد ينقلب ضده إذا تدهور في التقدم إلى الأمام. لهذا لم يهاجم المعسكر واكتفى بمضايقته وحصاره، وكتب في نفس الوقت للواء دارلانج للتفاوض مع فرنسا، لكن لم يتلق إجابة على رسائله.

كان الحصار شديدا حتى أن العشب نفذ ولم يبق ما تأكله الخيل، ولزم إرسال العلف من وهران. أراد مصطفى أن يهرب ليلا رفقة فرسانه، الذين كان وجودهم لا يفيد في شيء، لكن مشروعه لم ينجح بسبب معرفة عبد القادر به بعدما أخبر من هارب وأحكم الحصار أكثر.

الجزء الأول

كان من اللازم إرسال بعض الخيول إلى وهران بحرا للحفاظ على الموارد، ذهب أيضا اللواء دارلانج إلى وهران رفقة فرقة من السادس والستين، بينما بعثت إلى الطافنا فرقة من الثالث والستين من طرف اللواء راباتل، بعد اتخاذ بعض تدابير الدفاع، عاد اللواء دارلانج إلى الطافنا، موقع الخطر والذي كان هو المعين لذلك.

في الوقت الذي بدأ فيه حفظنا يذبل في منطقة وهران حيث كانت قوة حقيقية هناك، وهذا ينطبق أكثر على منطقة التطري التي لم يكن لنا فيها سوى بايا واحد، وهو في الحقيقة من ضرب الخيال. هذا الشيخ العجوز كانت له همة رغم ذلك، لأنه فعل ما ينتظره المرء من رجل مخلص، حتى في كونه في وضعية لا يحسد عليها، أولا أن الأهالي نبذوه لأنه تركي، ونحن تركناه بدون وسائل للعمل. لكنه قضى شهرا في وضعية مريحة في المدينة. كان سقوطه النهائي نتيجة ظرف يدل بشكل قاطع على كره العرب للنظام التركي. ذلك الذي تركناه وحده ودون مال كتب إلى الجزائر طالبا المال، وأجيب أنه لا يوجد أي مال يمكن إعطاؤه إيائه، وإن أراد المال ما كان عليه إلا أن يفعل كما فعل البايات الذين سبقوه في المنصب. لكن سقطت الرسالة بين أيدي الحاج الصغير، باي مليانة، الذي استنسخها وبعثها إلى القبائل كبرهان قاطع على

نية الفرنسيين لإعادة النظام التركي في الحكم. على الفور شاركت قبائل صوماته، وموزاية و بني مناد وملهاطة و بني زوق و جندل و ريغا وأوسرا وقبائل أخرى في تشكيل قوة عسكرية كبيرة تحت لواء باي مليانة الذي سار نحو المدينة بصحبة محمد بن عيسى البركاني^(١) على رأس هذه القوات. لم يكن لدى باينا سوى الكولوغلي و جزء من قبيلة حسن بن علي وبعض الدواوير والحبيد، أي القليل جدًا من الرجال. الحضر (عرب المدينة) كانوا ضده. لكن رغم قلة عدد جنده، خرج لملاقاة العدو ونجح في دفع جزء من قوات العدو، إلا أنه لما لم يرد أن يتعد كثيرا عن المدينة، فعاد أدراجه وخسر أثناء التراجع الكثير من الرجال.

جرح البركاني أثناء هذه المعركة. ولم يثق محمد بن حسين في حضر المدينة عند عودته إليها، وأوكل كل المهام للكولوغلي، غير أن هذا التدبير لم ينقذه، لأن الحضر استولوا على أحد أبواب المدينة وفتحوه، ساعين بذلك للحاج الصغير بالدخول إلى المدينة، أين أسر الباي العجوز وأرسله فوراً لعبد القادر، بينما نزع السلاح من عند الكولوغلي وقهروا. هكذا سقطت المدينة من جديد في يد عبد القادر.

بن عودة المختاري، أقوى شيخ في جنوب منطقة التيطري، لم يرض بهذا الأمر كما لم يكن راضيا حينما عين محمد بن حسين، منذ أن اعترف الكثير من قبائل الجنوب بسلطة عبد القادر، خاف على استقلاله ولم يعجبه عودة سلطة الأمير إلى المدينة. كتب إلى اللواء راباتل لتجديد عرض الخدمة والتعاون التي عرضها سابقا على اللواء قوارول، وحاول أن يضايق البركاني.

أثناء غياب الحاكم العام الذي طال عدة أشهر، كانت قضايا منطقة الجزائر في سوء الأحوال، بفعل الاتجاه الخاطيء الذي أعطي لها. هجمات الحجوطيين لم تتوقف وكانت دائما لصالحهم.

في الأيام الأخيرة من أفريل، اختطفوا أوروبين وإمرأة بين الدويرة ويوفاريك وبعثوا واحدا من هؤلاء الأوربيين إلى عبد القادر، أما الآخر، فكان مجروحا وبقي تحت حراسة أحد الحجوطيين الذي كان شقيقه أسيرا عند الفرنسيين، وتم تبادلها بعد بعض الوقت، أما المرأة فقتلها حجوطي آخر، الذي أنهى بهمجية خلافا حولها.

عندما علم باختطاف الأشخاص الثلاثة، قام اللواء راباتل باعتقال بعض عرب الجزائر الذين حام حولهم الشك في انتهائهم إلى الحاج الصغير، ظنت الشرطة أن اعتقالهم سيمنعها من الوصول إلى إطلاق سراح الأوربيين، لكنها أغضبت خارج أسوار المدينة، وأن

هذا سيؤدي إلى طغيان كبير. وأرسل أعيانهم شكوى بهذا الصدد إلى باريس. ما كانت الإجابة إلا أمرا باعتقالهم، صادرا عن المشير كلوزل. كان عدد هؤلاء السجناء الجدد ستة وتم إرسالهم إلى قصبة عتابة، من بينهم إبراهيم بن مصطفى باشا، رجل غير مؤذ ومنعدم الكفاءة تماما، وأحمد بودرية رجل ماهر ذو سوابق سيئة، وحسان بن حمدان الذي ألف كتابا تحت عنوان المراقبة أين يهاجم بشدة المشير كلوزل. حجزت عندهم وثائق قيل أنها تعرضهم للشبهة لكنها لم تأت بأي دليل، لأن المقاطع التي كان من المفروض أن تدبرهم كانت مشفرة. الرسائل التي كتبها الأب حمدان، الذي كان في باريس، لم تعط أي برهان حول ما كان يتهم به الموقوفون من التعامل مع العدو، فالدليل الوحيد الذي أتت به هذه الرسائل هو أن كاتبها والمرسلة إليهم كانوا لا يحبون المشير وليسوا من أنصاره. بعد حبس لبضعة أشهر، أطلق سراح أربعة سجناء بعد قرار من الحاكم، بينما بقي من الجزائر بودرية وحسان بن حمدان.

مضايقة عرب الجزائر لم تكن من عزيمة الحجوطيين الذين وصلوا هجماتهم، واشتبكوا في العديد من المرات في ضواحي يوفاريك ومراد، موقع متقدم على طريق البليدة. يوم 10 جوان، هاجموا معقري دالي إبراهيم، وقتلوا منهم وأسروا آخرين ونهبوا الماشية.

في يوم 16 من نفس الشهر، اختلسوا ليلاً قطيعاً لإدارة الدويرة، ثم بعد أيام قليلة من ذلك، دخلوا حتى بوزريعة، وقتل عسكريون بين برج الإمبراطور ودالي إبراهيم. سرق قطيع في لابوانت بسكاد. ولم تصل هجمات العرب إلى القرب من الجزائر مثل هذا إلا في الأيام الأولى من الاحتلال.

في بداية شهر جوان، أقيم موقع مؤقت عند المرباط سيدي عبد المؤمن، في السهل، بالقرب من المعاملة، ومكث فيه الزواف لحماية عملية الحصاد في ذلك المكان.

لما انتشر خبر وضعية قواتنا في الطافنا، لم ير الوزراء والنواب، وكذا أنصار وخصوم الاحتلال إلا أن ننقذهم من تلك الورطة بكل شرف. لهذا الصدد، أرسلت بحراً ثلاثة أفواج جديدة، الثالث والعشرين، الرابع والعشرين والثاني والستين للمخط، ونقلوا إلى الطافنا، عين اللواء ييجو لقيادة هذه الحملة الجديدة.

نزل في الطافنا يوم 6 جوان مع جنوده، وقد وصلوا على متن ثلاثة سفن: نستور ومدينة مرسيليا وسييون، وعين اللواء ليتانغ حاكماً لوهراين عوض اللواء دارلانج.

قضى اللواء ييجو ستة أيام في الطافنا، زود أثناءها الحصن بكل المعدات والدعيرة اللازمين، لكنه بدأ متردداً في الكيفية التي سيبدأ

بها الحملة، وأخيراً قرر أن يأخذ جنوده إلى وهران وينطلق من هناك إلى تلمسان، وترك في الحصن كتيبة إفريقية الأولى وبعض الفصائل وكل قيادته لرئيس كتيبة الهندسة بيرو. يوم 12 في منتصف الليل، غادر اللواء الطافنا في طابور واحد، في الصباح، فيما وراء المضيق الجبلي لسيدي بوحاميدي، هوجت الأمتعة، التي كانت متكشفة، من طرف 300 إلى 400 من فرسان عبد القادر، لكنها استرجعت من طرف فصيلة من القناصين والكتيبة السادسة والستين اللتان أبعدتا المهاجمين، رغم فقدان بعض الأمتعة على الساعة العاشرة، حدث اشتباك عند عبور جدول، ولكن هجوم من مصطفى ويران الرماة أوقفت العدو على جنبه الأيمن. تكتل 1000 و1200 فارس، فسار إليهم اللواء ييجو بطابور على اليمين، تاركاً في الاتجاه الأول الثاني والستين والأمتعة، لم يصمد العدو، هوجم الثاني والستون في مؤخرته من طرف رماة وارتبك شيئاً ما بسبب عزلة وترك بعض الرجال المتأخرين. وصل الجنود في المساء إلى واد غازر بعد مسيرة دامت ثمانية عشر ساعة. كانوا مرهقين لأنهم من الجدد الذين لم يتأقلموا في إفريقية بعد. يوم 13، غادر الجيش واد غازر وبات في واد ستان، وفي يوم 14 بات في عين عامرية، ويوم 15 في مسرخين ويوم 16 في وهران.

يوم 19 ذهب اللواء ييجو إلى تلمسان أين وصل يوم 24. حدث في ذلك

اليوم اشتباك صغير بين الفرسان في سهل صغير، قتل فيه من عمره أحد
أغات عبد القادر، عسكر الجيش خارج المدينة أين أرسل كتيبة واحدة
وجد اللواء ينجو حامية المشوار في حالة مرضية، لأنها لم يُشن عليها أي
هجوم حقيقي، رعى قطعان الأمير الكبيرة كل العشب في المنطقة، لكن
هذا لم يؤثر على مخزون الحامية، رغم نقص اللحم في بعض الأحيان، غير
أن العرب كانوا يأتون إلى المشوار أحياناً لبيعوا الماشية، عندما يستطيعون
التسلل من الرقابة التي وكل عبد القادر كل من بني ورنيد و أولاد ربيعة
بمقرضها على الحامية، لما لا يرافقها بنفسه، تمكن الضباط و الجنود من
حياطة ملابس لهم بقمائم البلد و أحرزوا على شيء من الرفاهية بفضل ما
استطاعوا أن يصنعوه، كان للقاتل كافيياك الأثر الكبير في رفع معنويات
الفرنسيين المتواجدين بين أهالي معاصيين بها كان يتمتع به من ثقة، غادر
الكثير من العرب المدينة، لكن بقي فيها أيضا العديد من الكولونيل و
اليهود، يوجد، فيها سوى احتياجات الحامية، دكاكين الزيت التي تلقى
اليهودي لاصري الإذن بامتلاكها، في شهر فبراير الذي مضى، لكن لم
يستطع أخذها، فأرجعها اللواء ينجو للسكان.

خرج اللواء ينجو من تلمسان يوم 26، متجها إلى العطارنة، بعدما عوَّض
200 مجروح ب 200 رجل من الحامية و بات على بعد ميلين فقط من
المدينة. في اليوم الموالي، يوم 27، بدأ السير على الساعة السابعة، بعدما

لحق به الفرسان و المعاونين العرب و كذا قافلة اليعرب التي مكثت في
التيبة التي مكثت في تلمسان، عسكر الجيش في مكان يدعى سبعة شيوخ،
بعدما تجهَّزوا المحر الجبل للطاقنة الذي تركه على اليسار، يوجد هذا المكان
في الجبال، لكن يمكن الوصول إليه عبر طرف سهلة نسيان، يوم 28، نزلنا
من الجبل، من سفحه الشمالي، ووصلنا إلى مخرج المحر الجبل الذي نجسناه
عند المجرى و الذي أوقف المشير كالوزل في جبالتي الذي مضى، شرع
اللواء ينجو في استطلاع رفقة الفرسان و كتيلين، هو طريق وحر، لكنه
أقصر بميلين على الأقل من ذلك الذي يمر على سبعة شيوخ، بعد هذا
الاستطلاع، عسكر الجيش في مكان يدعى سابكا، و في اليوم الموالي، يوم
29، استأنف سيره نحو معسكر العطارنة أين وصل على الساعة التاسعة
صباحا.

أقام اللواء ينجو في المعسكر حتى يوم 4 جويلية، أين غادره على رأس
مركب كبير من المونة و الذخيرة، في اتجاه حامية المشوار الذي كان تزويده
بالمون هو الهدف الرئيسي للحملة، تكون هذه القافلة من حوالي 350
يعرب، كانت تتبع الجيش منذ الانطلاق من وهران.

بات الجيش يوم 4 جويلية في سابكا، و في يوم 5 اجتاز الجبل مرورا
على سبعة شيوخ، تاركاً على اليمين المحر الجبل للطاقنة و عسكر على
شمال يسر، غير بعيد من ملتقى هذا الواد بواد زغيف، في الليل، التيران

الجزء الأول

المتشيرة بيشت تواجد العدو، و بدأ جليبا أن عبد القادر قد تخلى عن تحفظ
و يريد القتال. بالفعل، في يوم 6 في الصباح الباكر، عندما نزل الجيش إلى
سهل زفيزف في شكل ثلاثة طوابير، تعرضت مؤخرته للهجوم من طرف
فرسان الأمير، الذي كان يعسكر عند مدخل الممر الجيلي الذي تحب اللواء
بيجو. صمد العرب معاونون للصدمة، وكان مصطفى حازما و شجاعا
رغم إصابته في اليد و فقدانه خمسة عشر رجلا في المعركة. في هذه الأثناء
اجتازت طوابيرنا السهل و انتشرت على هضبة الضفة اليسرى، أما الموكب
فأقبح يسارا و دخل طريق تلمسان. لم يلبث المشاة الأفارقة بقيادة الأمير
شخصيا أن يظهروا في الاتجاه الذي أخذته الجزء الرئيسي من الجيش، بينما
شدد فرسانه الضغط على المؤخرة. كان اللواء بيجو مهاجما في المقدمة و
المؤخرة، لكن انقسم العدو إلى قسمين عندما حاول أن يحتويه، فاستغل
اللواء هذا الخطأ الفادح بكل براعة. وضعت الفرقة 62 و كتيبة إفريقيا في
الوراء، وواجه باقي الجيش عبد القادر في خطين يشكلان زاوية متفرجة.
بعد اتخاذ هذه التدابير، هاجم اللواء بالقناصين مشاة إفريقيا المدعومين
ببعض الفرسان الذين شئتوا بسهولة، لكن المشاة صمدوا خاصة بعد تردد
الفرسان الفرنسيين، الذين هاجموا ثانية بقوة فهزموا العرب و حشروهم في
قمع شكلته التوامات واديسر. خلف الإفريقيون 200 قتيل و أسر منهم
130، بينما فر الآخرون إلى المسابل و الجبال. حُسمت أيضا المعركة في

المؤخرة، و صدت الفرقة 62 و كتيبة إفريقية العرب إلى ما وراء السهل،
وأكملت المدفعية هذه المهمة.

لم تكلفنا هذه المعركة سوى 75 رجلا، بين قتيل و جريح. خسائر العدو
كانت ضخمة. جمع جنودنا أكثر من 600 بندقية، كما سقطت ستة رايات
بين يدي المنتصر. أما عبد القادر الذي قاتل بشجاعته المعهودة فقد قتل
فرسه تحته ووجد صعوبة في الفرار مع بقية جنده في اتجاه ندرومة.

انتهى القتال على الساعة الثامنة، واتجه الموكب، تحت حماية الفرقة 24
للمخطط و فصيلة تلمسان، نحو هذه المدينة. وتوجه باقي الجيش إلى ضفاف
الطافنا أين اجتمع في منتصف النهار. وعلى الساعة الثالثة توجه الفرسان
إلى تلمسان أين وصلوا في نفس اليوم، بينما وصل المشاة و اللواء في اليوم
الموالي.

استراح الجنود في تلمسان يوم 8، و في يوم 9 خرجوا إلى هضبة بني
ورنيد الذين لم ينتظروهم، فأخذ الجنود الكثير من حبوب هذه القبيلة
لتموين تلمسان أين دخلوا يوم 10 بعدما قضوا الليلة قرب بنابيع
لوريط⁽¹⁾ الخلافة.

(1) تشكل هذه البنابيع شلالا خلافا، الذي يتحول بنور (إلى واد يدعى لوريط
في الجبال و سفوف في سهل تلمسان. قبل ما يلتقي بواد يسرى، يصبح اسمه واد
سكندر. اشتق من هذا الاسم سيخاك الذي يطلق في التقارير الرسمية على معركة
6 جويلية.

يوم 12 جويلية غادر اللواء بيجو تلمسان مع جيشه الصغير عائدا إلى وهران، بعدما أنجز مهمته : مؤن المشوار وهزم عبد القادر - بقي ريباشي، ما فعله، ولا ريبا كان ممكنا استغلال هذا الانتصار لجلب القبائل نحو الباي الوهمي الذي عينه المشير كلوزل في تلمسان، لتحقيق هذا كان من الواجب البقاء وقتا أطول في المدينة و المفاوضات جدية، لكن إما أن السيد بيجو لم يُرد تجاوز إطار مهمته التي كانت عسكرية بحتة، وإما أيقن أنه لن يصل إلى أي نتيجة بعد ما بدأ هذا الأمر على أسس فاسدة و لم يُرد أن يغير ذلك، أو كما أثبتته أقواله كان لا يرى أي مستقبل لإفريقيا، فغادر تلمسان دون أن يضم أي قبيلة إلى المعسكر الفرنسي.

لم تلتق كتيبة المشوار، التي أعطت المثل في الإذعان و الوفاء، أي تقدير من الوزير، الذي لم يتقبل أيّا من الاقتراحات التي قدمها المشير كلوزل في شأنها. إلا أن اللواء بيجو وعد الثقيب كافيتياك أن يطلب له رتبة قائد كتيبة، لكن هذا الأخير كان لا يبالي بهذه الأمور فأجابه أنه لا يريد شيئا لنفسه إن لم يُشرك الآخرين في المكافأة.

عند مغادرته تلمسان، سار اللواء بيجو في اتجاه معسكر حتى بلغ مقرات، في السيق العلوي، أين وصل يوم 16. لم يلتق سوى بعض الرماة في اليوم الثالث، الذين تبادلوا إطلاق النار مع المؤخرة. ألحق كل الأضرار الممكنة بالبلاد، فحرق المحاصيل و قطعها في طريقه. يوم

17، بات الجيش في طليلات، و دخل إلى وهران في قسمين، قسم يوم 18، و الآخر يوم 19. أبحر اللواء بيجو يوم 30 إلى الجزائر و من هناك إلى فرنسا أين قُلد رتبة فريق. فيما يخص اللواء ليتانغ الذي ترقى إلى رتبة لواء قائد، فبقي وحده في منطقة وهران.

معركة 6 جويلية هي أقصى ضربة تلقاها عبد القادر. تزعزع نفوذه بين القبائل و نفد ماله، و ما أنقلده من هذه الوضعية إلا المعونة التي تلقاها من المغرب، لكن لم تتخل عنه قدراته العقلية و نشاطه أبدا. جلب إلى تدرومة كل الفارين من تلمسان، وحتى الكولوغلي، الذين ساعدهم واحدا تلو الآخر و الذين قصصهم الجوع تحت الراية الفرنسية، انضموا إليه. بدأت صناعة الأسلحة و الذخيرة و حتي خياطة الملابس للجنود في هذه المدينة القريبة من البحر و التي كانت بالتالي عرضة لهجمات الفرنسيين كما هو حال معسكر التي كان بدخلها هؤلاء بسهولة، قرر الأمير إعادة بناء المدينة الأثرية الرومانية تاقدمت و أقام فيها مقر حكومته. هو الآن، في الوقت الذي أكتب فيه، في طور إنجاز هذا المشروع، لكنه لم يستطع جلب الكثير من الناس إلى تاقدمت.

قبل أن نتكلم في الأحداث التي واكبت رجوع المشير إلى الجزائر، لابد أن نلفت لبعض الوقت نحو بجاية. هذا الموقع الذي لا صلة له مع المواقع الأخرى والمعزول في وسط سكان يعزلون أنفسهم عن

السكان المسلمين في باقي الوصاية، لا يقدم إلا بعض الحلقات، لكنها حلقات شبيقة.

منذ إقامة حصن كلوزل، لم يحدث أي شيء يذكر في بجاية، حتى يوم 28 مارس. في ذلك اليوم، هاجم المزاية الحصن الفرنسي لكنهم تكبدوا خسائر فادحة، غير أن هذا لم يمنعهم من المحاولة ثانية يومي 15 و 21 أبريل، دون جدوى. غادر بجاية حاكمها العام، السيد ديلا روشات، تاركا الندم في الأنف، ليتقلد منصب قائد فرقة في فرنسا، وخلفه في بجاية مؤقتا السيد سلومون دي موزيس، رئيس كتية و قائد الكتية الثالثة الخفيفة لشاة إفريقيا.

هاجم القبائل مرة أخرى المواقع المتقدمة يومي 5 و 6 جوان، أين دار تبادل كثيف لإطلاق النار، خاصة على الموقع المحصن دورياك الذي أمطر بوابل من الرصاص.

لقد تخليتنا منذ وقت طويل عن فكرة تهدئة الوضع في بجاية. توفي وليد أورابح من داء الرئة، وخلفه شقيقه أمزيان كشيخ أولاد عبد الجبار وفي لوابه للمهيمنة على القبائل. في يوم من الأيام، أراد نجل وليد أورابح ليتعرف على الفرنسيين، فذهب إلى سوق بجاية ليتاجر بشيران له. غضب القبائل من هذا الأمر واتهموا أمزيان بأنه هو الذي نصحه بذلك و فرضوا عليه غرامة كبيرة، و هددوه بالحرب إن لم يدفعها.

أجابهم أمزيان أن ابن أخيه تصرف بدون إذن، وأن من نصحه هو شخص يدعى عبد الرحمان، مرابط سيدي ميمون. و ليرهن لهم أنه غاضب من هذا التصرف أيضا و أنه لا علاقة له به، دمر أملاك عبد الرحمان و سلبه قطعانه. لم ترض هذه الحملة القبائل الذين أصروا في اعتبار أمزيان عميلا للفرنسيين، لكن، من جهته، كان عازما على أن يطلعهم على الحقيقة، وذلك بارتكاب جريمة. في هذا الصدد، كتب إلى السيد سلومون دي موزيس طالبا منه لقاء. ورغم مرضه ذهب هذا الضابط للموعد الذي حدد في المعسكر المحصن الأسفل يوم 4 أوت مرفوقا بترجمانه طابوني والمسير العسكري فورني ومداني، قائد بجاية، والنقيب بلانجيني، قائد الفصيلة الحرة لكتية إفريقيا الثانية، التي مكثت غير بعيد من مكان الموعد، السيد سلومون وأمزيان تبادلوا التحية، لكن فرسان الشيخ أحاطوا بالفرنسيين شيئا فشيئا، وتخطى السيد بلانجيني هذا التحرك وأراد أن يحرك فصيلته، لكن قات الوقت لما سمع دوي طلقات نارية طرحت حاكم بجاية أرضا رقيقة ترجمانه، كما أصيب مداني بجرح بليغ، كما قتل حصان السيد فورني، تجمع القبائل حول هذا الأخير وحاولوا صرعه بمقابض بنادقهم ولما وصلت فصيلة السيد بلانجيني، هرب القتلة، تاركين جثث قتلاهم في الميدان، وبدا القبائل مصدومين بهذا الفعل الشنيع وهذا الغدر ولم ترهم لمدة معينة.

الكتاب 20

المشير كلوزل في باريس - مخطط جديد للغزو - عمليات عسكرية في الجزائر ووهران - عودة المشير كلوزل إلى الجزائر - مهمة اللواء دامرمون - انتفاضة القبائل في عنابة - تحضيرات حملة قسنطينة - حملة قسنطينة - إخفاق وتراجع - وتموين المشوار من طرف اللواء ليتانغ - توغل العرب في النتيجة.

لقد قلنا إن خشية رد فعل غرفة النواب فيما يخص قضية الجزائر هي التي دفعت الوزارة أن تستدعي المشير كلوزل إلى باريس ليدافع عن قضية تعتبر قضيته، نرى هنا أن الأدوار قد انقلبت، لأنه حتى ذلك الوقت كانت المستعمرة تخشى نوايا الحكومة أكثر من نوايا النواب، لكن الرأي العام أجبر الحكومة على تغيير رؤيتها. في غرفة النواب، الوحيدة التي كان لها التأثير على مستقبلنا، صوتت

وخلف السيد لابان، رئيس فرقة المدفعية، مؤقتا السيد دي موزيس. يوم 25 سبتمبر عاد القبائل لإطلاق النار على المواقع الأمامية وعادوا يوم 26، في ذلك اليوم، قام السيد لابان بخرجة وصدّهم وراء قرية دار النصر. سوء فهم لأمر حال دون محاصرتهم وقتل أو أسر عدد كبير منهم، لكن رغم ذلك أسقطنا منهم حوالي خمسين رجلا، وفي يوم 27، بعدما تقائلوا بينهم بسبب انتهاكات الأيام الماضية، ابتعدوا ولم يظهروا بعد ذلك. مضى وقت قصير بعد هذه الأحداث وتم تعيين السيد شامبورلرون حاكما عاما لبجاية

أغلبية ساحقة لصالح الجزائر. بدأ النقاش بصفة سيئة: لم ينقد خصوم الاحتلال سوى تجاوزات الإدارة، بينما بورر مساندي الاحتلال هذه التجاوزات - بصفته خطيب، لم يتطرق المشير كلوزل لهذه المسألة، لكن تواجده وهيئته أضعف الانتقاد وساند الدفاع.

أطال السيد المشير كلوزل إقامته في باريس بعد رفع جلسات غرف النواب، لأنه بعد الدفاع عن الجزائر أمامها، كان عليه الدفاع عن منصبه الذي كان مهددا رغم أنه لا يميل إلى لعب دور سياسي معين، إلا أنه يظهر مساندته للمعارضة المتشددة ونتج من ذلك تحفظات ألزمت الحكومة أن تسمع للانتقادات في شأنه.

وهكذا تم لفت النظر في باريس إلى وثائق بعثت من إفريقيا والتي لم تكن لينظر فيها لولا أنها كانت تخص المشير كلوزل الذي نصح بالتقاعد لكنه أبى. لما طلب من الوزير تبرير هذا الطلب بالتقاعد، تراجع واكتفى بمقايضة المشير في كل الأحوال: لم يقبل تعيين المحافظ الخاص للشرطة في إفريقيا الذي نصبه السيد المشير؛ أرسل السيد رثالي دوما إلى كورسيكا، رغم رغبة المشير أن يبقى في منصب المدعي العام، وتم تعويضه بالسيد سيميري⁽¹⁾؛ واقترح لمنصب المسير المدني السيد دي سيفري فأعطي السيد بريسون.

(1) كان هذا القاضي مريضا، فمات ولم يتمكن حتى من أن ينصب في منصبه.

قانون وزاري جديد عدل و عوض قانون 4 سبتمبر 4381 المتعلق بصلاحيات الموظفين الكبار وصلاحيات السيد بريسون كانت أكبر من تلك التي كان يمارسها السيد لوباسكي، الذي سبقه في المنصب.

ووضع تحت إدارته مدير المالية، و كانت عنده الصلاحية أن يرسل الوزارة مباشرة. تبين من هذه التدابير أن الوزارة وضعت رقبيا على المشير.

لم يكثر هذا الأخير بهذه المضايقات وذهب يحامل النزعة الوطنية و الرغبة في المجد التي تكمن في نفسية السيد تيار فكلمه حول الاحتلال الشامل مما أيقظ عند تيار أحلام المجد إن تمت هذه الإنجازات باسمه.

عندئذ أصبح هذا الأخير أكثر ليونة مع المشير لفته أنه عنصر أساسي في تحقيق هذه الانتصارات العسكرية. لكن تيار كان في حاجة إلى مخطط واضح ولم يكتف بمشاريع غامضة، لذا طلب من المشير كلوزل أن يعطيه مخططا واضحا، رغم أن كلوزل يكره هذا العمل، لكنه كلف السيد درانسي بكتابة هذا المخطط و تقديمه للوزراء و مناقشته معهم.

ناقش السادة النواب هذا المخطط و طرحوا وجهات نظرهم وملاحظاتهم واعتراضاتهم، و وعدوا أن يناقشوه في مجلس الوزراء، لكن لم يتخذ أي قرار.

وعدت الوزارة فقط بأن تبعث إلى إفريقيا الكتائب الثالثة للفرق الموجودة آنفا هناك. لكن مر المشير مباشرة إلى العمل و أرسل أوامر إلى الجزائر ببدء العمليات⁽¹⁾.

حسب مخطط السيد كلوزل (الذي يشبه في جانبه العسكري ذلك المخطط الذي اقترحه في المجلد الثاني من الحوليات، في حالة احتلال شامل و مترامن). يجب احتلال كل المراكز السكانية و النقاط الإستراتيجية.

قرر السيد المشير احتلال منطقة التيطري في شهر سبتمبر و إقامة معسكر في الحال ليكون قاعدة انطلاق الحملة. في شهر أكتوبر قرر احتلال قسنطينة و منطقتها، ثم بعد ذلك منطقة وهران. و أخيرا، قبل نهاية 1836 ستخضع وصاية (مملكة) الجزائر السابقة بأسرها.

عندما تلقى القائد العام رابائل هذه التعليمات، بدأ العمل بها في منتصف شهر أوت. و غادر الماركيز دي بروسار بوفاريك ليشيد معسكر الشقة مع حوالي 2000 رجل و الذي تشكل نواته الفرقة 63 للمخطط.

كان الفطن أن تربط معسكر الشقة ببوفاريك بمعسكرات بيئية. لهذا

(1) انظر في الجزء الثاني من هذا الكتاب، الرسالة المكتوبة في هذا الموضوع إلى اللواء ريبيل و انظر كذلك مشروع الاحتلال المقدم للحكومة.

توقف أولا اللواء بروسار⁽¹⁾ عند المرابط سيدي خليفة، على بعد ميلين من بوفاريك، و بدأ تشييد معسكر صغير؛ و وصل إلى ذلك المكان يوم 17 أوت، و بدأ الجنود في العمل في اليوم الموالي. وفي يوم 21، هوجم جنودنا من طرف بعض المئات من العرب الذين فرقهم طلقات المدافع بسهولة. انتهى العمل يوم 25 و مكث في المعسكر بعض الجنود، فواصل اللواء بروسار طريقه إلى الشقة. توقف أيضا في واد العلايق، الذي نسميه جدول العلايق، على بعد ميل من سيدي خليفة، و شرع في بناء بنية دفاعية كأساس لموقع محصن. يوم وصوله إلى ذلك المكان، أي يوم 25، دخلت مقدمة قواته في اشتباك طفيف مع العرب.

هذا النظام المتكون من مواقع محصنة صغيرة كان يتعارض مع مخطط الاحتلال الشامل الذي وضعه المشير. حسب هذا المخطط، كان علينا احتلال كل الوصاية ب 35000 رجل. لهذا كان من الواجب الاستفادة من جنود متحركين للتأثير على السكان و ليس جنودا خامدين على الأرض. هذا يعني أن نظام التحصينات الصغيرة، باستخدامه الكثير من الجنود، كان عائقا كبيرا لتحقيق الاحتلال الشامل. و أيضا، لنشر نظام التحصينات لكل الوصاية كان لابد من 200 ألف جندي. إذا من اليوم الأول، كان النظام الذي قد أمر به المشير قد تغيرت طبيعته.

(1) خلف هذا اللواء ملا وقت قصير اللواء ريبيل الذي خلفه بدوره اللواء تروبير.

أثناء عملية اللواء بروسار في الشقة، كان اللواء ليتانغ يتابع هو أيضا عملية في وهران. خرج يوم 16 أوت بأكثر عدد ممكن من جيشه المقسم إلى لواءين و بات في معسكر لوفيجي. في اليوم الموالي توجه نحو أولاد علي الذين ينتمون إلى قبيلة بني عامر الكبيرة.

كانت نية أن يعسكر في طليلات، لكن الحرارة الشديدة حالت دون ذلك. ولم يستطع المشاة مواصلة السير، وانتحر الكثير منهم إثر إصابتهم بما يشبه الجنون، وهي حالة كثيرة الحدوث في إفريقيا. هاجم في ذلك اليوم جمع من الغراية العرب المتعاونين و قتل منهم رجل.

وفي يوم 18، بات جيش الحملة بالقرب من ينابيع طليلات. وفي يوم 19، تقدم اللواء ليتانغ بكتيبة والفرسان داخل أراضي أولاد علي، تاركا كتيبة في موقعها. بعد أن طردنا بعض العرب وصلنا إلى مكان تتشرف فيه المطاعم، دل عليه أسيران قبضنا عليهما أمس ذلك اليوم. أخذ أعواننا كمية كبيرة من الحبوب.

أراد حيثل أولاد علي أن يفاوضوا لكن اللواء ليتانغ قال لهم أنه لن يفاوض قبل تسليمه رهائن. قبل أولاد علي هذا الشرط، وسلموه في يوم 20، 13 رهينة. أعطاهم اللواء بذلك عهد السلام وعاد مع جنوده إلى وهران.

وصل المشير كلوزل إلى الجزائر يوم 28 أوت، بعد غياب طال أكثر من أربعة أشهر. بعث حضوره روحا جديدة ونشاطا للعمليات العسكرية. وصل أخيرا اللواء بروسار إلى الشقة بعدما أقام حصونه المتوسطة، يوم 6 سبتمبر أين دخل في معركة صغيرة. قبل أيام قليلة من ذلك، وقعت فصيلة من ستة قناصين في كمين نظمته اثنا عشر حجوطيا في المعاملة. انقض العريف دورجي الذي كان يقودها على الحجوطيين، و قتل واحدا منهم وهزم الآخرين. بعد بضعة أيام من ذلك، ثار الحجوطيون لأنفسهم في كمين جديد أين قتلوا اثنين أو ثلاثة رجال.

يوم 8 سبتمبر، وصل السيد دوراني، مساعد المشير، من فرنسا آتيا بخبر حل الوزارة التي كان يرأسها السيد تيير. في باريس كانت الدهشة عظيمة عندما علم المشير أن مشروعه قد صودق عليه، بينما كان في طور المناقشة في المجلس⁽¹⁾، ووبخوه على الاحتلال المتسرع للشقة.

(1) أرسل المشير ميزون، الذي كان على وشك مغادرة الوزارة، في 30 أوت، إلى الحاكم العام والمسير العسكري، أن الإجراءات التي اتخذت كانت في مجملها مطابقة للمبادئ والإبلاغات الشفوية مع العديد من وزراء الملك، ولكنها لم يصادق عليها من طرف المجلس و لم تعطي الحكومة الموافقة الأخيرة فيها، لأنه سوى الموافقة أو الرفض لهذه العقوبة هي من صلاحيات الغرفة الجديدة. لهذا السبب يجب أن لا نلجأ في أي شيء و أن لا نجازف و أن نبقى في حدود الاحتلال الحالية الذي يسمح به عند الجيش المتواجد هناك وفي حدود الاعتمادات التشريعية والنقطة المنصوص عليها والمعتمدة. صرح الوزير، بالطريقة الأكثر

بالطبع، تصرف السيد المشير كلوزل بدون أمر واضح، لكن يمكن أن نقول أنه تلقى من السيد تيير ضمانات للشروع في الحملة، مهما يكن، اضطر المشير ليرضخ للأمر الواقع و أعطى الأمر بإخلاء الشفة، بعدما يتيسر من الحصول على إمدادات من الرجال.

إلا أنه قبل التراجع، تقرر الدخول في بلاد الحجوطيين يوم 11 سبتمبر، لكن السبايس المعاوين، الذين كانوا مهيبين لهذه الحملة، لم يصلوا إلا يوم 12.

هذه الحملة عبارة عن الدخول من الضفة اليسرى لواد جر بطابور انطلاقاً من معسكر الشفة. عند عبوره للوادي ووصوله للتلال التي تحده البحر يتجه الطابور نحو القليعة، ثم يلتقي عند الخروج منها بطابور صغير انطلق من معسكر المعاملة.

يتشكل الطابور الأول من السبايس النظاميين و المعاوين، من أربعة فصائل من الزواف و فصيلتين للتأديب، يقوده العميد ماري، قائد السبايس النظاميين و آغا العرب. أما الطابور الثاني، تحت قيادة العميد لاموريسيير، يتشكل من أكثر من 200 رجل بين فرسان و مشاة.

في صباح يوم 12، تحرك السيد ماري، بمساندة من بعيد من كتيبة الفرقة 63 للخط، فرقتين و مدفعي جبل تحت قيادة اللواء بروسار.

إيجابية، رفضه مسؤولية الأعمال التي تتعدى هذه الحدود. (تقرير لجنة الميزانية لفرقة النواب في 1837).

عبر واد جر و دخل في غابة خرايسية أين يقطن العديد من الحجوطيين، و غنم منهم، لكن اصطدم بعدو كثيف، مما أرغمه أن يطلب مساعدة اللواء بروسار الذي أرسل له عندئذ ما توفر لديه من الثالث و الستين للخط و مدفعين جبليين. لم يبق مع اللواء بروسار سوى مئة فارس، و عاد بعد ذلك إلى الشفة، ظاناً أن التعزيزات التي بعثها لماري ستتمكن من الالتحاق بالعميد لاموريسيير، لكنه وصل إلى الشفة وعل أثره المئات من الحجوطيين.

من جهته، واجه العميد ماري صعوبات اضطرته إلى العودة بجنوده إلى الضفة اليمنى من واد جر، ملاحقاً من طرف الحجوطيين الذين اشتبك معهم في الغابة، و لما عبر الوادي، وجد نفسه أمام الحجوطيين الذين لاحقوا اللواء بروسار و الذين عادوا أدراجهم بعدما رأوه دخل حصن الشفة. وقع اشتباك شديد في ذلك المكان، و قتل للسيد ماري 9 رجال و جرح له 11.

أثناء هذه الأحداث، كان العميد لاموريسيير ينتظر أمام القليعة طابور السيد ماري الذي لم يصل لأنه أخذ اتجاهها آخر، فقرر لاموريسيير العودة إلى المعاملة، بعدما انتظر طويلاً. حدث له نفس الشيء قبل ذلك يوم، لأنه، كما قلنا آنفاً، كان من المقرر أن يتم هذا التحرك يوم 11. أثناء

هذين اليومين، تلقى لاموريسير و جنوده ترحيبا حارا من طرف سكان القليعة.

وفي يوم 14 سبتمبر، غادر اللواء بروسار ضفاف الشفة ووصل أمام البلدة وأقام خارج المدينة. وفي يوم 15، شرع في عملية استطلاع في جبل بني صالح الذين قابلوه بنيران بنادقهم. لما علم المشير بهذا، أمر اللواء أن يمتك بعض الوقت في البلدة لكي لا يظهر تراجعهم أمام العرب.

يوم 16، اكتمن القبائل في حدائق المدينة وأمطروا معسكر الفرنسيين بالرصاص، ثم جاء دور الحجوطيين ليشادلوا إطلاق النار مع جنودنا. حدث نفس الشيء يوم 17، أين اشتبكت فرقان ضليلتان من السبابس النظاميين مع الحجوطيين، لكنهما ذهبتا بعيدا، فأمرنا بالرجوع. ثم وصل فريق من الفناصين تحت قيادة الملازم دري لإغاثة السبابس، فهزم الحجوطيين.

هذا الهجوم المنظم والقوي كان الحدث الوحيد في ذلك اليوم. لما غير القبائل اتجاه الجداول التي تسيطر من الجبال، لم يبق الماء في الموقع الذي احتله الفرنسيون، فقرر اللواء بروسار التوجه نحو الرويسو دي سبو (واد الغلابي).

في أثناء حدوث هذه التحركات العسكرية، وصل خبر تكوين

الوزارة التي تشكلت يوم 6 سبتمبر. لما كان أعضاء هذه الحكومة من التيار المعادي للمشير كلوزل، ظن هذا الأخير أنه سيستدعي قريبا. لهذا السبب أخذ زمام المبادرة، فبعث بالسيد درانسي إلى باريس وكلفه بطلب تعزيزات فورية من 10000 رجل لحملة قسطنطين وكذا الوسائل لتطبيق مخطط الاحتلال الشامل.

وعلى ما يبدو، كان درانسي مكلفا أيضا بإبلاغ الحكومة أنه في حالة رفض طلبات المشير فإن هذا الأخير سيستقيل من منصبه. والتقى هذا الضابط بالوزراء وأحاطهم بإنذار المشير، دون أن يحصل على أي شيء منهم.

ولما أصر على إبلاغهم بأن المشير لن يتراجع عن قراره عين الفريق كونت دامرمون لتعويضه وتلقى الأمر بالذهاب فورا إلى إفريقيا، ولكن لتفادي جرح مشاعر المشير، علق تعيين دامرمون بقرار كلوزل للاعتزال. ظنت الوزارة أنها محظوظة، بما أنها ستتخلص من كلوزل دون أن تصدم الرأي العام الذي كان يسانده، لذلك فإن اعتزاله بإرادته المحضة كان بلامتها.

لكن رغم الإنذار الذي أبلغه السيد درانسي، لم يقل المشير كلمته الأخيرة.

الجزء الأول

تركنا اللواء بروسار عند واد العلايق. رغم ما تقرر من إخلاء البناء المحصن في هذا المكان، إلا أن التخمينات الجديدة للمشير كلوزل أصرت عليه أن يبقه. لم يكن ذلك الموقع ذا أهمية لأننا لم نحتل الشفة. يوم 20 سبتمبر وصل إلى الجزائر العقيد في مصلحة الهندسة لومرسي وفي جلسة مع المشير كلوزال أقنعه أن يصدر أوامر للجيش بالعودة إلى ضفاف هذا الواد لبناء الحصن المقرر بناؤه.

هذا الحصن كان سيهجر فور الانتهاء من بنائه لأننا نعلم بالتجربة أن العرب لن يدمروه، ويبقى الأمل أن يستعمل لاحقاً. عاد اللواء بروسار، بعد هذا الأمر إلى ضفاف الشفة أين أقام يوم 22، وبدأ جنوده في بناء الحصن. لما انتهت الأشغال يوم 15 أكتوبر، عاد اللواء بروسار إلى بوفاريك. وذهب بعض الوقت من بعد ذلك إلى أولاد يعيش ليشيد موقعا محصنا، إلى الأمام من موقع مراد وقرب قرواوا، عند سفح الجبل. تم التضييق على العمال من طرف القبائل الذين غيروا مجرى المياه كما فعل بني صالح في البليلة الشهر الفارط. وفي يوم 24، أصبحت هجمات هؤلاء القبائل أكثر جدية، أرسل اللواء بروسار في الجبال قواته التي فرقهم وأحرق بعض مساكنهم. في يوم 25، سار نفس اللواء مع الجنود المتواجدين في الموقع المحصن لواد العلايق وذهب في خرجة

استطلاعية إلى الحصن المهجور في الشقة. بعد ذلك عاد إلى بوقاريك.
أعلن في جدول أعمال نهاية العمليات التي قام بها منذ شهرين. كانت
هذه السلسلة من العمليات غير مجددة لأنها لم تأت بشأرها، فما بقي إلا
حصنين صغيرين، في سيدي خليفة وأولاد يعيش، بدون أي تأثير على
محيطيهما، لأنها لم يمنع الحجوطيين من السطو على المزارع وحرقتها
ومسقة قطعانها، في المجال الموجود بين الحصنين.

في الوقت الذي ذهب فيه اللواء بروسار للمرة الثانية إلى الشقة،
وصلت إلى الجزائر الكتائب الثالثة للحادي عشر للخط والثاني الخفيف،
بينما كان الثالث والستين في طريقه إلى الجزائر. هذه التعزيزات التي لم يبق
أمل في وصولها أيقظت آمال المشير وندم عندئذ على المهمة التي أوكلها
للى السيد درانسي. أوضح مقال في لمونيتور ألبيريان هذا الاضطراب في
نفسه المشير. في الأيام الأولى من أكتوبر، بدأ الكلام على حملة قسطنطينة
التي بدأ أنها قد صمم القيام بها من طرف المشير بما لديه من قوات فقط.
كان عليه أن يستدعي جنودا من وهران والجزائر ليجمع 10000 رجل
في عنابة. كان في تلك الأونة بعيدا عن التفكير في الإنذار الذي أرسله
ولا عن الطريقة التي استقبل بها في باريس.
لذلك لما وصل اللواء دامرمون إلى الجزائر وأفصح عن السبب الذي

الجزء الأول

جاء به، أعلمه المشير أنه لم يقدم أبدا استقالته ولم يجبر الوزارة على قبول شروطه وبما أنه لم يعط وسائل العمل التي طلبها، فلن يعمل بها. باختصار، أنكر المشير ما قاله مساعده⁽¹⁾. بعد أيام قليلة أعلن في جدول أعمال أن اللواء دامرمون سيكون حاكما لمنطقة وهران. وتلقى بالفعل اللواء هذه الوجهة الاحتياطية في حالة ما إذا لم يرد المشير مغادرة منصبه لكنه لم يذهب إلى وهران، بعدما قضى بعض الأيام في الجزائر ودرس التغيرات التي حدثت منذ ستة سنوات في بلاد ترك فيها ذكريات لطيفة منذ 1830، عاد إلى فرنسا. لم يستطع المشير كلوزل أن يتواري من نفسه ويقول أن تصرفه هذا لم يضر سمعته سياسيا. صرح أصحابه في فرنسا في الصحف أنه سيعود بالتأكيد، لأنه رجل ذو حزم ولا يمكنه المكوث والتشبث بمنصبه إذا لم يعط الوسائل التي طلبها لتحقيق مخططة⁽²⁾، لهذا ولتفادي إغضاب الرأي العام، شرع في التحضير لحملة قسطنطين والسريعة فيها، وأعلنها فعلا ثم أبحر إلى بون يوم 28 أكتوبر. أخذ من الجزائر هذه الحملة الثالث والستين للخط وكتيبة من الثاني الخفيف، قوات من الهندسة والمدفعية. ومن وهران التحق بالحملة الثاني والستين والكتيبة الأولى للمشاة الخفيفة لإفريقيا ومن بجاية القصيلة

(1) لا نستطيع هنا الدفاع عن النوايا الحسنة للمشير إلا إذا أخذنا في الاعتبار نكاه مساعده الذي يعتبر رجلا يحب التفكير والتزبث.

(2) توجد ثلاثة أشياء لا يجب يستحسن التردد فيها إذا كان المراد التمتع بالاحترام الطبقة السياسية حتى في بلاد غارقة في الرشوة. وهذه الأشياء هي: خيلك، مائة، ومنصبك.

الحرّة للسيد بلاتجيني. وضعت هذه الفصيلة والكتيبة الأولى لإفريقيا تحت قيادة العميد دوفيفي، كان للسابع عشر الخفيف، الذي عين في عناية منذ زمن طويل، فرق في وهران والجزائر فبعثت لعناية، وأخيراً بقي في هذه المدينة التاسع والخمسين للمخط الذي تلقى الأمر بالعودة إلى فرنسا.

لما وصلت الأوامر المتعلقة بقوات وهران، التي استدعيت للانضمام إلى حملة قسنطينة، إلى اللواء ليتاغ، كان هذا الأخير قد خرج في غزوة. خرج من وهران يوم 4 أكتوبر على رأس كل قواته الموجودة والتي تعادل 7 آلاف إلى 8 آلاف رجل، وذهب إلى الهيرة، ووصل يوم 6 إلى المعسكر الذي بناه اللواء بيريفو. وتموقع السابع والأربعين للمخط والعرب المعاوين على الضفة اليمنى، وبقي أغلب الجيش على الضفة اليسرى ووضع جسر مكون من العربات بين الضفتين. أثناء الليل، صعد مستوى الواد بعده طول المطر. فتمزق الجسر، مؤدياً بذلك إلى انقطاع الاتصال بين الضفتين. لذلك أرسل إلى مستغاثم للإتيان بجسر من حوامل يوجد في هذه المدينة، لكن في اليوم التالي نزل مستوى الماء وأعيدت الاتصالات. غادر اللواء ليتاغ الهيرة يوم 8، بعدما لحق به الباي إبراهيم بفرقة الضئيلة. ذهب الجيش للمبيت في مزرعة فللك اليوم، وقع تبادل لإطلاق النار في المؤخرة؛ كانت تلك المرة الأولى التي نظفنا فيها العدو. وقضى اللواء ليتاغ يوم 10 في مزرعة وأمر ببناء خايط من

حجر للمرابطين الموجودين في ذلك المكان، ما شكل حصن يستطيع
إيواء كتيبة انطلاقاً من مزرة توجه الجيش نحو ماضر وهو اسم أحد
نواحي المجامر. ذهب العدو في هذا الاتجاه وكان تعداد حوالى 2000
أو 3000 رجل لكنه تراجع أمام الطابور الفرنسي الذي دخلت مقدته
في اشتباك مع مؤخرة العرب. قضى اللواء يوم 12 في ماضر دون أن
يبحث عن الاشتباك مع عبد القادر الذي كان يقابله. كان هذا الأخير
يتأور ليكون دائماً بين الفرنسيين وقيائل الشلف التي كان يشك فيها
لأكثر من سبب. كان يظن أن اللواء ليتبع كان يقصد شلف كما فعل
اللواء بيرغو من قبل، إلا أن ليشع عاد إلى مزرة يوم 13. في تراجعه
أحرق سهل أولاد سيدي عبد الله الحلاب وطمر الآبار. قضى في مزرة
يومي 14 و15 وعاد إلى ماضر يوم 16. كان عبد القادر يتجول مع
جنوده في القرب وكان يتأور دائماً بنفس الطريقة. ترك اللواء ماضر
من جديد وعاد إلى مزرة. يوم 18 بات تحت أسوار مستغانم وتلقى
أوامر المشير بشأن القوات التي سيرسلها إلى عنابة. استئناف السير في
اليوم الموالي ووصل إلى وهران يوم 21. هذه الحملة التي دامت أكثر
من خمسة عشر يوماً لم تأت بأي شيء، حتى نساءنا إذا كان لها سبب.
في الأيام الأولى من أكتوبر، وصل اللواء ثمركز إلى بون أين تقلد

متصب الحاكم. عاد العقيد دوفيرجي إلى الجزائر أين أصبح قائد أركان
الجيش. بدأت تظهر نتائج إدارة الباي جوزاف بأحداث لا يمكن
النسب عليها. كنا نسجل كل يوم ارتداد قبيلة، حتى في يوم ذهاب
العقيد دوفيرجي، هاجمت القبايل الصغيرة الكاتبة في جبل أدروك
بثلاث مئة رجل قرية الكرميش التي كانت موالية لنا والتي لا تبعد
إلا بخمسة أميال عن عنابة والتي قتل فيها الحربي، قاطع الطريق، منذ
بضعة أشهر. يوم 8 أكتوبر، هاجم عرب قبيلة العيشاوة عمال قناة الماء
في عنابة واحتفظوا اثنان منهم. فأرسل عليهم فريق من الفرسان الذي
عاد بخسائر. فصيلة من 200 من المشاة صدت العرب نحو الجبل. في
اليوم الموالي قام بن عيسى، ملازم باي أحمد، بعملية استطلاعية على
رأس 2000 فارس ووصل حتى معسكر الدرعان، لمعطي إشارة
الانقضاة. خرج جوزاف من المعسكر رفقة الحامية، فوجد نفسه محاطاً
بالعدو، ولم ينج إلا بوصول فرقة من الفريق الثالث لقاضي إفريقيا
بقيادة القائد ماريون. التقى هذا الضابط بالعدو في طريقه من عنابة إلى
الدرعان، دون أن يعلم ما كان يجري في الدرعان. فانقض على العرب
الذين فرّوا، فلما منهم أنه يشكل، رغم قلة عدده، طليعة طابور كبير.
وحصر العرب حوالي عشرين رجلاً. وفي تلك الأثناء، كان الرزالي

بحبوب السهل في ثوب المتصر رققة الحناشنة. كان الحساوي قد غر عن جوزاف وأوى إلى تونس. وفي يوم 22، بعث أولاد ذياب وقبائل القبائل الأخرى بتصريح إلى عنابة حول تجاوزات جوزاف. في الشكل كان حكيما ومعتدلا وغير معاد للسلطة الفرنسية التي احتكمت إليها القبائل. واحتوى هذا التصريح على أحداث جذ خطيرة، ولكن لم يكثر بها فيها. عندئذ كان الارتداد عاما.

جاء العديد من الآلاف من العرب، يوم 24 أكتوبر لإطلاق النار أمام معسكر الدرغان وعادوا يوم 25.

في ذلك اليوم، كان اللواء تيريزل داخل المعسكر ومعه تعزيزات حاولوا أن يحتلبوه نحو الجبال أين كان يعتقد تواجد احمد باي، لكن لم يغادر اللواء موقعه، فابتعد العرب.

كان الارتداد عاما وشاملا، ولم يكن ممكنا إنكاره، لهذا اعترف به جوزاف أمام المشير، لكنه أرجع سببه إلى التأخير الذي طرأ على حملة قسنطينة.

لكن حدث هذا الارتداد الشامل لكل القبائل في الأونة التي أكدت فيها حملة قسنطينة.

هذا الاعتراف لم يكن ليسقط الثقة التي كانت بين جوزاف والمشير،

وتقبل هذا الأخير هذا الشرح متيقنا أنه كلما تقدم نحو قسنطينة كلما عادت الأهالي إليه.

بعد وهم الأشخاص، جاء وهم المعدات: صرح جوزاف، وبالأحرى تلقى وعدا⁽¹⁾، بالحصول على 1500 بغل يستخدمون كوسيلة نقل أثناء الحملة. اتكل المشير، والوزير والإدارة على هذه البغال، لكن في آخر لحظة لم يستطع جوزاف ضم سوى 475 بغلا. هكذا أصبحت حملة قسنطينة⁽²⁾ تخيف قبل أن تبدأ.

(1) نصيح هذا التخطئ لأتينا علما من مصدر موثوق أن جوزاف نفسه أصبح مرعوبا من السرعة التي أصبحت تأخذ الموثيق و متاكدين من الكلام الذي قلناه في هذا الموضوع. في الملاحظات الأخيرة، في التخطئ الأخير، ثم يتكلم سوى عن 400 أو 500 بغل.

(2) كانت حملة قسنطينة نتيجة قبول الوزير تعيين جوزاف، رغم أن القول كان قريبا، هذه حقيقة، لكن قبل (انظر الملاحظة من 89). جاء القول في البريد السريع الوزاري يوم 27 سبتمبر. يقول هذا البريد السريع: "كنت حكومة الملك ألا بشرع في حملة قسنطينة في هذه الأونة، لكن بما أنه قد تم الإعلان عليها فقد أتممت بها حكومة الملك. هذه الحملة سيشرح فيها بالوسائل (العدة والمعدات) التي في جورتكم الآن".

لقد استنسخ هذا الكلام الذي قلناه المشير ميزون، الذي كان وقتها وزيرا للحرب، في رسالة اللواء برنار، الذي حل مكانه، بتاريخ 3 نوفمبر. في هذه الرسالة السريعة الأخيرة، أكد السيد برنار أن حكومة الملك لم تأمر بالحملة بل سمحت بها فقط. هذا لا يؤكد إلا شيئا واحدا: أراد السيد كلوزل أن يلزم الحكومة بالتخاذ القرار، ولم يرد السيد برنار إلا أن يلقى كل المسؤولية الأخلاقية لهذه الحملة على كلوزل. أما كان هذا التصرف يسمى حكما، فالأولى حرق كل معالم اللغة الفرنسية.

بعد وصوله في أوائل نوفمبر إلى عنابة، استقبل المشير بالأمراض التي نشت في جيشه، ودخل حوالي 2000 من رجاله إلى المستشفيات، لأن ذلك كان فصل الحمى في تلك المنطقة من الوصاية، وهو أيضا فصل الأمطار التي ترهب الجيوش في إفريقيا، وخبرة خمسة سنوات أثبت ذلك.

كانت الإدارة العسكرية تشكو نقص وسائل المواصلات. وكان لديها اثنا عشر عمرة ولكنها لم تستطع أن تقرر سوى عشرة، لأن دواب العربتين استعملت لأغراض خاصة. من 475 بغلا التي وجدت عوفا عن 1500 التي وعدت بها، اضطرت أن تخصص 90 للمدفعية التي كانت مزودة أقل منها، لكننا كنا على وشك أن نبدأ حربا هجومية، وهذه الوضعية كانت تضر الجيوش في الحروب الدفاعية أين تطالب بالمقاومة مهما كان الثمن ضد عدو يأخذ بزمam المبادرة. قدم السيد ملبسون دارك، المشير العسكري للجيش، الملاحظات والتأنيبات التي تلزمه بها وضعيته ومنصبه، لكنه لم يكثر بها المشير رغم صحتها، لأنه كان متيقنا أن نفوذ جوزاف سيفتح له كل البلاد، وهذه المسيرة نحو فلسطين لن تكون إلا جولة سياسية وليس عملية عسكرية.

لو لم يتوهم هذا، لأخذ المشير كلوزل كل التدابير لإنجاح هذه العملية

التي أصبحت عنده قضية شخصية⁽¹⁾.
كان الجيش الذي دخل في الحملة مكونا من أربعة ألوية صغيرة واحتياط، وكان يبلغ تعدادهم 7000 رجل موزعين كما يلي:

الفرقة الأولى أو فرقة المقدمة.

الفريق هيلم ديرين.

السايس النظاميين والمعاونين،
كتيبة مشاة جوزاف ومدفعيته المتكونة من 4 مدافع للجبال الحقيقية،
الكتيبة الأولى لإفريقيا،
الفصيلة الحرة للفرقة الثانية،
فصيلتان من نقابي الهندسة،
مدفعي جبل (مدفع ثمانية ومدفع خفيف).

الفرقة الثانية - العقيد كورين.

السابع عشر خفيف،

كتيبة من الثاني خفيفة،

مدفعتين للجبال.

(1) كان المشير كلوزل بشكل كبير على جوزاف إلى درجة أنه شك أن يتركه في فلسطين، برفقة كتيبة فرنسية، 1000 تركي وأربعة فصائل من السايس فقط. صادق الوزير على هذه التدابير يوم 30 أكتوبر. بالإضافة إلى إعطاء منعة (50 ألف فرنك تقريبا).

الفرقة الثالثة - العقيد ليفاسك.

الثاني والستون للمخط.

مدفعي جبل.

فرقة الاحتياط - العقيد بوقي دوتريف.

الثامن والخمسون للمخط.

مدفعيتين للجبال.

الفرقة الثالثة - العقيد هيكال.

الثالث والستون للمخط.

مدفعيتين للريف.

لأن احتياط المدفعية متكون من 4 مدافع للميدان، وأيضا أربعة أنابيب لصواريخ عرقه، كانت المدافع الجبلية مزودة بثمانين طلقة، أما مدافع الشهابية فزودت بنصف الذخيرة والمدفعين الخفيفين للأربعة والعشرين كان لديهما 3 صناديق. في المجموع، كان للمدفعية ألفا وأربع مئة وستين صريرة لإطلاقها. كان يوجد في عنابة مدافع الثنا عشر وقد كان بالإمكان أن تستعمل في حملة قسنطينة، لكن المشير رفض استعمالها.

جمعت الفرق الثانية والثالثة والرابعة تحت القيادة العليا للواء تريزل، مما

يعني أنه ما كان هناك إلا لواءان، أو ككتلتان متباينتان تحت قيادة اللواءين دي ريني وتريزل، بالإضافة إلى احتياط صغير.

رغم الثقة الكبيرة التي كان يضعها في الباني الذي فرضه على البلاد، وحشية من تأثير ذكريات تلمسان على عملياته، أعلن المشير لسكان قسنطينة أنه سيتم احترام ممتلكاتهم، ولن يطلب منهم أي شيء ولن يقرض عليهم أي شيء. وفي نفس الوقت، أصدر أوامر بمنع لكل شخص ينتمي إلى الجيش وأذن له أن يتبعه أن يقوم بأي عمل تجاري أو تجارة السطط طيلة تواجده في قسنطينة. لهذا تزود الجيش بالمليون لمدة خمسة عشر يوما، منها سبعة في كيس كل جندي.

اللواء الذي قاده دي ريني والمدمع من طرف السابع عشر الخفيف ذهب إلى قالة أين وصل يوم 10. وفي يوم 13، بدأ باقي الجيش سيره. من عنابة إلى معسكر الدرعان أين ترك جنود قليلون، وعسكر المشير في بوخرقة. وفي ذلك اليوم عثت نقطة الالتقاء خارج عنابة التي تنطلق منها سائر مكونات الجيش مع الموكب لكن عندما وصل المشير إلى ذلك المكان أمر القوات الموجودة بالسير ثم اتبعها بكل قوة تصل إلى ذلك المكان. بقي الموكب تحت حماية التاسع والخمسين وحده. بات المشير في الدرعان رفقة المرافقين له. وأثناء الليل كان الطقس ردينا ولم يستطيع الموكب التحرك إلا على الساعة التاسعة من صباح اليوم الموالي. وفي يوم 14 تبيت الرجود في تحويف الشيران التي لم تسكن طوال الليل وأخذت في الجري في كل الاتجاهات ففقد منها الكثير بحيث أصبحت موارد الجيش في أدنى مستوى.

وفي يوم 14 لم يستطيع المشير استئناف السير إلا على الزوال بعدما هطل المطر طوال الليل وتضخم الجدول الذي عسكر بالقرب منه ثم ذهب بعسكر في موالفة بعدما تحسن الطقس في اليوم الموالي أي يوم 15 على ضفاف السيوس غير بعيد عن قلعة الموجودة على ضفة اليمنى. وفي يوم 16 التحق به الموكب الذي كان وراءه منذ الانطلاق. التجمع الكلي للجيش لم يحدث إلا يوم 17 عندما وصلت العربات والإدارة.

تقدم آثار قلعة بعض المعلومات ذات أهمية لعلماء الآثار. كان هناك مبنى مستطيل في حالة مرضية رغم الثغرات، لكن هذا المبنى البارز والذي يرى من كل مكان لا يدافع عنه بسهولة وكان بعيدا عن منابع الماء إلا أن المشير قرر أن يترك فيه المرضى بكونه مكان مغلق نوعا ما. ترك فيه أيضا حوالي 200 ألف خرطوشة لم تستطيع المدفعية أن تحملها أبعد من ذلك لأن العرب سائقى البغال هربوا في الليل بينغالهم. وفي يوم 18 استأنف الجيش السير متجها نحو منبع السيوس حتى مجاز اعمار. وفي ذلك اليوم التقى اللواء دي رينى بالمشير.

رغم جدول أعمال يشير إليهما، نيت الذخيرة ونسي المرضى دون حراسة في قلعة، لكن تقطن لهذا السيد ملبسون دارك وأخبر بذلك، فأرجع 150 رجلا من التاسع والخمسين إلى ذلك المكان، بعد بضعة

أيام، وصلت الكتيبة الثالثة للفرقة 62 للمخط إلى عنابة وتوجهت مباشرة إلى قلعة.

مجاز اعمار، أين وصل الجيش يوم 16 في الصباح الباكر، هو المكان الذي يعبر فيه طريق قسنطينة واد السيوس. في هذا الواد تضاريس حادة الانحدار والعلو، لذلك اشتغلت مصلحة الهندسة طويلا لوضع منحدرات اصطناعية للعبور.

يوم 17، عبر كل الجيش واد السيوس ليعسكر قرب آثار عتونة في منتصف مرتفع جبل الصدى المشهور، الذي يوجد في قمته الممر الجبلي المدعو رأس العقبة. كل هذه المنطقة مغطاة بالآثار الرومانية.

وفي يوم 18، تجاوز الجيش رأس العقبة وعسكر على بعد ميل منه. بذل جنود مصلحة الهندسة جهودا جبارة لتهيئة الطريق لعبور العربات. ومن رأس العقبة حتى قسنطينة لا توجد غابات، الشيء الذي أثر سلبا على قواتنا التي حرمت من وسيلة للطهي وللدفئة خاصة في المرتفعات.

لم يلتق الجيش بالعدو طيلة 6 أيام من السير، بل أحيانا كان بعض العرب يبيعون العشب للخيل وبعض المواد الغذائية، ورأينا البعض الآخر في الحقول منهمكين في الأعمال الزراعية، لكن لم يأت أحد منهم لينظم تحت راية جوزاف الذي كان يجول من مؤخرة الجيش إلى

مقدمته تحت وقع موسيقى مرعبة. الأشياخ والفرسان الذين أعلن أنهم سينضمون إلى الجيش والذين تم الالتكال، أتوا ولكن بصفهم أعداء. وفي يوم 19، حدث اشتباك في المؤخرة، ضيع فيه الثوب دي بريوا خيوله ولم ينقذ إلا رسوماته وهو رئيس مصلحة قياس الأراضي (الطبوغرافيا) والمكلف بتدوين ورسم الطريق المستكشف. بات الجيش تلك الليلة في رأس واد زناقي، بالقرب من منبع الواد الذي يحمل نفس الاسم. يمر من ذلك المكان خط قسم المياه التي تأتي من السلسلة الجبلية الكبيرة الموجودة بين عنابة وقسنطينة.

وفي يوم 20، رأينا فريقا ضخما من العرب مبعثرين في الاتجاه الذي يتبعه الجيش، فقمنا ببعض التحركات لنهاجمهم لكنهم رفضوا القتال وتراجعوا بعد طلقات نارية.

وحدث أيضا تبادل لإطلاق النار في المؤخرة. أصبح الطقس جد رهيبا مما أدى إلى إفساد الطرق وعطل سير الجيش الذي وصل جد متأخرا إلى مكان يدعى صومة أين أقمتا المعسكر. ويوجد في ذلك المكان بناية رومانية أثرية سماها علماء الآثار الذين يضمهم الجيش يتمثال قسطنطين، لم يستطع الموكب اللهاب حتى صومة وبقي في الورداء. كان الليل باردا وكان من المستحيل إشعال النار. في صباح اليوم الموالي بقيت عدة جثث في مكان المعسكر. وفي يوم 21، عندما

التحق الموكب، عبر الجيش بصعوبة كبيرة واد أكيمجين الذي ضمت الأمطار. فورما عبر المشير إلى الضفة الأخرى التي توجد على بعد ميلين من قسنطينة فقط، عجل الوثيرة ولحق بمقدمة الجيش رفقة قيادة الأركان، ثم ذهب صحبة فرقة صغيرة نحو هضبة المنصورة، قبالة المدينة. كان متحمسا للوصول، لأنه رغم كل الحسابات الحاطة كان يظن أن الأبواب ستفتح له، حتى أنه نشر ليلة ذلك اليوم جدول أعمال⁽¹⁾ يعلن فيه عن الاستيلاء. لكن سكان قسنطينة كانوا يعيدون عما كان يظنه منهم. وكانت المدينة تحت حماية حامية جيدة يقودها بن عيسى، ملازم أحمد باي، ومتكونة من أتراك وقبايل. أما الباقي فكان يحوي البادية مع العرب.

خلال انتظار المشير أمام قسنطينة للوفد المزمع أن يعطيه مفاتيح المدينة دوت طلقات نارية أخرجه من وهمه وأعادته إلى أرض الواقع. الآن ترك الحاكم المتهور والمخدوع المكان للواء المطاع، البارع والحازم. سيجد القارئ العسكري أخطاء عديدة فيما صنع أمام قسنطينة، لكن هذه الأخطاء ما هي إلا نتيجة حتمية لخطأ سابق، لم يكن عسكريا.

شيدت قسنطينة على هضبة تحيط بها مسابيل من ثلاثة جهات، وهذه المسابيل عميقة جدا ومتعدراتها حادة وأحيانا عمودية، ويجري في

(1) يبدأ هذا الأمر بهذه الكلمات: "سيدخل اليوم الجيش إلى قسنطينة التي كانت هدف هذه العمليات". طبع في عنابة قبل انطلاق الجيش.

أصايقه واد الرمال. هذه الخطبة مائلة تجاه هضبة المنصورة، بحيث يجلب للمشاهد من المنصورة أن قسطنطين لوحة موضوعه على حامل. هذا بين المكانين، موصولين بحبس من حجر الذي يوجد سطحه تحت مستوى الخطبة بكثير. ما وراء واد الرمال بالنسبة للمنصورة توجد هضبة كودية أي التي لا يفصلها عن المدينة أي حاجز طبيعي، لكن يوجد هناك سور في حالة جيدة. على الجبهات الأخرى، لا تحتوي الأسوار على تسطيفات وتستند المنازل إليها لكن أيها في هذا المكان بشكل المتعارف المسيل دفاعا طبيعيا. لدى قسطنطين أربعة أبواب: باب القنطرة وهو باب الجسر، ويوجد من جهة المنصورة، أما الثلاثة الأخرى فهي: الباب الجديد، باب الواد وباب الجابية وتقابل كودية أي أين يوجد لجميع سكانه وفي أسفلها اصطبلات الباني المسيرة البارود.

القطعة الحقيقية للهجوم طعنا هي كودية أي أين أرسل لواء دي ريني فور وصول الجيش إلى المنصورة، وانضمت إليه الكتيبة الثانية الخفيفة. الفرقة التي كانت في المقدمة صدت في الأول من طرف العرب، لكن هؤلاء سرعان ما تراجعوا وراء أسوار المدينة لما هوجموا. من طرف باقي الكتيبة.

أقام باقي الجيش في المنصورة. لم يستطع المركب الوصول إلى مكان المعسكر، فقد اضطر للتوقف على بعد ميل في مكانة خفيف وموحل

حتى أن الجنود سموا معسكر الوحل. في اليوم الموالي 22، بدأت جهود جارية لإخراج المركب من الوحل، دون جدوى. لم يتم سوى بعشرة العربات، مما أدى إلى صعوبة أكبر لحراستها. بدأ العرب إطلاق النار، وتم التخلي عن المركب نهائيا، أي عربات الإفارة، لأن البغال كانت قد وصلت إلى المنصورة. قيل أن تهر العربات، قام الجنود بنهبها، والكثير منهم، من خوف الجوع، شربوا الخمر، ولما كانت بطونهم فارغة أصبحوا مكارري إلى درجة أنهم منقطعوا تحت ضربات البطقان. أخذت رؤوسهم إلى قسطنطين، مما زاد من شجاعة السكان. عربات اللواء وجزء من عربات المدفعية لم تصل إلى المنصورة إلا على منتصف الليل.

كما رأينا أن كودية أي هو المكان الوحيد من أين كان يمكن الهجوم على المدينة، لكن حالة الميدان السيئة والعبور الصعب لواد الرمال أرجعنا لنقل مدفعية لا مستحيلة، اكتفى عندئذ اللواء دي ريني بمدفعية خفيفة، لا تفيد ضد الأسوار. لو كان المشير يتوقع المقاومة، لا تطلق من كودية أي، الذي هو المكان الأفضل على أي حال.

في يوم 23، قصفت المشير بالمدفعية باب القنطرة على حافة المسيل على بعد 400 م. بعددنا نفدت المؤونة والذخيرة، فقرر المشير أكثر في هجوم

خاطف عرض هجوم عادي. بعدما ألحق أضرارا بباب القنطرة المدفعية، ظن أنه يمكنه المرور ليلا بقوة، فأمر العقيد لوميرسي بتهيئة الطريق وكلف فرقة النخبة التاسع والخمسين والثالث والستين بالمحور الحائط.

في منتصف الليل، بعث العقيد لوميرسي النقيب هانت مع بعض الرجال الذين اختارهم لمعاينة المكان. لكن المكارة التي وافقت هذه الحملة من بدايتها جعلت المطر يتوقف في اللحظة التي كان لا بد أن يعطل فيها، وظهر نور القمر ليفضح مهمة الاستطلاع، إلا أن الرجال المكلفين بتلك المهمة أنجزوها رغم وابل الرصاص الذي تهطل عليهم، فوصلوا إلى الباب الذي وجدوه منزوعا من مفصلات، وكان مائلا ومتكنا على ركيزة قبة وتاركا مدخلا ضيقا بينه وبين السور. لما دخلوا من تلك الفتحة رأوا بابا آخر في حالة جيدة والذي كان واجبا عليهم أن يفتحوه بالمتفجرات، كانت هذه العملية تستلزم بعض التحضير، لهذا أجلت إلى الليلة اللاحقة.

وفي يوم 23، واصلت المدفعية في قصف المدينة، كما هوجمت القوات المتواجدة في كودية آي من طرف أحمد باي، ولكنها صدت العدو، قام الفرسان بهجوم قوي. حتى عرب الخارج جاءوا لتبادل

إطلاق النار. فواجههم التاسع والخمسين للخط الذي صددهم. عند الليل، ذهبت قوات الهندسة عند نهاية الجسر، وأرسل اللواء تريبول قوات التاسع والخمسين والثالث والستين وكذا الفرقة الحرة للنقيب بلانجيني لمساندتهم. كان من المقرر تفجير الباب الأول بأكياس من البارود وأكياس من التراب، ثم التوغل في القمع المكشوف وتسلق السور، بينما تقوم جماعة أخرى بتفجير الباب الثاني ففتحت هذه العملية تماما.

وصل نقاب الهندسة بكثرة على الجسر، فكشفهم الضجيج وأيضا ضوء القمر المشعوم في تلك الليلة، مما عرضهم إلى نيران كثيفة، فحلت فيهم الفوضى. قتل الرجال الذين كانوا يحملون السلام⁽¹⁾. لم تعرف أكياس البارود من أكياس التراب بعد اختلاطها ببعضها. في هذه اللحظة الصعبة التي ميزتها الفوضى، أمر خاطي أو غير مفهوم أدى إلى تقدم الفرقة الحرة فزاد الازدحام والفوضى أكثر.

كان من المستحيل ترك كل هؤلاء الناس على هذا الجسر الضيق والذي كان تحت وابل رصاص العدو الذي أسقط الكثير من الجنود. أخرج اللواء تريبول، فخلفه في القيادة العقيد هانت، من الثالث والستين. أمر العقيد لوميرسي النقاب بالتراجع، وأرسل إلى المشير

(1) صنعت ثلاثة سلام في ذلك اليوم، لأن التي خلعت من غلبة رُميت في الطريق للخطوف حمل العربات.

بغيره بفشل العملية. تلقى المشير خبراً معاكساً قبل لحظات من ذلك كان أحد المشاركين في الهجوم في وضعية غير مناسبة لرؤية ما حدث بشكل جيد، فظن أن الهجوم نجح وأخبر المشير أن القوات دخلت فلسطين. عندئذ أعطي الأمر للإدارة والحظيرة بمغادرة معسكرهما والتوجه نحو الجسر. كان ذلك الوهم هو الأخير وكان وحيداً لئلا ما إن ظهر حتى اختفى من جديد.

للتشويش على العدو، أمر المشير بهجوم من جهة كودية آي. لكن هذا الهجوم تلقى نفس مصير سابقه. تعلق الأمر بتفجير باب آخر، وهو باب الواد الذي يُدعى أيضاً باب الريح. ذهب إلى هذا المكان العميد دو فيغي على رأس كتية إفريقية، ومدفعين خفيفين وفرقة من الهندسة، لكن تكرر ما حدث على الجسر مع الأزدحام والفوضى. لما قتل ضابط الصف الذي كان يحمل كيس البارود، ضاع هذا الأخير، وعندئذ حاول الجنود كسر الباب بالمدفع الخفيف والقناص. لكن الحسائر البشرية كانت كبيرة فأمر السيد دو فيغي بالتراجع. جرح النقيب غاند في هذه المعركة جرحاً بليغاً.

كان هذا الضابط يتمتع بمعرفة واسعة ومتخصصة وذو طبيعة لطيفة، فتحسر الجنود عند فقدانه. فقدنا أيضاً الرائد ريشبانس، ابن

اللواء الجمهوري المشهور. كان ذلك الشئ من ذلك الأسف والظلم شجاعة خارقة¹¹.

لما فشل الهجومان وتعدت المشونة وذخيرة المدفعية، اضطر المشير إلى الانسحاب وأمر بذلك فوراً. تلقت فرقة دي ريني أولاً الأمر بالعودة إلى المصورة، أين وصل اللواء من قبل على رأس قناصي إفريقية. قام السابع عشر الخفيف وكتية إفريقية وكتية الثاني الخفيف بحرك منظم تحت نيران العدو، لكن بقي بعض الجنود المتأخرين في حفرة كودية آي. فعاد الرائد شاتغارنيي لاستعادتهم وإقناعهم من موت محقق. هكذا بدأ يوماً مجيداً بالنسبة إليه.

في تلك الأثناء، صف العقيد دو فيغي جنوده على حافة السيل ليغطي بكل ذلكاء ومراعاة تراجع باقي الجيش.

كان الجيش قد شرع في التراجع لما وصلت مؤخرة لواء دي ريني إلى المصورة. وفقاً لأوامر المشير، كان من المنتظر أن يعطى التراجع

(1) قال السيد المشير كلوزل في تسميته، صفحة 42، أن العقيد دو فيغي قد أعلن النصارى الأولى لفلسطين ووصل إلى أولئك النصارى فيها، على رأس بضعة مئات رجل ومنفعين جبال، لكنه تراجع بعدما لم يثق أي مسئلة والعمل، لمزيد من التفاصيل. إلى تقرير دو فيغي الذي لم يقل شيئاً في هذا الأمر. كان رجل مثل العقيد دو فيغي، قد استطاع فعلاً عبور محصنة فلسطين، فكانت هذه النتيجة لنا الآن، لكنه لم يجر. ارتكب المشير كلوزل هنا خطأ من الأخطاء القليلة، لكننا نراجع الخطأ إلى طبيعته، كما سبق أن قلنا.

من طرف الثالث والستون والتاسع والخمسون للخط، لكن للحظة عمت القوضى في كل مكان. تلقى السابع عشر الخفيف وكتيبة إفريقيا الأمر بالذهاب إلى المقدمة وتجاوز هاتين الفرقتين اللتان زادت في السرعة بعدما وصل إلى جوانبيهما و مؤخرتهما العرب الذين خرجوا من المدينة والذين أتوا من خارجها، مطلقين صرخات شنيعة. تركت صناديق من الذخيرة، وعتاد الهندسة، ومدفعين خفيفين تابعين لجوزاف، وبكل بشاعة عربات مسطحة مليئة بالجرحى. كما ترك العديد من الجرحى والمرضى داخل الكهوف أين وضعوا من قبل.

في تلك اللحظة التي كان فيها الجيش متراجعا تحت وطأة عدو ذو بأس شديد، مكنت همه ومهارة ضابط من الحد من هذا السوء. وصل هذا الضابط وهو الرائد شانغارني إلى المتصورة لما بدأ الثالث والستون والتاسع والخمسون تراجعهم، ووجد نفسه في آخر المؤخرة مع فرقة التي لا تتعدى 300 رجل. هزم خط رؤماته وهوجم بالسيف، فأوقف فرقة الصغيرة ونظمها في شكل مربع، وقال لرجالها: هيا يا رجال! إنهم ستة آلاف وأنتم ثلاثمئة! ترون

بأعينكم أن القوات متعادلة.

كان هؤلاء الجنود لا يقلون شجاعة عن قائدهم، فانتظروا العدو على مدى رمية مسدس في شكل صفين وأمطروه بوابل من الرصاص فأسقطوا منه العديد. تخلى حيثئذ العدو عن الهجوم واكتفى بإطلاق النار من بعيد طوال النهار، بعدما أرغمته على ذلك كتيبة شانغارني وكذلك الثالث والستون للخط وبعض فرق القناصين.

حتى وإن استتب النظام في الطابور، إلا أن النفوس مثلت رعبا من هذا التراجع الذي نفذت فيه المثونة والذخيرة وترك فيه الجرحى. حتى الذين كانوا يظنون أنفسهم أنهم أقوياء تزعرعوا، إلا المشير كلوزل، الذي بقي صامدا وشامخا رغم الظروف الصعبة.

تحسن الطقس الذي كان متقلبا منذ يومين، هذا ما أنقذ الجيش، وإلا لهلك في الأوحال. تضرر الجيش كثيرا أمام قسنطينة. مات العديد من الرجال من الجوع والبرد، والكثير منهم جمدت أطرافهم. في كل لحظة، كان يُترك الذين لا يستطيعون مواكبة السير، فيستلقون ويُعطوا رؤوسهم في انتظار الضربة القاضية التي ستنتهي من عذابهم. وفي يوم 24، عسكر الجيش في صومة أين وجد مطمورات من

الحيوب، التي أكلت نبتة، وإلا مشوية عندما كان يمكننا إشعال النار،
كما وجدت بعض الثيران.

بات الجيش يوم 25 عند واد ملاقاة، أحد روافد واد زناني لما
كان المشير يرى موقعا يستطيع العدو استغلاله كان يتموقع فيه. في
ذلك اليوم استعمل أحمد باي ضدنا المدفعية الخفيفة، لكن من بعيد،
وانتهى إطلاق النار على الساعة الرابعة. وجد المشير نفسه منقطعاً
عن المؤخرة التي كانت تفصلها عن المقدمة مسافة كبيرة.

لما رأى اللواء دي ريشي، قائد المؤخرة، بعض العرب على الجوانب
والذين كانوا في طريقهم إلى مخيماتهم، عشي أن يهاجموه وفي هذه
الوضعية الصعبة، أرسل إلى المشير يستعجله، ثم لما تفقد صبره في
انتظاره، ذهب إلى لقائه، قائلا كلمات غير لائقة.

لما عاد المشير إلى المؤخرة اتضح له أن خشية اللواء غير مبررة فغضب
لذلك، واشتد غضبه لما أناه التقرير حول الكلمات غير اللائقة التي
قالها اللواء. في اللحظات الأولى من الغضب، انتزع منه المشير القيادة
وأصدر أمراً بذلك، لكن ترجيات اللواء واعتذاراته غيرت رأيه، ولم
يطلع على هذا الأمر إلا قادة الفرق. والذي خلفه بعد أيام كان أقل
شدة على هذا اللواء⁽¹⁾.

وفي يوم 26، جاء العرب بأعداد كبيرة. انسحب الجيش بأمان لكنه ترك
عندنا قليلاً من الرجال، وعسكر أمام المرباط سيدي طمطم في واد زناني.
وفي يوم 27، هاجم العرب القوات عند خروجها من المخيم. أرادوا
أن يستولوا على عربة كانت عالقة في الوحل. هاجمهم قناصو إفريقيا
وأبعدوهم. لم يظهر أحمد باي وجنوده منذ الليلة. قضى الجيش ليلة في
مجازٍ أعمر بالقرب من السيوس. حاول بعض القبائل الهجوم عند مر
رأس العقبة، لكن قوات جوزاف كانت كافية لتفريقهم.

وفي يوم 28، بات الجيش في قافلة بعدما تبادل إطلاق النار مع القبائل.
هوجم مرتين من طرف قبائل فرقة رئيس الكتية فيليبي من الثاني
والستين الذي كان يقود في ذلك المكان. دافع كما ينبغي وصد العدو.
وتركة المشير هناك مع كتيبته و 150 مريضاً. مات هؤلاء بعد بضعة أيام.
كانت نية المشير تقديم هذا الموقع كغزوة مهمة تسي منحة قسنطينة.
فلما الغرض، تم الإعلان في الجريدة الرسمية أن قافلة هي موقع محصن
مثل قسنطينة تماماً. هذا الوزير مصدقاً لذلك، وظن الناس في فرنسا أن
قافلة هي مدينة.

بات الجيش في موالقة يوم 29 وفي الدرغان يوم 30. دخل الجيش يوم
أول ديسمبر إلى غنابة، ولم يسجل سوى 500 رجل ما بين قتل وجرح.

لكن عددا مماثلا مات بعد أيام في المستشفيات، لذا يمكن أن نقول أنه مات 2000 رجل.

في يوم 4 نوفمبر، ذهب المشير بحرا إلى الجزائر وأعيدت إلى هذه المدينة القوات التي سحبت منها. فالتاسع والخمسون رجع إلى فرنسا، وجزء من الثاني والستين ذهب بحرا إلى الجزائر، ثم من الجزائر أرسل إلى وهران أين تلقى أمرا بالعودة إلى عنابة، ثم إلى الجزائر وأخيرا إلى وهران، مما أدى إلى وفاة العديد من الجنود الذين كانوا مرضى أثناء هذه السفريات. أيام قليلة بعد ذهاب المشير، أقام العقيد دو فيفي في قلعة مع كتية إفريقية، كتية من السابع عشر وبعض السياس. وكان تموين هذا الموقع جد صعبا.

الدوق تمور والدوق مورتمار والدوق كارامان شاركوا في حملة قسنطينة كهواة وكذا بالنسبة للسيد بود عضو في غرفة النواب. أظهر الدوق كارامان البالغ من العمر سبعين سنة إخلاصا وعطفا كبيرين، فقد شوهد في العديد من المرات يجر فرسه المحمل بالمرضى أو الجرحى.

أثناء تواجد المشير أمام قسنطينة، سار اللواء ليتانغ نحو تلمسان لتموين حامية المشوار. فذهب من وهران يوم 23 نوفمبر بطابور مكون من 4000 رجل وقافلة من المون. وجد الحامية الفرنسية في حالة غير سيئة لكن عدد الكولونيل تقلص بشكل ملحوظ. أقام اللواء ليتانغ في تلمسان يوم 29.

وقتل في ذلك اليوم أحد ضباط الهندسة الذي ذهب لزيارة آثار المصورة. عاد اللواء إلى وهران يوم 30 وأشاع الخبر أنه متوجها إلى الطاقا مما خدع العرب الذين لم يهاجموه في مسيرته إلى وهران. لكن في يوم 2 ديسمبر انشكت مقدمة مع العرب في البريجة وريو سالادو. ولم يكن العدو في كثرة وكان تحت قيادة بن نونة. أثناء ذلك كان عبد القادر في مدينته الجديدة يتقدمت بعيدا عن مكان المعركة. في يوم 4 ديسمبر عاد اللواء ليتانغ وطابوره إلى وهران.

في مقاطعة الجزائر، أراد الحاج الصغير استغلال ضعف عدد قواتنا بعدما ذهب البعض منها للمشاركة في حملة قسنطينة لخلق البلية. وفي يوم 8 نوفمبر أرسل ابن أخيه ليجوب النتيجة رفقة الخجوطيين الذين كان لديهم مدفعين سيئين. هاجم هذا الفريق حصن أولاد يعيش. بعد قصف مدفعي لم يأت بأي شيء، أمر مدفعيته والمشاة القليلين الذين كانوا معه أن يعودوا ثم أخذ يجرب هو وقرساته أراضي العرب الذين كانوا معنا. غير بعيد من قرواوا التقى بنحو مئة من السياس النظاميين الذين أرسلهم اللواء بروسار في استكشاف إلى بوقاريك فهاجمهم وداهمهم حتى حصن مراد و قتل منهم 17 رجلا ثلاثة منهم ضباط. قام أحد القارين من السياس بقتل أحد هؤلاء الضباط وكتب اسمه على الجثة بخنجره الذي طعن به هذا الضابط للتعبير عن حقده وكرهه لقادته السابقين.

وفي يوم 9 نوفمبر ذهب اللواء زياتل من الجزائر على رأس الحادي عشر للخط و كل ما كان في إمكانه أن يجمعه. ذهب لبيت في الدويرة و مون في اليوم الموالي كل الحصون الموجودة قرب بوفاريك. وقام ابن أخ الحاج الصغير في نفس اليوم بإحراق العديد من المزارع المتواجدة بين هذه المواقع المحصنة. بات اللواء في المعسكر الصغير في سيدي خليفة. وفي يوم 11، خرج للبحث عن العدو متوجها نحو الشقة ثم نحو البلدة. تبادل الحجوطيون إطلاق النار مع المؤخرة ثم حاول اللواء أن يلاحقهم بإرسال قناصي إفرقيا لكنهم لم يتمكنوا منهم. وأصل المشير السبر حتى وصل قرب البلدة أين أراح جنوده. لم بات حاكم هذه المدينة لاستقبال اللواء حسب الأعراف، فقام هذا الأخير بقصفها ثم وأصل طريقه نحو بوفاريك. لاحقه سكان البلدة و القبائل بإطلاق النار عليه على مسيرة نصف ميل تقريبا. وفي يوم 21 دخل اللواء إلى بوفاريك. بعد بضعة أيام قام سيدي يحيى الخيشتي نسيب الحاج الصغير بغزو جديدة في السهل و تقدم حتى حدود قبيلة الحشنة و أحرق ممتلكات بعض حلفائنا و ألقى البعض الآخر بالانضمام إلى العدو. قام اللواء بروسار بتحريرك القوات لكنه لم يمنع التطريب.

عجبات العرب المتابعة و عدم قدرتنا على صدّها و التبرؤ بها دفعت إلى تبني قرار في شهر نوفمبر اقتراحه من قبل القائد حران (الذي قتل فيها

بعد في قسطنطين) مفاده التغطية بخطوط دفاعية متواصلة و مادية الأراضي المحتلة. لكن تم تعديل هذا المشروع. كان السيد حران قد اقترح أن يقوم الدفاع على طول واد مازفران و جدول بوفاريك الذي كان من المقرر توسيعه إلا أن التوسع حتى مازفران لم يتم، و اكتفى الأمر بخط يربط بين واد آغار و بين سلسلة من المسابيل و الجدول الصغيرة التي وعرت ضفافها و هدمت معابرها. بدأ هذا الخط من السهل و التحق بواد بوفاريك حتى وإن لم يشكل هذا الخط الدفاعي حاجزا مبنيا، إلا أنه ضابقت تحركات الحجوطيين أثناء هجراتهم.

الكتاب 21

الإدارة الاستعمارية - إنشاء الراسوطة. إنشاء الرغبة - امتيازات
مختلفة - بوقاريك - مزرعة نموذجية - مؤسسة الأوقاف - تحليل مختلف
الوثائق الإدارية - السيد بريسون، حاكم مدني - الأشغال العمومية -
بناء الجزائر - حركة السكان الأوربيين - التعليم العام - الإزالة المؤسفة
للمستشفى العسكري

عندما تم تعيين المشير كلوزل كحاكم عام للممتلكات الفرنسية في شمال
أفريقيا، كان اسمه وحده يكفي لإقناع الرأي العام بالاستعمار. لكن النهور
والعوائق لم تؤد إلى أي شيء جيد. وبمجرد أن توقفت الكوليرا، ازداد عدد
السكان الأوربيين بسرعة، فظهرت بعض رؤوس الأموال. وقد جعلت
علامات الازدهار هي الازدهار نفسه. كنا مقتنعين أن الخير على وشك أن
يحدث من تلقاء نفسه، لذلك لم نتخذ أي إجراء لتحقيق ذلك.
حافظ السيد كلوزيل على المراسلات مع لجان تشكلت في بعض أجزاء
فرنسا وألمانيا لإرسال المستعمرين إلى الجزائر.

المضاربين. بطريقة أو بأخرى، يجب على المضاربين البيع بسعر منخفض أو بسعر الشراء. وفي الأيام الأولى من إدارته، أراد السيد كلوزيل إنشاء ضريبة عالية جدا على الأراضي الأوربية غير المزروعة، التي من شأنها الإكراه على البيع، لكن هذا الإجراء، الذي كان سيخصه أيضا مثل الكثير من الآخرين، لم يتم حتى إحرازه. ما توقعناه قد تحقق⁽¹⁾: عندما أتى العمال، رفع المضاربون الأسعار، فعاد العمال محبطين⁽²⁾.

خاطر الاستيلاء على الأراضي، وكنا أول من قدمها، يعترف بها الآن الجميع. وتلتزم الإدارة الآن بتصحيحها⁽³⁾.

(1) في المجلدين الأولين من حوليات الجزائر.

(2) واقتبس السيد إميل دي شان الذي انجذب إلى الجزائر من قبل الحاكم العام نفسه. وجاء مع بعض المزارعين من فرائش كوتتي. بعد إنفاق مواردهم كلها وقضاء عدة أشهر في إجراءات لا جدوى منها، آل هؤلاء التمساء إلى البؤس وعادوا إلى فرنسا.

(3) هذه هي عبارات الإدارة:

"رجلنا في عتلة:

أقطع من 1000 هكتار فما فوق،

تشكل من 2280 هكتار، فإنه 2280 هكتار.

ثلاث قطع أكثر من 500 هكتار، تتشكل من

2400 هكتار، فإنه 2400 هكتار.

سبعة قطع من 100 إلى 500 هكتار، تتشكل من

2458 هكتار، فإنه 2458 هكتار.

مجموع 7138 هكتار.

وأظهرت هذه المراسلات، من جهة، ثقة كبيرة في المواهب الإدارية للسيد كلوزيل، ومن جهة أخرى، يمكن لهذه الثقة أن تعني خفة تسخر من كل العقبات، لأنها لا ترى أن هناك عقبات، أو عمق التفكير الذي يستهين بالخوف، لأنه يمكن التغلب عليه. كان هدف السيد كلوزيل هو جذب بأي ثمن، العديد من الرجال إلى إفريقيا، لأنه كان مقتنعا بأنه سوف يجد طريقة لاستخدامهم. كان تفكيره يتلخص فيما يلي: سيأتي 2000 رجل في الشهر، سيتوفى منهم 1000 من البؤس أو المرض، ويبقى 1000 كبرج صافي. وهذا قد يكون صحيحا في أمريكا، البلد الذي يعود إليه المشير في أفكاره الاستعمارية، لأن المهاجرين الذين وصلوا من أوروبا إلى أمريكا لا يمكنهم العودة إلى ديارهم. قلنا في مكان آخر أن 2000 ميل تفصل بينهم وبين أوطانهم. ولكن الجزائر هي بوابة أوروبا. إذا لم يحس المرء بالراحة فيها يمكنه العودة وإقناع مواطنيه بعدم المجيء. وهذا هو السبب في أنه ما ينطبق على أمريكا لا ينطبق حتما على الجزائر، ناهيك عن الأخلاق أو الاحترام للبشرية.

جاذبية الملكية الخاصة، وربما جمعيات العمال، التي تشتغل في أملاك عامة، ستحث الناس على المجيء إلى إفريقيا، لن نؤكد هذا بما فيه الكفاية. ولكي يصبح العمال ملاكا للأراضي، يجب إيقاف نهب الأراضي من قبل

تحدثنا في الجزء الثاني من حوليات جزائرية عن مزارع تقع في مقاطعة الجزائر.

كانت تقدم موارد قيمة للمستوطنات الاستعمارية المصممة لحد ديمقراطي وللحقيقة والعدالة والمستقبل. لم يكن لدى الحكومة أي الزعاج كانت الأرض لها، و كان في إمكانها توزيعها على العمال الحقيقيين، ولكن يبدو أنه في ذلك الوقت لم تكن لها نفس الأفكار كالיום عن فوائد الملكية الصغيرة.

بزارع منها حوالي 207 هكتار فقط على العكس من ذلك، 12 أوربي أصحاح أملاك صغيرة، وهم يملكون فقط 84 هكتار، بزارعون 25 هكتاراً. تقسيم الأراضي في جوار الجزائر أثر أيضاً على النتائج: نرى القليل من ملاك الأراضي الكبيرة، العقارات الصغيرة والمتوسطة الحجم هي التي تهيمن. تفرس فيها الكروم، ولشجار الزيتون المطعنة، كما تنتج الكثير من الحبوب. أما في عناية فنرى الاستيلاء على الأراضي الذي يهدف بالانتشار مع تقدم جيوشنا، لكن الإدارة أوقفت تقدم الشر.

المضاربة العنيفة على الأرض التي لا ينميها أصحابها الحاليون، في انتظار ربح عند البيع، والمزارعون الحقيقيون لا يمكنهم الحصول على هذه الأراضي إلا بشروط مثبطة، هو سبب العلة التي نلحق بها حل لها في وقت قريب. (الجدول يبين حالة المؤسسات الفرنسية في الجزائر، الذي قدم إلى مجلس النواب من طرف وزير الحرب، 1838، ص. 282).

تحدثنا عن مضاطر المضاربة، نفس الأشياء في نفس العبارات تقريباً، في العام 1836. (حوليات جزائرية، المجلد 1، صفحة 190).

في الأيام الأخيرة من إدارة الكونت درلون أمضى أمراً⁽¹⁾ وافق عليه وزير الحرب، في 29 يوليو 1835، منح بموجبه الأمير مع، لاجي بولندي، خمس مزارع دفعة واحدة حيث تشكل الراسوطة الحوش المركزي. هذه المزارع الخمس هي حوش الراسوطة، وحوش مراد، وحوش المريجة، حوش باي الشرق وحوش بن زرقة.

الجزء الكبير من هذه الأرض، وتبلغ مساحتها أكثر من ثلاثة آلاف هكتار، سبق أن منح من قبل اللواء فوارول للعريب، يسمح لهم بموجب ذلك الإقامة في تلك الأراضي واستغلالها. تم الاتفاق على عدم القرض عليهم أي رسوم لمدة ثلاث سنوات.

تحدثنا عن هذا في المجلد الثاني من حوليات جزائرية. كان واحداً من أكثر الأعمال البارزة لإدارة اللواء فوارول، وصادق عليه الوزير. ومع ذلك تم نسيان حقوق العريب عندما منح الامتياز للأمير مير في عام 1835، وذلك لأن العمل مهمل في الجزائر.

سمح الأمير مير للعديد من العريب بالإقامة على أرضه كخيامين. قدم لهم أكثر مما تقتضيه الأعراف. فرأينا أوريبا يسير مزرعة أغليتها من العريب. تم استعادة الراسوطة، تشغيل رأس المال، من قبل الأمير مير الذي وضع الصليب على الجزء العلوي من المبنى الرئيسي. احترم

(1) انظر مرسوم الامتياز في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

العرب علامة العقيدة الغربية عنهم، ولاحظ جميع المسافرين الذين ذهبوا لزيارة الأمير مير، على شرفة منزله، مسلمين جالسين سلمياً تحت الصليب. كان الأوروبيون يعيشون في وثام تام مع العرب، وكان أطفال البنسرين على حد سواء يلعبون معاً، وكانت النساء يتبادلن الزيارات، وكان الرجال يصبحون أصحاباً. كان هناك التحام. وكان ذلك راجعاً إلى عقلية السيد مير التصالحية. لكن خلف أفكاره الخيرية، كانت نزعة أوستقراطية إقطاعية تجدها عند كل النبلاء البولنديين، حتى بعد المصائب التي ألمت بهم. أراد إنشاء إمارة، وأن يكون له خدام يعامل معاملته جيشاً، بدلاً من زملاء العمل. كان يريد تغطية أرضه بالجناسين بدلاً من المضي قدماً على مدى نسيه موارده.

واضطر السيد مير، الذي لم تكن لديه الأموال، للاشتراك مع راسماليين. وشاركه هؤلاء بطبيعة الحال في هذه الإدارة، ولكن السيد مير كان رجلاً يحب أن يدير وحده شؤونه. أخيراً، بعد مضي سنة من وجودها، فشلت المؤسسة. على الرغم من هذا الفشل، السيد مير في نظرنا هو رجل قدم خدمة كبيرة للمستعمرة، عن طريق الإثبات بالتجربة أن الأوروبيين والعرب يمكنهم التقارب بالعمل من أجل هدف مشترك. وفقاً لبعض الترتيبات التي وضعها الأمير مير منذ فشل مؤسسته،

امتياز الراسوطا ينتمي الآن إلى شركة، لكن هذه الأخيرة ليس لها وجود قانوني، ما لم تحصل على موافقة الحكومة. وعلاوة على ذلك، يحق للدولة سحب الامتياز لأن الوكيل لم يف بجميع الشروط التي تم فرضها. هذه قضية خطيرة جلب انتباه مسيري الجزائر، سواء في إفريقيا وباريس. للأسف، أخرجت الحكومة نفسها لأن الحكومة المحلية اتخذت الرهن العقاري لأكثر من 100,000 فرنك على الراسوطا، على الرغم من أحكام المادة 10 من الامتياز، التي توضح أن هذا التنازل لا ينقل ولا يشغله الرهن العقاري، كلياً أو جزئياً، عدا ما تأذن به الحكومة. في هذه اللحظة، باستثناء حديقة، ليست هناك فلاحات أوروبية في الراسوطا. تم تاجير الأرض للعرب، وكانت نتيجة هذه العملية، واحدة من الأسوأ في أفريقيا، إذ دفع السكان الأصليون (بمجار أراضي الدولة لبعض الأفراد الخواص، أضيف إلى هذا أن المروج الجيدة للحامير كانت في الامتياز، كما اشترت الدولة الثمن بثمان مرفوع، بينما كان يمكنها أن تدفع أجرة اليد العاملة فقط، كما في عام 1833. هذه النتائج لن تقيد الاستثمار وهي مكلفة للخزينة، لأن هذا التنازل لا يتطلب سوى رسم سنوي قدره 50 سنتاً للمهكتار الواحد، ولن يؤخذ هذا الرسم حتى بعد 10 سنوات من دخول الامتياز حيز التمتع.

أقام الأمير مير في الراسوطة في نوفمبر 1835. وبعد ذلك بأشهر أقام السيد مرسبي وهو معمر بحوش الرغاية على بعد ثلاث فراسخ من الراسوطة. واكتسب مع شريكه السيد موسين ملكية المزرعة عبر أسرة عمر باشا. لكن طعنت في ذلك الإدارة. وطلب السيد مرسبي الامتياز، دون التدخل عن حقوقه كمالك.

منح الامتياز، والمزرعة لا تزال ملكا للدولة، بانتظار قرار المحكمة بشأن النزاع. تم التوقيع على مرسوم من قبل الكونت دي لون في 3 جوان 1835، ووافق عليه وزير الحرب في 3 جويلية التالي. ولكن لم يحصل مرسبي على أرض الرغاية إلا تحت إدارة السيد المشير كلوزل. لإقناع المستوطن للإقامة في هذا المكان البعيد، وعد المشير أن يرسل إلى هذه المزرعة مفرزة من المشاة للدفاع عنها ضد العرب. لكن لم يلب هذا الوعد.

لو كان الأمر غير ذلك، استبدل كل القوات المتاحة لحماية للمستوطنين الذين يرغبون في الإقامة وراء خطوطنا العسكرية. كان الأجدر أن لا يعد بذلك، وحظر تلك المرافق التي تخرج الإدارة، والتي كانت أكثر إضرارا للمزراعة وللاستعمار الحقيقي.

قضت محكمة الجزائر النزاع بين السيدين لومرسبي وموسين وبين

الدولة لصالح الأولين.

لما لم تتألف الدولة هذا الحكم، أصبحت الملكية فليس السنين. منذ ذلك الحين نجحوا في إنشاء شركة لاستغلال الرغاية. ولكن على الرغم من نشاط السيد مرسبي، المعاملات التجارية الرغاية أحرزها على تصفيتها في هذه الآونة.

أوربي آخر، السيد مونتاني، أقام في مزرعة أثناء إدارة السيد المشير كلوزل خارج الخطوط، في وطن بني موسى، حوش بني شريف. في مزرعة اشتراها ماركيز دالبريس. وقد فشل هذا المستوطن كما فشل من سبقه.

سرعان ما تراجع الزراعة في أفريقيا هو المزارعون المحترفون الحقيقيون. الذين يستغلون أراضيهم بملكوها. نحن بحاجة لمزارعين بالشمال، وليس أولئك الذين يرتدون القفازات واللايس الأنيقة. مالك الأرض قد يمنع، أو على الأقل لا يفشل، وذلك باستخدام الأساليب العربية. حتى لو كانت تنتج القليل، فهي غير مكلفة للرعاية.

هكذا أسس السيد دي تونك مؤسسة في حوش عسرة عند سفح الجبال في وطن الحشنة. يعيش وحده في وسط العرب ويتكلم لغتهم. نسب لغتهم. ولكن لتوفير المنتجات في الجزائر يجب العرض على

نطاق واسع للزراعة الأوربية، ونحن لا نستطيع القيام بذلك إلا مع المزارعين المالكين.

تواصل نظام الامتياز في القطع الكبيرة الذي بدأه الكونت درلون أثناء إدارة السيد المشير كلوزل. هكذا تم التنازل على حوش ميموش، حوش فضلي، حوش بوعقاب و حوش سوقالي. كان هناك مشروع للتنازل على حوش بن خليل، لكن انسحب المستفيد.

تجار آخرون لم يقوا بأي من الشروط المفروضة عليهم وتخلعوا بدورهم من قبل الإدارات التي تلت إدارة المشير كلوزل. وقع الوزير على قانون يحول الإدارة بتقديم وعود التنازل.

يتم تبادل هذه الوعود مقابل سند ملكية نهائي بعد إكمال المتطلبات من كافة المتعاملين⁽¹⁾. قسم المشير كلوزل حوش شاوش و حوش بوعقاب و منح التنازلات.

توجد بوفاريك على أراضي هذين الحوشين، وموقع مشروع مدينة حاولنا أن نسميها مدينة كلوزل، وبما أنه كان هناك دائما الكثير من تجار

(1) ولدت السلطة بدون أي حلجز و بسرعة، لتقارلات عديدة، دون تمويل أو بعد النظر، بما أنها كانت غير راضية بملح الأراضي المحصورة، إذا منحت الأراضي التي طلت أنها موجودة بدون رقابة فهذا المنظور، تقارلت يوم 17 مايو 1835 على 300 هكتار من الأراضي الصومية للسيد لوكري في التوير، عكست متوفرة لم يجد السيد لوكري شيئا. ما يكسب في التوير، هذه المنطقة و القرية كلهم له، و لشراء بنفسه على الأقران 180

التيك سهاها جنودنا مدينة الملهى. ومع ذلك بوفاريك تستطيع أن تصبح بلدة ذات أهمية. للأسف هذا المكان غير صحي كما كنا نعتقد من القليل من المرضى خلال السنة الأولى من الاحتلال في معسكر درلون⁽²⁾.

تم تقسيم الامتيازات في بوفاريك إلى 162 قطعة من ثلث هكتار حول المدينة، و 173 قطعة من 4 هكتارات خارج المدينة. يدفع الوكلاء رسوم طفيفة. يضطرون لبناء المنازل وفقا للتصميمات. كما أنها ملزمة بالزراعة وغرس الأشجار على الكثير في ثلاث سنوات.

في بوفاريك هناك مئة منزل ويبلغ عدد سكانها الأوربيين أقل من 800 نسمة. في 27 سبتمبر 1836، تم التوقيع على مرسوم بشأن تنازلات بوفاريك ونشره، ولكن العديد من الوكلاء كانوا يستعملون أراضيهم عدة أشهر قبل ذلك الوقت.

من بين الأسباب لهذا النظام هناك: لسنوات عدة لم تتم زراعة هذه الأراضي (حوش شاوش و حوش بوعقاب). ومع ذلك، لا أستطيع أن ألغى هذا التأكيد: لأن الأراضي أصبحت غير مزروعة منذ إقامتنا هناك فقط، و كانت قبل مجئنا مزروعة بشكل جيد، باستثناء جهة ست فيها نباتات الدفل فقمنا بتدميرها. عندما نستقر في مكان ماء

(1) النظر الكتاب الثاني، ص 237.

تبدأ عادة بالتدمير، أو نتركه للهلاك⁽¹⁾، ومن ثمة عندما نريد إصلاح بعض الضرر، تقدم تجاربنا كإبداعات جديدة.

هي حقائق من الصعب جدا الاعتراف بها، وأنا أعلم، ولكن ربما يتكرر هذا منكم الإدارة أنه من الأفضل الحفاظ على ما هو موجود فعلا، عوض استعمال الشعوذة الاستعمارية، وأنا لا أخلطها مع الاستعمار الحقيقي.

تحدثنا في الجزء الأول من حوليات جزائرية عن المزرعة النموذجية، التي أجر لها المشير كلوزل خلال إدارته الأولى 1000 هكتار من الأراضي على ضفاف واد الحراش.

هذه الشركة لم تعد موجودة في عام 1836، وقد تعقبت المحاكم هذه الأراضي التي كانت قد صفت كممتلكات خاصة.

وأظهرت وقائع هذه القضية أن قرار تأسيس هذه المزرعة النموذجية، بتاريخ 30 أكتوبر 1830، وضح أنه يجب أن تؤخذ 1000 هكتار المستأجرة من قبل الدولة للشركة على ضفتي واد الحراش بداية من مصبه، وتشمل ميزون كاريي، ولكن لا تشمل حوش حسن باشا، الذي أعطي لها رغم ذلك.

لقد عانت مصلحة أملاك الدولة من نقص الوثائق، لكن من خلال العمل والبحث، وصلت إلى نتائج مرضية في عام 1836. عدة أسئلة بقيت بدون جواب تم سلط الضوء عليها وتم إكتشاف عدة سرقات و بمؤهلات عرفت هويتها. تعرف الدولة أخيرا ما لديها في مقاطعة الجزائر، وثمة قسم خاص للإشراف الإداري للمرافق العامة ويسمى إدارة الحبوس⁽²⁾.

وإدى السيد برناديت المسؤولية عن هذا الفرع الإداري، واستطاع تنظيم الفوضى التي نشأت عن الغزو. اكتشف السيد مانغاي، قائد الهندسة العسكرية، تشكيل الملكية في أفريقيا، ويعرف القليل من الأوروبيين ذلك⁽²⁾.

نقدم للقارئ الآن، تحليل الأعمال الإدارية الرئيسية، منذ رحيل الكومت درلون حتى نهاية إدارة المشير كلوزل.

أوكل الرهن العقاري، الذي عهد به إلى كتبة المحاكم بموجب المرسوم الصادر في 8 مايو 1832، للإدارة، بأمر من الكومت درلون المؤرخ في 22 جويلية 1835.

(1) الحبوس هي أملاك تعود لمؤسسة و من جهة، كل الذي ينتمي إليها.

(2) ملحق هذا العمل في الجزائر مرة أولى، وقد نشر في المجلد الثاني من هذا الكتاب.

تم نشر هذا المرسوم أثناء حكم المشير كلوزل في أعمال الحكومة أثناء إقامة المشير كلوزل في وهران بين حملتي معسكر وتلمسان. وقع مراسيم تعيين بعض وظائف القضاء للمسلمين والعبريين. في الواقع، تم التوقيع في مكتبه في وهران.

في 7 ديسمبر 1835، أنشأ مرسوم ملكي اتفاقية القرض بالفائدة في الممتلكات الفرنسية في شمال أفريقيا.

الفائدة القانونية، إذا لم يكن هناك اتفاق، كان من المقرر أن تكون عشرة في المائة، سواء في المسائل المدنية أو التجارية. في الواقع، فإن القوات كلها عاجزة في مواجهة الربا.

في 19 مارس، تم إصدار أمر يقضي بعدم صلاحية الوثائق على الأراضي التي تحتلها القوات الفرنسية إلا إذا كانت مصادقة طبق الأصل من قبل قاضي المكان، ومصادقة من باي المنطقة التي تم فيها تحرير الوثيقة.

يجب أن تحمل هذه الوثائق أيضا تأييد رئيس الإدارة المدنية أو قائد القوات الفرنسية في عاصمة البايلاك.

هذا الأمر يتطلب على الأشياء التي لم تكن موجودة حقا. نحن نتكلم هنا فقط للذاكرة.

يوم 22 مارس، دعا إلى الخدمة في الحرس الوطني جميع الأوروبيين الذين تتراوح أعمارهم بين 20 و 50 عاما، والمقيمين في أفريقيا، وفي 24 من الشهر نفسه، كان جمع الحرس الوطني للمجتمعات الريفية في كتيبة.

في 21 مارس، وبناء على تقرير النائب العام، تقرر أنه كل ثلاثة أشهر، واحد من أعضاء المحكمة العليا سيكون نائب رئيس المحكمة المدنية، ولا بد له من النظر في القضايا التي لا تخضع للاستئناف.

وبصرف النظر عن أحكام هذا النظام، كان هناك تراكم كبير في القضايا المطروحة وخاصة في قضايا المسلمين، فتم إنشاء غرفة مؤقتة لهذا النوع من الأعمال يوم 28 مارس.

في اليوم نفسه، 28 مارس، قرر الحاكم العام خلق منصب ملووس عام للشرطة، وهو وزير للشرطة مصغر. لم تصادق هذه الحكومة على هذا المنصب الذي لم يدم سوى أشهر قليلة.

وشهدت آخر شهر أبريل نهاية إدارة السيد ليامكي. لم يكن هذا

الموظف متفقا مع السيد المشير في مسألة التنازلات التجارية. فعاد إلى فرنسا، وشغل السيد فالي دي شفيني منصب القائم بالأعمال المدني.

في 20 جوان، تم اتخاذ قرار يسمح بالملاحة الساحلية مجانا في ظل ظروف وضمانات معينة. الأجانب أيضا لهم إذن بقيادة السفن الفرنسية. كما يسمح لسفن أجنبية الملاحة الساحلية. وقد خفف هذا القانون النظام السابق الذي وضع في 11 نوفمبر 1835⁽¹⁾ والذي قيد الملاحة الساحلية.

يمكننا القول إن الملاحة الساحلية كان مسموحا بها لجميع السفن، لكن تريد السلطة فقط الاحتفاظ بالحق في تقييدها، إذا رأت ذلك ضروريا.

وظلت الملاحة الساحلية مجانية للجميع بغض النظر عن قوارب العرب، على الرغم من ترتيب 11 نوفمبر، الذي يعترف فقط بذلك لملاك القوارب المقيمين في الموانئ التي تحتلها قواتنا. الاستخدام هنا هو أكثر حكمة من نص المرسوم؛ بأي سلطة ستنظم

(1) لقد أضفنا تحليل هذا القانون في الجزء الثاني من المجلد الثاني من حوليات الجزائر.

أمور المستعمرة إذا كنا نعتاد أن نعتبر القوانين باطلة قبل إلغائها؟ في 13 سبتمبر، بأمر من الحاكم العام، أصبحت القوانين 2 و 3 المؤرخة في جويلية 1836 قابلة للتنفيذ في الممتلكات الفرنسية في شمال إفريقيا. وخفض هذان القانونان الأسعار، ورفعوا الحظر وسهلا التخليص الجمركي.

في 6 أكتوبر 1836 عدل المرسوم الملكي لـ 10 أغسطس 1834 بشأن تنظيم القضاء. وقد أرفق قاض بديل لمحكمة الجزائر، وأصبح للمحكمة العليا قاضيين مناوب بدلا من ثلاثة قضاة. كما أصبح قضاة وهران وعنابة يحكمون في جميع الجرائم بالسجن بعد الأمر المؤرخ في 6 أكتوبر.

بقرار مؤرخ في أكتوبر 28، بصيغته المعدلة، تشكل الحرس الوطني على أساس جديد وتحت اسم الميليشيا الأفريقية.

تتألف هذه الميليشيا من جميع الأوروبيين الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و 60 سنة، الذين يقيمون في الجزائر. بأمر خاص من الحاكم العام يستطيع إدماج المواطنين الأصليين من نفس الفئة العمرية. في هذه الحالة، تكون فرقهم منفصلة ويتم تعيين قادتهم من قبل الحاكم.

ويعين الحاكم أيضا ضباط وموظفي الميليشيات، وجميع قادة السرايا، ويعين الضباط وضباط الصف للانتخابات. ويوجد إداران واحد للخدمة المنتظمة لميليشيا أقل من خمسين عاما، والآخر لاحتياطي من هم فوق هذا العمر.

قد تكون هناك حاجة للميليشيا خارج المدينة. ومدة الخدمة قد تكون عشرين يوما. العقوبات على خرق الخدمة يمكن فرضها من قبل مجالس نأديبة وتصل إلى عشرة أيام في السجن. في حالة رفض الخدمة، قد تصل العقوبة إلى عشرين يوما في السجن، ولكن يتم فرضها من طرف الشرطة. علق مرسوم آخر في 28 أكتوبر، جميع تحويلات الملكية بين الأحياء في محافظة قسنطينة. أمضى هذا المرسوم السيد بريسون، الذي عين متصرفا مدنيا خلفا للسيد لياسكي، لمنع الاستيلاء على الأراضي في هذه المقاطعة، التي كنا على وشك احتلالها.

السيد بريسون، لدى وصوله إلى إفريقيا، بدأ بدراسة موارد البلد واحتياجاتها، رأى قبل كل شيء، أنه يجب على الإدارة أن تكون صادقة، والكذب هو وسيلة استعمار يرثى لها. لذلك سرعان ما نشر إشعار عرف فيه بحقيقة الوضع، وحذر الجمهور أن أراضي الدولة محدودة جدا في المناطق المحتلة من قبل قواتنا، وبالتالي وصول المستوطنين الجدد لم

يكن مرغوبا فيه. كان السيد بريسون قد فهم جيدا سليات الاستيلاء على الأراضي، وساعدهم بقوة لتوفير الحكومة في هذه النقطة المهمة، ونحن مدينون لهذا المشول بالتزام الوزارة بوقف التجاوزات لأنها تسبب ضررا بالغا للتنمية الاستعمارية.

لم يفتح أي طريق رئيسي تحت إدارة كلوزيل، وصل طريق البلدة إلى أولاد متديل من قبل اللواء فوارول، وإلى ثلاثة أرباع الميل من بوفاريك من قبل الكومت إرلون لكن وصل الطريق أخيرا إلى بوفاريك، كما فتحت طرق قليلة بين القرى.

في الجزائر العاصمة، كثرت المباني في الشوارع الرئيسية الثلاث، انطلاقا من ساحة الحكومة، في اتجاه الأبواب الثلاثة الرئيسية. إدارة الطرق والجسور لم تبق مكتوفة الأيدي. نجح السيد بواريل، رئيس هذا القسم، وبعد اختيارات شاقة، في 1835 و 1836، أن يعد تماما خطر احتياح المياه الذي كان يهدد ميناء الجزائر بأكمله بالدمار. بعد ذلك، شرع في تمديد الرصيف، وهو عمل عظيم يعطي أهمية بحرية للجزائر.

وقنوات المياه الصالحة للشرب في الجزائر كانت في حالة سيئة للغاية منذ بداية الاحتلال، وتم تصليحها جزئيا بداية من 1836. بشكل عام، اتلف نظام التنايع برمتة تحسينات كبيرة. بدأنا أيضا في نفس العام أعمال التحفيف في بوفاريك.

في 1835، كان عدد السكان المدنيين الأوروبيين 11221 نسمة، وفي 13 ديسمبر 1836 بلغ عددهم 14561 نسمة، من بينهم سوى 5485 فرنسيا. وقد كان توزيع السكان على النحو التالي:

	الفرنسيين	الأجانب	المجموع
الجزائر	3625	5469	9094
وهران	959	2109	3068
عنابة	723	1244	1967
بجاية	157	200	357
مستغانم	21	54	75
المجموع	5485	9076	14561

هذه الإحصائية تؤدي بنا إلى الكلام عن التعليم العام الذي حصل على بعض التقدم في عام 1836. في 31 ديسمبر من ذلك العام، كان 81 طالبا في إكمالية الجزائر. تأسست مدرسة فرنسية للعرب و كانت تضم تقريبا خمسين طالبا. هذه المؤسسة تستحق التشجيع.

مؤسسة أخرى أكثر أهمية من ذلك بكثير ومفيدة جدا، تم توقيفها في ظل إدارة كلوزيل، وأعني بذلك المستشفى التعليمي، الذي أسسه المسير العسكري بوندوران، والذي تكلمنا عنه في المجلد الأول من حوليات جزائرية. هذا المستشفى التعليمي، كان يزخر بمعظم الأطباء والجراحين

المهربين لجيش إفريقيا الذين لم تدفع لهم أجورهم، رغم أنه كان مدرسة ممتازة لمجموعة من الأمراض التي لم تكن لدينا فرصة دراستها في أوروبا. ثلاثون طبيبا إضافيا تلقوا بذلك تعليما نظريا و تطبيقيا لم يكن ممكنا الحصول عليه في أماكن أخرى بسبب المنافسة والظروف المواتية التي كانت متوفرة. كان هؤلاء الأطباء الإضافيون مفيدون أيضا في مناسبات عديدة، لخدمة الجيش. وجد جميع ضباط الصحة الشباب لحامية الجزائر في المستشفى التعليمي كل ما يمكن أن يحسن دراستهم. سياسيا، كانت هذه المؤسسة مفيدة أيضا. نحن نعرف أن العرب لديهم الثقة في الطب، وهو من بين كل العلوم، العلم الذي سيكون الأسهل لحثهم على تعلمه. وبالتالي، وبعبدا عن تدمير المستشفى التعليمي، كان يجب أن نبذل الجهد في جعله مثل كلية الطب أبو زعبل، التي أسسها مواطننا كلوت باي في مصر والتي أصبحت وسيلة للحضارة.

تحت إدارة الكونت درلون، تأسس مستشفى للسكان الأصليين في بوفاريك تحت إشراف الدكتور بوزان، لكنه لم يتلق الدعم الكافي وتم حجره. ولكن السكان الأصليين كانوا يستقبلون في المستشفى المدني بمدينة الجزائر. وحتى عندما يتمون إلى السبايس غير النظاميين، فقد كانوا يستقبلون في المستشفيات العسكرية.

الكتاب 22

اللواء بروسار في وهران - تموين تلمسان من طرف عبد القادر - تعيين الفريق الكونت دامرمون حاكما عاما - وصوله إلى الجزائر - مهمة اللواء بيجو في وهران - تحركات عبد القادر في مقاطعة التيطري وتحركات دامرمون في مقاطعة الجزائر - انتفاضة قبائل الشرق - حملات ضد قبيلة بئر و معارك في بودواو - بعد تهديده للوضع في الشرق، دامرمون يتجه نحو الغرب - أحداث مقاطعة وهران - مفاوضات مع عبد القادر و معاهدة الطافنا - إخلاء معسكر الطافنا و تلمسان.

عاد المشير كلوزيل لتوّه إلى الجزائر بعد رحلته إلى قسنطينة، للتعامل مع قضية مقاطعة وهران، حيث عملنا أن الوضع غير مرضي. كان للمحتدي منذ فترة طويلة أقل من نصف حصة اللحوم يوميا بعدما اختلقت القرابة حظيرة الإدارة. كانت حاميات تلمسان الطافنا دائما

بدأنا أخيرا في عام 1836 في تعويض أصحاب الممتلكات المصادرة تحت ذريعة المنفعة العامة. كانت اللجنة المكلفة بدراسة ملفات ذوي الحقوق تحت رئاسة السيد بود، وهو عضو في مجلس النواب، لتقديم العمل الذي لم يأت بأي نتيجة حتى الآن. مصلحة الضرائب، البطينة جدا للقيام بعمل صارم، تأخذ في كثير من الأحيان أرباحا يبيع أراضي الدولة.

تم بيع موقع في ساحة الحكومة في الجزائر ب 15500 فرنك للماركيز دي لا تور دو ديبين، الذي بنى أجمل منزل في المدينة.

عمية بشكل وثيق ولكنها محاطة بالأعداء. أخيراً، الدواير والزمالة لم يعد من الممكن لهم إطعام خيولهم، كانوا يقتفرون إلى الحبوب لأنفسهم وأسرهم. خصص لهم حصص من الخبز والأعلاف، وبدون هذه المساعدة لأجبروا على التخلي عنا.

كانت الأمور هكذا عندما تقلد الفريق بروسار، في 13 يناير، قيادة محافظة وهران، بدل اللواء ليتانغ، الذي عاد إلى فرنسا. لكنه لا يكفي إرسال لواء جديد إلى وهران، بل كان لابد من دعم القوات. وكانت إدارة الجيش منهكة. لهذا استقبلت بشغف الإخوة دوراند، الذين وعدوها للخروج من هذا الحرج.

هذه اليهوديين الذكيين قد تصورا فكرة جريئة من إشراك القبائل الموالية لعبد القادر في لمحين الحاميات لدينا. ولكنه لا يكفي اتفاق مع الإدارة العسكرية، بل كان من الواجب الحصول على إذن الحاكم العام. قدمت له فكرة المضاربة التجارية كوسيلة للوصول مع عبد القادر إلى السلام، الذي كان يفكر فيه المشير، كما رأينا في الكتاب 23. الاتفاق بين الإدارة ودوراند لم يكن كالصفقات العادية: وعدت الإدارة تلقي بأسعار متفق عليها ومقبلة جدا لليهوديين دوراند الإمدادات، لكن لم يعد هؤلاء بشيء. بالأسرى قالوا في الواقع:

"نحن متأكدون من النجاح"، ولكن البدء، نريد استشارات مؤمنة دون خسارة المشروع في حالة عدم إنجاز العمل من طرف المفاوض. إذا أرسلنا الثيران، سوف تضطرون إلى أخذها وإذا لم ترسل، لا مواخذة". في هذه الصفقة لم يخاطر الإخوة دوراند إلا بعدم الربح. غير أن القيادة في وهران أبرمت صفقات أخرى مع تجار آخرين بنفس الشروط دونما استشارة الإدارة المركزية في الجزائر التي بقيت بعيدة عن التدبير.

وكانت القضية التي تمت مناقشتها هنا، بدأت بالأخ دوراند الأصغر، واستمر الكهل في مناقشتها. هذا هو الذي ستكلم عنه.

كانت رؤية التجار اليهود صحيحة: عبد القادر، الذي كان يحتاج عدة بضائع لا تقدمها إلا الأسواق الأوروبية، سمح لهم بشراء الماشية على أرضه وإرسالها إلى وهران، على شرط أن توفر له السلع التي يحتاجها. هذه أول عملية وكانت نجاحا كبيرا.

وصل بضع مئات الثيران إلى وهران، وأرسل الكبريت والحديد والصلب إلى الأمير. سيارات المدفعية شاركت في إيصال هذه الأمور إلى نقطة التسليم لعملاء عبد القادر.

ولكن حامية تلمسان بدأت تشعر بالحاجة إلى إمدادات جديدة. ولو حاول اللواء بروسار تموينها بالطريقة القديمة لاحتاج إلى القيام بحملة عسكرية، الشيء الذي لم يكن في مقدوره. ثم كانت القوات نفسها التي يحتاجها لحملة تحتاج للكثير من وسائل النقل.

هذه الاعتبارات المختلفة أجبرت اللواء بروسار على القبول من جديد خدمات دوراند، لتزويد المشوار من قبل الأمير نفسه. أقنعه بذلك بقوله له أن فرنسا ستعيد له سجناءه الذين تحتجزهم منذ قضية سيكاك.

لم يكن الأمير يعلق أهمية مادية كبيرة لاستلام السجناء، ولكن كان يرى كواجب ديني الإفراج عن المسلمين من قبضة المسيحيين. قام بالصفقة عضو الإدارة العسكرية لوهران وحده مع دوراند، ولم يتعلق الأمر بمسألة السجناء.

اتفق مع دوراند حول الثمن، وطبيعة وكمية المواد الغذائية، وكان له الاتفاق مع الأمير حول وسائل التنفيذ. كان يقود بنفسه إلى تلمسان القافلة التي نظمها عبد القادر، الذي وفر القمح والشعير والثيران. في ذمته، كانت هذه الصفقة بمثابة فدية الأسرى، لأن

دوراند قدم القضية بهذا النمط. وبالتالي لم يتحدث اليهودي معه بأي شكل من الأشكال عن المال الذي تقاضاه لهذا الغرض، والذي تصرف فيه في نزوته، دون أن يأخذ الأمير ولا مستبها⁽¹⁾. تزويد تلمسان بالوقود تم في بداية شهر أفريل. قسم القائد كافينياك الثلث لصالح أشد الناس فقرا في المدينة واستعمل الباقي لتموين المدينة مدة شهرين.

احتل اللواء بروسار، بعض الوقت بعد وصوله وهران، مسرغين بشكل دائم. كما أنشأ كتيبة بالقرب من بحيرة صغيرة على الجانب الأيسر من طريق مخيم لوفيغيي. هذه التدابير استعادت الأمن في محيط وهران، وكانت مفيدة بشكل خاص للدواير والزمالة.

هذه الأحداث وقعت لما كان اللواء رابايل يشغل منصب الحاكم المؤقت في الجزائر. وكان المشير كلوزيل غادر المدينة في جانفي، على أمل أن يعود قريبا، لكنه استبدل، في 12 فيفري بالفريق دامرمون. وصل الحاكم العام الجديد إلى الجزائر في 3 أفريل. جميع أسلافه بدؤوا عهدهم بواسطة إعلان، يشبه برنامج، متهور في كثير من الأحيان، والذي نفتته الأحداث فيها بعد.

(1) لم نتمكن من التعمق بشأن هذه المسألة وهي واحدة من الأسباب التي أدت إلى تهم اللواء بروسار، ولم يعالكم هذا الأخير نهائيا.

وأعرب بعد وصوله عن اعتقاده أن من واجبه أن يدير المستعمرة بطريقة أبوية وسلمية ويصلح الفشل أمام قسطنطينة. كان من محبي الوسائل الهادئة و السلمية، وقال انه يأمل تطبيقها عند وصوله، ولكن مع الجو المقعم بالحرب، اضطر لتأجيلها.

بينما تقلد الحكم الفريق دامرمون، جاء اللواء ييجو إلى وهران بسلطة غير واضحة، مستقلة عن اللواء الحاكم. كانت مهمة ييجو أن يقاتل الأمير حتى الموت، أو صنع السلام معه نهائيا. مثل الفريق دامرمون، اعتقد انه من واجبه أن يبدأ بإعلان.

هذا وكان البيان، الذي لم يكن موجها سوى للعرب، يهدف إلى تخويفهم بالتهديدات بحرب إبادة لكنه سرعان ما بدأ السيد ييجو المفاوضات مع عبد القادر، من خلال دوراند، الذي كان سمح له بالفعل المشير كلوزيل، كما رأينا أعلاه، على العمل في اتجاه السلام. وكان عبد القادر ليس بعيدا عن السلام. ولكن، من ناحية أخرى، كان يعرف أن قوات السيد ييجو لا يمكنها في جميع الحالات أن تدخل الميدان إلا في أول ماي، فقرر استخدام شهر أفريل في زيادة قبائل شرق محافظة وهران والنيطري. لهذه العملية ميزة مزدوجة:

أولا جمع الضرائب في هذه المنطقة، التي ستحسن ميزانيتها المقللة، ثم وجوده سيوطد سلطته، والتي في حالة عدم وجود السلام، فإنه سيثير ضدنا القبائل المجاورة من وسط البلاد، ويخلق ما يكفي من الاضطراب لإحراج الحاكم ويجعل من المستحيل محاولة التقاطع مع اللواء ييجو في الشلف، عملية طبيعية، لدرجة أن العرب والفرنسيين كانوا يعتقدون أن الحكومة ستشرع في ذلك.

وصل عبد القادر إلى العطف، على ضفاف الشلف، في الأيام الأولى من شهر أفريل. أرسل من هناك إلى مدينة شرشال وبني مناصر لدفع الجزية. خضعت شرشال وأرسل لها قائدا من أتباعه، بيثايني مناصر عرضوا عليه الصداقة، ورفضوا دفع أي نوع من المساهمة. لم يرغب عبد القادر في شن حرب صغيرة، واكتفى بشبه الخضوع هذا. وبعد بضعة أيام، اتبع واد الشلف نحو متبعه، حتى ملياها أين توجد لبال أفضل استعدادا لدفع العشور، والذي كانت تظنه واجبا دينيا. ثم نزل نحو مليانة، حيث لم يمكن طويلا، ثم ذهب ظاهريا نحو معسكر لكنه عند واد القضة غير قجاء اتجاهه و توجه نحو المدينة، حيث دخل في 22 أفريل، فور وصوله إلى هذه المدينة، قبض على 80

كولونيل الأكثر نفوذاً وكان من بينهم وليد بومزراق¹ وأرسلهم كافة سجناء إلى مليانة. ثم بدأ بقبائل شرق مقاطعة الجزائر، والتي حتى الآن لا تكاد تعرف اسمها، وحسبهم لحمل السلاح ضدنا. سبدي السعدي، الذي دخل في جميع الانتفاضات في وقت سابق، كان العنصر الأكثر نشاطاً في هذا البلد.

وصول عبد القادر إلى المدينة وضع في حالة هيجان حتى القبائل القريبة منا. كلها تقريباً وجهت له مبعوثين سرا. أرسلت مدينة البليلة أيضاً، ولكن بصراحة ودون غموض. أخيراً، القرى العربية، تحت تهديد مدافع بوفاريك، خوفاً من هجمات الحجوطيين، التي لم تستطع أن نحميهم منها، أرسلت بالهدايا لباي مليانة لشراء حمايته. وكان هذا الوضع ينذر بالخطر، وكان يمكن أن يؤدي إلى ثورة جميع قبائل متيجة. وبالتالي، فإن الفريق دامر مون شعر بضرورة عدم السماح بتفاقم الأمر، اتخذ خطوات لاحتلال البليلة، من أجل تدعيمه من خلال هذه العملية، الأثر المنتج على العرب اقتراب عبد القادر، ومنع انتفاضة عامة، بفصل قبائل الشرق عن قبائل الغرب. في 28 أبريل، جمع الحاكم العام في بوفاريك تقريباً كل ما لديه من

200 (1) ابن بابي بومزراق، أطاح به في عام 1830 المشير كولونيل.

القوات المتاحة، وأرسل طابورا صغير لمراقبة خوانق واد العكرا والخميرة، يمكن للعدو أن يتغلد منها إلى السهل، نحو الشرق. ثم ذهب شخصياً للتعرف، مع بعض القوات، على مشارف البليلة. إن استقباله كل من الحاكم، والقاضي وأعيان المدينة، ولكن بني صالح الحجوطيين أطلقوا بضع الطلقات على قواتنا، وحتى على أحد الضباط الذي ذهب بعد إذن الحاكم العام ليتفاوض معهم. بعد استكشاف المكان، عاد اللواء دامر مون إلى بوفاريك. انسحب بنو صالح والحجوطيون، ظننا منهم أن قواتنا أتت للترهة، ولكن في اليوم التالي، قبل الفجر، خرج الحاكم العام مرة أخرى، وقسم قواته إلى ثلاثة طوابير: الأولى بقيادة اللواء برو، تلقى أوامر بالذهاب إلى جبال بني صالح، للالتفاف حول البليلة على اليمين؛ الطابور 2 بقيادة اللواء نيفري، نفذ حركة مماثلة على اليسار، والثالث تحت قيادة العقيد شاونبورغ، وكانت مهمته السير نحو البليلة مباشرة من السهل. كان الحاكم العام مع الطابور الثالث. هذه الحركات المختلفة تم تنفيذها بدقة. قبل التاسعة صباحاً كانت البليلة محاطة من قبل قواتنا التي سيطرت على المرتفعات، مانعة بذلك سكان الجبال أن

بهاجموها. ومع ذلك، أطلقت بضع طلقات على الطابور الأيمن. وظهر أن كل شيء انتهى. دخل الفريق دامر مون إلى المدينة وتفقدها مع صاحبها. تقع البلدة عند مدخل أخدود عميق، بين ينبع الواد الكبير، نهر غزير يمتد إلى الشفة، على بعد فرسخين من جانب السهل، فهي محاطة بمجال سميك من الحدائق وبساتين البرتقال والليمون، وجميع أنواع الأشجار المثمرة. الواد الكبير يغذي يتابع المدينة، بواسطة السد الذي يجمع المياه. يقع هذا السد على نصف فرسخ جنوب البلدة في الأخدود الذي ذكرناه للتو، مما يمكن سكان الجبل تحويل المياه عندما يريدون ذلك. أعجزت هذه الوضعية العديد من رؤساء المصالح الذين طلبوا المزيد من العمل والتفقات من الحاكم العام، لكن هذا الأخير لم يكن ذلك بوسعه. من ناحية أخرى، تدمير الجزء الأكبر من الحدائق والبساتين قدم له على أنه ضروري للدفاع. كان ذلك الدمار يخالف مبادئه، التي أعلن عنها مؤخرًا. ثم رأى إقامة معسكر غرب المدينة في الموقع الذي شيد فيه معسكر سنة 1838 في ظروف أقل صعوبة. كانت هذه العملية، التي ستعزل الحموطين عن البلدة وتحاصر بني صالح، نفس المزايا

كاحتلال المدينة دون المساوي. لكن لم تكن الإدارة العسكرية والثقة من قدراتها على تموين هذا المعسكر الجديد. وأخيرًا، وبعد بعض التردد، وبعدما مل الحاكم العام من العقبات التي وجدها في الرجال والأحداث في كل خطوة، تحل عن مشروعه، وجلب القوات إلى بوفاريك. من هناك، ذهب لزيارة القليعة وعاد إلى مدينة الجزائر، في 2 مايو، بعد إعطاء أمر بإقامة مفرزة من الفرسان في مراد، حيث لم يكن هناك إلا حصين واحد بين بوفاريك والبلدة.

ومع ذلك، رأى الأمير الوقت يقترب ليكون اللواء ييجو قادرًا على القيام بحملة. فعاد إلى المدينة واتجه نحو محافظة وهران، بعد أن قام بتعيين باي المدينة في شخص أخيه الحاج مصطفى محل البركاني. وتزامنت عملية تعيين هذا الباي الجديد⁽¹⁾ مع حركة الفريق دامر مون نحو البلدة. فاعتراه الخوف لحظة، وكان على استعداد حتى للتخلي عن الموقع، عندما علم تراجع قواتنا.

بعد استعادته الشجاعة، اتبع فقط تعليمات أخيه، وخلق لنا أعداء جدد. رأينا أن عبد القادر فيها يتعلق بقبائل شرق الجزائر أنه حثهم على حمل السلاح ضد الفرنسيين، استثمرت هذه العلاقات من خلال

(1) لم يخط الأمير سوى اسمية الخليفة (ملازم)، للقادة السابقين الذي عيّنهم في تلك مكان، لكن اسمية الذي سادت هذه الحرب الذين شاركوا في معونتهم هناك.

الحاج مصطفى، ونسبت في اندلاع الحرب في هذه المنطقة التي لم تحدد
أحدا لقتالنا منذ زمن طويل. يوم 9 ماي، هاجم عدد كبير من رجال
قبليتي عمراوة ويسر المزرعة الفرنسية في الرغاية، وخلقوا قتيلين و
غنموا عددا كبيرا من الماشية. كما نهبت أيضا مزرعة عربية. كان قائد
الحشنة في تلك اللحظة في الجزائر. فذهب خليفته مع فرسان وثمان
على أثر اللصوص، ولم يستطع الوصول إليهم. لما أبلغ بهذا الحدث،
أمر الحاكم العام بإرسال طابور تحت قيادة العقيد شاونبورغ، من
فوج من قناصي أفريقيا. استقر هذا الفوج في إقليم الرغاية، في انتظار
التصرف بشكل إيجابي لمعرفة إلى أي قبيلة ينتمي العرب الذين هاجموا
المزرعة.

مسافة قصيرة شرق خط الطول الذي يمر على الرغاية، تمتد من
الشمال إلى الجنوب سلسلة من الجبال الصغيرة تفصل النتيجة عن
حوض يسر. هذه الجبال شديدة الانحدار ولديها عمران : الأول
عبارة عن منحدر وعمر ويدعى "أشرب وأهرب"، وهو منبع في
مكان منعزل يخشى المسافر على نفسه من اللصوص والحيوانات
المفترسة. ولذلك، فمن الخطورة أن تتوقف هناك. الممر الثاني، على

بعد ثلاثة فراسخ من الأول، هو ممر ضيق ممتد (الثنية)، وهو سهل
نسبيا. هذا البلد تسكنه من الشمال إلى الجنوب الجبال، بو خرنفار و
بني عائشة. لم يشارك سكان هذه الجبال مباشرة في هجوم الرغاية، غير
أنهم سمحوا للعدو بالمرور. اتصل بهم العقيد شاونبورغ، وعلمنا منهم
الجناة الحقيقيين لمعاقتهم. كنا نعرف أيضا أنه تشكل تجمع كبير لقوات
معادية ما وراء الجبال الصغيرة التي تحدثنا عنها، عند واد مرجيا بين يسر
وهذه الجبال. عزم الحاكم على تفريقها، وأرسل العقيد شاونبورغ إلى
ثبة بني عائشة: تلقى اللواء بيرغوي، رئيس أركان الفريق دامر مون، أمر
بالذهاب بحرا من الجزائر، مع ألف من المشاة ومدفعي جبل، ويهبط
على ساحل يسر لقطع تراجع تجمع واد مرجيا. عندما تلقى الأمر كان
العقيد شاونبورغ معسكرا على الضفة اليسرى من واد بودواو، على بعد
ميل ونصف من الرغاية. إنطلق من هذه النقطة، في ليلة 17 إلى 18
ماي، على رأس طابور مكون من كتيبتين خفيفتين، وكتيبة خط الثامن
وأربعين، 200 قناصي أفريقيا أو السبايس العاديين، مدفعي جبل،
وعلى 100 صباطيين مساعدين. عرقله المطر وسوء حالة الطرق،
فلم يستطع الوصول إلا على الساعة الثامنة إلى الممر الضيق. مائة من
القبائل على الأكثر حاولوا الدفاع عن هذا الممر، الذي عبر بسهولة. عند

الخروج من المختق، توقف السيد شاوئبورغ على رأس الطابور للتجمع قبل النزول إلى السهل. خلال هذا التوقف ظهر بن زعمون مع العرب والقبائل الذين تجمعوا في واد مرجيا. أراد أن يغلق علينا المدخل إلى سهل يسر ولكنه عجز عن ذلك. مسيرة الطابور الفرنسي كانت كافية لتفريق العدو، دون مناورة وتقريبا دون قتال. لكن حدث اشتباك حاد لمفرزين من الثاني الخفيف، وقد أصيب فيها السيد إسوار، ملازم من الفرقة، بجروح قاتلة.

بعد هزيمة بن زعمون، دخل العقيد شاوئبورغ إلى السهل، دافعا امامه السكان الخائفين وقطعاتهم. توجه نحو مصب واد يسر ليتم اللقاء مع اللواء بيرغو. للأسف حالة البحر، التي كانت مضطربة جدا في ليلة 17 إلى 18، أجبرت الفريق دامر مون على التخلي عن النزول، لذلك لم يغادر اللواء بيرغو ميناء الجزائر. السيد شاوئبورغ سعى عبثا طوال اليوم 18. في المساء كان البحر هادئا، واقتناعا منه بأن لم يكن هناك هبوط، عسكر شاوئبورغ بالقرب من واد مرجيا، وهذه إحدى الحملات المربحة والبهيجة التي حصلت في وصاية الجزائر.

في اليوم التالي 19، اضطر العقيد شاوئبورغ، التي لم يكن عنده خبر سوى ليوم واحد، لأنه كان ينتظر الخبز الذي كان سيجلية اللواء

بيرغو، للانسحاب إلى بودواو. أخذ طريق اشرب واهرب، وهو الطريق الأقصر من المكان الذي كان فيه. بدأت هذه الحركة إلى الورا. لما قدم عدد كبير من العرب ولقبائل على اليسار والجزء الخلفي من الطابور. تم التراجع في حالة جيدة، من تلة لأخرى، من الحدود لأخرى، مع توقفات متكررة، وكان العقيد شاوئبورغ يستأنف الهجوم في كل توقف، وكان يكبد خسائر كبيرة للعدو.

لما وصل الطابور إلى البحر، أمام الخنادق العميقة التي لا بد من عبورها للوصول إلى نافورة اشرب واهرب، وصل فرسان عمراوة. هاجم هؤلاء وقد تم صدهم نحو الشاطئ، مع تكبيدهم خسارة. في هذه الأثناء، قاتل القبائل الذين اصطفوا على المرتفعات، ببسالة على الجانب الأيسر للطابور. زوجاتهم، اللواتي كن على أعلى التلال، كن يشجعن المقاتلين بصرخاتهم. لما صد في جميع الأماكن، انسحب العدو تدريجيا، وتوقف إطلاق النار عندما وصلت قواتنا إلى اشرب واهرب. منح شاوئبورغ جنوده عند واد بومرداس، بعد اشرب واهرب، قسما من الراحة التي اشتدت الحاجة إليها بعد قطع مسافة طويلة وخوض معركة استمرت من الساعة الثامنة صباحا حتى الساعة الثانية مساء، ثم واصل طريقه إلى بودواو، حيث وجد قافلة كبيرة محملة بالطعام و

الذخيرة التي وصلت لتوها، تحت حراسة ألف رجل، بقيادة العميد بورلون، من ال 63 للمخط.

بعدما اندلعت الحرب في الشرق، ولما لم تلق عملية العقيد شاونبورغ النجاح المتوقع لتمهيد الهبوط، قرر الحاكم احتلال بودواو بشكل دائم ولكن، في نفس الوقت، تحرك غربا لتعزيز اللواء بيجو، لذلك لم يستطع ترك إلا القليل من القوات في هذه النقطة. ثم استدعاء على التوالي العقيد شاونبورغ والمقدم بورلون. في 24 ماي، لم يبق في بودواو أكثر من 900 من المشاة، 45 فارسا ومدفعي جبل، تحت قيادة قائد الكتيبة دلاتوري من الثاني الخفيف. كانت هذه الفرقة الصغيرة على وشك خوض واحدة من أجدد المعارك في إفريقيا. يوم 25، كانت منهكة في تشيد معقل، الذي أمر ببناءه الحاكم، عندما تعرضت لهجوم في الصباح من قبل أكثر من 5000 من المشاة وبضع مئات من الفرسان. موقعها الذي كانت تشغله على الضفة اليسرى من النهر ييمن على الوادي. في حوالي الساعة السادسة، ظهر العدو على مرتفعات الضفة اليمنى. سارع القائد دلاتوري في اتخاذ التدابير اللازمة. العربات الأربعة عشرة التي وصلت أمس لتزويد الموقع كانت متوقفة في شكل مربع في ساحة خلفية للمعقل حيث توجد مفرزتين وقطع المدفعية وسيارات الإسعاف. احتلت مفرزان آخرتان القرية العربية لبودواو

الواقعة على اليسار وقليلًا تحت المعقل. تموقع الفرسان على اليمين وراء سلسلة طويلة من القاذفين، تدعمها مفرزتين، تربط مختلف نقاط الموقع.

بدأت المعركة في الساعة السابعة وكان العدو ياطش استولى العدو على بعض الآثار المتواجدة أمام قرية بودواو، واستقر هناك. تاور جزء من فرسانه في وقت واحد للإلتفاف حول موقع قواتنا، وتقطع عليهم طريق الجزائر لكنها هوجمت من طرف قواتنا التي لم تكن مؤلفة إلا من 45 فارس و تراجع نحو المشاة. هذا الهجوم الناجح أعاد الحفظ من جانبنا لما لم تفهم رنة و كادت أن تعيدنا إلى ما كنا فيه: المقررات التي كانت تحمي القرية فهمت هذه الرنة على إنها إشارة على التراجع فأحلت الموقع فتبعتها مفرزات اليمين بحيث استرجع العدو في لحظة تفوقه على قواتنا. لما رأى الضباط الخطر سبقوا الجنود صارخين بالقتال بالخنجر. هذا السلاح الذي تستعمله الأيدي الفرنسية بالتوفيق هزم العدو الذي كان شجاعا فانتظر الصدمة حيث استعبدت القرية و المواقع الأخرى، لكن موقع الآثار صمد بعض الوقت و لم يسترجع إلا بالمدفعية. كان العدو يتهاوى في كل المواقع و عزم على التراجع عند وصل مفرزة من ال 48 للمخط. تراجع فوضوا أخذًا معه جرحه وبعض موتاه. لكنه ترك حوالي مئة جثة على أرض المعركة.

هكذا كانت معركة بودواو، واحدة من أروع مآثر حروبنا في أفريقيا، والتي تستحق كل تقدير للذي قادها. حملت جميع قبائل الشرق السلاح في عخطط وهجومهم على بودواو، وكان قد أبلغ، يوم 24 في المساء، شيخ عمال المحافظ بطريقة دقيقة، لدرجة أن قوات الجزائر والمسكرات المجاورة تطلعت ليلا أوامر للاستعداد لمسيرة تحت قيادة اللواء بيرغو.

بدأوا التحرك بالفعل، ووصلوا إلى بودواو بعد المعركة: في اليوم التالي، بدأ الهجوم. الطابور الأول، بقيادة العقيد شاونبورغ، اتجه نحو الشرب والعرب، وجعل اليوم الأول لتهتة الطريق لمروور للسيارات. وجررت هذه العملية بدون قلق. يوم 27، غادر اللواء بيرغو بودواو، مع الطابور الثاني، إلى ثنية بني عائشة، وعبر بدون صعوبة، وانحدر بعد ذلك إلى سهل يسر و أقام في حوش صغارا، حيث انضم إليه العقيد شاونبورغ.

حتى ذلك الحين، لم يظهر العدو، ولكن في اليوم التالي، بعدما وصل اللواء بيرغو إلى جبل ضروعه، ظهر حوالي 4000 من العرب والقبائل لمعارضة سيرته. هاجمهم عبر عدة نقاط دفعة واحدة، بقوة، فقتل جمعهم تماما في أقل من ساعة. أدى الفرسان مهمتهم بشجاعة. هذه المعركة، التي كانت مميتة للعدو، لم تكلفنا إلا القليل من الوفيات،

بينهم القائد جيرمان، من الفوج الأول لقناصي إفريقيا. بعد ذلك، قام اللواء بيرغو بعملية تشييط لخواتم جبل ضروعه، حيث غنم الماشية. ذهب بعد ذلك عند حوش ناكربيل، عبر بعيد عن البحر. في تلك الليلة، جاء عدة مرابطين من يسر لتوسل الرأفة منه للمهزومين. هذا وقال لهم أن هذه المرة سيوافق، ولكن إذا كان أحد من قبيلة يسريو يدس سلام مستدام، لا بد أن يرسل مندوبين عند الحاكم ليطلبها. في اليوم التالي، استأنف الجنود سيرتهم و عسكروا بعدما جاوزوا الشرب والعرب، حيث عادت كل القوات غل تكتاتها، باستثناء مقررة تركت في الرغبة. الثاني الخفيف، جزء من ال 48 و 63 للخط، سريين من الساييس وأربعة من القناصين شاركوا في هذه الحملة.

خلال الأحداث التي سردناها، تقدمت باخرة وبارجة قبالة دلس، التي شاركت في التمرد. سارعت المدينة في تطبيق كل ما طلب منها. لذا أخذ الحاكم والقاضي وعدة أعيان كرهائن إلى الجزائر.

حدثت فرص الحرب من قبائل الشرق، لذا وجه الحاكم كل اهتمامه غربا. جعل مركز الفرسان الذي أنشئ في مراد خرجات الحجويين أكثر صعوبة، ولكن بقيت عندهم الجراءة في شن هجومات. في ليلة 10 ماي، غزت إحدى عصاباتهم الشرافة، القرية العربية، أمام دالي أولعيم، واحتفظت شابة في عرسها و قتل زوجها ونهبت بعض

الماشية. وكان هذا المشروع الجريء بقيادة محب الفتاة. وقد قام الحجوطيين لهذا الغرض بقطع خط الدفاع بالقرب من التحصينات واد الهاجر، الذين لم يسمعوها شيئاً. طابور متنقل، بقيادة القائد موميت، مساعد الحاكم، تم تشكيله لمراقبة وادي مازافران وتغطية الساحل.

ولكن حاول الحجوطيين الالتفاف حول خطوطنا من الجنوب، كما هو الحال في نوفمبر الماضي. في 24 ماي، تقدموا في حوالي 300 أمام تحصينات واد يعيش، لكن نيرانهم نبهت القائد بوسكارين، قائد مراد، وسار على الفور ضدهم.

بدأ اللواء نيجري، الذي كان في بوفاريك، في التحرك أيضاً مع بعض القوات. علم العدو أنه اكتشف، بدأ في التراجع. لما هاجمهم القائد بوسكارين قرب البليلة فرقمهم بعدما قتل منهم عدد قليل من الرجال.

في 2 جوان، هاجم الحجوطيون عمال أوروبيين أمام بوفاريك، قتلوا منهم ستة واقتادوا الآخرين كسجناء. كان اللواء نيجري قد سمع أن العدو يستعد لشن هجوم. وقد حذر الأوروبيين في بوفاريك من قبل على عدم ترك عيالتهم أن يخرجوا في ذلك اليوم، ولكنهم لم يلتزموا بهذا التحذير. في اليوم التالي، 3 يونيو، تعرضت عدة أماكن من أراضي

مجوم في وقت واحد، فرقة استطلاعية من الفرسان بقيادة قائد السرب درلون خاضت معركة حادة أمام بوفاريك. اضطر اللواء نيجري لنشر قواته للدفاع عن خط واسع جداً، لم يمكنه الشروع في أي هجوم؛ ومع ذلك، كان لا بد عليه أن يهاجم. في هذه الظروف، حول الحاكم، بعد انتهاءه، بقوة وسرعة ملحوظة، من قضية الشرق، مقر قيادته إلى بوفاريك، وجمع كل القوات المتاحة لديه. أخذ تدابير للتوجه نحو المدينة أو وادي الشلف، حسب الظروف والأخبار التي يتلقاها من اللواء ييجو. وسائل النقل الإدارية لم تكن كافية، وعرض هذا النقص عن طريق تجنيد البهائم.

يوم 6 جوان، الحاج الصغير، التي تموقع في العفرون، أرسل من جانب بوفاريك سرية استطلاعية، هزمت من قبل قواتنا بين مراد واد يعيش. في يوم 7، سار الحاكم مع الجزء الأكبر من قواته نحو الشقة، إلى المعسكر الذي بناه اللواء بروسار، السنة الماضية.

كان عازماً، قبل التوجه إلى الغرب، أن يظهر غابة خرايسية من العصابات التي تنتشر فيها والتي تهاجم الساحل، وقال أنه لا يود أن يتركهم وراءه. في هذا الغرض كان قد أمر طابورنا بطلق من المحاملة للدخول في هذه الغابة من طريق القليعة، في حين يأتي هو من الجانب

المقابل. انطلق لهذا الغرض من الشفة ليلة 7 إلى 8، ووصل في الصباح إلى شواطئ المستنقع بالقرب من قبر الرومية. بعد استراحة قصيرة، تحول الجنود نحو اليمين ودخلوا إلى الغابة، حيث كانت بعض الاشتباكات الجزئية مع الحجوطيين.

في منتصف النهار، التحم طابور المحاملة مع القوة الرئيسية. في نفس الوقت تقريباً، فرسان باي مليانة، الذي ظل في العفرون، اتوا برسائل مستعجلة إلى الحاكم من اللواء بيجو، الذي أبرم معاهدة سلام مع عبد القادر، يوم 30 ماي، على الطافنا. وكان نفس الفرسان يحملون رسالة من باي مليانة للحاكم يقول فيها أنه بمقتضى المعاهدة فإنه يسحب قواته إذا كان الحاكم على استعداد للقيام بالمثل.

قبل الفريق دامر مون هذا الترتيب، معتبراً إياه هدنة إلى أن تبت الحكومة في ذلك. نتيجة لذلك، عاد إلى معسكر الشفة، حيث أمضى ليلته، وفي اليوم التالي أخذت القوات طريق عودتها إلى ثكناتها.

نحن بحاجة إلى التوقف هنا لنقدم روايتنا، ومرة أخرى، للإعلان عن الأحداث والمفاوضات التي أدت إلى معاهدة الطافنا.

رأينا أن اللواء بيجو، بعد أيام من نشر برنامجه المهديد، بدأ التفاوض مع الأمير بوساطة دوراند. أراد عبد القادر السلام، ولكن، طبعاً،

أراده ببعض الفوائد. كان دوراند لا يتعجل لذلك لكي تكون له القيمة على الأعمال التجارية، لأنه طالما كانت الأزمة دون حل، يمكنه أن يمارس احتكاراً للتجارة. ولكن عبد القادر قرر فجأة التوجه مباشرة إلى الحاكم العام⁽¹⁾ في الوقت الذي لم يكن يتوقعه مفاوض اللواء بيجو. ومن المحتمل أنه كان يأمل في ذلك أن يزيد من سوء الفهم والتنافس التي نشأت بين اللواءين. على أي حال، كتب

(1) كان يعتقد السيد بيجو أن توجه الأمير سببه الجزائر، وأنه استخدم في ذلك بعض السجناء الذين أعيدوا إلى عبد القادر، في مقابل أولئك كان قد أعادهم اللواء رابايل منذ بعض الوقت*. كان يعتقد أيضاً أنه نفس السبب الذي أدى بالأمير بالسير نحو المدينة، ولكن كان من السهل عليه أن يعترف بخطئه، لأن عبد القادر لم يرى السجناء حتى عودته من المدينة. كان في مينا حينئذ دوراند هو الذي أقنع، لبعض الوقت، اللواء بيجو أنه إن كانت المفاوضات لا تسير بشكل أسرع، ذلك بسبب أنها كانت معقدة بسبب المفاوضات المضادة مع الجزائر. دوراند، على الرغم من رغبته في التماطل، رأى من اللازم، على أية حال، أن تنتهي هذه المفاوضات وإلا فقد أهميته، فوجد الطريقة التي يختتم بها دون خسارة بالنسبة له لهذا الغرض، أخفى عن الأمير التسهيلات السلمية للحكومة، وطلب منه مبلغ كبير لرشوة اللواتي الفرنسية. فليس من المستحيل أن يكون الأمير قد وجد هذه الدبلوماسية مكلفة للغاية، وأن هذا الاعتبار كان من بين الأسباب التي دفعتة للاتصال بالفريق دامر مون. في حين طلب دوراند مقابل من المال من عبد القادر، طلب نفس الشيء من اللواء بيجو لرشوة مستشاري الأمير. ذلك، اعتقد، هو أصل هذه الهدايا الدبلوماسية، الذي تحدث عنها في محاكمة بريينيان، ولكن، وبختصار، لم نهدى.

* من بين السجناء الذين أعيدوا إلى رابايل كان السيد نفرائس، ضابط شاب صغير، الذي نشر كتاب مشير للاهتمام حول احتجازهم.

الى الفريق دامرمون بعبارات، رغم أنها لا تحتوي على مقترحات مباشرة، تعبر في مجملها عن طلب حقيقي للسلام. أجاب الحاكم بطريقة، على الرغم من أنها غامضة، تفتح الباب أمام المفاوضات. كتب في الوقت نفسه الى وزير الحرب ليخبره بخطوة الأمير، ويقترح التواعد، حسب قوله، التي من الممكن اتباعها في المفاوضات. كانت هذه التواعد نحد عبد القادر في الشلف.

في حين بداية العلاقات بين الحاكم العام والأمير، علم بها اللواء بيجو، وقال كلاما اعتذر منه بشدة في وقت لاحق. اتهم السيد دامرمون أنه قدم مقترحات للأمير تمس بالمفاوضات التي كان قد بدأها بنفسه. لامة خاصة أنه أكبر بعبد القادر، وبين له رغبته القوية في السلام. وقد ادعى السيد بيجو أيضا أنه الوحيد الذي له الحق أن يفاوض. ظهرت عندئذ عواقب و مساوى تقاسم السلطة، التي آت بأكملها المر مع إدارة اللواءين ديميشال وفوارول، لكي لا تقع الإدارة في نفس الخطأ. ولكن في هذا الأمر، لم يستفد من دروس الماضي. ونضيف كلاما حتى على الأخطاء القديمة: تعيين حاكمين في الجزائر عطلا، خصوصا أنه لم توضح واجباتهم.

السيد دامرمون فهم أن اللواء بيجو يمكن يكون مستقلا في تسيير العمليات العسكرية، ولكن ليس في تدابير مستقبل البلاد، كمعاهدة

السلام⁽¹⁾. كان السيد بيجو يعتقد أنه مستقل حتى في هذا. النتيجة ظهرت بين اللواءين مراسلات ساخنة جدا في البداية، ولكن خفت، نظرا لحسن نواياهم في هذا الصراع، حيث كانا يعرفان أن الصراع انتهى من التعليقات المتناقضة.

قرر السيد دامرمون التخلي عن المفاوضات⁽²⁾ لصالح اللواء بيجو، وكتب قائلا لعبد القادر، الذي راسله مرة ثانية، أن يتعامل مع بيجو، مع الاحتفاظ بحق الطعن، بمقتضى الرسالة الوزارية لـ 26 أبريل. اعترف اللواء بيجو بهذا الحق للمحظة، كما سنرى لاحقا. وفي الوقت

(1) في رسالة من وزير الحرب للفريق دامرمون، في 26 أبريل، توجد هذه الجملة: "والنكر اللواء بيجو أنه في أثناء هذه المفاوضات، لن يفعل أي شيء دون إقراركم، أو إقرار شيء دون إذن منكم من جانبكم، احرصوا على عدم التناهي دون موافقة حكومة الملك، عليكم بإخباري بجميع المقترحات التي تصك". وفقا للسيد بيجو، لعقد وزير لغة أخرى لأنه قد كتب الى الفريق دامرمون 25 أبريل: "لا يوجد (في هذه التعليمات) أي شيء يفيد بأن تركوا السلام، وأنه على حد تعبير رسالتكم المؤرخة في 14 ماي، ما عني إلا تحضير المعاهدة إذا كانت الحكومة تقول لكم خلاف ذلك، إذا كان لديكم صلاحيات خفية على سوء الفهم، هذا والمساوى التي وقعت، ليست من خطئكم أو خطئي. هي راجعة للحكومة، التي لم تنشأ بطريقة واضحة و نهائية في ما يخص توزيع الصلاحيات... أين الأخطاء نسب على من ارتكبهم".

(2) وفي برقية في 16 ماي، أعلن وزير الحرب أن الأمور يجب أن تكون كذلك. لكن حسنت الأمور قبل وصول هذه البرقية إلى الجزائر.

نفسه، وحصل بن حراش مبعوث الأمير إلى وهران، حيث مكث لمدة يوم واحد. عاد مع دوران واليجرو، مساعد اللواء بيجو. كتب دوران بعد يومين أن كل شيء على ما يرام، ولكن في 14 ماي، عاد السيد اليجرو وأعلن أن كل شيء قد نقض.

لم يترك عبد القادر لفرنسا سوى منطقة الساحل في الجزائر، وفي محافظة وهران البلاد بين بريدبا وماكتا. وفقا لذلك، يوم 15، خرج اللواء بيجو مع قواته. كانت نيته تزويد تلمسان بالوقود أولا، ثم إخلاء معسكر الطافنا، الذي أخلي من حيث المبدأ، ومن ثم التوجه نحو الشلف، وكان مقررا أيضا أن تغل تلمسان على إثر هذه الحملة، مهما كانت نتائجها⁽¹⁾.

قوات الحملة المؤلفة من 9000 رجل كانت على النحو التالي :

الفرقة الأولى - اللواء ليدات.

الفوج الأول للخط الأول.

كتيبة مشاة إفريقية الثالثة الخفيفة.

(1) في 31 جوان، كتب اللواء بنحو الطريق المزمع من برجى ملاحظة لنا لا تتناول عن شرف (بعد القادر) سوى ما كان تحت سيطرته الآن، إلا تلمسان التي شرت أن أعطيها قبل بداية الحملة.

(2) وحصل هذا الفوج إلى وهران في الأيام الأولى من مارس. وصلت كتيبة إفريقيا

الفرقة الثانية - اللواء رولير.

ال 23 للخط،

ال 24 للخط.

الفرقة الثالثة - العقيد كومب.

ال 47 للخط،

ال 62 للخط.

الفرسان.

الفوج الثاني لقناصي إفريقيا،

السبايس العاديين،

الدوير والزمانة.

كانت المدفعية مؤلفة من 329 رجل و معدات ل 12 مدفع حلي.

كان الرجال الهندسة 64 فقط، منهم 4 ضباط.

وسيلة نقل المؤونة متكونة من 950 بغلا للإدارة⁽¹⁾، وعلى 300 من الإبل التي قدمها العرب المساعدون. في 15 ماي، وصل التوامين الثاني والثالث إلى بريدبا حيث تموقع. يوم 16، ذهب بيجو هناك شخصيا مع بقية القوات. يوم 17، غادرت القوات بريدبا في ثلاثة طوابير، وتولت تحت اللواء المالح. يوم 18، عسكر بعد المرور على وادستان، ويوم 19 في

(1) أرسلت البغال من فرنسا.

واد يسر. ثم تبادل بضع طلقات في هذين اليومين مع مجموعات من العرب. يوم 20، وصلنا إلى تلمسان التي تم تزويدها بالمؤن. أمضى الجيش فيها يوم 21، ثم سار على الطافنا، حيث وصل يوم 23.

في حين كانت تجري هذه الحركات، سعى اليهودي دوراند لاستئناف المفاوضات، ولكنها لم تسر بالسرعة التي كان يرغب فيها بيجو. انخفضت وسائل النقل بشدة : 25 بغلا لقوا حتفهم في الطريق، وأجبرنا على ترك 67 في تلمسان، من الذين لم يستطيعوا السير.

معظم أولئك الذين وصلوا إلى الطافنا أصيبوا بجروح فظيعة نتيجة لسوء صناعة السروج التي اعتمدت مؤخرًا من قبل وزير الحرب. هذه السروج ذات الحلق الثلاثي تحول وزن الحمولة تحت نقطة انحناء ضلع البغال، مما يؤدي إلى موتها على الفور أو وضعها خارج الخدمة، في الوقت الذي كان فيه اللواء بيجو يتكلم عليها كوسيلة نقل.

بقيت لديه الجمال، التي لم تتلق تمهات غخططي الإدارة. ولكن رغم توفرها بها فيه الكفاية فهي لا تليق إلا لرحلة قصيرة، وليس لحملة طويلة. لذلك أصيب اللواء بيجو، الذي كان يأمل في تمديد الحملة لعدة أشهر، بخيبة أمل. من ناحية أخرى، صرح عبد القادر

لدوراند أنه سيتعامل مع اللواء بيجو فيما يخص محافظة وهران، ولكنه سيتوجه ثانية إلى الحاكم العام فيما يخص الجزائر. كان ينوي إنهاء الأمر بسرعة، و شك في حسن نية دوراند، فقرر إرسال مفاوض جديد. اختار حمادي بن سيدي صقال، وأرسله إلى معسكر الأمير، يوم 24. في اليوم التالي، عاد المبعوث بمقترحات تستطيع استخدامها كأساس لمعاملة. ولكن عبد القادر لم يرد في حال من الأحوال التخلي عن مقاطعة التيطري. لم يكثر بذلك اللواء بيجو لأنه لم يكن مهتم بهذه المقاطعة. ومع ذلك، كان قد تلقى في اليوم نفسه رسالة من الحكومة تقيد عبد القادر في الشلف. أخرج اللواء بيجو للحظة.

ولكن بالنظر إلى عدم جدية الوزارة في الشؤون الأفريقية ونيتها الغامضة، قرر بيجو أن يتجاهل هذه الرسالة⁽¹⁾. نتيجة لذلك، صاغ معاهدة مماثلة لتلك التي سوف تقرأها في وقت لاحق، ولكن تنص، بالإضافة إلى ذلك، على جزية سنوية يدفعها عبد القادر. كلف بن صقال بتقديم هذا المشروع إلى الأمير.

كان اللواء ينوي في الأول إخبار الحاكم لكسب موافقته. حتى أنه كتب يقول أنه إذا كان لا يوافق، وبالتالي لن يرسلها إلى الحكومة، فليسارع لإبلاغه، سيبدأ القتال على الفور حينئذ. لكنه غير رأيه في

(1) من وجهة نظره، كان اللواء بيجو محقا، لأنه حينما كان على ضفاف الطافنا لم يجد عدم التوافق عند رغبات الوزير، كان هذا الأخير يكتب له أنه مستعد للتخلي عن التيطري ومدينة شرف.

نفس اليوم، وأرسل مشروعه مباشرة إلى فرنسا، على متن باخرة أرسلها لهذا الغرض.

ومع ذلك، عاد بن صقال إلى المعسكر برد الأمير، الذي قبل المشروع إلا الجزية. كان اللواء ييجو حرجاء، لأن الجزية قد نصرت عليها في المشروع التي تم إرساله إلى الحكومة للمصادقة، ويبدو مستحيلا أن يغير فيه شيء، لما سيداول عليه مجلس الوزراء. ولكن السيد ييجو رجل قرار، ونتيجة لذلك، أقصى الجزية، كما كان قد نخل عن التطري، واتفق الطرفان المتعاقدان على ذلك، فتم توقيع المعاهدة يوم 30 ماي، وهنا نصها:

معاهدة الطافنا.

بين الفريق ييجو قائد القوات الفرنسية في محافظة وهران، والأمير عبد القادر تم الاتفاق على هذه المعاهدة.

المادة 1.

يعترف الأمير عبد القادر بسيادة فرنسا في أفريقيا.

المادة 2.

تحتفظ فرنسا،

في محافظة وهران، مستغانم ومازاغران وأراضيهم، وهران، أرزيو، زيادة عن منطقة هذه هي حدودها، إلى الشرق بنهر ماكننا والمستنقعات

التي تخرج منها إلى الجنوب بخط من المستنقعات، المذكورة أعلاه، يمر على الطرف الجنوبي من بحيرة السبخة حتى واد مالح (ريو سالادو)، في اتجاه سيدي سعيد، ومن هذا النهر إلى البحر، بحيث تكون جميع الأراضي داخل هذا المحيط فرنسية.

في محافظة الجزائر:

الجزائر، منطقة الساحل، المتيجة، يحدّها من الشرق إلى واد قدارة وبعد، من الجنوب بأول قمة لأول سلسلة الأطلس الصغيرة حتى الشفة، بما فيه البليدة وأراضيها، من الغرب الشفة حتى الخفاف مازاغران، ومن هناك بخط مستقيم حتى البحر، وتحتوي على القلعة وأراضيها، جميع الأراضي داخل هذا المحيط تراب فرنسي.

المادة 3.

يدير الأمير محافظة وهران، التطري، وجزء من الجزائر التي لم يتم تسليمها في غرب الحد المبين في المادة 2. لا يحق له الدخول في أي جزء آخر من الوصاية.

المادة 4.

لا يملك الأمير أي سلطة على المسلمين الذين يريدون أن يعيشوا في الأقاليم الموجودة تحت إدارة فرنسا، هؤلاء أحرار للعيش في إقليم إدارة الأمير، الذي، كما يحق لأولئك الذين يعيشون في إقليم إدارة الأمير أن

يقيموا في الإقليم المجرود تحت إدارة فرنسا.

المادة 5.

العرب الذين يعيشون على الأراضي الفرنسية يمارسون دينهم بحرية ويستطيعون بناء المساجد، واتباع ضوابطهم الدينية، تحت سلطة زعمائهم الروحيين.

المادة 6.

سوف تعطي أمير الجيش الفرنسي ثلاثين ألف فاتيغ⁽¹⁾ وهران من القمح - ثلاثين ألف فاتيغ وهران من الشعير - خمسة آلاف ثور. تسليم هذه السلع سيكون في وهران من قبل طرف آخر. الأول من 1 إلى 15 سبتمبر 1897، الآخرين، في شهرين تم في شهرين.

المادة 7.

يشترى الأمير الكبريت من فرنسا، وكذا البارود والأسلحة التي يحتاج إليها.

المادة 8.

والكولونيل الذين يريدون البقاء في تلمسان أو في مكان آخر سيحتكون بكل حرية ممتلكاتهم ويعاملون كالحضريين. أولئك الذين يرغبون الذهاب إلى الأراضي الفرنسية، يمكنهم بيع أو تأجير ممتلكاتهم بحرية.

224 (1) مقياس اسباني يعادل (6) قتر

المادة 9.

تتنازل فرنسا للأمير رشغون⁽¹⁾، تلمسان، المشوار والمدافع التي كانت سابقا في القلعة. يجب على الأمير النقل إلى وهران الدخائر والمدافع حامية تلمسان.

المادة 10.

تكون التجارة حرة بين العرب والفرنسيين الذين يكونون أحرارا في الإقامة في هذه الأراضي أو تلك.

المادة 11.

سيحترم الفرنسيون العرب، كما سيحترم العرب الفرنسيين. المزارع والممتلكات التي امتلكها الفرنسيون أو يكتسبونها في الأراضي العربية سيتم ضمانها لهم. يتعهد الأمير بدفع ثمن الأضرار التي من شأن العرب أن يلحقوها بهذه الممتلكات.

المادة 12.

سيتم إرجاع المجرمين كل إلى متطفته.

المادة 13.

يتعهد الأمير ألا يتنازل عن أي نقطة من الساحل إلى أي قوة خارجية دون موافقة فرنسا.

(1) ليس الجزيرة، ولكن الموقع الذي كنا نحمله في المطافا والذي سمىه العرب أيسار رشغون.

المادة 14.

لا تسم التجارة في الوصاية إلا في الموانئ التي تحتلها فرنسا.

المادة 15.

يكون لفرنسا وكلاء عند الأمير في المدن الموجودة تحت إدارته، كوسطاء للفرنسيين المقيمين هناك في المنازعات التجارية أو غيرها مع العرب.

يكون الأمير نفس الصلاحية في المدن والموانئ الفرنسية⁽¹⁾.

قرأ اللواء ييجو هذه المعاهدة أمام رؤساء الفرق لجيشه الصغير الذي أبدوا موافقتهم. يوم 1 جوان، كان اللواء لقاء مع عبد القادر، الذي اجتنبه مع قلة قليلة من ضباطه، إلى وسط قواته، حيث ظهر في عيون

الناس أن أمير العرب ينتظر تكريما له.

ولكن الموقف الشخصي للواء سرعان ما أعاد الوضع على قدم المساواة⁽²⁾. مباشرة بعد وصوله إلى الطاقنا وبينما كان يتفاوض مع الأمير، أمر اللواء ييجو بالعمل على هدم المعسكر، وعلى أية حال، كان ينبغي التخلي عنه. بعد إبرام السلام، أمر بعدم تدمير بعض الأكواخ الموجودة، فلما منه أنه سيتم تشكيل قرية من طرف السكان الأصليين، لكن لم يكن ذلك.

يوم 3 يونيو، أرسل اللواء المعاهدة مع أحد مساعديه إلى باريس. في اليوم 4 من الشهر نفسه، غادر معسكر الطاقنا الذي تم إخلاءه تماما. نحن ومع ذلك، كنا لا نزال نحتل رشغون. بقيت كتيبة من ال 47 في المشوار، والذي كان لا ينبغي تسليمه للأمير إلا بعد المصادقة على معاهدة السلام. عادت الحامية السابقة، بقيادة القائد كافينياك، إلى وهران، حيث وصلت مع بضعة مئات من الكولوغلي الذين لم يرغبوا في البقاء تحت سيطرة الأمير. يوم 9، عاد جيش الحملة بقيادة ييجو إلى وهران.

الآن توضع معاهدة الطاقنا تحت المحك، واللواء ييجو نفسه ندم أكثر من مرة على توقيعها. تكفي قراءة ومعرفة القليل من الشؤون الإفريقية لتقتنع أنه إذا كان هذا كل ما كانت الحكومة تريده، لا طائل

(1) الخلاف بيننا وبين عبد القادر في تنفيذ هذه المعاهدة يكمن في المادة 2. الأمير يقول لنا بسلطة مطلوبة عند والد قدارة، وهذه الكلمة "بعده"، التي وضعت بعد اسم هذا الشهر لا قيمة لها فعليا. نحن نقول، على العكس من ذلك، لهذه الكلمة أهمية كبيرة جدا، وأنها لا تريد أن نعد أنفسنا في اتجاه الشرق. المادة 3 تؤكد مطالبنا. هنا ترجمة وفيه لمقل في النص العربي: "الأمير يحكم في محافظات وهران، المدينة، وجزء من محافظة الجزائر الذي لم يسلط ضمن الحدود الغربية، حدود ناقشتها في المادة الثانية، فإنه لا يمكنه أن يحكم إلا في الأماكن التي تم ذكرها أعلاه.

(2) انظر تفاصيل هذه المقابلة في الجزء الثاني.

تماما للتفقات الكبيرة لوضع لواء بكامله في حالة حرب، وتحويل السيد بيجو من مهنة التشريعية والزراعية. لأنه لا شك أن دون ترك وهران، ودون الكثير من البهاء، كان يمكن للواء بروسار أن يفعل الشيء نفسه.

أرسل الفريق دامر مون للحكومة بعض الملاحظات على معاهدة الطافنا التي تثبت صحتها الأحداث اليومية⁽¹⁾. لكن لما وصلت إلى باريس، كان كل شيء قد انتهى.

كان الرأي العام في الأول ضد ما أنجزه اللواء بيجو، فأرعب قليلا الوزراء ونفى السيد مول، رئيس الحكومة، أن يكون قد تم التصديق على المعاهدة، وقال أنه سيتم إدخال تعديلات عليها. في 15 جوان أعاد هذا التأكيد على منبر غرفة النواب، وفي اليوم نفسه برقية مرسلة إلى الحاكم العام أعلنت أن المعاهدة قد أمضيت من قبل الملك⁽²⁾.

بموجب هذه المصادقة، التي سلمت لبيجو من طرف أحد مساعدي وزير الحرب، أخلت الكتيبة 47 مشوار تلمسان يوم 12 جويلية

(1) راجع التعليقات في الجزء الثاني من هذا الكتاب، تحت نفس العدد كالأجزاء الأخرى المتعلقة بمعاهدة الطافنا.

(2) هذه البرقية التي نشرت العديد من المرات في الراسد الجزائري كشفت جريئة السيد مول، أو على الأقل استغفقه بعد فترة وجيزة، مثل في هذا الصدد في مجلس الشيوخ، فأجاب أن البرقية ربما قد لم تفهم جيدا. ها هي البرقية، والقرار من المحكم على ما إذا كانت هناك طريقتان لتفهمها.

عوضت هذه الكتيبة كتيبة القائد كافينياك، التي دججت مع الزواف. أعطت معاهدة الطافنا للأمير جزء مقاطعة الجزائر التي توجد غرب الشفة، وبقيت لنا السيطرة في شرق المحافظة، وفقا للتفسير الذي قدمه السيد بيجو لأطروحاته، التي وللأسف شروطها غامضة وملتبسة، وخاصة في اللغة العربية، ولم يفهمها عبد القادر بنفس الطريقة التي فهمناها نحن. أجبرت حملة اللواء بيريجو إلى أسر سكان هذه المنطقة لتقديم وعود تماطلت للوفاء بها. كما كان من المهم إنهاء هذه الحالة لمعرفة حقوقنا في هذا الجزء من البلاد، أوجب الحاكم على أسر لإرسال نواب وفي نفس الوقت سارت القوات نحو بودواو. كان هذا العرض أن اعترفت أسر بالسلطة الفرنسية ودفعت الجزية. مدينة

برقية إلى باريس في 15 يونيو 1837، 5 والنصف مساهم.

من وزير الحرب إلى السيد اللواء دامر مون، الحاكم العام.

وافق الملك اليوم على المعاهدة التي أبرمها اللواء بيجو مع عبد القادر، السيد نولارو سيذهب اليوم إلى وهران لإبلاغ اللواء بيجو بهذه المصادقة، ثم سيتقل إلى الجزائر العاصمة.

سارسل لك نسخة من هذه المعاهدة عن طريق البريد.

نسخة

ش. لوماس

دلس دفعت أيضا. هذه المبالغ اقتسمها الأوروبيون و العرب، الذين كان لحقت بهم خسائر بسبب غزو القبائل الشرقية. أعيدت رهائن دلس. تعهد بني عائشة ويسر بالدفاع عن عمرات اشرب واهرب و النبة في المستقبل، في حال نشوب حرب أخرى. وضع بني عائشة تحت قيادة القائد كراشنا كما كان الحال تحت الحكم التركي. أما يسر فلها قائد خاص بها. ولذلك، بدا السلام معززا على جميع الأصعدة وأعرب الجميع عن ارتياحه لهذا الوضع، سواء على أراضي أو أراضي عبد القادر. كانت الناس قد تعبت من الحرب، و فرحوا بحسن النية المتبادلة، شيء طبيعي بعد كفاح طويل. لكن سرعان ما بدأت القول أن السلام لن يدوم طويلا، و أن الفرنسيين سيبدؤون إخلاء السهول والتمركز في الجزائر.

هذه الظروف رمت الإضطراب في العقول، وعاد بعض الحجوة طين الذين قبلوا السلام على مضض إلى عمليات قطع الطرق، على الرغم من باقي مليانة الذي وضعوا تحت إدارته. كان هذا الأخير مشغولا ببعض الأفكار السرية منذ بعض الوقت.

كتب إلى الحاكم، في الأيام الأولى من جويلية، وطلب منه أن يرسل له رجل آمن ليخبره عن أشياء مهمة بالنسبة له ونحن. رضى السيد

دامرمون لطلبه، ولكن عندما وصل إلى مليانة، وجد مبعوث الحاكم الباي يحتضر. جاءه مرض مفاجئ ومات بعد ثلاثة أيام. سره، إذا كان عنده، توفي معه. كان هناك حديث عن التسميم، ولكن بدون شواهد. عرفه ابن أخيه، سيدي محمد بن علال.

في 23 جويلية، ذهب الحاكم إلى عناية، لينهي، إما عن طريق المفاوضات أو بالقوة، القضية الكبيرة التي هي قسطنطين.

الكتاب 23

حالة الأعمال في مقاطعة عناية - وصول اللواء دامرمون - مفاوضات
مع أحمد باي - تهيئات الحرب - محاولة تدخل من طرف تركيا - معسكر
عجاز أعمار - حملة قسطنطينة - موت اللواء دامرمون - الإستيلاء على
قسطنطينة واحتلالها.

ذكرنا في الكتاب 22 أن المشير كلوزيل، بعد حمله المشؤومة في قسطنطينة،
قرر الاحتلال الدائم لقائمة. وقلنا أيضا أن الأمر أوكّل في هذه النقطة
للعقيد دوفيفي، الذي تصرف بالمهارة والتفاني اللذين يعترف بهما له
الجميع. الدفاع المادي عن الموقع كان هو الأهم، لا شك في ذلك، لكن
هذا الاحتلال العقيم لبعض الأطلال لن يحول دون أن يأتي قسطنطينة
للحضور ويخلق المتاعب تحت جدران عناية. كان من الضروري الحد
من الأقل في سلسلة رأس العقبة، من نفوذه وعدوانيته، بكسب السكان
في جميع أنحاء قائمة. وكان هذا الهدف الذي اقترحه العقيد دوفيفي،

ووصل إلى ذلك جزئيا. لن ندخل في التفاصيل عن كيفية المصالحة
فذلك يتطلب تطورات قد تكون لا مصلحة لها للقراء، ومن ناحية
أخرى، لن نستكملها بما يكفي لجعلها مقبلة لأولئك الذين يريدون
التعامل بجدية مع هذا النوع من القضايا.

نقتصر على القول أن السيد دوفيفي كان قادرا على يكسب ثقة
العرب. لهذا السبب، رغم تعطل وصول الأموال من عتابة إلى قالة،
تمكن دوفيفي من دفع ثمن المواد الضرورية للمعسكر بسداد
بعضها، وسمعت بين القبائل وأصبحت أمرا مألوفا.

في 22 مارس، جاء اللواء طريزيل لزيارة قالة مع فرق عديدة
من الفرسان. في اليوم التالي خرج في استكشاف الضفة اليمنى من
السيوس بين هذا الموقع وواد الصرف، والذي يصب فيه عند مجاز
عمر. كان الغرض من هذه الجولة أن يجمع بنفسه البيانات الطبوغرافية
من أجل حملة فلسطين الجديدة.

عاد إلى عتابة من الضفة اليسرى للسيوس، دون المرور عبر
قالة النفوذ المعنوي لدوفيفي لم يكن ممكنا إلا بحماية القبائل بنجاعة
من أحمد باي و العرب المواليين له. لذلك لم يتوانى دوفيفي في
الخروج لمساندة هذه القبائل رغم قلة قواته، ولكنه كان دائما محظوظا

في معاركه نظرا للتشايير الجيدة التي كان يتخلدها و لشجاعة جنوده.
وقعت أول معركة في 24 ماي، ضد قبائل واد زناقي، التي سارت
بقيادة بعض القادة العسكريين الذين أرسلوا من قسنطينة. بعد بضعة
أيام سار العقيد ضد قبيلة الحشاش، فغتم منهم قسرا لا بأس به من
الثياب. أعاد لقبيلة الحشاش النصف بعدما أعلنت خضوعها، بينما
سلم الباقي للقبائل التي سارت معها.

يوم 16 جويلية، تخاض السيد دوفيفي معركة شرسة ضد قوات
كبيرة، واستطاع الصمود على الرغم من أنه لم يكن لديه سوى 600
من المشاة 120 فارسا.

بينما كان العقيد دوفيفي في قالة، تم إنشاء موقعين بين هذا الموقع
والدرعان، واحد في نشميا، والآخر أقل أهمية في حمام باردة. في ماي،
غمرت الحكومة رأيها في شأن يوسف ولم تعد تريد أن تعينه بايا على
قسنطينة. أصبح السيد النقيب مبريك قائدا الصيادين. هكذا كانت
الأمر في بون، عندما وصل الحاكم العام في 26 جويلية.

عندما استدعت الحكومة المشير كلوزيل من الجزائر، عاد إلى نظام
الاحتلال القيد الذي تحمل⁽¹⁾ عنه لمدة.

(1) الهدف الذي تريده الحكومة هو ليس بالسيطرة المطلقة، ولا حتى الغزو
الحربي والاحتلال الفعلي الكامل للوحدات القديمة. لأن العرب الشرسة والمكلفة

بالفعل في ذلك الوقت، كان يعتقد أن فرنسا لا مصلحة لها في تدمير قوة أحمد باي، وبدلاً من ذلك ينبغي أن تستخدمه لخلق منافس لعبد القادر⁽¹⁾.

منذ معاهدة الطافنا، أصبح هذا الاعتبار أكثر قوة، لأنه كان واضحاً أن تدمير سلطة أحمد باي لا تفيد سوى عبد القادر الذي سيجمع إرثه السياسي من تواجده في التيطري.

التي يجب خوضها للوصول إلى هذا الهدف ستكلف فرنسا تضحيات ضخمة، أقل بكثير من الفوائد التي يمكن أن تجنيها من النجاح. والغرض الرئيسي في ممتلكاتها في شمال أفريقيا يجب أن يكون التواجد البحري، الأمن وبسط التجارة، زيادة نفوذها في البحر الأبيض المتوسط وبين السكان المسلمين الذين يعيشون على الساحل. الحرب عقبة أمام هذه النتائج. الحكومة لا تقبلها إلا كضرورة، وتدخل في إنهاها بسرعة. أجبرت على ذلك، لأنه من المستحيل المرور فجأة من نظام إلى آخر، ولأنه من غير المعقول إظهار السلمية دون أن إظهار القوة في النظام الذي أسس أثناء حضوركم من قبل المجلس، أهم نقطة بالنسبة لفرنسا هي حيازة الساحل. النقاط الرئيسية للاحتلال هي الجزائر، عنابة وهران. لكن كما تعلمون، لا يقتصر هذا الاحتلال فقط على المدن وضواحيها... (تحدث عن المنطقة التي يجب أن تكون محقة في المحافظات الثلاث).

ينبغي أن يترك باقي الأراضي لقادة من السكان الأصليين، الذين يتم اختيارهم من بين الرجال الذين لديهم نفوذ فعلاً، ومن المستحسن أن يكونوا بكثرة لكي لا يكون لأحد منهم سلطان على الآخرين. (رسالة من وزير الحرب إلى وزير دامر مون، 22 ماي 1837).

(1) تم استخراج هذه التعيرات حرفياً من الرسالة المذكورة أعلاه.

في الواقع، لما أطيح بأحمد، من، من غير عبد القادر، توالي قبائل البايك الشرقي⁽²⁾ كان من الواضح أن هذا القائد الذي اغتسم القوضى التي عقيبت سقوط الحكومة التركية ليسقط نفوذه إلى قبائل وهران وباييك التيطري ليغريهم بسلطانه، و لا نستطيع أن نغلب هذا النفوذ إلا باحتلال البلاد كلها، ما لم تكن نريده في ذلك الحين، وما أردناه إلا بفنور منذ ذلك⁽³⁾. هذه الحقيقة أدت اللواء دامر مون أن يكون عل استعداد تام لمساندة نوايا الوزارة التي، و إلى آخر لحظة، أرادت التعامل مع أحمد⁽⁴⁾. و كان من الأحسن الدخول في معاملات معه،

(1) كانت هذه التقديرات صحيحة، لأن، وعلى الرغم من احتلالنا قسنطينة الآن، و تمكنا من التوغل قليلاً في المحافظة، فقد اغتصب عبد القادر من تلك الكثير، وطمع في الباقي.

(2) وفي 21 جويلية، كتب وزير الحرب للواء دامر مون: "لن يغيب عن بالك، أن إعادة السلام هو الهدف الرئيسي للحكومة، التي تعتبر الحرب هنا كوسيلة للحصول السلام بأفضل الشروط، مما يعني أنه سيتم اللجوء إلى الحرب في أسوأ الحالات."

تكررت نفس التوصيات في جميع المراسلات التي تبعت، وعلى وجه الخصوص في تلك التي أرسلت يوم 9 أوت و 6 سبتمبر. أخيراً، السيد مولتي، رئيس المجلس، كتب في 3 سبتمبر:

"لا أستطيع أن أوصيك ما يكفي لتحذيرك ضد حماس بعض الضباط رسالتي تخص في بعض الكلمات: حتى آخر لحظة، السلام أولى من الحرب، السلام حسن الشروط الموافق عليها، دون إضافة، أو أخذ قسنطينة بأي ثمن."

مع الأخذ بعين الاعتبار فشل في السنة السابقة، و من هذا المنطلق كان الحاكم العام مستعدا للعمل. ونتيجة لذلك، في وقت ما في شهر ماي، أرسل إلى تونس القائد فولتس، أحد مساعديه، للتواصل من هناك، عن طريق غير مباشر، مع باي قسنطينة.

هذا القائد، وعلى الرغم من درجة عالية من المهارة في الدبلوماسية في الشرق، لم يعط أي خبر. وفي الوقت نفسه، أعلن السيد بوشناق، الذي سبق أن تكلمنا عنه في الأعداد السابقة، للحاكم، أن أحمد باي يدعو للذهاب إلى قسنطينة، ويرغب في استخدامه كوسيط بينه وبين الحكومة الفرنسية.

وافق السيد دامرمون، لكنه بين على أي أساس ستكون موافقته على التعامل مع أحمد. حسب هذه القواعد، تحتفظ فرنسا بالإدارة المباشرة لقسم كبير من الإقليم، وطالب الاعتراف بالتبعية المطلقة من أحمد، تبعية تتجلى في جزية سنوية، وإعلاء، في الاحتفالات الرئيسية، العلم الفرنسي فوق علم الباي. كما يطلب تسديد تكاليف الحرب.

عند ذهاب بوشناق، وصل السيد فولتس رققة بن باجو إلى الجزائر، يهودي آخر أرسله أحمد باي إلى تونس. بدأ أحمد يريد السلام حقا.

في تلك اللحظة ذهب الحاكم إلى بون، حيث تبعه السيد فولتس وبين باجو. بعد فترة وجيزة، وصل هناك السيد بوشناق مع رسالة من أحمد، وبدأت المفاوضات بانتظام، ما لم يمنع الفريق دامرمون في الاستعدادات للحرب إلى أقصى حد. وسحبت قوات من الجزائر ووهران، ونقلت إلى بون حيث وضعت معدات كبيرة للمدفعية، ووسائل مهمة لنقل الإدارة. أي لم تدخر ولا وسيلة لضمان نجاح الحرب، التي أرادت الحكومة تجنبها بشرف، ولكن كانت مصممة على خوضها بشراسة. سلوك الحكومة كان من الحكمة والمنطق في هذه القضية، على الأقل فيما يتعلق بالموقف الذي كانت مرغمة على اتخاذه بموجب معاهدة الطافنا.

بعد وقت قصير من وصوله إلى عنابة، توجه الفريق دامرمون إلى مجازا عمر أين قرر أن تكون قاعدته في حالة الحملة. وصل هناك في 9 أوت، مع ال 47 وال 32 للخط.

شرعت هذه القوات على الفور في بناء معسكر تحت إشراف الهندسة، على الضفة اليسرى لواد السييوس ورأس جسر على الضفة اليمنى، أين يصب فيه واد صرف في اتجاه المنبع. انتقد هذا المعسكر، كما انتقد معسكر الدويرة، لعدم تناسب حجمه مع الهدف الذي

أنشأ من أجله. ومع ذلك، التتواتر الكبيرة لشرفات القلعة عطلت العمل، بحيث، عندما وصلت قواتنا إلى قسنطينة، لم تقض في داخله ولا ليلة.

خلال فترة بقاء الفريق دامرمون في مجاز اعمر لم تهدأ الاتصالات بينه وبين أحمد. بدأ لنا أكثر من مرة أنها كانا على وشك الوصول إلى اتفاق.

فهم أحمد مخاطر موقفه، فترقب في السلام. في حالات أخرى، أعرب عن أمله أن الباب العالي سيرسل له الإغاثة من تونس، أو حتى يمكن لقسنطينة أن تقاوم وحدها مثل العام الماضي، وعندئذ يكون له سلوك متكبر وكان كثيرا ما يقول أيضا أنه لا يفهم لماذا يريد الحاكم فرض شروط عليه أقل موافاة من تلك التي أتاحت لعبد القادر. أخيرا، توأىء للسلام كانت معرقة من طرف بن عيسى و الآخرين من الذين يريدون الحرب، ولم يكن لديهم نفس الأسباب للخوف من نتائجها.

تسوية أحد أطال المفاوضات إلى نهاية أوت. الفريق دامرمون، بعد أن قدم بعض التنازلات في الجزية ووقع العلم الفرنسي، أرسل مهلة إلى قسنطينة التي أجاب عليها الباي بقطع المفاوضات. لذلك

لم يبق سوى الحرب، واستدعي السيد بوشناق⁽¹⁾. وقد طلب اللواء دامرمون موافقة الحكومة في نفس الوقت للسير بلا تأخير نحو قسنطينة، لأنه كان منصوبا عليه رسميا في برقية مؤرخة في 9 أوت التي مفادها: "تهية كل وسائل الحرب، تنظيمها تماما، وأن تكون على استعداد للسير، وألا يقوم بأي شيء بعده، دون إعلام حكومة الملك بالحالة المدققة للموضع وتلقي أوامرها".

(1) وهذا الرسالة التي كتبها اللواء دامرمون لأحمد باي في هذه المناسبة:

معسكر مجاز اعمر، في 19 أغسطس 1837.

الحاكم العام لأحمد باي:

الرسالة التي أبلغتني إياها عن طريق موشي بوشناق، خادمك المتواضع، تحتوي على اقتراحات غير عادية، التي لن أجيب عليها. لقد أدهشتني، كما أعبر عن دهشتي لما فيها من رفض لمعاهدة سلام كنت ترغب فيها من قبل. إذا وقعت مصائب الحرب على البلد الذي تديره، و تؤدي إلى خراب قسنطينة، رفضا منك لسلام مشرف ومساندة ستندم عليها لاحقا، فإن كل المسؤولية تقع على عاتقك، لأن هذه الحرب لن تقدر عليها. من المفيد تذكيرك أن حسين باشا لما رضخ للنصائح عبر مجتية، فضل الحرب التي أطاحت به، على حساب سلام مشرف وشروط أمته فرنسا عليه لا توجد فيها أي إهانة أو خجل. نواهد بوشناق عنكم لا جدوى له، لذا أمره أن يغادر مقاطعة عذبة.

على الرغم من الشكل الرسمي للبرقية، إلا أنه كان واضحا عدم الرضا في باريس من أن الحاكم لم يأخذ المبادرة. هذا لا يعني إلا شيئا واحداً في 1837، كما في 1836، أرادت الحكومة، في حالة الخسارة، التستر بذريعة العمل دون أوامر.

كانت لتوقعات أحمد في شأن الباب و تونس أسس من الصحة. كانت القسطنطينية تنوي بعث مدد للباي أحمد عن طريق تونس، لكن باي تونس كان يعارض هذه العملية، لذا قرر الباب أن يبعث بفرقة للإطاحة بباي تونس بمساعدة بعض المتآمرين في الداخل. لكن اكتشفت المؤامرة وقتل المتآمرون، ثم أجبر اللواء لالاند الفرقة التركية على العودة من حيث جاءت.

لما علمت باريس أن المفاوضات لا تؤدي إلى أي شيء، وأن اللواء دامرمون، بعدما عرف ما حدث العام الماضي، لن يغامر أكثر بمسؤولياته، أخذ الوزراء مسؤوليتهم، ف عقدوا مجلسا، واتخذوا فيه قرار الحرب، وأن يترأس الحملة دوق أورليان. حرص هذا الأمير على هذه المهمة، التي كان قادرا على القيام بها على أتم وجه، و بالتالي تشريف سمعته العسكرية.

لكن اعتبارات عائلية حرمته من عذا الشرف و من هذه المهمة التي كان سيؤديها بجدارة القائد المحنك. عادت قيادة الحملة عندئذ للحاكم العام الذي كان من المقرر أن يكون المساعد العام للأمير لو اختير كقائد عام. أوكلت لدوق نمور قيادة لواء، بينما عين الفريق فالي كقائد عام للمدفعية، و هو أكبر متقن لهذا السلاح، كما أعطيت قيادة مصلحة الهندسة للفريق رو ديفلوري، أحد مشاهير سيينا.

لما كانت ترتب هذه الأمور في باريس، كان الفريق دامرمون يتخذ كل الإجراءات و الترتيبات لتجري الحملة على أحسن ما يكون. يوم 13 سبتمبر، قام باستكشاف عميق على طول ضفاف واد زناقي، حيث تمكن من تفريق بعض العرب الذين قطعوا له الطريق.

بعد بضعة أيام، اتجه نحو عنابة لتفقد وضعية المستشفيات و المخازن، وأيضا لاستقبال دوق نمور و كذا الألوية فالي و ديفلوري. أثناء مجلس انعقد عند الأمير، أثارت قضية توقيت إجراء العملية، واقترح إجراءها في الربيع.

حدث مؤسف بعث الوهن في الضمائر؛ ال 12 للخط، الذي أرسل من فرنسا للمشاركة في هذه الحملة، كان مصابا بداء الكوليرا.

إعطرتنا لعزله، مما حرم الجيش من ثلاثة كتائب.

لكن الفريق دامرمون برهن أنه باستطاعة الجيش الاستغناء عن هؤلاء، وأقنع الباقيين⁽¹⁾.

ثناء تواجد دامرمون في عنابة، هوجم اللواء روليير، طوال ثلاثة أيام متتالية، 21، 22 و 23 سبتمبر، من طرف 7000 إلى 8000 من الفرسان و المشاة، تحت قيادة أحمد باي بنفسه.

ضرب العدو بشراسة، خاصة مرتفع على يمين و مقدمة المعسكر، على الضفة اليمنى للسيوس. اللواء روليير، الذي تفتن لأهمية هذا الموقع، كلف العميد لاموريسير بالدفاع عنه.

فقد العدو خلال الثلاثة أيام هذه عدد كبير من الجنود و خسر كل الهجمات، مما يشرف اللواء روليير و قواته. تتكون هذه القوات من ال 23 و ال 47 للخط، كتيبة من الثاني الخفيف، الكتيبة الثالثة الخفيفة لمشاة إفريقيًا، كتيبة قناصي إفريقيًا، الزواف و السبايس.

(1) حتى آخر لحظة من حياة الفريق دامرمون، ساد التفاهم بينه و بين اللواء فلي. في تلك الفترة، كتب الفريق دامرمون إلى شخص من المقربين إليه قائلا: "كان لدي أن أقتل أفكار غير عادلة، و أن أغلب على مصاعب كثيرة، و هموم مختلفة... اللواء فلي، ذو العقيدة المستقيمة، لا يتعلت في الدفاع عن رأيه. الآن، لهذا رأي واحد، و من الصعب على أن أعرضه. لذلك، سأستفيد بأقصى وسعي من نصائحه و خبرته".

في أواخر سبتمبر، جمعت كل الوسائل العسكرية و القوات في مجاز اعمار. قرر الإنطلاق ليوم 1 أكتوبر، لكن في آخر لحظة أعلم رئيس الأركان الفريق أن عدد الخيول أقل من الذي قيل له، لذلك لا يمكن حمل كل الأمتعة. لما كانت هذه المصلحة حساسة، كان من الواجب إصلاح الخلل. من أجل هذا، تلقت المدفعية و الهندسة الأمر بالتخلص من كل ما هو كمالي و أخذ ما لا يمكن للإدارة أخذه معها. أجبرنا على ترك كمية كبيرة من الذخيرة الحربية و قسما كبيرا من وسائل الهندسة. تقرر أن المدفعية ستترك أقل من المعدات من الهندسة، و أن هذه الأخيرة لن تلعب إلا دورا ثانويا في عملية الحصار. قوات الحملة، التي يبلغ عدادها 10000 رجل، تم تقسيمها إلى أربعة فرق، على النحو التالي:

الفرقة الأولى - دوق نمور.

كتيبة الزواف،

كتيبة من الثاني الخفيف،

فيلق من قناصي إفريقيًا،

كتيبتين من ال 17 الخفيف،

سريتين من السبايس،

مدفعين جبليين و مدفعي ميدان.

الفرقة الثانية - اللواء تريزل.

سبايس غير نظاميين،

كتيبة تركية،

قذافين إفريقياء،

سرب حرب،

كتيبة لل 11 للخط،

ال 23 للخط،

مدفعين جبليين و مدفعي ميدان.

الفرقة الثالثة - اللواء روليير.

الكتيبة الثالثة لإفريقيا،

كتيبة من القليلق الأجنيي،

سربين من السبايس النظاميين و إثنين من القليلق الأول لقناصي إفريقيا،

أربعة مدافع جبلية.

الفرقة الرابعة - العقيد كومب.

ال 47 للخط،

كتيبة من ال 26 للخط،

مدفعين جبليين و مدفعي ميدان.

تتألف المعدات من:

4 مدافع 24،

4 مدافع 16،

2 راجمات 8،

4 راجمات 6،

3 قذافات 8،

كلها هناك 17 مدفع، ب ذخيرة تتكون من 200 طلقة لكل مدفع، 1000 كغ من البارود، 200 بندقية حرب، 50 بندقية تقليدية، 500,000 خرطوشة مشاة و عدة جسور و عابرات للماشين على أقدامهم: الكل يكون طاقم من 126 سيارة مؤلفة من 50 سيارة ذوي مقاعد و 76 ريفية.

مدفعية الميدان و المدفعية الجبلية، الموزعة على الألوية، كانت مؤلفة من:

4 مدافع 8

2 راجمات 24

10 راجمات 12 جبلية

16 مدفع في المجموع

كانت المدفعية الجبلية مزودة ب 180 طلقة، و مدفعية الميدان ب 120 طلقة، و الراجمات ب 10 طلقات نارية لكل منها.

المدفعية، تحت قيادة اللواء فالي الذي كان يساعده اللواء كارامان، كانت مكونة من 46 ضابط، 1154 ضابط صف و جندي، و كذا من 1227 حصانا أويغلا.

المهندسة مكونة من 10 فرق و يقودها اللواء روو دي فلوري و نائبه اللواء لامي.

كانت الإدارة العسكرية تحت إشراف المحاسب الأول دارنو. كانت مكونة من 5 فرق للدواليب، 97 عربية، 589 حصان الجر و 438 بغل. كانت تحمل 429 قنطارا متريا من البسكويت، 109 قنطارا من الأرز، 50 قنطارا من الملح، 31 قنطارا من السكر و القهوة، سبعة هكتولتر من النيذ و 536 قنطارا من الشعير.

عربات المدفعية والهندسة كانت تحمل أيضا 366 قنطار من الشعير. قطع كبير أمن اللحم في الغداء. انطلاقا من مجاز اعمر، كان الجيش يتوفر على 18 يوم من المؤن، بحساب ما كان يحمله الجنود.

في أول أكتوبر، على الساعة و النصف صباحا، غادر اللواء الأول والثاني مجاز أعمر، رفقة الفرقة الأولى لحظيرة المدفعية، المكونة من معدات المقر. عسكر اللواء الأول في مرتفعات رأس العقبة، بينما استقر الثاني، بمعدات المقر، في عنونة. هطل المطر في هذا اليوم الأول من السير، مما جعل الحزن يخيم على الجيش. كان الكل يتذكر الماضي في نفس الظروف، فكان يخشى المستقبل. لكن تحسن الطقس بعد ذلك، فعادت الفرحة و البهجة إلى الوجوه. كانت الطرق وحلة من المطر الغزير الذي تهاطل، فوجدت العربات مشقة كبيرة في صعود جبل سادة.

في اليوم الثاني، نفس القوات التي كانت تسير معها القيادة العامة وصلت إلى الرابط سيدي طمطم أين قضت الليلة. كان العمل لازما في نقاط متعددة لتهيئة الطريق لمروء العربات. في نفس اليوم، عسكر اللوامين الأخريين و الموكب الذي كان ضخما في رأس العقبة، في نفس المكان الذي عسكر فيه اللواء الأول في أمس ذلك اليوم. التزم بهذا الترتيب في السير حتى الوصول إلى قسنطينة : أي أن اللوامين

الأوليان كانا دائما في المقدمة، مع الفرقة الأولى لحظيرة المدفعية، بينما كان الأخريان في المؤخرة مع الموكب.

في يوم 3 أكتوبر، عسكر الطابور الأول عند واد مريس، بينما عسكر الثاني في رأس زناتي. ابتعد العرب الذين عبرنا أراضيهم، محرقين العلف بعدما أمرهم أحمد بذلك. لكن استطاعت قواتنا إخماد بعض هذه النيران و استرجاع العلف للخيول، لأن العرب لم يضرموا النار إلا في وقت متأخر و هم مرغمين على ذلك.

يوم 5 أكتوبر، خرج الطابور الأول لجمع العلف ولم يتحرك للسير إلا على الساعة العاشرة، وذهب ليبيت عند واد بومرزوق. هذا الواد هو نفسه واد مريس و واد زناتي. عادة العرب في تسمية مختلف أجزاء الواد بأسماء مختلفة أربك عملية جمع المعلومات الطبوغرافية منهم.

كان الجيش يتبع منذ يومين مجرى هذا الواد الذي يجري في سهل غير عميق لكنه جد مرتفع على سطح البحر. قبل الوصول إلى المكان الذي عسكر فيه الطابور الأول، ينحصر هذا السهل في منحدر سهل للدفاع عنه، لكن لم يظهر العدو هناك. في ذلك اليوم، أجبرنا على عبور الواد خمس مرات، مما أرغمنا على إنجاز بعض الأشغال.

في المساء، ذهبنا لجمع العلف في القرى المهجورة. عسكر الطابور الأول غير بعيد من الثاني. في اليوم الموالي، 5 أكتوبر، اشتبك الطابور

الأول مع بعض العرب الذين هزمتهم زمرة من قناصي إفريقيا و
كبدتهم خسائر بشرية. التحقت هذه الزمرة بالطابور واجتمع كل
الجيش في منتصف النهار عند مرتفعات صومة، بعدما حدث اشتباك
صغير على الجانب الأيمن من الجيش.

رأينا من ذلك المكان معسكر أحمد ومدينة قسنطينة، الهدف الذي
أتى من أجله، مما زاد من همة الجنود. بعد استراحة دامت ساعتين،
واصل الجيش سيره، وبعدها عبر مرة أخرى واد بومرزوق، ذهب
الطابور الأول لمعسكر في مكان مشؤوم، سماه الجنود في السنة التي
خلت معسكر الوحل.

كان الطقس جميلا منذ يوم 2، وكانت الأرض جافة. عسكر
الطابور الثاني في الجهة المقابلة للوادي، وتم تبادل لإطلاق النار مع
بعض العرب الذي كانوا يبدون هيجانا مائلا للحيوانات المفترسة
حينما يقترب الصياد من أوكارها.

في الليل، تلبدت السماء بالغيوم ثم هطلت أمطار غزيرة على
الساعة الثالثة صباحا. أمر الحاكم العام كل القوات بالتحرك باكرا،
قبل أن تصبح الطرق غير صالحة. ذهب الحاكم العام إلى المقدمة ليرى
قسنطينة و يتفقد جوارها. كانت قسنطينة تبدو مستعدة للصمود.
الوية حمراء كانت تتأرجح في الريح تحت زغاريد النساء وهتافات

الرجال المدافعين عن الأسوار. هكذا رحب بالفريق دامر مون و
بالأمير الشاب الذي كان بجنبه.

لم يتأخر دوي المدافع في المشاركة في هذا المزيج الصوقي، وأخذت
القذائف تنهطل على الجماعات التي كانت في قمة المنحدر الذي
يفصل قسنطينة عن المنصورة. من ثلاث مئة إلى أربع مئة رجل
خرجوا من الحصن من باب القنطرة تسللوا إلى المنحدر الذي يفصل
بين هذه الهضبة و أعالي سيدي مسيد.

حاولوا منع انتشار قواتنا على الهضبة، لكنهم تفهقروا عاتدين
فرضويا بعدما هزموا من طرف الثاني الخفيف و الزواف. كما في
1836، كان بن عيسى يدافع عن الحصن، بينما كان أحمد خارجها
مع قمرساته.

بعد هذا الاستطلاع الإجمالي، كلف الحاكم العام اللواءين فالي
و فلوري باستطلاع أكثر دقة للنقاط التي سيقع الهجوم عليها. تم
الوصول بعد ذلك إلى أن أفضل هجوم لن يكون إلا من جهة كودية
آتي، كما برهن على ذلك في 1836. اتخذ القرار بإقامة فرقة مكلفة
بالشرح في هذا المكان، على أن تقام ثلاثة فرق أخرى في المنصورة
لضرب فرق حماية المدينة بشكل معاكس و الموجودة في الجبهة و في
القصة و لإطفاء النار. كنا نطمح أن هذه سرايا المدفعية الثلاثة،

عندما تقصف المدينة بشدة، ستسرع استسلامها، أثناء ذلك، وصل الطابور الثاني إلى سيدي مبروك، خلف المنصورة. تحلى الطابور عن القافلة، وتلقى الأمر باحتلال كودية آتي.

وصل هناك الفريق الثالث بعد عبوره واد الرمال، تحت ملتقى بواد بومرزوق، والتحق الرابع بعد عبوره الوادين على التوالي في أعلى الملتقى. في أعلى الهضبة التي تطل على هذين الوادين، كان القرمسان العرب يرابطون ويراقبون، وقيل أن بينهم أحمد باي.

استقر اللواء رولير، القائد العام للواءين، في كودية آتي دون أن يطلق ولا طلقة واحدة. حصنت قواته خلف جدران من الحجارة الجافة التي أمرهم أن ينوها. حتى اللواء فلوري التحق بالجنود، لكن قتل مساعدته، النقيب راين، عند عبوره لواد الرمال، في انفجار قذيفة مدفع أطلقت من خلف أسوار المدينة. أقيمت القيادة العامة في سيدي مبروك، وأقام هناك الموكب وحظيرة المدفعية.

توقف المطر في الصبيحة، عند انطلاق الجيش، لكنه بدأ يهطل على الساعة الثانية، ثم تحسن في الأمسية فاستطعنا تنصيب سرايا المدفعية في المنصورة. تم تعيين نقيب قيادة الأركان ديسال، نسيب اللواء فالي، كقائد الخنادق، كما عين ملازمي قيادة الأركان ليتيلبي و ميمونت كمساعدين له. استقرت سرية المدفعية المسماة مجموعة الملك على

يسار المنصورة، في الجهة المعاكسة، على صخرة بارزة، تحت هضبة كبيرة، على بعد 300 م من حصن المدينة، وزودت بمدفع 34، و مدفعي 16 و راجتين 6 بوصات.

استقرت سرية المدفعية المسماة مجموعة أورليان على مرتفع المنصورة، وزودت بمدفعي 16 و راجتين 8 بوصات.

استقرت سرية مدفعية المسماة مجموعة مورتبي على المرتفع أيضا وزودت بثلاثة راجات 8 بوصات.

لم نستطع بداية تنصيب سرية مدفعية الشرخ في نفس الوقت مع الآخرين. احتلال كودية آتي لم يتقدم كثيرا لنستطيع ذلك في الليل، تقدمت أشغال المنصورة بشكل جيد، بفضل الهمة و التنافس بين المدفعيين و المشاة.

في صباح يوم 7، قدم الحاكم العام رفقة اللواء فالي ودوق نيمور، الذي عين كقائد عام لقوات المقر، لمعايتهم.

أنهت الأشغال في خزائن مجموعات أورليان و مورتبي، بينما لم تنته الأشغال في خزانة فرقة الملك.

خزانة هذه السرية لم ترتفع فوق واقية الركبة، لأنها موجودة على الصخرة، مما أجبرنا أن نأتي بالتراب بواسطة القفاف، و بها أنها أيضا موجودة تحت الهضبة، شكلنا منحدرًا للوصول إلى الهدف.

في يوم 7، حاول المحاصرون أن يخرجوا خرجتين. الأولى من باب القنطرة وركزت جهودها عن يمين المنصورة، لكن استطاع الثاني الخفيف والزواف التصدي لهذا الهجوم، كاليوم السابق. أما الخرجة الثانية، وهي أكثر جدية، حدثت من الأبواب المقابلة لكودية آي، وصدها الفيلق الثاني، والفرقة الخارجية والـ 26 الخفيف. فقدت فرقة من هذا الأخير قائدها، القائد بيرو. الرقيب الأول دوز ورقب المحاسبة يسون أظهروا شجاعة نادرة، مما أدى إلى الإشارة إليهم في تقرير اللواء الأول.

جاء عرب الخارج أيضا ليهاجموا كودية آي، وتصدى لهم الـ 47 للخط وقناصي إفريقيين الذين هزموهم. بعض قناصتنا الذين لاحقوا بعيدا العدو بكل شجاعة قتلوا.

شيد جسرين على واد الرمال وعلى واد بومرزوق، خلف وأمام آثار قناة ماء رومانية. ذهب اللواء فالي لاستكشاف الطريق الذي متسلكه مدافع سرية مدفعية الشرخ، المسماة سرية مدفعية نيمور. تقدم حتى مكان هذه السرية وعين مساعدا لكل قذاف، ثم أمر ببناء جدار واقفي على المرتفع الذي يعلو ملتقى الوادين من أجل تأمين المواصلات بين كودية آي والمنصورة وحمايتها من هجمات عرب الخارج. بدأت كل هذه الأشغال في الليلة التالية. ثلاث فرق من نقاب

الهندسة و 750 جنديا من المشاة كلفوا بهذه الأشغال، لكن هطول مطر غزير ضايقهم واستحال عليهم مواصلة الأشغال فتوقفوا البعض الوقت. كانت هذه الاستحالة راجعة إلى أن التراب المبتل من جراء المطر كان يعيق عملية تحضير المنحدرات، وفيما يخص سرايا المدفعية الموجودة على الحجر، لم يتمكن الجنود من ملء أكياس التراب الذي كانوا يأتون به من بعيد، ولم يتبق منه شيئا كثيرا عند وصوله.

في المنصورة، كانت سرية المدفعية مستعدتين وزودتا بالذخيرة في الأمسية، أما سرية الملك، فاستحال وصول المدافع إليها لعدم توفر المنحدر، وبالتالي سقطت في الهاوية من أين استحال انتشالها.

ليلة 7 إلى 8 كانت مضطربة بالأحداث الصعبة. تضرر الجنود الذين أجهدهم العمل والذين لم يجدوا مكانا جافا للراحة. في يوم 8، بنيت بسرعة سرية مدفعية على الرأس الجنوبي للهضبة، لتحل مكان سرية الملك إلى حال انتشال المدافع. سميت بسرية دامرمون وزودت بـ 3 مدافع من عيار 24 وقذافين من عيار 6. كنا على مقدرة أن نبدأ القصف في تلك الأمسية، لكن الضباب حال دون ذلك، لاستحالة الرؤية والتصويب، فأرجى القصف إلى صبيحة اليوم الموالي.

كانت الليلة رديئة و تهاطل المطر دون توقف. كان الجنود يتألمون من هذا الوضع، وكان لابد لمدفيعتنا أن ترد على مدفعية المدينة لرفع

معنوياتهم. لهذا كانت بداية إطلاق النار تُنتظر بفارغ الصبر. بدأ القصف يوم 9 على الساعة 7 صباحا، عند الضربة الأولى ارتفعت هتافات و صرخات من جميع الأماكن التي تحتلها قواتنا، منبهة بسقوط قسطنطينة القريب، لكن سرايا مدفعية المنصورة لم تأت بما كنا نتظره منها: فقد أطلقت نار القصبة بسرعة 4 مدفعية القنطرة عطلت بسرعة 4 دفاعات كودية آتي تضررت، والصواريخ والقنابل لم تشعل النار في أي مكان. كانت المدينة صامدة أمام هذه الزوبعة النارية ولم تكن على استعداد لفتح الأبواب⁽¹⁾.

أثناء هجوم المنصورة، لم يتوقف قذافي 6، الموجودان في كودية آتي تحت قيادة القائد دارماندي، عن قصف المدينة. شاركت أيضا سرية الملك في القصف، لكن لم يكن النصر كاملا. المدافع التي سقطت أعيد انتشالها من طرف الزواف، فرقة تستحق كل التقدير لأنها مستعدة في كل وقت وفي كل مكان.

نحل الحاكم العام عن إطالة الحصار أطول من ذلك، لأنه كان قد يستهلك كل ذخيرتنا، فقرر تركيز الهجوم على جبهة كودية آتي.

تساقط الأمطار حطمت الطرقات، فأصبحت إمكانية نقل

(1) قال النقيب دلاتور ديبان في المقال الحي و الجذاب الذي نشره في مجلة "العالمين"، قال بدقة رائعة في التعبير في ما يخص الترجي الذي أسنائه عموما على نتائج قصف قسطنطينة، ذلك هو خطأ فهمنا لطبيعة العرب، فهم قادرين ليس على فعل كل شيء، لكن تحمل كل شيء.

المدفعية الكبيرة شبه مستحيلة في هذه النقطة، ففكر في هجوم هذه المنطقة بواسطة الهندسة بواسطة التنقيب والألغام. لكن الهندسة، كما قلنا سابقا، لم تستطع المجيء بكل وسائلها، ومنطقيا لم تستطع القيام بهذه المهمة. فحتمًا كلفت بها المدفعية، فبرغم كل الصعوبات، كانت لحسن الحظ فعالة نظرا لتنظيمها.

في الليل، نقل إلى كودية آتي مدفعين 24 من سرية دامرمون و اثنين من عيار 16 من سرية أورليان مع 8 عربات للتموين. هذه العملية الصعبة جراء الأمطار أوكلت إلى العقيد تورنمين، قائد أركان المدفعية. وصلت هذه المدافع إلى مكانها بمشقة، بعد أن اضطر إلى استعمال حتى 40 حصان لجر البعض منها، وهذا تحت نيران المدينة. في يوم 10، بني جسر من الحوامل على واد الرمال، تحت ملقحي النهرين و عوض الجسور الخفيفة التي جرفتها المياه. على الساعة الثالثة، أعطي الأمر بأن ينقل إلى كودية آتي في الليلة الموالية مدفع 24 الثالث لسرية دامرمون وقذافي 8 لسرية أورليان، وكذا مدفعين خفيفين والصواريخ الحارقة. في هذه الأونة، استؤنف بناء السرايا التي كانت مستعدة صباح يوم 11، وبقيت سرية الملك وحدها مسلحة بالمنصورة.

هامي ترتيبات الهجوم على كودية آتي: سرية مدفعية نيمور، تحت

وهزم العدو في كل مكان. استهدف الحاكم العام من كل مكان، بما أنه كان يعرف بقبيلته المزينة بريش أبيض، ونجا بأعجوبة؛ لكن أصيب أحد مساعديه، النقيب مالك ماوون، بجراح.

بعد الزوال، اختير موقع جديد، على بعد 120 م من المدينة المحصنة، لتصيب سرية مدفعية الشرخ، خشية أن تكون سرية نيمور، المتواجدة على بعد 400 م، بعيدة جدا ولا يكون لها التأثير المرجو منها. كما تقرر إنشاء ساحة للسلاح ترتبط بهذه السرية لحماية حراس الخنادق وتستعمل كنقطة تجمع قوات الهجوم.

في ليلة 10 إلى 11، تقدمت الأشغال بسرعة كبيرة. كانت أشغال ساحة السلاح على وشك الانتهاء، بربطها مع المنحدر الذي يؤدي إلى الباردو. سهلت الأشغال بفضل ثنانيا الأرضية التي تتيح لقواتنا التحرك. استهدف العدو رأس فرقة التنقيب للهندسة تحت نار كثيفة. و حاول العدو الخروج، لكنه صد من طرف ال 47 للمخط ولاذ بالهرب، ولم يطلق ولا طلقة واحدة.

في صبيحة يوم 11، توجه الحاكم العام، واللواء فالي ودوق نيمور إلى سرية مدفعية الشرخ. على الساعة 9، بدأت هذه السرية رفقة السرايا رقم 6 و 8 بإطلاق النار. لم يبدأ القذافون إطلاق النار إلا على الساعة

قيادة النقيب كافور، زودت ب 3 مدافع 24 و قذافتين عيار 6. السرية الموجودة على يسارها وضعت تحت قيادة الملازم بومون و زودت بقذافتين عيار 6، و سميت السرية 6. وضعت سرية أخرى مزودة بمدفعي 16 و قذافتين عيار 8 خلف سرية نيمور، على بعد 800 م من المدينة المحصنة. أوكلت قيادتها للنقيب لكورتوا، و تحمل رقم 8. سرية مورتي، التي تحمل رقم 7، والتي يقودها النقيب كوطو، وضعت بعيدا قليلا.

رغم الأمطار، تقدمت الأشغال في كودية آتي بشكل ملحوظ، في ليلة 9 إلى 10. في النهار، تغلبت الشمس على الغيوم و أضاءت الساحة. فهم العدو أهمية هذه الأشغال فأراد إيقافها. لهذا خرجت عدة فرق من المدينة واتجهت نحو الثنايا، غير بعيد من مواقعنا.

تفطن اللواء دامرمون، الذي كان ينظر إليهم من المنصورة، إلى أنهم كانوا يحفظون هجوما شاملا. فأتجه بسرعة إلى كودية آتي، و قبل أن يبدؤوا هجومهم، أرسل عليهم بعض الفرق من الفرقة الأجنبية وكذا من الفيلق الثالث لإفريقيا. هذه الفرق، وبالرغم من أنها ذات حنكة، أبدت نوعا من التردد، لأنها هوجمت من طرف عدو أكثر عددا و تحت نار كثيفة. سارع نحوهم اللواء دامرمون رفقة دوق نيمور و قيادة أركانه،

الثانية زوالا. أطلقنا النار أولا لتخطي المراقبة المفروضة من الحصن. لم يدم ذلك طويلا، وهجمنا لنهدم الجدار أين توجد السرية الكبرى. كان الجدار سميكاً جداً وقاوم بعض الشيء. على الساعة الثانية والنصف، صوب القائد ماليسار قذاف سرية الثقيب لكورتوا على هدف عينه اللواء فالي بنفسه، فنهاوى جزء من الجدار تحت هتافات الفرحة. منذ تلك اللحظة، كنا نستطيع أن نقول أن قسنطينة أصبحت لنا، و ما كان سوى سوء الحظ لو ضاعت منا فريسة سهلة كهذه، لأن السبيل كان مفتوحاً أمام حربات جنودنا.

على الساعة السابعة مساء، بدأت أشغال سرية الشرخ الجديدة التي أشرنا إليها تحت قيادة القائد دارماندي. مدافع الثقيب كاقور نقلت إليها وعوضت، في سرية نيمور، بمدافع السرايا الموجودة في الورا.

في يوم 11، ساندت مدفعية كودية آي مدفعية السرية الملكية. حاول المحاصرون أن يخرجوا لكتهم صدوا من طرف اللواء تريزل.

تواصلت الأشغال في ليلة 11 إلى 12، رغم الأمطار. في حدود الساعة الثانية صباحاً، بدأ نسلح سرية الشرخ الجديدة. لكن إطلاق نار كثيف من الحصن أجبر على إيقاف العمل. بعدما تباطأ إطلاق النار، استأنف العمل من جديد، لكن الحاكم العام، الذي لم يفره كبرياء الانتصار، و

الذي كان يفكر في كيفية حقن الدماء و منع المحاصرين من إلقاء أنفسهم إلى الهلاك، قرر، قبل أن يهجم بطواييره، أن يبين للمحاصرين وضعيتهم السيئة وأن يأمرهم بالاستسلام؛ فبعث إليهم بنداء حمله إليهم جندي من الفيلق التركي. تقدم هذا المفاوض إلى الأسوار، و بين بالحركات للمحاصرين طبيعة المهمة التي كلف بها. حيث أرسل له هؤلاء حبل تسلق به الأسوار و دخل إلى المدينة. عاد في صبيحة يوم الغد دون أي إجابة مكتوبة، ولكن بهذه الإجابة الشفهية: "يوجد في قسنطينة الكثير من الذخيرة للبنادق والمدفعية. إذا كان الفرنسيون يفتقدونها، فسرسل لهم بعضها. نحن لا نعرف كلمة شرخ ولا كلمة استسلام. سندافع بفراسة عن مدينتنا و بيوتنا. لن يصبح الفرنسيون سادة المدينة إلا بعد فتح آخر المدافعين عنها."

لما سمع الحاكم العام هذه الإجابة، قال: "هم رجال همة، ولن يزيد ذلك في نصرنا إلا مجداً." طلب حصانا وانجه على التو إلى كودية آي رفقة حاشيته. كانت الشمس ساطعة وتلاشت بذلك كل المخاوف من طقس ردي. الشرخ الذي أحدث في اليوم السابق سيحفر ويبيأ في ساعات قليلة بقلائف السرية الجديدة. كانت نشوة النصر تبدو على الوجوه و تبدى في كل المحادثات.

حتى المرضى والجرحى كان يبدو عليهم الارتياح. نزل الفريق دامرمون من حصانه، وعلى وجهه ملامح السعادة بالنصر القريب لجيشه الشجاع وتقدم راجلا نحو سرية نيمور. توقف في الطريق المؤدي إليها، في مكان جد مكشوف، وأخذ يلاحظ في الشرخ.

ذهب إليه اللواء رولير ليحذره من الخطر الذي يحيط به. فأجابه ببرودته العادية: لا أبالي. كانت كلمته الأخيرة؛ لأنه في نفس اللحظة، أرسلت قذيفة من الحصن فأردته ميتا، وكان مثل توران الذي كفن في مجده. انحنى إليه اللواء بيريفو، فأصيب برصاصة تحت جبينه وجرح بخطورة، وهوى على جثمان ذلك الذي كان قائده و صديقه.

هرول اللواء فالي، الذي كان في سرية الشرخ، إلى المكان بعدما سمع الخبر السيء، الذي حرم الجيش من قائده العام. أدخل المكان من المتفرجين وأرسل الجثمان إلى المؤخرة، ملفوفا في معطف.

انتشر بسرعة خبر وفاة الحاكم العام بين الجنود. كان نجاح الحملة مضمونا حيثئذ بشكل كبير لكي يؤثر بشكل سلبي على الأوضاع، بل ولّد إحساس الحسرة وإرادة الانتقام.

أصبح اللواء فالي قائدا عاما، وبدأت سرية الشرخ في إطلاق النار، و أعانتها في ذلك كل الأخريات. في الليلة التي مضت، حاول المحاصرون

سد الشرخ الذي غطوا أعلاه بأكياس من الصوف والبرادع وحتى حطام الرماح، لكن هذه الحواجز تم إقصاؤها بسرعة. وفي تلك الليلة تقرر أن يكون الهجوم في صبيحة الغد. في نفس الوقت، جاء مفاوض برسالة من أحد، في حين كان لا زال مبعوث اللواء دامرمون في المدينة. اقترح الباي وقف المعارك واستئناف المفاوضات.

لكن اللواء أجابه أنه من المستحيل أن يكون ذلك نظرا للتطورات على أرضية الميدان، ووعدته في حالة ما أمر بفتح أبواب المدينة للفرنسيين أن يحترم البلاغ النهائي للفريق دامرمون. لم يأت هذا الاقتراح بأي نتيجة. في تلك الليلة، أخذت سرايا بقصف المدينة دون انتظام، لمنع المحاصرين من سد الشرخ. يوم 13، على الساعة الثالثة و النصف صباحا، قام نسيب الهندسة بوتو و نقيب الزواف قاردرنس باستطلاع الشرخ وقالوا أنه مفتوح نهائيا. منذ ذلك الحين، لم تشغل سوى بالهجوم. القوات التي أعدت لذلك قسمت على ثلاثة طوابير.

الأول، تحت قيادة العميد لاموريسيير، مكون من 40 نقيباً للهندسة و 300 زواف و فصيلتين من النخبة من الثاني الخفيف.

الطابور الثاني، تحت قيادة العقيد كومب، يتشكل من الفصيلة الحرة للفيلق الثاني لإفريقيا، 80 من نقيب الهندسة، 100 رجل من الفيلق

مفرزات سريتين، وهي طريقة ذكية جلبت الازدحام والفوضى،
اللدان كان لها عواقب وخيمة في السنة التي مضت عند الهجوم على
باب القنطرة.

الكثير من الشجعان، من بينهم العديد من الضباط، جرحوا
بخطورة. انهيار جدار سحق بعضهم، من بينهم القائد سيفيتي من
الناب الحقيق. تضرر المهاجمون خاصة من انفجار عنيف، طناه لغم
وضعه المحاصرون، لكن تبين فيما بعد أنه انفجار مخزن للبارود بعدما
اشتعلت فيه النار. من بين الضحايا، يوجد العقيد لاموريسير. هذا
الضابط الشجاع والمغوار أصيب بحروق بالغة. لحقنا على حياته و
بصره، لكنه استطاع الحفاظ على كليهما. كان العقيد كومب الذي تبعه
في الشرخ أقل حظاً، حيث أصيب بجرحين بالغين عندما استطاع
أن يفتح الطريق أمام قواتنا المنتصرة. بقيت لديه القوة للتأكد من
الانتصار و تبليغ ذلك لدوق نيمور، الذي عين، كما ذكرناه، كقائد
عام لقوات المقر. فعل ذلك بهدوء تام، و ختم قائلًا: "أولئك الذين لم
يصابوا بجراح خطيرة سيستمعون بهذا النصر الجميل." عندئذ علمنا
أن مصاصة اخترقت صدره، وتوفي بعد غد. الذين شاهدوا كومب في
للك اللحظة تكلموا كثيرا عن موقفه الباسل وموته بشجاعة.

الثالث لإفريقيا، 100 من الفرقة الأجنبية و 300 من ال 47 للخط
الطابور الثالث، بقيادة العقيد كورين، متكون من قيلقين مشكلين من
مفرزتين من الألويا الأربعة.

في انتظار إشارة الهجوم، تمركز الطابوران الأول و الثاني في ساحة
السلاح وفي المنحدر الذي بجنبه، بينما كان الثالث وراء الباردو.
على الساعة السابعة، أمر اللواء القائد بالهجوم. توغل في الحال اللواء
لاموريسير مع طابوره في الشرخ، واستولى عليه وسط تبادل كثيف
لإطلاق النار. النقيب قاردونس، الذي أصيب بجراح بليغة، ثبت العلم
ذو ثلاثة ألوان وسط الهتافات.

لكن اصطدم الطابور بحواجز متجددة حينما أراد التوغل داخل
المدينة. بدأت عند ذلك المعركة الدموية أمام الديار و المنارم و التي
دامت ساعات عديدة.

لن نسرده سوى الأحداث الرئيسية، و نرجع لتبليغ التفاصيل إلى ما
كتبه النقيب لاتوردوين⁽¹⁾.

كلما زاد توغل الطابور الأول داخل المدينة، كان اللواء القائد
المتواجد في سرية الشرخ رفقة دوق نيمور، يدفع بقوات جديدة
مأخوذة من الطابورين الآخرين. أقحمت هذه القوات على شكل

لما تجاوزت الطوابير الشرخ وأحكمت السيطرة على قسنطينة، دخلها اللواء رولير، الذي عين حاكما لها. كان القتال متواصلا، لكن سرعان ما أتى رجل إلى اللواء مسلما له رسالة من سلطات المدينة التي أقرت استسلامها الكامل و توسلت للمتصرف بالرحمة عليها وعلى الأهالي. أمر اللواء حينئذ بوقف إطلاق النار الفوري و توجه نحو القصبة التي استولى عليها.

أثناء الهجوم، فر جزء من السكان المرعوبين من جهة المدينة التي كانت في منجى من ضرباتنا، لكن الكثير من هؤلاء الأشقياء هلكوا في هروبهم الخطير و تحطموا على الصخور الوعرة التي توجد أسفل المنحدرات العميقة التي لم يكونوا في استطاعتهم بلوغها سوى باستخدام الحبال التي قطعت من جراء أنقاعهم.

لما بلغ جنودنا إلى حافة المنحدرات، انتابهم الروع من هذا المشهد الرهيب واعتراهم العطف على هؤلاء الضحايا من الرجال والنساء والأطفال المتحطمين والمشوهين المتراكمين بعضهم على بعض، وفيهم من كان يتخبط في سكرات الموت. استطاع بن عيسى الفرار، بينما جرح قايد الدار في الليلة التي مضت و هلك أثناء الهجوم.

لما استتب الأمن في المدينة، رفع العلم ذو الثلاثة ألوان على أهم مباني المدينة، ثم جاء دوق نيمور للاستيلاء على قصر الباي.

بعد أن أتم اللواء قالي بشجاعة الجزء العسكري من المهمة التي منع الموت الفريق دامرمون من إتمامها، تكلف بمهمة أقل مفخرة لكنه كثير المنفعة لما كانت تحتاجه إدارة البلاد. لم يرد الخوض فيها يخوضه المستقبل ولا استباق الحكم بما سيفعل بهذا الاحتلال وفق ما تقتضيه المصالح العليا لفرنسا، لذلك تفادى اتخاذ أي قرار سيندم عليه لاحقا. لهذا السبب، اكتفى بتنظيم البلاد على ما يستلزمه الوضع الراهن.

عين بذلك أحد الموظفين المحليين بصفة قايد، كوسيط بين السكان والسلطة الفرنسية، وترك دونه الجهاز الإداري القديم. أوكل هذه المهام لشاب يدعى حمودة، ابن شيخ البلاد، من عائلة عريقة و محترمة، حتى أن أحد لم يستطع أن يفرض عليها سلطته و كان يشك فيها. امتدت سلطته في المدينة وما جاورها.

السكان الذين بقوا في قسنطينة وأولئك الذين غادروها و لم يلبثوا حتى عادوا إليها تمت معاملتهم برفق و عدل. لكنهم اضطروا لدفع ثمن الثمن الذي قدمه الجيش، و كان الثمن معقولا.

كان ذلك أقل ما يمكن فرضه على مدينة أخذت عنوة، ولم يجرؤ أحد أن يشكي. لا بد أن نشير إلى أنه كان النظام الإداري أكثر إحكاما عند أخذ قسنطينة منه لما أخذنا الجزائر في 1830، التي دخلناها بعد

في هذا تحت الحملة الثانية لقسنطينة. فاعتقدنا أننا فعلنا شيئا جيدا
لمصلحة جيش إفريقيا. نضع أمام أعين القارئ، في المفكرة أدناه، جزء
من تقرير اللواء الحاكم، حيث مذكور أسماء الرجال الشجعان الذي
ظهر له أنهم يستحقون كل الشرف و التكريم و بطريقة استثنائية ان
يذكرون⁽¹⁾.

(1) مقتطف من تقرير اللواء الحاكم فالي.

أنتى ان أنكر، سيدي الوزير، أسماء كل الضباط ضباط الصف و الجنود الذين
وفوا بواجبهم، و لكنى أحت بقوة أن أعظمكم الذين تميزوا بطريقة استثنائية.
أنكر في البداية من أ.ر صاحب السمو دوق دو نومور، السيد الفريق بارون دو
فلوري، و السادة المشيرين الميدان تريزيل و روليارس.
لقد أنكر بطريقة استثنائية، السادة النقيب دو سأل، الرائد و الملازمين
مبولت لاتولي، مساعدين الرائد، هؤلاء الضباط وفوا بجهل كبير وظلتهم
الصعبة التي أجبروا عليها. لقد شاركوا ليلا و نهارا في العمل و في العمليات
الأكثر صعوبة و خطورة.
الجيش لاحظ استعداد و حنكة السيد الطبيب بونون في تسيير سلك الاستشفاء
الصعب، و الحنكة التي تميز بها الضباط في أركان الجيش التابع لصاحب السمو
دوق دو نومور و جلالة النقيب دو هوسارد ناي دو لا موسكوا.
في المنفعة: السادة العقيد دو تورنومين، حكام السرب مالبشارد، دارميتي،
الطبيب كورنوا، النقيب كالفور، النقيب لوبوف، النقيب مونستر، الملازمين
برلشون و بومون، المشيرين كاهريتان و هيمان و قائد اللواء سيجو، هم أيضا
أنكسوا الحنكة و الشجاعة.

استلام سلطاتها. سمح هذا النطاق باستعمال كل الموارد و الحفاظ على
الوثائق الإدارية والتعريف الدقيق بالبلاد. باختصار، السلسلة التقليدية
لم تكسر.

خلال الخمسة عشر يوما التي مضت على احتلال قسنطينة، عدة قبائل
استسلمت لفرنسا. فرحات بن سعيد جاء في 27 أكتوبر، بحاشية كبيرة
وقد استقبل بامتياز كبير. أحمد، برفقته إلا بضعة مائة من الفرسان، قد
فر إلى جبال الأوراس، و تأثيره بدأ محطما كلياً. لسوء الحظ، تأثير عبد
القادر بدأ يتشرب في ضواحي قسنطينة. لكن هذا المشكل لسنّا جاهزين
لمواجهته في هذا الوقت، لأن العناصر ليست متطورة بما فيه الكفاية
لكي تكتسب وجهة نظر ملحوظة.

بضعة أيام بعد احتلال قسنطينة، وصل ال 12 للخط إلى عنابة،
أين دام الكوليرا أرغمه على البقاء في مكانه، و لهذا السبب لم يشارك
في الحملة. في 20 أكتوبر، غادرت المدفعية و قافلة من المرضى قسنطينة
بحماية مجموعة مكونة من 1500 رجل، و لحقوا إلى عنابة في مدة 7 أيام.
أخيراً، في 28 أكتوبر، ترك اللواء الحاكم لقسنطينة حامية من 2500
رجل⁽¹⁾، و قد أوكل القيادة اللواء برنيل، فذهب مع باقي القافلة، و لحق
إلى عنابة، أين تقلد منصب حاكم عام لكاسب فرنسا في شرق إفريقيا.

268 (1) قد ترك عندما 5000 بعد مرور الوقت.

تم نقل رفات الجنرال دامريمون إلى فرنسا وكوَّرم بمئات عام وهو
يرتاح الآن في سرداب كنيسة الأنفاليد *des invalides*. الجنرال
بيرينو تم نقله إلى غابة ليتوجه إلى فرنسا وتوفي عند العبور إلى هناك.

لنكر أيضاً، سدي الوزير، في الهندسة، السادة قاتلو المراهبا فيرو وفيلوف
التقاء: ليل، بوتول، هاتكت (الذي تم قتله)، لوبلان، بوتلي (جرح حتى الموت)
الملازمين الأولين وولف وهورال فيلي.

في الفيلق الملكي لبيئة الأركان: السيد لاثو عقيد الصف الثالث للقناصة، التقاء
: ريشيس ضابط مساعد للجنرال رويبار، دوتلو من الصف الثالث للقناصة،
والملازم علفالا من الصفاحي للظماميين.

والخيرا من المشاة

العقيد كومت من الصف 47، المقدم دولامور ميلار من الزواف، رؤساء الكتائب:
سوتريال من الصف 47، التقاء: لوفابون و دوغارديون من الزواف، هورو من
الكتيبة الثالثة لأفريقيا، سانت اماتج من الفيلق الأجني، كاتروبار نابولي وبلان
دوتوار من الصف 174، ميران، راندر من الفيلق الأجني، نورو، ماريلان من
الصف السابع عشر الخفيف، غيلوار من السرية الحرة، دوبيلي من كتيبة معاري
أفريقيا الملازمين الأولين: ديسميرون، مساعد الجنرال رويبار، جوردان، آدم من
فيلق أفريقيا، دوفريس من الصف 147، نيكولاس من الصف 23، ضابط الصف
ليجو، بوبوف من الكتيبة الثالثة لأفريقيا، جوستو ودوز من الفيلق الأجني
ماريبي وفانسون من الصف 47، من رماة القنابل والمشاة الخفيفة: ديسرتان
(عريف)، كولمان، وريطين من الصف 147، بيريسو جوردات من الصف 17
الخفيف، كورتوا رقيب من الزواف وكاتروم (عريف)، قائد كتيبة دوسريبي
من الصف الثاني الخفيف الذي قتل في المعركة، الخفيف دوليريتز، وضابط الصف
لومراي و بوللو من نفس الفيلق.

ودفن في سردينيا. كما أن الجيش قد فقد الجنرال كارامان المثنوق بقسطنطينة
جراه الكوليرا الذي وصل إلى هناك ولكنه لم يكن مدمرا كثيرا. هذا
الجنرال كان ابن المحترم فييار الذي تميز في الحملة الأولى بتفانيه لمساعدة
الجرحى.

الكتاب 24

الأوساع بمحافضة الجزائر ومحافضة وهران أثناء حملة قسطنطينة - إجراءات الإدارة المدنية اللواء دامرمون - قرار يخص القبائل - تحديد النطاق القضائي لمحاكم الجزائر العاصمة - مرسوم يخص المعاملات العقارية - وضعية الزراعة والتجارة.

خلال تواجد اللواء دامرمون شرق ممتلكاتنا الإفريقية ، كانت القيادة بالجزائر العاصمة لبضعة أيام بيد الجنرال برو و باقي الوقت تحت إشراف الجنرال تيغري. وقد انخفض عدد القوات بتلك الناحية حتى أنه في فصل الصيف وهو فصل الأمراض كان من الصعب تجميع 1500 رجل في حملة إن كان من الواجب حمل السلاح مجددا. عبد القادر وأعضاء حكومته لم يكونوا ملتزمين بشكل كامل ببنود المعاهدة وبدأ أنهم لم يكونوا يستوعبونها بنسب الطريقة مثلنا. الحاج مصطفى ، شقيق الأمير وياي المدينة، قام قام بعدة إجراءات سلطوية بالبلدية وحتى أنه فرض مساهمات الحجويون وخاصة مهاجري بني خليل و بني موسى الذين كانوا في ديارهم ، عاودوا

ارتكاب أعمال لصوصية على أراضيها. فرفعت شكوى إلى باي مليانة الذي رد بآذراء بأنه لو أردنا ضمان الهدوء على أراضينا لن نجد أفضل من إعطاء سلطة الشرطة لمن يسودها والبقاء داخل أسوار العاصمة. هذا الباي نفسه كان يعيق في كل الأحوال التجارة التي كانت تريد القبائل إقامتها معاً مباشرة. وسمح لنفسه يوماً بإرسال فرسان داخل أراضيها من أجل إخراج ثيران كان عرب يقودونها إلى سوق بوقاريك. كان القصد من هذا الانتهاك الصارخ للمعاهدة هو بيع 2000 ثور مشتراة من طرف دار دوراند من عبد القادر في أسواقنا والتي وصلت خلال شهر سبتمبر.

لقد تم إبلاغ الأمير باستنكار أعمال نهب الحجوطيين و أطماع باي المدينة والذي رد عليها بإبهام أنه سينظر في الأمر عند تواجده بإقليم التيطري أين يفكر بالذهاب هناك قريباً. ورغم ذلك فقد أزاح أخاه ووضع محله محمد البركاني الذي كان بابا للمدينة قبله. الحاج مصطفى كان يتصرف بسوء تجاه عرب البيلك التابع له وترك أفراد قواته دون انضباط عانى منه سكان المدينة كثيراً. وكان السبب الوحيد وراء تنحيته أما الشكاوي التي تقدمنا بها لم يكن لها علاقة بذلك لأن خلفه وأصل طموحه بالبلدية وعلاوة على ذلك قام الأمير بتعيين قادة بكل من الحشنة وني موسى، أما بعض القبائل في الشرق التي لا تزال مرتبكة بسيدي معادي فإنها كانت تفكر للعودة إلى حمل السلاح وقد تم إعلام السلطات بها كان يحدث في تلك الناحية من قبل فايد يسرا

المحافظ العام ترك تعليمات للعمل على إنشاء سلطة مستقلة عن فرنسا أو على الأقل عن المير الذي ليس له أي نفوذ بالمنطقة حسب قراءتنا ليتود المعاهدة. وكان الجنرال بوجو والجنرال دامريمون يرون الأمور بنفس الطريقة.

خلال هذه الفترة، كان يتواجد فريقين لدى العمراوة، وهي القبيلة الأكثر سلطة ونشاطاً شرق إقليم الجزائر. أحدهما الذي يرتبط به بن زمون من قلية، وكان يقوده عمر عي الدين والجزء الثاني كان على رأسه سعيد وليد أوقاسي. هذين القسمين كانا يتنازعا على الحكم وحسب نظرة أولية يمكننا رؤية نزاعات شخصية ولكن في الباطن يوجد أكثر من ذلك: لقد كان الصراع التاريخي بين القبائل والعرب يتولد من جديد في هذه الزاوية الصغيرة من بلاد البربر، في وقت كان فيه العرب مدعومين بالظروف وتفوق عبد القادر يصوغون جنسيتهم. عمر عي الدين كان يمثل بأصله وتحالفه عرق القبائل و غريمه كان يؤيد قضية العرب وبالتالي فإن الأول كان طبعياً أن يتقرب من كل ما يمكن أن يعيق عبد القادر، وهذا ما بدفعه نحوها. الجنرال دامريمون كان ينوي تسليمه القيادة العامة لقبائل شرق إقليم الجزائر. وبدأت مفاوضات في هذا الاتجاه. ولكن القائد وليد أوقاسي ومساعدته شيخ آخر ذا نفوذ يدعى وليد منصور، هاجم عمر عي الدين في شهر سبتمبر. تم صدده ولكن للأسف أصيب عمر عي الدين بجروح بالغة

أجبرته على عدم متابعة ما كان يقدمه ولا على توجيه الأمور بنفسه. ثم نفع سعيد وليد أوقاسي إلى جبال الدرو أين قام بن زمون باعتراض سبيله ولكن سرعان ما استعاد قوته وقام بهزم بن زمون بعد الحمول القسري الذي أظهره عمر محي الدين وضمور قوى أتباعه، وبين زمون لم يتخذ نفسه سوى بجهود شخصية. وبعد بضعة أيام، أصبح حاكما على كل الناحية، وكنا نتظر أن يهاجم الأراضي التابعة لنا مما لن يكون سوى ازعاجا كبيرا لنا في وقت كانت فيه قواتنا قليلة بشكل معتبر بالجزائر العاصمة، ولكنه حدث عكس ذلك، فقد اندفع وراء نصائح شيخ يسر الذي كان عميل سري للسلطة الفرنسية و فكر بعد تفوقه على منافسه أنه يمكنه إغواءه بإغراء الموقف المستقل وسمع لأفكاره بالوصول إلى أنه حين يستفيد من دعمنا سيتمكنه أن يصبح على قدم المساواة مع عبد القادر. هذه الحالة الذهنية و الرعاية التي تحظى بها أهدت للمحنة الخطر الذي كان يخشى منه و حفزت على الاحتلال العسكري لمزاغة الرغبة أين توفيت سرية كاملة تقريبا من الحمى في غضون فصل الصيف. وأثناء هذه الأحداث، أهدت بعض التحركات في هذا المنحى عن أراضي القيادة المعينين من طرف الأمير دون الاكترات بالمعاهدة أو قد عمت شائعات لدى قبائلنا، ولم تكن بلا أساس، بأن عمليات تهيب منظمة من طرف المجنوبين ضد عرب أراضينا لإجبارهم على الهجرة ببعض الإجراءات القسرية، إيقاف و اعدام البعض من هؤلاء القطاع للطرق

إعادة القليل من الأمان إلى السكان المقروعين. من بين المجرمين الذين دفعوا بأرواحهم ثمننا لأعمالهم، أحد الفارين من جيشنا وهو نفسه من كتب اسمه على جثة أحد ضابطيه السابقين في معركة 8 نوفمبر السابق. بدا كل شيء قد عاد إلى طبيعته حينما وردت رسالة من الأمير الذي كان قد انطلق من الغرب باتجاه إقليم التيطري لتولد مخاوف أكثر خطورة من تلك التي شهدناها منذ مغادرة المحافظ. مدينة البليدة كانت مكان التلاقي الاعتيادي لكل اللصوص الذين كانوا يجتاحون أراضينا. كانوا يستقبلون و يبيعون غلابة غنائم عمليات نهبهم. و عندما قدمنا شكاوي للسكان عن وضعية المور اجابوا أنه يستحيل عليهم إيقاف ذلك نظرا لضعفهم و عدم تنظيمهم. والسلطة الفرنسية التي تعبت من هذه الاجابات الراهية سمحت أخيرا أن ينظم مكان البليدة أنفسهم في ميليشيات حضرية و انشاء مراكز أمنية و منع المشبه فيهم من الدخول إلى المدينة. و بمجرد تلقي سكان المدينة للإبلاغ حتى أرسلوا وفدا للأمير للاحتجاج عن الاجراء و بعد وقت قصير تلقينا بالعاصمة رسالة تهديد من عبد القادر تدفع بالسلطة الفرنسية إلى التوقف عن التعامل مع الناس الذين من الواضح أنهم لا يرغبون بالتعامل مع المسيحيين. هذه الرسالة كانت تقريبا اعلانا للحرب و لكن لحسن الحظ لم يتم حدوث ذلك، و أقول و أكرر لحسن الحظ لأنه لم تكن بالعاصمة في حال يسمح بمواجهة استئناف عام لأعمال عدائية و التي بالإضافة إلى ذلك قد

كان من الممكن أن يكون لها نتائج على حملة قسطنطينية. ومن المحتمل أن عبد القادر الذي كان من مصلحته عدم اعاقه عملياتنا ضد أحمد باي، قد فهم وحده أنه قد ذهب بعيدا. ومهما كان الأمر فقد أعطى أياما قليلة بعد ذلك نصيرات ودية وأظهر وكلاؤه فيها أحسن لمعاهدة السلام لم يظهره حتى الآن. كما أن قائد الحجوطيين عاقب بعضا من أتباعه بسبب أعمالهم وطلب حيث أنه منذ تلك الفترة وحتى الاستحواذ على قسطنطينية لم توجه السلطة أية احتجاجات للسلطات العربية. ولكنه وبمجرد انهزام أحمد، بدأت الأمور تعود إلى اتحادها المعهود. والتغيير كان محسوسا لدرجة أنه من الصعب رؤية أنه لم يكن محسوبا. نحو منتصف نوفمبر، تم اغتيال أحمد الضباط من قبلى الزواف وهو من السكان المحليين من طرف فرسان حجوط، وهاجر كل سكان قرية مجاورة بعد وقت قصير من الجريمة مخافة أن هذه الأحداث تزامنت مع وصول الجنرال فالي إلى الجزائر والذي تمت ترقية لرتبة ماريشال فرنسا.

وبهران كما في العاصمة، بعد مرور أولى لحظات التهذيب، وضع عبد القادر في علاقته مع الفرنسيين سوء تية بدا أنها تكشف عن باعث خفي مؤسف. وقد اشتكى الجنرال بوجو في كثير من الأحيان من ذلك. فقه كان الأمير جد متطلب في كل ما كان لصالحه، ولكنه لا يتعجل أبدا في تنفيذ الشروط القليلة التي كانت على عاتقه. لم يكن يوفر كل الثيران المتوجبة

عليه أما بالنسبة للمحبوب فقد أعذر نفسه عن إرسالها والجنرال بوجو كان قد غادر وهران قبل تنفيذ هذا البند المتعلق بهذا الجزء من المساهمات. كان السيد الجنرال بوجو قد وصل إلى إفريقيا مع أفكار غير مساندة لمشروع الاستيطان. وبما أنه يتم التعلق دائما بالبلد الذي تمارس فيه سلطتنا فإنه قد اعترف أخيرا بأن الجزائر صفقة جيدة لنا ولكن مع الاعتراف أن فرنسا كان محكوما عليها⁽¹⁾ المحافظة عليها، ولا يتوجب عليها تجاهل أي شيء للاستفادة منها لأقصى حد وعلى أفضل وجه. وتحقيق هذا الهدف، اقترح إنشاء مستعمرات عسكرية منظمة بشكل يحول جزءا من التفضيلات المتوجبة للحفاظ على غزونا إلى المنفعة المباشرة للاستعمار. الأفكار التي قدمها السيد بوجو في هذا السياق تظهر لنا في الإجمال عادلة وسهلة التطبيق.

لن يأخذ اندفاعا قويا و كاملا حسب ما ستمده الحكومة من تحفيز، وبذلك فإن نظاما جيدا من المستوطنات العسكرية هو الطريقة الأكثر اقتصادا والأكثر أمانا للوصول إلى ذلك. وقد حاول الجنرال بوجو إقامة نموذج لنظامه بمسرعين وهي تجربة غير كاملة وهذا صحيح لأنه لم يكن مرخصا له التطبيق الكلي لنظرياته. مسرعين تم ترميمها وتحسينها وتم وضع السبائس النظاميين الذين تم توزيع أراضي عليهم. إن هذا بداية، وهو مبدأ يمكن تطويره لاحقا، ولكنه بالنتيجة خصوصا حيث

(1) أنه تعبئة الشخصى حرفيا، النظر مذكراته حول استقرارنا بالقيم وهران
سلسلة 40.

يمكن لنظام المستوطنات العسكرية أن يكون مفيدا تطبيقه على كل امتدادها المكانة التي تحصلنا عليها من خلال معاهدة النافنة لم تكن تشمل تواجد باي بمستغانم فتم تتحية ابراهيم الذي عاد الى العاصمة مع منحة تقاعد مناسبة و تم ترك حاكم بسيط هناك تابع لأوامر السلطة الفرنسية.

الجنرال بوجو غادر إفريقيا تقريبا بحلول نهاية السنة و ترك قيادة الاقليم للجنرال أوفري الذي حل محل الجنرال بروسار . و كل منا يعرف أسباب فقد الثقة بالجنرال بروسار و محظور علينا التطرق للقضية لأنها حولت الى القضاء.

قبل مغادرة الجنرال بوجو ، ارسل الأمير الى وهران بصفة وكيل أو قنصل الحاج بن حبيب و أرسلنا بدورنا الى معسكر الرائد ميتوفيل من الصف 47 ، هذا الضابط السامي الذي توفي بعد وقت قصير تم تعويضه بالتقيب دوماس .

حكم الجنرال دامريمون كان جد قصير و لكنه جد حافل بالانشغالات العسكرية حتى يتمكن من توفير الوقت اللازم لمواضيع أخرى . و مع ذلك فإن الكثير من الاجراءات الادارية المهمة قد اشارت لمروره بالقضايا و ستقوم بذكرها تبعا لتسلسلها التاريخي:

في الخامس عشر من أفريل ، تم إلغاء مهام آغا العرب و مسائل العرب تم ضمها لدى المحافظ العام و كونت مديرية باسم مديرية مسائل العرب.

في 5 جوان ، ظهر مرسوم جد مهم يخص القبائل . نعلم أن كما هائل من هذا الجنس يأتون كل سنة للبحث عن عمل بالعاصمة ويتم استخدامهم اساسا في أعمال الحقول والحدائق . وهم أناس جادون في عملهم ، متزتون ويعملون بدقة على التفاصيل . وإذا ما تم التلاعب بجشعهم عن طريق إغراء مكسب معتبر والذي لا يفصلهم عنه ارتكاب سهل لجريمة فإنهم يصبحون قادرين على كل شيء . و هذا واقع سلم به الأتراك الذين لم يكونوا يتركونهم أبدا ينامون داخل منازلهم الريفية . بل كانوا يبتون لهم غرفا في الخارج . الأوروبيون الأقل حيطة كانوا في معظم الأحيان ضحايا لفتنهم الزائدة . و ستقوم بذكر مثال فظيع حقا: في سنة 1836 ، أحد الأوربيين من ضواحي العاصمة ، كان يملك بساتين رائعة وكان يشغل بها قبائليين و قد ترك يوما دون حذر ظهور مبلغ معتبر لديه وعند حلول الليل قام أولئك البؤساء بسرقة المبلغ و ذبح كل من تواجد هناك حتى الأطفال الساكنين باستثناء امرأة . تفاصيل هذه الحادثة المأساوية جد قظيمة ولم يتم إيقاف المذنبين . و يزعم أنهم تجاوزوا حدود أراضينا الضيقة عند اكتشاف الجريمة.

و الانطباع الذي تركته الجريمة في الأذهان كان وراء إصدار مرسوم 4 جوان . فالضرر كان يأتي من تمكن القبائل المجيء للعمل بالعاصمة دون أن يتم التعرف عليهم ولا مراقبتهم من طرف أعوان متخصصين يتقنون

لغتهم ولا شيء كان أسهل من ذلك للتهرب من الشرطة التي بإمكانهم إخفاء تواجدهم عليها. فمن المفهوم أن رجالا يعتبر لديهم كيس ألف فرنك ثروة لا تضاهي بشئ، ونجهل عنهم غالبا اسمهم الحقيقي وبلد هم، وكما إن ليس عليهم سوى تجاوز بعض الأميال للتملص من كل متابعة، فكيف لا يستسلمون بسهولة لكل الإغراءات التي كانت غريزتهم تنسب لها أكثر من صلحهم عنها. ونتيجة لذلك فإن مرسوم 4 جوان جاء ليضعهم تحت المراقبة لأمين من عشيرتهم مستقر ومالك بالجزائر العاصمة، وقد منع عليهم العمل أو حتى الإقامة على أراضينا دون التقييد في سجل لدى هذا الأمين أو دون الحصول على دفتر وبطاقة تحمل رقم التسجيل. السجل يكون الإثبات على قبول القبائل في النقابة، ويتأكد الأمين قبل القيام من ذلك من حقيقة التصريحات التي قدمها المرشح حول اسمه، قبيلته وسوابقه. وكل قبائلي يغير مديرة وجب عليه إعلام الأمين بوجهته الجديدة والمدير الذي سيتركه وجب عليه تسجيل أسباب التوقيف عن العمل على السجل. ويمنع على كل الأشخاص توظيف قبائلي غير حاملين لدفتر وبطاقة وإلا سيكون عرضة لغرامة 15 إلى 50 فرنك ومن يوم إلى شهر سجن، وكل قبائلي يتم توقيفه دون دفتر أو بطاقة يواجه عقوبة غرامة 5 فرنك يُلقي بها الأمين دون المساس بالحقوق المحفوظة للتائب العام بإحالة الجاني على الشرطة الإصلاحية بتهمة التشرّد. كل قبائلي يتأخر أراضينا دون التصريح بذلك لدى الأمين ودون الحصول على رخصة المغادرة

عرضة لغرامة بـ 15 فرنك و ثلاثة أيام سجن إذا ما أوقف أو عاد لاحقا إلى العاصمة دون المساس بالعقوبات التي من الممكن أن يتكبدها لأسباب أخرى. مرسوم الرابع جوان الصادر عن اقتراح قدمه السيد برونسون، المشرف للدلي، كان من أكثر الإجراءات عقلانية و فعالية التي لم نسمع أي شيء عن تلك الجرائم المرتكبة في المنازل الريفية التي كانت غالبا ما تزور السكان الأوربيين.

في الثامن من جويلية، و طبقا للمادة 4 من التعليمات الملكية للـ 10 من أوت 1834، صدر مرسوم يحدد النطاق القضائي لمحاكم العاصمة الجزائر للمجنح والجنائيات. هذا النطاق يشمل الفحص، منطقة الساحل بأكملها التي تضم مينا واد آجار، الأراضي الممنوحة براسوطة و أراضي بوفاريك. الجرائم و المجنح المرتكبة خارج هذه الحدود من طرف مواطن محلي بحق أوربي، من طرف مواطن محلي بحق مواطن آخر وإذا كان الفعل يمس السيادة الفرنسية أو أمن الجيش، وأخيرا من طرف أوربي بحق أحد السكان المحليين، ستبقى من اختصاص مجالس الحرب تطبيقا للتعليمات المذكورة سابقا.

وبمرسوم آخر صادر في 10 جويلية، تم المنع المؤقت لكل إحالة للمبالي غرب الخط المشار إليه بواد آجار إلى حصن واد عيش، كما تم حظر الأوربيين من الإقامة بهذه الأراضي دون موافقة صريحة من المحافظ. الهدف من هذا الإجراء هو تجنب أي نوع من المضاربة في المباني على منطقة غير معروفة حتى

الجزء الأول

الآن والتي وجب احتلالها قريبا ولم يتم ممارسة أي نوع من الأعمال هناك. لقد ذكرنا في الكتاب 15 من هذه الحوليات أن مرسوم 27 جانفي قد نظم ممارسة وسلوك مهنة المحاماة، أو كما يقال مدافع لدى المحاكم، كما أننا قمنا بالتعريف بأهم الأحكام. تلك الأحكام التي لم تطبق جيدا مع ذلك تم تعديلها بمرسوم 13 جويلية. تم تخفيض سندات الكفالة من 8.000 إلى 4.000 فرنك بالجزائر و من 3.000 إلى 2.000 فرنك بعنابة ووهران. أما كفالة المحضرين القضائيين فقد تم تخفيضها إلى 2.000 فرنك بالجزائر وإلى 1.200 بعنابة ووهران.

خلال سنة 1837، بدأت الشريحة الأوربية بالتزايد قليلا ولكن الغالية استمرت في كونها من الأجانب، وفيما يلي ما كان عليه عدد السكان وتركيبهم بداية سنة 1838:

	الفرنسيين	الأجانب	المجموع
الجزائر	4262	5562	9824
وهران	1183	2622	3805
عنابة	8661	459	2262
بجاية	165	250	415
مستغانم	28	76	104
المجموع	6572	10198	16770

وبمقارنة هذه الوضعية بتلك المذكورة بالكتاب 21 لسنة 1836 نلاحظ أن الارتفاع حدث سنة 1837 بـ 2209 فردا منهم 1107 فرنسي و 1102 أجنبي.

و قد تم إحصاء نهاية 1837، ما يقارب 7000 هكتار من الأراضي المزروعة في الجزء المنظم من الأراضي على شكل بلديات تحت إدارة الكونت دبرلون. السكان الأوربيون كان 2207 فردا وعدد السكان المحليين 4428. العديد من المسالك الجانبية المفتوحة في الفحص والساحل المسهلة للاتصالات أعطى تطورا مميزا إلى حد ما للقطاع الزراعي في هذه للمنطقة حيث تتواجد البلديات التي تم ذكرها. فقد كان التطور هناك مؤكدا. يتواجد العديد من مزارع التوت و بساتين الزيتون. و يجب أن نذكر بشكل خاص مزارع التوت للسيد أوريس بالقرب من القبة، منشأة السيد فرويتي بيني موس والسيد كارون بسيدي خالف والسيد مازيريس بدالي إبراهيم. هؤلاء المستوطنون الحقيقيون والشرفاء ساهموا كثيرا في ازدهار البلد واستفادوا من مبادراتهم و أعمالهم المستنيرة مزايا حقيقية ومتينة. و يجب ضم أسمائهم إلى قائمة الأوائل الذين دخلوا في طريق الاستيطان الفعلي و الذين تم ذكرهم في الأجزاء السابقة.

بالنتيجة، لم تكن الأمور تعطي وجهها مشرقا مثل ضواحي العاصمة. فالزراعة العربية في تدهور تام منذ بعض الوقت نتيجة هجرة السكان المحليين وعمليات شراء الأوربيين للأراضي وهو ما لم يكن كافيا لتعويضها بالزراعة الأوربية. ورغم ذلك فإن بعض المنشآت تشكلت بيني موسى منها منشأة غيلام بحوش كاتب و السيد دومتافو بحوش عيسو. استقر هذان

المستوطنان بأنفسهما في ملكياتهم و سيرا بأنفسهما الأراضي المستغلة وعند الحاجة يقومون بحر المحراث يديهما . وهذه هي الطريقة الوحيدة للنجاح . وباتحصار المنتجات الزراعية انخفضت بصورة مخيفة بالنتيجة إلى درجة أنه سنة 1838 توجب تقديم تسيفات على شكل حبوب لبعض العرب الباقين هناك وفي هذا التدور أحصى كذلك الناشئة . وأقوالها باقتناع عميق ورغم كل الجهود الفردية والمستحقة للشاء فإن الزراعة قد خسرت بالنتيجة ، إذا ما نخلت الحكومة نفسها عن إقامة مستوطنات . و ما يجزئني هو أنه أتيت لي فرمة ما يحصل الآن : بلد جرد من العرب و لم يتم تعبته بأوربيين بشكل تفنن فيه لسواحد من أجل إحصائه . إدارة الوطن الأم تظن أنه يمكن الاستنتاج أن الزراعة في طريق التقدم في إقليم الجزائر مما تمكنت الإدارة العسكرية من شراؤه نهاية 1837 وهو 3000 فنطار من القمح بينما كانت مشتريات السنوات السابقة تقريبا معدومة . وإذا ما كانت الإدارة تعتبر إقليم الجزائر هو الأراضي التي نحتلها فإنها مخطئة بخصوص ذلك القمح والاستقراء الناتج من ذلك لأنه جاء من القبائل التي تقع خارج حدودنا . فالإدارة العسكرية لم تحن سوى اثنين من أراضيها ولا يزال المنتج الوحيد الأكثر ربحا لمعظم المستوطنين .

ولقد قلنا في الكتاب 21 أن الماريشال كلوزيل سمح من خلال مرسوم 20 جوان 1836 للسفن الأجنبية بالملاحة في المياه الجزائرية . وهذا الإجراء

تم تأجيله بتعليمة 23 فبراير 1837 وهذا يعني ألبا قليلة بعد تعيين الجنرال بريسون في الثاني عشر من نفس الشهر . هذه التعليمة تسمح بالإقامة لتلك نفس السفن بالقيام بعمليات النقل بين فرنسا والجزائر وهذا تغير لقائمة المستعمرة أحد الإجراءات الأساسية لتعليمة 11 نوفمبر 1835 التي لحظت حصريا هذه العملية للسفن الفرنسية . الترتيبات الأخرى لتعليمة 11 نوفمبر تبقى سارية المفعول⁽¹⁾ .

ولقد قدمنا في الجزء الثاني من الحوليات الجزائرية جدول الواردات والصافرات التجارية للجزائر منذ 1832 وحتى 1835 . قيمة الصافرات

(1) وكالتلي كيف كانت تعرب الإدارة عن نظام العمارك في إفريقيا :
إن نظام العمارك وضع بهدف تشجيع المصالح التجارية الفرنسية والسكن
الحد للجزائر في نفس الوقت ، ويمكن تلخيصها كما يلي :

فيما يخص الاستيراد :

لا يوجد أي حظر

إعفاء مطلق ، 1° لجميع السلع الفرنسية ، 2° لتلك السلع الأجنبية التي لا تنتج
فرنسا منتجات مماثلة أو تلك الضرورية لحياة الحيوانات و الأصول الزراعية
وإثناء السلع الأخرى تلتفح إذا لم تكن محظورة في فرنسا أو ربع أو خمس الحقوق
السكنية في فرنسا وعلما يتم منعها تلتفح 15 بالمائة من القيمة .

فيما يخص الصادرات :

إعفاء عن السلع ينتجها البلد الأم وتلفح رسوم حسب التسعيرة الفرنسية على
الرسوم الموجهة للخارج .

قد ارتفعت في سنة 1835 إلى 2.503.544 فرنك و الواردات إلى 12.164.064 فرنك دون إخراج 4.614.733 فرنك من أجل استهلاك الجيش. و منذ تلك الفترة الوثائق المقدمة من طرف إدارة الجمارك بالجزائر كانت تتم صياغتها بشكل يقدم بصيغة مجملة نتائج كبيرة كان ينبغي بحكم طبيعتها تفصيلها. و هكذا كان فيما يخص الواردات التي تقوم بها الإدارة لصالح الجيش وكذا وسائل النقل من ميناء إلى آخر في المنطقة فقد تم إدراجها في نفس الرقم مع الواردات الحظيية التجارية وبالتالي يكون من الصعب التقييم الفعلي لها، و فيما عدا ذلك إليكم تلك المعطيات:

السنة	الواردات	الصادرات
1836	22.402.768 فرنك	3.435.821 فرنك
1837	33.055.246 فرنك	2.946.691 فرنك

يوجد هناك تفاوت كبير بين قيمة الواردات والصادرات، فطبيعي أن يتم البحث عن سبب الوضعية التي آلت إليها الأمور، بعيدا عن النتائج المحتملة للنشاط التجاري بالمقارنة مع تجارة البلدان التي لها علاقات

فيما يخص الملاحة

(إعفاء السفن الفرنسية ورسوم 2 فرنك للبرميل على السفن الأجنبية) تقرير
لوضعية المصالحات الفرنسية بالجزائر مقبلا للفرقة سنة 1838، صفحة 328.

بإدارة مع الجزائر. الإدارة في تقييها للوضعية سنة 1838 و انطلاقا من تلك المعطيات الاتجاهية المتعلقة بواردات الجيش بأنه سنة 1835 كانت تستورد قليلا 4 ملايين و نصف قد قامت بالتقدير تقريبا ويبدو معقولا بحسب ملايين سنويا للواردات لسنة 1836 و 1837 في حين كان يتواجد قوات لا متناهية بالمغربيا في السنوات السابقة. و لكن ذلك لم يكن كافيا بعد، لأن الجيش يستهلك ما يفوق المخصصات المحددة له من الدولة. و ما يشكل الرقم 10.000.000 هي فقط تلك المخصصات المرسلة من فرنسا أو من الخارج، السلع المشتراة فرديا من طرف الضباط والجنود تبقى مشمولة ضمن الواردات التجارية.

ومع ذلك لا تثبت شيئا للتجارة الثابتة للجزائر لأنه نفس الجنود وليس الضباط إذا ما تم نقلهم إلى أي نقطة من الكرة الأرضية حتى لو كان على الصخرة الأكثر عقبا فإنهم سيقومون بالاستهلاك نفسه. والحصول على تقييم صحيح للواردات المطبقة حصريا في البلد وجب إذن اقتطاع الأرقام المقدمة من طرف الإدارة في جدول تقييها الذي مع تلك يعتبر عملا جيدا و جميلا، استهلاك الجيش الذي أسماه بالقاهر لعدم وجود مصطلح آخر. و مع ذلك بأخذ تعداد 50000 رجل لكامل سنة 1837 و هو نفسه تقريبا في أول جانفي 1838، وإنه لكثير

بالتأكيد التقييم الدائم بـ 10.000.000 لذلك الاستهلاك، لأنه بذلك يعادل 200 فرنك لكل فرد. ومع هذا فلتدع هذا الرقم جانباً، سيستج أن الواردات الضرورية فعلياً للتجارة الجزائرية كانت سنة 1837 تقدر بـ 13.055.246 فرنك، مما يمثل دوماً فارقاً بـ 10.108.555 فرنك لصالح الواردات على الصادرات.

هذا الفارق لم يجد له السيد ديسجوير تفسيراً في كتابه الثاني حول الجزائر سوى بربطه كاملاً بالجيش و حسب هذه الفرضية لم يكن 10 بل 30.000.000 هذا الفارق حسب قولي يعتمد على أن تتكون الصادرات المحلية من جزأين: واحد يظهر في دفاتر الجمارك و يمر إلى الخارج و بالتالي نعلم رقمه، و الجزء الآخر يتوقف في مستعمراتنا الإفريقية و يتم استهلاكه. وإذا ما تمكنت الوثائق المقدمة من طرف الإدارة إعطاء تقييم لذلك فإتنا سنرى أن الفارق بين الواردات و الصادرات ليس في الحقيقة معتبراً كما يبدو عليه من النظرة الأولى.

في سنة 1837 و كما في السنوات السابقة، السكان الأوروبيون الذين لم يتمكنوا حتى من إنتاج ما يكفي لاحتياجاتهم لم يوفروا شيئاً للتصدير، لأنه لا يمكن أن يعتبر تصديراً صافياً ما أعيد تصديره من سلع أوروبية. و تعترف الإدارة في جدول تقييمها للوضع بهذا التمييز الذي يخفض

يضع مئاة آلاف فرنك الرقم الذي تقدمه للصادرات. وفيما عدا ذلك، هامر جدول الصادرات الصافية للبلاد سنة 1837:

المواشي.....	9.942 فرنك
الخيول والبغال.....	11.450 فرنك
العلق.....	22.350 فرنك
الجلود الخامة.....	668.563 فرنك
الصوف.....	31.844 فرنك
الشمع.....	103.222 فرنك
عظام و قرون المواشي.....	18.125 فرنك
ريش النعام.....	13.305 فرنك
الزيت.....	132.324 فرنك
الحبوب.....	10.079 فرنك
أوراق الشبغ.....	5.988 فرنك
دودة القرمز.....	20.960 فرنك
قواكه.....	3.462 فرنك
مرجان.....	1.163.513 فرنك
الفخار الخشن.....	387 فرنك
الكحل.....	36 فرنك
المجموع.....	2.215.550 فرنك

لا تعطي الجدول المفصل للواردات، لأنه لا يمكننا تصفيه من العناصر المتعلقة باستهلاك الإدارة العسكرية. الرقم 33.055.246 فرنك يشمل 15.443.333 فرنك من السلع الفرنسية، 17.611.711 من السلع

حوليات جزائرية

الجزء الثاني

1.

رسالة إلى السيد ديسجوبار حول مسألة الجزائر العاصمة.

الجزائر في 28 مارس 1837.

سيدي،

لقد قرأت الكتاب الذي شرفني بإرسال نسخة منه إلي، مع ابلاء
الاهتمام الواجب كرجل ذي موهبة و ضمير كتب حول قضية ذات أهمية
لقضية الجزائر. وتريدون فعلا طلب الملاحظات التي أهتمني إياها هذه
القراءة المهمة. أوجهها لكم بثقة و أظن أنكم بالتأكيد لا تجدون مانعا أن
أشركها علانية. نحن متفقون حول نقاط عديدة: و تلك التي تختلف حولها
مشكل لكم ربما بمظهر آخر إذا ما كنتم في عين المكان لمدة أطول لرؤية

الأجنبية. و نرى أنه رغم الامتيازات الممنوحة للتجارة الفرنسية من خلال
تعلية 11 نوفمبر 1835 فإنه لا تزال التجارة الأجنبية تهيمن عليها. و
رغم ذلك يوجد تحسن مقارنة بالسنوات الماضية. فأقمشتنا القطنية خاصة
في طريق الازدهار.

حركات الموانئ بالجزائر لسنوات 1835، 1836، 1837 تمثل النتائج

التالية:

السنوات	السفن الفرنسية	السفن الجزائرية	السفن الأجنبية	المجموع
1835	341	495	1.254	2.090
1836	728	834	1.047	2.609
1837	1.129	1.032	1.204	3.365

قول بالبحر تليها

جيدة وكاملة وأظن أنه حينها ستعدل البعض من أفكاركم و ستكون أقرب للتوافق فيما بيننا.

تدبثون، بشكل عام، نظام المستوطنات. ولا يمكنني سوى أن أكون من رأيكم إذا ما كنتم تقصدون من ذلك هذا النظام الخاطيء واللا ذكي الذي يتمثل في إنشاء، وبتكاليف باهظة، لمصالح وهمية و خيالية. بالتأكيد، إذا ما كنا نتوقع أن نجد بالجزائر مزرعة لاستغلالها، ومصدر ضرائب للحصول على المال للخزينة فإننا نسيء التقدير بغرابة وجميع المواطنين المستبشرين يجب أن يعملوا على تعطيل هذا الوهم الخاطيء. وإن كان يتمثل في زرع بذرة أمة جديدة بإفريقيا الذي يكتسب باستمرار قوى جديدة و يبحث عن عيش حياته الخاصة فإن المسألة تغير من شكلها و تمثل لنا مشروعا اجتماعيا جيدا ومنتجا. وإلى هذا المنحى سأوجه، سيدي، نقاشنا. ولكنه ضروري أولا من التعرف على المسرح الذي ستتحرك فوقه.

هذا المسرح، سيدي، قمت بدراسة بعناية. ولكنه لا يمكنني إخفاء أنكم في بعض الأحيان قد تم تضليلكم بمعلومات غير كاملة أو غير صحيحة. وقد كنت الإشادة دون فاع وأنا أعلم، بخصوصية التربة بالمنطقة و لكنني اعتقد أنه من جانبكم تظللون من أهميتها كثيرا. إن جمال سواحي الجزائر أمر لا نقاش فيه ولا أحد بإمكانه إنكاره. أما فيما يخص سهل النتيجة، فأنتم تحكمون عليها من خلال تقرير لجنة إفريقيا. رغم أنه، سيدي، أثنان أو ثلاثة من أعضاء هذه اللجنة لم يزوروا ولم يشاهدوا إلا جزءا بسيطا و

لاكثر تكرارا للجميل. وإضافة لذلك هل يحتوي تقريرهم على تلك الفقرة العربية التي تذكرونها: " لا يوجد أي مأوى بالنتيجة. و الجزء الصغير الذي يستغل كان مثل ريف روما: العمال ينزلون من الجبال و التلال متحورة ليعهدوا إلى الأرض بالبذور ثم يأتون بعدها لجنى المحصول دون الاستسلام للنوم على تلك الأرض المهلكة" هذه الكلمات في تناقض تام مع الواقع. ولجعل الجميع يضحك هنا. و يجب قراءتها لتصليق أنه لم تكتبها. وإذا ما جئتم لزيارة مقاطعتنا، سيدي، قاله سيصعب عليكم سماعه أصحاب تلك الشهادات التي أعترف مع ذلك أنه من الطبيعي أن يكون لديك فيها بعض الثقة. جزء النتيجة الذي تتحرك فيه يقسم ثلاثة لوطان: بني خليل، غشنة وبني موسى. هذا الأخير الأضعف من ضمن ثلاثة يموي مع ذلك على 101 حوش أو مزرعة. وأؤكد لكم أن السكان بعد قيامهم بالزراعة لا يسارعون للهروب إلى الجبال كما تذكره اللجنة، بل يعودون إلى أكواعهم و يستسلمون إلى نوم لا شيء فيه مهلك. فقد حدث غالبا وأن نمت جنبا إلى جنب معهم ولم أصب عند استفاقتي بأي حمى ولا التهاب ولا حتى نزلة برد. وأنه لمن المؤسف حقا أن نتحدث اللجنة بقة كبيرة عن شيء لم نره.

ومقاطعة الجزائر غير خالية من الأشجار كما تعتقدون: الثروة الغابية رغم أنها أقل اعتبارا مقارنة بفرنسا إلا أنها تصاهي ثروتنا بالمقاطعات الحضرية وأعمل بكثير من جنوب إسبانيا.

تقتبسون مقطعا من رواية البعثة إلى معسكر من طرف السيد باربوجار،
سكرتير السيد الماريشال كلوزيل ، وهو مقطع يشير فيه الراوي إلى نقص
المياه والخشب كعائق كامن غالبا للتخيم بإفريقيا. السيد باربوجار لم يقم
حينها سوى بجولة إلى معسكر عندما كتب تلك الأسطر. بينما هي
كيف كانت مخيماتنا في تلك البعثة: الأول في مخيم الكرامة في السهل القاحل
لوهرا، ينقصه الحطب فعليا ولكنه يوفر بعض الينابيع ، الثاني بتليلات
وضع عند مدخل غابة مولاي إسماعيل حيث من المؤكد لا ينقص الخشب،
الثالث على ضفاف السيق و تمت إقامته داخل غابة، الرابع على ضفاف
الهبرة وكان كذلك داخل غابة تمتد بعيدا على ضفتي ذلك النهر؛ الخامس
بأولاد سيدي ابراهيم يقل فيه الحطب ولم أر أحسن منه تدفئة، السادس
بسيدي محمد وعين كبيرة حيث شغلت الفرق مواقع مختلفة متباعدة
عن بعضها البعض، لم تكن كلها جيدة للجميع و لكنها لم تكن تحتاج لا
للماء ولا للحطب بتاتا. الموقف السابع كان بمعسكر. وفي طريق العودة
تبعنا نفس الطريقة حتى أولاد سيدي ابراهيم . ومن تلك النقطة ذهبنا
للنوم بميصرا، بلد دسم وخصب حيث وجدنا غرفة في كل شيء. ومن
هناك اتجهت قوات الجيش إلى مستغانم، وخلال الثلاثة أيام من المسير
نحو وهران من مستغانم كنا باستمرار وسط غابات شجيرات كثيفة. و
لا يمكنني بعد كل ذلك تفسير الانشغال الغريب للسيد باربوجار⁽¹⁾.
لا أنكر أنه فيما تبقى العديد من أجزاء المقاطعة قاحلة جدا أو متعذرة

(1) لقد أثبت السيد باربوجار في رسالة أدرجها لجريدة المونيتور الجزائري منذ
296 نشر كتاب السيد ديسجوير، أنه تكلم في ملفه عن مخيمات جولة معسكر كما تمت

رسالة إلى السيد ديسجوبار

الأشجار . فقد قمت بالسير يومين أبعد من سلسلة جبال إقليم وهران دون أن أرى شجرة . و نفس النقص الفادح للغطاء النباتي يتواجد بين راس العقبة و قسنطينة و لكن ألا تملك فرنسا بدورها شامبانيا الرديئة؟ في إقليم الجزائر، كل منحدرات الأطلس مغطاة كليا بأنواع مختلفة من الأشجار الغابية. و يتواجد على ضفاف المزفران غابة جميلة جدا و ذات استغلال سهل. غابة كاريزا Karesa في موطن حجوط جميلة جدا أيضا. كما توجد أخريات على ضفاف اللاراتش، الحمير و قورصو، فلا يجب استخلاص أننا نتحصل على الكثير من الحطب بحرا لإحراقه و أن هذا العنصر ينقص في المنطقة. فقبل 1833، ألم يكن بعض الأشخاص مقتنعون أنه ينقصنا التبن؟ هذا التفكير الخاطئ زال منذ أن بدأنا باستغلال مروجنا. و نفس الشيء للحطب، فهو لا ينقص بل نحن لا نعرف استغلاله. و ما عدا ذلك، فيجب الإشارة إلى أن جزءا كبيرا من الأخشاب المفرغة بالموانئ لدينا و قيدت في سجلات الجمارك فإنها تأتي من سواحل الوصاية و ليست جميعها تأتي من الخارج كما يبدو أنكم تفكرون فيه.

و تفترضون، سيدي، بأن تربة الوصاية مهلكة و أنه لا يُجنى من الحبوب سوى أربعة إلى خمسة من الواحد. و هذا خطأ آخر أوقعكم فيه تقارير لجنة إفريقيا . فترية الوصاية لا تنحط إلى هذا العمق المخزي: فالعرب يتحصلون منذ الماضي على ثمانية إلى أربعة عشر للواحد، حسب

المطاطات . و الآن إذا ما أخذنا بعين الاعتبار طريقتهم المختصرة للعمل والتكاليف القليلة لها فإننا سنقتنع بأنها تضاهي 16 إلى 28 بفرنسا .
و انتم تعترفون أن تربة الوصاية مناسبة تماما لمزارع الكروم ، الزيتون ، والتوت ، و حول هذا نحن على اتفاق كامل .

أما بالنسبة للسلع الاستيطانية ، فإنني أتفق معكم على أنه من السخف التكلم عنها بقدر ما فعلنا . و مع ذلك ، ليس هناك شك في أن القطن يمكن أن يزدهر في الوصاية .

وبذلك إذن أظن أنه يبقى مثبتا أن تربة إقليم الجزائر ليست جد خصبة كما أراد أشخاص منحيزون قوله ، و لا قليلة العطاء كما تظنون حسب شهادات لجنة إفريقيا التي أكرر أنها لم تقم بدراساتها و بالكاد قامت برؤيتها . و من أكبر العوائق لازدهارها هو النقص التام للملاحة الداخلية و لهذا لا يوجد أي حل إذا لم يكن مع ذلك طريق السكة الحديدية للسيد جتي دوسي . و لكننا لم نصل بعد إلى ذلك . و بالنسبة للباقي ، سهولة الملاحة على ساحل تقريبا بخط مستقيم و دون رأس يخرج في البحر بشكل متقدم فهذا يعتبر ترفيها لا يجب تجاهله .

ولنمر الآن للعوائق التي يمكن أن تنتج من نزعات السكان الأصليين . فشهادات اللجنة للسيد بيروني و السيد الجنرال بروسار ، تدفع بكم للاعتقاد أنه لا توجد أية إمكانية للتقارب بيننا و بين العرب . فالسيد

بروسار يقول بهذا الخصوص أن العرب سيكونون أعداء إذا لم يكونوا حاسمين أو حلفاء . الاقتراح لا جدال فيه و لكنكم تعترفون بأنها جد عامة حتى أنها لا تثبت شيئا . و مع ذلك تستجوبون بأن العرب لن يعملوا لدايمنا . و لهذا سأعارض من خلال وقائع يمكن لكل من في البلد أن يثبت بشهادته عليها : لم ينقص للأوروبيين عمال عرب أو عمال قبائل عندما أرادوا استخدامهم ، قسم الهندسة العسكرية تحصل على أكثر مما يحتاج لأعمال التحفيف بالحراش و المزرعة النموذجية و بسوقاريك ، أمير دو مير كان له أكثر من 200 عامل براسوطة ، السيد مارسبي يستخدم عددا كبيرا برعاية السيد توناك الذي استقر لوحده في سفوح الأطلس بقدرته لا يوجد معه سوى عرب . و لن أذكر أكثر من هذه الأمثلة فهناك أمور جد واضحة بالنسبة للذين يعيشون في الجوار حتى أننا نحس بالإحراج لآبائهم . فما ردكم على الذي ينكر وجود أشجار تفاح بالنورموني ؟
وبالنسبة لسيدي ، يمكننا إيجاد عمال في إفريقيا من بين السكان المحليين ، والثمة يمكن أن تكون إنتاجية في أيدي مدير أوروبي دون أن يكون هذا الأخير مضطرا إلى جلب عامله الأوربي مثلما افترضتم في الصفحة 153 .
و لكنكم تتسألونني ، ما هي المزايا التي سيجدها هذا المدير في القيام باستغلال زراعي بالجزائر ؟ السعر المنخفض للأراضي تعوض صعوبات وندرة المنافع ، صفحة 143 . و أجبتم على ذلك بأنفسكم صفحة 133 .

عندما لاحظتم أن أكثر من 5.000.000 فرنك من المواد النشوية قد تم استيرادها سنة 1835. فإذا كان البلد قد أنتج هذه الكتلة من المواد فقد تم إذن استهلاكها فيه.

وأخيرا هذا هو مسرحنا المعروف. أتكلّم دون حيلة، دون حماس، بهدوء ووعي وحقيقة، و أتكلّم فقط عن ما رأيت و أعتقد أنني رأيت جيدا. التربة خصبة و السوق مضمونة، والسواعد لا تنقص لمن يعرف كيف يستخدمها. وأعني بذلك استخدامها أولا حسب أماليب العرب. وهناك حقيقة تمكّنت من ملاحظتها ببراعتكم كمهندسين زراعيين عن بعد 500 ميل في الصفحة 154. ملاحظتكم بالحكمة والعقل في هذا الموضوع واحدة من تلك التي أعطتني صورة عالية عن حكمكم، و لا أخشى أن أشير ودون حيلة خطائية بأن الأخطاء تنبع عن المعلومات الغير الصحيحة.

لقد قلت بأن المسرح معروف و لكنني قد ذهبت بعيدا في ذلك، بل لم يصبح كذلك كليا. فنحن لم نتكلّم عن التجارة و لا على المعطيات البحرية و لا عن الأشخاص الاعتباريين على النطاق السياسي. ففيما يخص التجارة، فمن الطبيعي أن لا يكون في الوقت الحالي سوى انتقال للمصالح كما ذكرتم ذلك جيدا وليس إنشاء مصالح جديدة. و لكن الامتداد الذي يمكن أن تأخذه الزراعة في المنطقة وعلاقات جيدة مع العرب، سيوفرون بالضرورة في وقت معين عناصر فعلية للازدهار، فأنا أعترف بصراحة أنكم حطمت

جزءا من الأوهام التي بنيتها حول السودان. كان يتدوّل من الممكن جلبه نحو الجزائر. ولكنه من الواضح كما تقولون أنه إذا ما أخذت هذه التجارة أساسا ووجهة ذكية فإنه سيكون عبر السعال، فانا عجز إذن على الاعتراف بأن الوصاية بالفعل طريق مقطوع و لا يمكن توفير سوى منتجاته للتجارة و لا أستطيع أن أكون من رأيكم حول إنشاء مخازن بالجزائر العاصمة. يقولون بصدق أن هذا الإجراء لن يجعل منها سوقا كبيرة بين فرنسا وبلاد الشام. ليس هذا السبب تم الاستحواذ عليها؟ كان هذا يساغة للتخفيف عن التجارة بترك أموال مخصصة لرسوم الجمارك حين يندفع البضائع دون حرمانها من الحق في إعادة التصدير. وهو تطبيق مبتذل لأفكار من أسس هذه المستودعات. وفيما عدا ذلك فإن الجزائر العاصمة لا يمكنها أن تكون و لا أن تزعم كونها مخزنا بين بلاد الشام و فرنسا فإنه يمكنها ووجب عليها أن تصبح كذلك بين فرنسا وبلاد البربرية و ربما بين بلاد الشام وأمريكا. لمخزنها الفعلي سيكون بالإضافة إلى ذلك أكثر ايجابية للسلع المحظورة ومنها لفرنسا، والخاضعة لنظام جد مزعج لنظام مرسيليا. هذه السلع التي ليست ممنوعة بالجزائر أو الخاضعة فقط لرسوم أعلى، تتواجد في نفس المجموعة بالنسبة لنظام التخزين و أخيرا أليس من الواضح أن كل مخازن حليفة تزيد إلى ما لا نهاية التجارة فقط بقوة الأشياء. فما سيكون جيل طرفي دون مستودعه؟

الجزء الثاني

إن مرفأ و ميناء الجزائر العاصمة ليسا سيئين كما حُجِدَ قوله. سفن الدولة التي تحملت أوقاتا عصيبة يمكنها أن تشهد على ذلك. و تعلمون جودة العديد من المرافئ الأخرى وخاصة الجزء الذي يمكن استخدامه من مطورة. وبالتالي فالساحل بالوصاية ليس سيء التقسيم في تلك النقطة و لتجه الآن للعلاقات مع السكان الأصليين.

رغم آراء اللجنة والسادة بيروني و بروسار الذي يبدو أن مقاسمتكم لأرائها عندما يتعلق الأمر باستخدام السكان الأصليين في العمل الاستيطاني، و ليس من الواضح من كتابكم أنكم مقتنعون تماما أن الكراهية العميقة سبغت العرب عنا إلى الأبد. و سأنحصر إذن في تذكيركم بما كتبت في هذا الموضوع في كتاب قد تكرمتم بالقاء نظرة عليه. و سأذكركم بالمحادثات التي قمت بها مؤخرا مع السيد دولا مورسيار. فلقد عشنا ، أنا و هو ، مع العرب و نحن بعيدون عن النظر إليهم كأناس صعب المراس. فأين و كيف قامت اللجنة بالالتقاء بهم ؟ السيد دولا مورسيار أقام لمدة ستين و ليس ستة سنوات بإفريقيا لثلاث مرات مختلفة. هذا الجنرال والسيد بيروني حاربوا بإقدام العرب دون الاختلاط بهم بشكل آخر. ولذلك لا أخشى قول أنهم لا يمكنهم معرفتهم أكثر من أولئك الذين تعاملوا معهم في كثير من الأحيان. و بالتالي ، أتمنى أن يثبت الجنرال دامريمون قريبا بطريقة قاطعة أنه يمكننا الاتفاق مع العرب ، عندما نقبل معاملتهم بطريقة أخرى غير ضربات العصا. أما فيما يخص

رسالة إلى السيد ديسجوبار

القبائل فأنى اتخلى عنهم لكم: فعلاوة على ذلك فهم غير مزعجين و لا يطلبون سوى البقاء في جبالهم . فلذلك يتوجب تركهم.

والآن ما الذي ينقصنا لبدء العمل؟ تربة خصبة، سواعد لاستغلالها، سوق مضمونة للمنتجات، موانئ و مرافق للتجارة ، فما الذي نحتاج إليه أكثر؟ معرفة استعمال كل ذلك، و لم نعرف ذلك بعد. بداية ما الذي نريده، و ما الذي وجب أن نريده؟ هل مستعمرة مثل كندا ، سانت دومينغ، السنغال؟ أجيب معكم بالنفي. ما يلزمنا هو مستعمرة تلعب دور بذرة دولة جديدة تصبح في المستقبل القريب مكتفية ذاتيا ومع ذلك ستجمعها روابط لا انفصام فيها بفرنسا. ومثألوطني: ما الذي ستربحه فرنسا من ذلك؟ و ستذكرون حكم آدم سميث صفحة 162. و أود أن أشير إلى أن هذا العالم الاقتصادي كان يكتب في فترة كانت ردات فعل مضادة للاستعمار بدأت بالانتشار في المدرسة. بمعنى في وقت نحن فيه دائما على استعداد لتجاوز الهدف ، لاحقا، انحصار ج.ب. ساي في حظر المستعمرات التابعة، و أشاد بمستعمرات من النوع الذي يشغلنا، و أثبت أنه لا شيء يرد الحياة لشعب قديم أكثر من ولادة شعب جديد. و يوصي بعبارات صريحة بمستعمرات في شمال إفريقيا. و فيما عدا ذلك، لنضع جانباً، من جهة و من أخرى، سلطة الاقتصاديين: و لتركز على المنطق. أليس أحدث دليل على أن الشعب الذي كلما اتسعت علاقاته التجارية كلما زادت الطلبات على صناعاته و بالتالي أيضا يتم تنشيط الإنتاج و العمل، و بذلك ، هل يمكن لشعب أن تكون له علاقات تجارية أكثر امتيازاً وأكثر انساها و ضياعاً من علاقته

الطبيعية التي تربط بينه وبين الدولة التي أنشأته؟ وسوف تعرضون
باسبانيا على سبيل المثال، التي تترك للدول الأخرى جميع الأرباح التي
يمكنها جنيها من مستعمراتها الأمريكية. وقد قلنا ذلك منذ مدة طويلة
أنه في الواقع إن كان لاسبانيا بقرة فإن الآخرين سيشربون حليبها. ولكن
ذلك يثبت فقط أن اسبانيا لم تكن تعرف حليبها. اسبانيا لا تعرف إنتاج
شيء فكان لابد على تلك المستعمرات أن تبحث في أي مكان آخر عن ما
لم تجده لديها.

إفريقيا إن تم استغلالها جيدا فإنها ستوفر لفرنسا الحرير والزيت الذي
ينقصها والتي من أجلهم هي تابعة للخارج. وأنت تهاجم، سيدي
عبارة تابع للخارج صفحة 172. فهي تبدو لكم دون معنى؟ لأنكم،
حسب قولكم، عند شرائنا للمواد بالجزائر أو من أماكن أخرى لا ينبغي
أن ندفع مقابل ذلك. وهذا صحيح جدا. ولكن بأخذهم من الجزائر هل
نحن متأكدون أنه لن تحدث ندرة لها أبدا. وإن كانت الأسواق لن تكون
عرضة لأهواء إدارية لقوى أجنبية. فيسحب مواد خام من الخارج ألن
نكون عرضة لرؤية انغلاق الأسواق التي توفرها بين لحظة وأخرى؟ و
الحرب مثلا ألن يمكنها حظرها تماما؟ فما الذي ستصبح عليه الصناعات
التي تعتمد على هذه المواد؟ هذا هو معنى تبعيتنا للخارج في واقع تجاري
و العبارة تظهر لي صحيحة. فكثير من العقول الثيرة، مع التقليل المبدئي
للمخسوم التجارية والصناعية، فقد صدعها عائق ترك بعض الصناعات

من المرحلة الأولى خاضعة لاحتمالات الحرب والسلام مما يستدعي وضع
عليها لما من التعريفات الجمركية مخافة حدوث نقاذ في المصادر من التصادم
الأول. وإلى جانب هذه المخاوف الصحيحة تماما والمبنية على أسس راسخة،
والتي تدفعنا إلى البحث في إفريقيا عن ما توفره مقاطعاتنا الجنوبية بشكل
خاص، توجد مخاوف أخرى محلية وبأسية تماما وتعمل في الاتجاه المعاكس.
فتم تظهرون لنا على سبيل المثال أنه في مقاطعة القار قد أبدى، من خلال
مبار مجلسه العام، مخاوفه من المنافسة التي ستمثلها إفريقيا مما يضر بالمصالح
الزراعية لهذا الجزء من فرنسا. أنا من الجنوب، سيدي، ويمكنني أن أؤكد
لكم بأن الأرباح المتحصل عليها من أشجار الزيتون خاضعة، منذ نصف قرن،
لحظوظ الطقس وسيكون من المرغوب ربما لو نتخلل عن زراعتها، عائلتي، مثل
عائلات أخرى، كانت ضحية لهذا النوع من الزراعة التي توفر محصولا جيدا
بداخلة سيئين. بالجزائر، وعلى العكس، لا توجد حظوظ مفرغة نخشاها.
ولكن، وباستقلالية عن هذه الاعتبارات، ويتقبل بأن أشجار الزيتون تعتبر
مصدرا حقيقيا للثروة للمقاطعة فإن هذا المصدر لن يتلاشى بسبب منافسة
الجزائر. ونفس الشيء فيما يخص الحرير، فكلما أنتجنا أكثر كلما استهلكنا أكثر.
وهي قاعدة لا تعطي استثناءا سوى لبعض المنتجات المصنعة الخاضعة لدلال
المرض والتي تدعى الموضة. فالصياحات، على سبيل المثال، تتوقف عن كونها
كذلك منذ اللحظة التي نتج فيها بصورة كبيرة.

ثم إن من انتقاد أرض الوصاية، باتهامات متناقضة، نارة لعدم إنتاجها

لشيء وتارة لإخطاء مستقبل خيف للزراعة الفرنسية. ولنعترف بحسن نية ودون مبالغة بأنه يمكننا الاستفادة كثيرا من هذا التطاق وكذا من وجهة نظر سياسية.

و لقد قمتم بترتيب النقاط الايجابية لهذا التطاق الأخير في ثلاث مجموعات، التي يقدمها المساندون للجزائر، وهي: 1° طريقة لتحسين خبرات الجيش، 2° سهولة التحرك لبلاد الشام وجنوب أوروبا، 3° الرفع من القوة البحرية. وبعد تشكيكم في الميزتين الأخيرتين في الصفحة 203 وما يليها فقد عدتم إلى الاعتراف به افتراضيا في الفصل الأخير من كتابكم. فقد تكلمتم عن الأهمية الكبيرة التي تربط احتلال الجزائر بكل سياستنا في بلاد الشام. و تعترفون بفائدة بعض المرافق. و يا إلهي الا نطلب منك أكثر من ذلك. فهل فكر أحد أبدا في وضع منارة على كل رأس صخرة؟ بالتكلم عن 200 ميل من السواحل و التي لم نزعم أبدا انه كان لابد من احتلالها كلها. فأنتم متفقون معي في هذا الموضوع مع كل مساندي احتلال الجزائر ولم يكن له داعي مهاجمتهم في الفصل 9 بما أنك كنت ستفق معهم في استنتاجك.

و لكن الموضوع الذي أصبحتم فيه من أكبر المدافعين عن الجزائر أكثر مما تظنون به بأنفسكم، هو الفقرة المميزة بأعجاب أين تنطرقون إلى مسألة المشرق في الصفحة 229 ولا أقوم متعني في إعادة نشره.

"إن نظامي السياسة الأوربية، فيما يخص الإمبراطورية العثمانية لا يمكنها

اعتبار الجزائر سوى فرع متبثق، منذ سنوات طويلة، من الجذع القديم الذي ينتمي إليه. انهيار الداي حسين قد دعم هذا الانفصال. وهكذا، فأما أن يمكن النظام الروسي من السيادة على الأقدار المستقبلية للعالم، وأما أن النظام الذي يعارض هذا الاجتياح بتشكيل حاجز بانحاد الدول الأوربية الكبيرة سيفوز به. والجزائر لن تظهر مجددا في القضية كجزء من السلطة العثمانية.

"فيبغي على فرنسا أن تكون على مستوى التطلعات أولا للدخول في نقاشات مثل هذه أو من الأحسن التخلي عنها. و المنحى الذي متأخذه سلكنا الإفريقية مستحدهد في تلك الفترة. فإن أبعدنا عنا الجنسية العربية ستكون حليفة أعدائنا و إذا ما تحصلنا، على العكس من ذلك، على إعطاهم بأسلوب نبيل، كريم و مستدير، فإنا نكون قد ضمتنا صديقا نكون مصلحته متعلقة بمصلحتنا".

أجل سيدي، أنتم على صواب تماما، فسلوكنا بالجزائر يجب أن يكون له تأثير كبير على من تناسبنا أخذها في بلاد الشام. و كنت نشر هذه الحقيقة لأحدى جرائدنا في الوقت الذي تلقيت فيه كتابكم. و أنا فخور وسعيد بأنني التقيت معكم في هذه النقطة.

فلابد من الاتفاق على أن تواجدنا بالسواحل الشمالية لأفريقيا هو عامل مؤثر في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط. وبالإضافة إلى ذلك، توجد عبارات فكرية، انتم بعيدون عن عدم الإحساس بها بما أنكم وضعتموها

فوق كل الاعتبارات الأخرى : المجد لفرنسا بشرها للحضارة و بفعل شيء مشرف نفسها . أفكر هنا كلماتكم في الصفحة 335 . و لنقبل بسرعة هذه المهمة الجديدة . فرنسا بأكملها تريد ذلك ، وانتم كذلك . ولكن من يريد الوصول إلى شيء يحتاج إلى الوسائل . وبذلك فإن تلك الوسائل التي تقترحونها تبدو لي غير كافية لتحقيق الهدف .

فانتم ترغبون بأن تكفي فرنسا باحتلال اثنان أو ثلاث مواقع بحرية ، و أن تضع بين يدي قائد من السكان المحليين ، و بكلمة واحدة عبد القادر ، رعاية حكم العرب التي ستتم إعادة تشكيل جنسيتهم . و هذا ما ندعونه النظام العربي . و نظنون انه يمكننا بذلك الاستفادة من المزايا الحقيقية التي تنظرها من إفريقيا . فلننقح العواقب القاسية لهذه الوضعية والتي يدعو للأسف أنكم لم تقوموا بتحليلها كفاية ربما .

فقد قمتم بتلخيص النتائج فيما يلي بالنسبة لفرنسا من النظام العربي :

1 استمرار القضاء على القرصنة ،

2 الحياة الهادئة لنقطتين أو ثلاث من السواحل الإفريقية والتي ستكون

حسب آراء عدد كبير من البحارة ، مفيدة لأسطولنا في حالة حرب بحرية ،

3 تخفيض النفقات إلى 4 ملايين ،

4 تأمين المزايا التي منكبها التجارة من إفريقيا بشكل معقول ،

5 أخيراً وقبل كل شيء ، المجد لفرنسا بشرها للحضارة و قيامها بشيء مشرف بنفسها .

إنما احتلال نقطتين أو ثلاث من السواحل تكفي بالفعل لضمان استمرار القضاء على القرصنة والمزايا البحرية التي تعترفون انه يمكننا الاستفادة منها في شياك إفريقيا . ولكن ، كونوا متأكدين انه لا يمكن حصول النتائج الأخرى التي تضعون في أول صف لها الترويج للحضارة . فلابد من الاندماج مع الشعب البربري من أجل صقله . وللتمكن من التأثير عليه فكرياً . وما تقترحوه هو انفصال تام . في واقع حضاري ، فإن شعبين لا يختلفان سوى أكثر أو أقل ، يوجد قاعدة فكرية مشتركة و توافق في أساليب الحركة الفكرية التي تسمح للذي يتفوق بالتأثير على الثاني ، دون احتراقه مادياً . الكتب والجرائد وصدى النقاشات السياسية والفنية والعلمية هم دعائم قوية وعاجلاً أم آجلاً لا تفهر . وبفضلهم نحن في الجانب الثقافي نعتبر على رأس القارة الأوروبية ، وبفضلهم كسنا تعاطف حشود من العالم المسيحي . و انتصارنا أيضاً من هذا الجانب لما كان لتلك لولا انه لم تأخذنا الحرب خلال ربع قرن عند كل شعوب أوروبا ، وبنيت مستقبل ليس بعيد ذلك .

تكيف سنأثر فكرياً على السكان الأصليين في إفريقيا إذا لم نخترقهم ولم نشكل بينهم وبيننا هذه الأفكار المشتركة التي لا تتواجد إلا بشكل غير تام . وذلك التوافق الفكرية الغير متواجدة بناتنا ؟ ولنفرض مع ذلك بعداً عنا ، قوة عربية تمتد على كل البلد ، باستثناء النقطتين أو ثلاث

التي نحتلها: السكان الأصليون سيحومون حول هذه القوة الكبيرة بكل عاداتهم الاجتماعية والإدارية؛ لن يكون لنا أي تأثير فكري عليهم، وبالكاد سيتركون تواجدنا. سيأتون لمواقعنا الخزينة من أجل الشراء والبيع ولن تكون لهم أي مصلحة في دراسة و معرفة المنشآت الغير مؤثرة عليهم. وعندما يلاحظون ضعفنا وقلة عددنا ونحن منغلزون بين أسوارنا فلن يفعلوا بنا سوى ما حدث للأسبان بسببنا، ومن جهتنا لن نكون أحسن حظا من هؤلاء الأسبان. فالعرب لن يعرفوا قيمة الحضارة إن لم يروا انعكاساتها في الواقع. فكيف سيتركون أولادهم بدرسون باستخدام لغتنا و أن يتركوهم يستقون علومنا، بما أنهم تحت نظام ليس لنا عليه أي تأثير؟

و لكن إن أحسنت فهمكم، يظهر اعتقادكم أنه لا بد من التحرك بواسطة القائد على تلك الحشود، بمعنى كسب القائد أولا إلى حضارتنا وتكليفه بعدها براءة الإصلاحات. ولنفترض أن هذا ممكن مع عبد القادر، الذي يتمتع بذكاء خارق لا أحد مثلي يعطيه حقه، ولكن من يضمن لكم الذي سيخلفه؟ الأمير الحالي لديه مميزات شخصية قامت ظروف الحكم في كثير من الأحيان بتعديلها مثلما يقال في المشرق، ولكنه لن يعيش الدهر. فهل يمكننا أن نلحق الآمال التي يمكننا بناؤها معه بأحد آخر؟ فإتياع هذا النظام، سنضطر للتخلي عن الترويج للحضارة عاجلا أو آجلا. وحتى مع الأمير الحالي الذي درسته عن كتب، والتجرا على قول أنني أحيت شخصيته، الترويج لن يكون دوما على راحته.

ولا أريد هنا مناقشة تأكيدات الجنرال ديمبشيل، رغم أنه أفند لي بذلك بالحجج من اللحظة التي يمكنها سياقة عقل حكيم يتقبلها إلى نظرية ليست بحكيمة. وانتهى في هذا الموضوع بالقول أنني لم أقدم في حولياتي شيئا لم تكن بين يدي دلائل عنه، وحتى أنني وضعت تحفظات كبيرة حول ذلك. ومع ذلك، ورغم تلك التحفظات، أرى نفسي مجبرا على الاعلان من جديد أن المعاهدة، التي بين يدي عبد القادر، هي التي قدمت ترجمتها في الجزء الثاني من كتابي.

وغرض اتحضرنا في مدينتين أو ثلاث، قمنا بتوسيع صعيد نشاطنا حول كل واحدة من مستعمراتنا، فإننا مستقوم بخلق مصالح مشتركة بيننا وبين عدد من القبائل. ومن هنا خلفية أفكار مشتركة وبذلك الحاجة وطريقة للتقارب الفكري. ولا بد من الاتفاق على أن المساواة الأكثر كمالا مستعم بين العرقين، وبدون تلك المصالح، وبعبدا عن التقارب، متميل إلى أن تصبح متباينة على نحو متزايد، والدعاية للحضارة ستكون مستحيلة، بقدر ما هو في كل مكان، من السيد إلى العبد. وفي هذا الترتيب من الأفكار، من السهل أن نفهم أنه من مصلحة العرب التعلم، وأنه حتى بدون العمل على ذلك مباشرة، فإن أفكارهم ستأخذ شيئا من أفكارنا. فبكونهم أعضاء اتحاد لا يوجد به أي فروقات مهينة أو تكلفة على عائقهم، فإنهم سيرغبون، كونهم على قدم المساواة معنا في الحقوق، أن يكونوا كذلك في المعرفة. سيقومون شيئا فشيئا بالتضحية لنا بأحكامهم السهلة إذا ما رأوا أننا نقوم بالتضحية لهم بأحكامنا نحن.

والآن لنفرض أنه في الداخل، عوض النفوذ الوحيد لقائد واحد من السكان الأصليين كما تقترح حول، يوجد ثلاث أو أربع أمراء مع من نعيش بسلام، الأول بمعسكر، مثلاً، الثاني بالشلف، والثالث بالمدينة، والرابع بقسنطينة. فتكون بذلك السلطة العربية المسخلة لا أكثر تركيزاً لتشكيل تهديد لنا، ولا أكثر انقساماً حتى تؤدي لتوليد الفوضى. لا أحد من أولئك الأمراء سيكون في وضعية تسمح له بجذب عربنا نحوه وهم من سيكونون راضين عن مصيرهم و سيعتلقون أكثر وبشدة بالأرضية. كل هؤلاء الأمراء الصغار سيلاحظون أسلوب حكمتنا والرخاء المادي الذي يعتمد علينا في نشره في كل المقاطعات الفرنسية، ستلهم لهم الرغبة في تقليدنا، والخشية من رؤية قبائلهم تتركهم للمجبي. نحونا مما سيجبرهم على أن يكونوا عادلين. وحينها يمكن للحضارة بالانتشار في جميع الأنحاء، ليست حضارة خاطئة و مستعارة مثلما يوجد بتركيا ومصر ولكن حضارة حقيقية نابعة من احتياجات الشعوب و مساهمة الارادات. و آجلاً، إذا ما تم التحسيس، بعد قرن من الزمن، بالحاجة الى مركزية كاملة، فإن ذلك سيتم تحت الرعاية الفرنسية. سترى النور أمة جديدة و كبيرة و بالتالي تكون المهمة المقدمة قد أنجزت.

نعتقدون سيدي، أنه إذا ما تم وضع الأفريقيين في اتصال مباشر مع الأوربيين، فإن الحياز هؤلاء ضد السكان الأصليين ستجعل من الاندماج شيئاً مستحيلاً. و بشرقي، في هذا الموضوع، ذكركم لفقرة من كتابي أين أشير لنفس هاته

الاعتماد المسبقة كعائق، للمحقيقة، وليس كعائق لا يمكن اجتيازها، ولو ذكرتم مع السالية فإن قراءكم كانوا سيرون أنني أعترف كذلك بالتحيز العرقي، الذي لشكروا منه، الذي يتجذر أقل عند الفرنسيين مقارنة بالأوربيين الآخرين. لماذا واقعي، حتى أنه بكثداء العديد منهم جعلوا أنفسهم هورون، إيروكوا، أي في كلمة واحدة: تخلوا عن جنسيتهم ليصبحوا بربريين، وحتى بإفريقيا، بحسب عدد هائل من الأمثلة عن الحماقات العرقية، نرى العديد كذلك من الأمثلة السخيفة في الاتجاه المعاكس. أظن أنه يتوجب علينا تجنب الاقراط في التفضين و توفير المساواة للعرب بالرفع من مستواهم البنا أكثر من الانحطاط لهم. وعندما يقتنع السكان الأصليون تماماً أن هذه المساواة ليست وهمية و أن موج الناس معترفون بذلك، فلأنهم سيتخذون موقفاً من شأنه نزع التفكير القسري في حد ذاته من الأفراد المستعصية. و بعدها، فإنه يتوقف على الإدارة إعطاء الانتهاء المناسب للمستعمرات الخاصة التي تشكل في إفريقيا: أنه الحق من حقوقها وواجب من واجباتها، وفي سابقة، الأراضي التي يبيعها العرب لشركتها السامسة سيتم وضعها للبيع من جديد لتعود الى العرب نتيجة لعدم تمكن الحضاريين من الاستفادة مطولاً من الايجارات. و يمكننا بالتالي انخفاض مثالي العقارات الريفية لشروط أكثر ترجيحاً لجعلهم يساهمون في الصالح العام، و نرى في إفريقيا استقرار رجال شرفاء و ذوي رؤية مستقيمة وعالية، ليس من المرغوب ولا الممكن أن تكون الهجرة الأوربية بقوة و دفعة واحدة

ولكن في هذا الجانب تكون النوعية أكثر قيمة من الكمية فلتتحرك أولا مع وعلى العرب، ولا تشغل كثيرا بالأوربيين، دون تثبيط عزيمة العائلات الشريفة، الكادحة وذوي رؤوس أموال صغيرة التي تريد المجيء إلى إفريقيا. ولن نصعد سوى المضاربين، الذين كذلك يصدون أنفسهم، لأنهم يقتربون أكثر أو أقل من الأفلاس.

من المخططين اللذين اقترحتهم للاستيطان في الحوليات، الأول هو نظرية لامعة لم أقم إلا بتقديمها، والثاني الذي لطالما اعتقدت أنه من المناسب التوقف هو الذي نحن بصدد التكلم عنه. إنه غير مكلف، سهل التنفيذ، ولا يختلف عن مخططكم إلا في التطبيق لأن الهدف هو نفسه. هذا الاختلاف وإن كان يقتصر على وجهة نظر الاقتصاد الضريبي، ما زال يبدو لي في صالح المشروع الذي يرمي لعدم الانغلاق على أنفسنا داخل جدران، حيث من الواضح أننا لا يمكن أن نتج أي شيء. وكرر أن الغاية تبرر الوسيلة، تعبير فظ ومبتذل ولكنه يحوي معنى كبيرا. تريدون سيدي أن تنشروا الحضارة: فلا بد أن لا تذهب للاختباء وراء الأسوار كما لو أنها تحجب بنفسها، وحتى لا يتمكن العرب من القول: "ما هذه الحضارة التي يتباهى بها المسيحيون كثيرا؟ فالضعف من جانبها والقوة من جانب ما يسمونه البربرية". فليس بفرنسا حيث سيقوم العرب بدراستنا ولكن بأفريقيا.

وسيكون جيلا لاستيفاء مهمتنا المجيدة، والتي حسب اعترافكم سيكون

لما وقع على موقفنا في بلاد الشام، أن يدافع عن استقرارنا بالجزائر رجل حازم وبذلك ضميرا حيا. فكروا سيدي مليا، في أن لا تأخذكم كراهية الانتهاك بعيدا، هذه الكراهية الشرعية والقوية التي تعتبر من سمات النفوس الجدية والصادقة، وأن لا تجعلكم رغبة محاربة التجاوزات الاستيطانية، الحرقاء أكثر منها مذبذبة، تتكرونها الحقائق التي ساهمت كموضوع لها. ولكن هذه الكلمات غير ضرورية لأننا قد كتبناك: فما تعترفون به من مزايا انسانية لاحتلال شمال إفريقيا يعتبر عندي ضامنا أكيدا.

تقبلوا مني، الخ.

2.

رسالة حول العرب، موجهة الى رئيس تحرير
المجلة الافريقية⁽¹⁾.

لقد سبق لي وأن تشرفت، سيدي، بإعلامكم بالاعتبارات الشخصية التي
تمني من نشر تنمة الحوليات الجزائرية في مجموعتكم المهمة، رغم رغبتني في
ذلك والعرض الذي تقدمت به لكم. وهذا لم يمنعكم من الاحتفاظ باسمي
ضمن قائمة كتاب المجلة. أنا ممتن جدا لما أظهرتموه من لطف. وهو ما يدفعني
إلى عدم البقاء مطولا غريبا عن أعمالكم ويعطيني في نفس الوقت الأمل في
رؤية الملاحظات التي أوجهها لكم اليوم ضمن رسالتين أو ثلاث من الجزائر
العاصمة، حول ما أدرج في أعدادكم 4 و 5.

هذه الرسائل تحوي تعاليم ومبادئ ليست لكم، وملاحظاتكم مترعى تيه
المسهور لذلك. وبذلك يمكننا منذ الآن اعتبار المجلة الافريقية كساحة مفتوحة

(1) هذه المجلة توقفت عن الصدور منذ أشهر عديدة.

للأراء المتوعدة. فيما يخص رأي مراسلكم بالجزائر الذي يعبر فيها عن الكراهية الأكثر عمقا والاحتقار الذي لا يقهر واللذان يتوجب أن يفصلا للأبد العرق الأوروبي عن العرق العربي، وهذه الكراهية يستشرها لحسابه بصراحة والتي تعتقدون أنه يجب أن تكون ممتتين له. فليكن ذلك، ولكن الرأي المعاكس سيتمع دون شك بنفس الامتياز وسيكون المجال حرا للدفاع كما كان عليه للهجوم.

إن مراسلكم من أكبر المعجبين بنظام القوة وفي هذا أنا من رأيه تماما. القوة هي الشرط الأول للتواجد؛ ولكنه لا يجب أخذ الوحشية والتهور منها، القوة يمكنها أن تصاحب اللطف والعدالة والوحشية ربما، كانت دوما رفيقة الضعف. وهذا ما يلاحظ في الحياة الخاصة للأفراد كما يلاحظ في الحياة السياسية للحكومات. السيد الدوق دو روفيجو الذي يبدو في أعين مراسلكم، الحاكم المثالي، نادرا ما جاءته فرصة استخدام قوة فعلية. الحملة الفاشلة ليس التي تم القيام بها انتقاما لمجزرة ذهب ضحيتها ثلاثون من جنودنا وهو ما لا يعتبر بالتأكيد دليلا لاستخدام القوة. وحملة العوفية، من الذاكرة القطيعة ثم الحكم فيها. تبقى قضية بوفاريك، والتي متى أصبحت ضرورية؟ بتمرد كان أساسه مجزرة العوفية. ولم تكن لها أي نتيجة من النتائج السياسية المتوقعة منها؟ اطرحوا هذا السؤال على الجلاد الذي لم توقف يده تصاريح المرور. أحد مراسلكم الأكثر اعتدالا من ذلك الذي أورد عليه في الأساس، يؤكد في العدد 4،

إن مجزرة العوفية التي هو يعيد عن المصادقة عليها، أعادت مع ذلك الهدوء في البلاد. فما قولنا لأناس يبدوون بنية حسنة ومع ذلك يقدمون البراهين المعاكسة لوقائع مثبتة؟ تذكيرهم بأن مجزرة العوفية سبق مجزرة جنود الخراش، والتمرد الكبير ابن زمون ووليد بو مزراق، سيكون دون فائدة. فلدينا هنا الأوروبيون يريدون ترتيب الوقائع حسب نمطهم حيث إن مجرد رؤية واحد من السكان المحليين تجعله يشتاط غضبا. وعند سماعهم، يمكننا الاعتقاد أن حسب رأيهم الحاكم سيكون له كل الفضل إذا ما أهداهم متعة رؤية إفريقيا مشوقا غالبا. وقد سمعت رجل قانون يعبر في نفس السياق عن ذلك في ساحة عمومية، أن ذلك نوبات جنونية وتعطش واضح للتعذيب، وفيما تبقي فهي حقيقة داخل العقول أكثر من القلوب. وبكلمة واحدة هو بكل بساطة الخراف، سخافة وطريقة للتواجد والاستقرار. ولكن السخافة لمجرد السخف، فإني أفضل سخافة محبي فعل الخير الذين يسخر منهم بكل سمو مراسلكم وبشرفي أنه وضعني في صفوفهم.

لقد أذن كل هذه الصرامة مع العرب؟ مراسلكم يؤكد أنه يعيش وسطهم منذ ستة سنوات خارج حدودنا دون خوف لأنه لا يعاني هنا من أي إهانة. هذا بالتأكيد أمر جيد، ولكنكم متعترفون بأن أجنيا معزولا ودون دعم يعيش وسط رجال يمكنه البقاء باتباع أسلوب قاسي. فهم ليسوا كائنات متوحشة للدرجة أنه لا يوجد سوى الفأس لقهرهم. لذلك لماذا يتوجب استخدام كل

هذه الكراهية المشوشتة، المليئة بالمرارة و السم لدرجة انه من المستحيل لقل
ان كراهية العرب يمكنها أن تتجاوز ذلك؟ آه، من ضعف العقل البشري
مراسلكم أو بالأحرى مراسليكم لا يرون في العرب سوى كائنات مغطاة
من الخارج ببرنس وعشو من الداخل بكراهية والأحكام المسبقة العرفية
و يسفرون، بقليل من العقلانية، من بعض أفرادنا الذين يلبسون البرنس
للتقليد، ويمثلون أنفسهم بالكراهية والأحكام المسبقة التي يأخذونها لحسابهم.
فاه يا ايها المسيح، فقد صدقت أيها الرسول المقدس، فهذا ما ينطبق عليه القول
المأثور للمعارضة الخشبية و حزمة القش.

و انه لفي العدد الخامس على الخصوص ابن يقوم مراسلكم بنشر فكاهات
السوداء، فيعد أن أعطى للعربي صورة بشعة جسديا وفكريا، فانه لا يريد ان
يكون لبعض النفوس الطيبة حتى مجرد فكرة سحبه من الصورة المدققة التي
يعطيها له من أجل إمكانية تقاربه معنا. فلم هذا الغياب التام للإحسان؟ فهذا
غير جميل ولا حكيم ولا حذر، لان العرب لو أصبحوا فرنسيين قليلا فلن
يكون هناك هذا العدد من الضحايا، و استخدم هنا تعبيرا لمراسلكم. الكثير من
الأوربيين سيجدون التحول جذبا لئلا ينجوا للجميع لانهم لا يملكون في الأخير،
مثل مراسلكم، موهبة الفرض على العرب بمجرد تأثير سلوكي.

وانكم ترون، سيدي، أنني مثل مراسلكم في العدد الخامس، أريد أيضا أن
أبدو ضاحكا رغم إقاربي مرة أخرى معه أنه من الأفضل البكاء و الأثنين.

أجل ليكني و لنن من رقة رجال يدعون أنهم أصدقاء المستعمرة والمطارد،
يعيدون بأنفسهم وهم يزرعون الكراهية والانقام؟ فليكني من رقتهم ينشرون
العرب في أوربا و إبعاد المهاجرين عن المدن الافريقية عن طريق خطب غير
حذرة. و لتأوه من الجهل والعمى عن الحقائق والأشياء التي يتكلمون عنها، و
لتأوه من رقتهم ينشرون المجال، بكل رضاء أمام المحطات الموجهة دوريا ضد
مستعمرتنا الناشئة. فما الذي يريدونه في النهاية؟ فليقولوا صراحة وعلاية،
هل هو إبادة السكان الأصليين؟ هنا لتوقف عن البكاء والنحيب لأنه يلزمنا
الكثير من الدموع اذا ما أخذنا الأمر بجديته. لتذكر ما قلناه في ما سبق، ولا
نعامل انحراف العقل بقسوة كبيرة. ومع ذلك، في وقت تحمل الظروف العديد
من الأفعان، هل ما يبدو، الى رد فعل معادي للعرب والذي يبدو، سيدي
مدير التحرير، إنكم تركتم أنفسكم تتساقون وراءه و من الجيد ان لا تعاملوه
كذلك باستخفاف.

لقد قلت، و لن أتوقف عن قوله، مع كل قوة قناعتي، بأن العرب لا
يساوون، في الباطن، لا أكثر و لا أقل من الأوربيين.

الكثير من العرب هم دون ذمة في المسائل الخاصة. وهذا يوجد كذلك لدى
الأوربيين وهو ما نراه غالبا لان الصفقات أكثر تواترا.

الكثير من الأوربيين تقدم بشكوى ضد عرب ولكن العديد من العرب
أعيا كان لهم وكل يوم شكواوى من الأوربيين، و أؤكد لكم أنني أعرف الكثير
من ذلك.

العرب يحسون المال، هذا ما قاله مراسلكم. و لا أعلم ان الأوروبيين يفتنونهم العرب يتحصلون عليه في بعض الأحيان عن طريق السرقة وهذا يحدث كذلك عند الأوروبيين، لقد أنشأ أورييون عصابة من المجرمين، السنة الماضية برأس ماتيقو، فالأورييون لديهم كذلك مصدر للإفلام.

لن نتقدم أكثر في هذه الموازنة المؤسفة، التي لن تكون سوى محاكمة الإنسانية جمعاء. فالتناس في كل مكان متشابهون في أعماقهم، مع تواجد فروقات بارزة في المظهر، الذي يتغير مع الحضارة: هذه المظاهر تساهم في جعل علاقات رجلا لرجل أكثر أو أقل أمانا، أكثر أو أقل لطفا. لا نقوم بتعديل، وخاصة لا نقوم بتغيير مظاهر شعب بين ليلة وضحاها، وهو ما يسمى أمراقة. ولكن عدم بذل مجهود للوصول إلى ذلك، في الموقف الذي نتواجد به في إفريقيا، بحجة انه من غير الممكن تحقيقه على الفور، سيكون تقريبا كالامتناع عن غرس الأشجار لأنها تأخذ وقتا طويلا للنمو. دعاة الاندماج، الذي يخلو للسيد مراسلكم تسميتهم الحاملين، وهي محاولة بريئة ان لم تحدث أبدا، دعاة الاندماج، كما كنت أقول، لديهم فكرة ستتضرر عاجلا أو آجلا وسيجربون بأنفسهم تأثيرها المفيد، كما يحس الأعمى بالحرارة المفيدة للشمس التي لا يمكنه رؤيتها. أقول ذلك بقناعة عميقة و ودية. لا يجب ان يهضم أي أحد اللهجة الجازمة التي استخدمها لأنها تنبع من إيماني بذلك. حتى انني اطلب العفو بصدق من مراسلكم نظرا لأنه يضعني في بعض

الأمكان في ميدان علاوة على ذلك اختاره بنفسه. فقلنا اننا يجب ان نسمو للجدية مثل الموضوع.

السيد المراسل يعلم قراءكم، انه يوجد في عالم دعاة الاندماج من أعطوا اسم حجوط لابنائهم، كما يمكنكم اطلاق اسم أوجون أو ليوبولد على واحد من ابنائكم. فمراسلكم تخطون باستخدام الجمع مكان المفرد فلا يوجد سوى واحد منهم ارتكب هذا الذنب و هو أنا. ولكم المناسبة التي كتبت فيها بجريمة إضرارا بأوروبا. في شهر جوان 1834، بعد حملة ضد المحجوبين، حملة جلبت السلام الذي ساهمت فيه، وأحضرت إلى الجزائر قائدا هذه القبيلة، و في اللحظة التي عبرت فيها عتبة بيتي، الذي فبت عنه مثاهام، تم إعلامي بأنه ولد لدي صبي، القايد ظن رؤية في هذا الحدث ألا طيبا، وترجاني أن أعطيه اسم قبيلته و ذلك ما فعلت به. هذه هي جريمتي. كان من الواجب اعطاء هذا التفسير البسيط، بما ان السيد مراسلكم ظن انه من حقه التدخل في خصوصياتي للبحث عن مواضيع اتهامات ضدتي.

فلو اننا تأبرنا في النظام الذي انتصر في تلك الفترة، لعاش المحجوبيون سلام، ولكان اسم ابني لا يلحق ضررا مثل من يحمل نفس الاسم. ولن يكون لدينا كل هذا العدد من الضحايا الفرنسيين وهذا دوما حسب تعبير مراسلكم. هذا الأخير يبدو فيها عدا ذلك، كثير الحقد على الاندماجين تحفده على أفضح واحد من بين المحجوبين. انه يتهمهم، دون المزيد من

اللفظ، بالعيش مع "قنلة اخواننا بسلام أخوي"، وهذا ما هو أكثر جدية. هنا الانتهام عام. يمس الآخرين مثل ما يمسني. إذن فمن الثابت أن الاندماجين هم نفس مرعيون يريدون إبادة الأوربيين، وإضافة لذلك تتم رشوتهم من قبل السكان المحليين لمنع نفس هؤلاء الأوربيين من امتلاك الأراضي التي اشتروها. وهذا كذلك حسب أقوال مراسلكم التي يقولها بطريقة بارعة. والآن سيدي، فلنصدقوني إن شئتم ذلك، ورغم تأمري مع الحجوطيين، وأخوتي مع قنلة اخواننا، المال الذي يقدمه لي السكان الأصليون، لمنع بقدر استطاعتي، السيد مراسلكم من الحصول على ملكية هذه الأراضي رغم المخاطرة التي نواجهها، في بلد متحضر، بأن نكون ضحية كتابات محبطة، فرغم كل ذلك كما كنت أقول، فانه حصل وأنتي أريد رؤية مئة ألف أوري بالشجة خاصة وإن كانوا من نمط مراسلكم في العدد الرابع وأخيرا فساكون بشدة من الرأي الذي يدعو إلى قمع كل تجاوزات اصدقاءني العرب أو بدلا من ذلك التأكد من نزع حتى الفكرة بالقيام بذلك. وهذه التجاوزات لا يجب مع ذلك أن يتم الافراط فيها. عندما يعم السلام فإن الجرائم ستكون قليلة هنا مقارنة بأوربا. وهذا يمكنني إثباته.

فهو لا يتعلق الأمر حصريا بالحكم على العرب، والنظر في علاقتهم معنا، إضافة إلى ذلك بتوجب معاينة طريقة تعايشهم فيما بينهم وخاصة التأثير الذي يتجه تعاملنا معهم على مشاعرهم. ومن اطلال مدة دراستهم

بالأخذ بعين الاعتبار كل تلك العناصر المختلفة سيأخذ فكرة أقل سليمة من تلك التي يريد السادة مراسلكم أن يعطوها لنا. فالأوربيون الذين يرغبون في المحي إلى الفريقيا يجب أن يكونوا متأكدين في أنه توجد وسيلة للتعايش مع العرب. وبالنسبة لي، إذا ما ادهشني أمر فهو أن أعمال العنف منهم تحولنا ليست أكثر حدوثا؛ لأننا لن نصدق كم هو قاسي ومهين لهم طريقة تعاملنا معهم. ولا أريد هنا جرح بعض النفوس التي سيكون مرغوبا، على العكس، التمكن من تهدئتها؛ ولكنتي أرجو السادة المستوطنين الأوربيين أن يصغوا إلى ضمائرهم والتساؤل بخشوع وحسن نية، إذا لم يحدث وإن أذنبوا بأعمال وحشية مهينة تترك آثارا طويلة في نفوس هذه الشعوب المستعمرة.

فالصورة التي يرسمها لكم أحد مراسليكم عن المزايا المادية التي يستطيع منها السكان الأصليون من الاحتلال الفرنسي بعيدة عن أن تكون صحيحة. يقال لهم يبيعون بسعر غالي، ولكنهم يشترون كذلك بسعر مرتفع. طبقة العمال الكادحة تستأجر بأسعار مرتفعة جدا الأراضي التي يحتاجونها. عائلات بأكملها ممن كانوا يسكنون نفس المزرعة منذ امد بعيد تم طردهم من طرف المالكين الجدد، الحق في المراعي العريضة لدى الشعوب الراحية تمت اعاك في جميع الانحاء حيث نتواجد. كل هذا كان نتيجة، مفروضة غالبا، للوضع الجديدة للأمور؛ ولكنه في الأخير من المنطقي أن يفرز سخطا غير منصور ومن الأفضل التخفيف من حدته بإجراءات جيدة عوض شتمه

الجزء الثاني

يعنف أخرق. و نذكر مثال الأتراك بكثرة ؛ نريد ان تعم الرهبة منا مثلهم و ان لا تفكر في ان نحيب الناس فينا. أخيراً، فان مراسليكم يعتقدون بان الصرامة القصوى و القوة التي لا ترحم ستخضعان لوحدهما العرب للهيمنة الفرنسية، مثلما اخضعوا هيمنة العثمانيين. سأجيب على هذا أولاً، انه عامة نحن نبالغ كثيراً حول صرامة النظام التركي. و ثانياً، فان الأتراك عندما كانوا يضربون كان الخوف وحده ما يؤثر على السكان ولمن كانت العقوبة تظهر عارية في كامل بشاعتها. ومعنا نحن المسيحيين، على العكس، فان سياسة منصة الاعداء لن تكون في اذهان المسلمين سوى خطوة نحو الحياة السماوية. الرعب سيختفي ولن يرى المؤمنون المخلصون تحت سيف الجلاد سوى مجيد و مقدس.

و لحسن الحظ ان هذه الوسائل للترهيب و المجازرة، التي يبدو انها بدعة العديد من الأوربيين، ليست ضرورية إطلاقاً؛ لا بد هنا مثل مكان آخر و دون شك انتم معاقبة الأهواء الشريرة و ضرب بعض المبادرات الشخصية. و هذا كل ما يلزم. يمكننا، دون خطر على مستقبلنا السياسي في البلاد، ان نترك الحشود تعيش والتي لا يجب أن نبالغ لا في العيوب ولا في الفضائل. هي بالتأكيد برية قليلاً و لكنه يوجد بيننا و بينهم نقاط تقارب يجب ان نعرف كيف نجدها. المهم هو ان يتم تنظيمها، اخترافهم، و عدم المعاناة من هذه الشعوب المشوشة على أبوابنا، اين يمكن للمجرمين الاختباء

الى مدير تحرير المجلة الافريقية

بأمان اكبر من اعماق الأرض. وهنا يكمن السوء الحقيقي، و مصدر كل الجرائم المميزة تقريبا والتي أسفنا عليها. فهذا ما تفكر السلطات على الخصوص معالجته لان الافلات من العقوبة التي يتأكد المجرمون من التمكن منه بالتيه داخل سكان غير منظمين، و للجريمة إغواء لا يمكن للأوربيين مقاومته أكثر من العرب أو من القبائل انفسهم. اما فيما يخص الليونة للأعمال الخيرية للإدارة، فانه عتاب مشرف جدا، ان تقبل، أظن طواعية، و دون التأمل في الحصول على ما تستحقه دوما. و مع ذلك، فإن المحسن يمكنه، مثل اي احد آخر و غالبا افضل من أحد آخر، ممارسة السلطة الموكلة⁽¹⁾ اليه بيد شديدة.

(1) هذه الرسالة تمت كتابتها سنة 7381. هذا الاتهام بالتحيز للعرب، الذي كان بعض الناس يوجهه إلى إدارة الجنرال دامريمون Damrémont، كان يأخذ أصوله في الحاجة التي وجنتها تدفع بها إلى صد، أكثر من الآخرين غالبا الأطماع، المبالغ فيها والغير معقولة في بعضا لأحياء، لبعض الأوربيين. اطماع متكررة بكثرة في تلك الفترة لان السلام سمح لعدد أكبر من الأوربيين بالانتشار في السهل، و ساكن مثل من بين الكثير: عرب كانوا تون أراضي أو الذين اجبرتهم الحرب على الابتعاد من مسرح احتياطي المعارك، قلموا بالزراعة في بعض الأماكن التي كانت مهملة. بينما هذه الأراضي تم امتلاكها من طرف أوربيين لم يروها من قبل أبداء بعد ان عم السلام بحثوا عنها، وجنوها و أراوا امتلاك محاصيل العرب. هؤلاء احتجوا على ذلك، و المحافظ قرر بان المالكين لن يتخلوها لاستغلالها سوى بعد انتهاء عملية حصاد أولئك الذين زرعوها. هذا القرار كان عدالة الأكثر صرامة. بينما جعل منه تقريبا جريمة لإدارة الجنرال دامريمون. و مع هذا انه لمن الصعب التصديق بان الجنرال كلوزيل كان يتصرف بطريقة أخرى، و بالتاكيد لم يكن ذلك مناسبا أكثر للعرب. و علاوة على ذلك، الإدارة الخيرية للجنرال دامريمون قامت باعتقال، محاكمة و اعدام أكثر من مجرم من السكان الأصليين أكثر مما قامت به الإدارات التي سبقته. ولكنها أرادت ان تكون عادلة و بالخصوص ان

لا تكون اثناء امواء أي احد. و علاوة على ذلك، العديد من الأشخاص يعانون بالجزائر، الكثير من الآمال محطمة و الكثير من رؤوس الأموال تنتظر التسوية، و ليس من المستغرب ان ينتج تهيج في الأفكار و استعداد للتهجم على الجميع و لغت الاحكام العادلة و التقييمات الباردة سيدق يوما ما بصوت مرتفع حتى يسمعه الجميع. في هذه الاوقات، من بونواو وصولا إلى الشقة، النتيجة خالية تقريبا من كل سكانها الأصليين. فالتهجرات أصبحت مستمرة منذ المعاهدة المؤسفة للثلاثة العرب القليلون الباقون ستمتصهم القوة الجاذبة لعبد القادر قريبا. المجال مفتوح امام الأوروبيين و نظريات التسامح التي طالما تمت محاربتها بمرارة أين ستصبح عاجلة عن العمل في هذا الجزء من البلاد، أين تنقص المواد لتطبيقها. فلا يجب التفكير سوى بجذب سكان اوروبيين اشداء الذين لن يتعرضوا لأي تواصل جرح أو قلسي.

3

مذكرة موجهة للجنرال دامرمون حول السياس غير النظاميين
أو الإضافيين، و الدرك المحلي⁽¹⁾.

الجزائر في: 16 أكتوبر 1937.

بني مشروع تنظيم السياس الإضافيين الذي تشرفت باقتراحه في الواحد والعشرين أفريل الأخير، فأعطيتهموني أوامر بالتسجيل الدقيق لملاحظات عن التعديلات التي ستظهر التجربة والتطبيق فائدتها. وفيها بعد، وعند ابتعادكم عن العاصمة لتسلم قيادة الجيوش بقسنطينة، تلقت منكم أمر تحضير عمل جديد، لحين عودتكم، حول هذه المادة مع الأخذ كقاعدة الانتعاش الذي سيعطيه تطبيق معاهدة نافنة للاحتلال في اقليم الجزائر، وبالخاق تنظيم الدرك المحلي بتنظيم السياس الإضافيين، الذي اتبتم على وضعه تحت قيادتي. هنا هو العمل الذي انتمت اليه اليوم بعد تحضير ناضج و الذي ينتظر هنا عودتكم التي

(1) انه من غير الاساسي تقريبا ان وفاة الجنرال دامرمون التي حدثت في التلي غير، لم يعرف عنها شيء بعد في الجزائر العاصمة عند كتابة هذه المذكرات و لا في الاثنين الاثنيين بعد ذلك.

يجعلها الانتصار قريبة والذي أصبح مسموحاً أن نراه الآن أكيدا. حسب تنظيم الواحد والعشرين من أفريل، كل موطن له الآن سياسيين إضافيين خاصين به. بني خليل لها 66. الساحل الذي تم ضمه إلى مواطن بني خليل والتي لم يتصل عنها إلا تحت إدارة سلفكم، السياسيين الإضافيين لهذه المقاطعة يحملون في هذه القوة. وكان موجودا مسبقا قبل تنظيم 21 أفريل.

بني موسى لها من السياسيين الإضافيين، بني سليمان و 16 فارسا من ولاد غمران، اللذان تم خلطهما مع العريب قبل هذا التنظيم. في الإجمال 53 فارسا الحشة لها 50 من السياسيين الجيدين المختارين من بين نخبة الموطن، الذين يقومون بخدمة جيدة ولكنهم لم يقبلوا الحصول على راتب.

وبذلك أصبح لكل موطن قوة عمومية منظمة، تأسست سلطة القائد بشكل أفضل، واثبتت التجربة بشكل ناجح، أن الجنح أصبحت نادرة أكثر وعملية قمعها أكثر ضمانا. ومع ذلك فإن هذه التجربة الأولى اظهرت لي كذلك سيدي المحافظ، أن تدلي الأجور المخصصة السياسيين الإضافيين لا تكفي لحاجياتهم ونتيجة لذلك فإنه يستحيل ثبوتهم في كثير من الأحيان عن أعمالهم الزراعية وبالتالي مطالباتهم بخدمة تتطلب نشاطا واستمرارية مثل عمل الدرك. وما نتج عن كل هذا هو أن القياد الذين أطالب بأن تكون الشرطة لديهم أكثر فعالية، رأوا من الضروري استدعاء رجال مجهزين ومسلحين من قبائلهم وهم ليسوا في قائمة السياسيين، وراعوا استخدامهم فقط أقل من هؤلاء. سأذكر

ما تمثال قايد بني موسى الذي كان دوما بجانبه للدوريات عشرة فرسان، ستة منهم فقط يحسبون من السياسيين المأجورين. العرب الذين فهموا أن هذه الإجراءات باختصار كان هدفها امنهم الخاص، يشاركون بكل طية خاطر. ومع ذلك فمن الواضح أن السلطة يجب أن تعتمد بدرجة أقل على الفرسان غير المأجورين بالمقارنة بغيرهم، الذين يشكلون القوة الحقيقية التي يجب أن تعتمد عليها. ولكي توفر له هذه القوة دعما أكثر صلابة وأكثر ديمومة، سيكون من الضروري أن يكون الفرسان المشكلين لها ليس لهم انشغال آخر سوى تلك الخدمة، مما يعني أن تغطي أجورهم لوحدها كل وسائل معيشتهم. ولهذا الغرض، اشرف بالاقترح عليكم بإنشاء، في كل موطن وفي كل مدينة من إقليم الجزائر، عددا معينا من وظائف الفرسان في خدمة دائمة، والتي سنعطىها تسمية موكلية، وهي مخصصة في اللهجة العربية لهذا النوع من الملبشيات. هؤلاء الموكلية لن يكونوا، مع هذا، شيئا مغايرا عن ما نسميه بالجزائر الدرك المحلي. وستتم معاملتهم مثلهم فيما يخص المنح.

ينبغي:

بالجزائر 25 تحت أوامر قايد الفحص

بالبلدية 25 تحت أوامر الحاكم

بالقلعة 10 تحت أوامر الحاكم

بني خليل 30 تحت أوامر القايد

بيني موسى 20 تحت اوامر القايد

بالخشة 25 تحت اوامر القايد

المجموع 135

بالإضافة لهذه القوة، كل العرب المجهزين والمسلحين سيشكلون، في كل موطن، ميليشية منظمة في عدد من الفصائل حسب التقسيمات الإقليمية للموطن. الفصائل ستكون تحت قيادة شيوخ هذه التقسيمات. هذه الميليشية سوف يتم تفقدها بين الحين والآخر من طرف ضباط فرنسيين، وتُستدعى في الظروف التي تتطلب مساعدتها ولكنها لن تحصل على أجر. وبما أننا لا نقوم بأخذ الرجال عنوة من عند العرب، فمن الجيد على الأقل أن يساهموا بكثرة ومجانا للدفاع عن أراضيهم الخاصة، عند تعرضهم للتهديد.

هذا هو، سيدي المحافظ، فيما يخص السهل. ولكن المنطقة الجبلية الخاضعة لنا، أو التي ستصبح كذلك، يجب أن نهتم بها كذلك. هنا لا يلزم تواجد فرسان. البلدات تتطلب أفرادا مشاة. هذه البلدات في حد ذاتها لا تزال غير معروفة بشكل كامل بعد بالنسبة لنا حتى انمكن من تحديد حجم هؤلاء الدرك المشاة. ولا يمكنني سوى عرض الأمور المبدئية. وجب اذن لشرطة المنطقة الجبلية لكل موطن عددا معينا من الموكلية المشاة. لفترض أيضا، وبشكل تقريبي، أن العدد الإجمالي هؤلاء الموكلية هو 100. ومن خلال الدفع لهم حسب المواطنين، الذين يعهد لهم، في فصل الصيف، مراكز الحراسة الغير الصحية، ينبغي أن يتحصلوا على فرنك في اليوم وحصة مضاعفة من الخبز.

لا يتبقى الآن سوى حساب التكاليف الضرورية للتنظيم الذي اقترحه. لن احسب سوى الاجرة الاجمالية للموكلية او الدرك التي تكون كأجرة الدرك المحلي الخالي، أي 2 فرنك في اليوم. أما فيما يخص حصص الغذاء و العلف المخصصة لهم من طرف الدولة، والتي تمثل لكل واحد منهم مصاريف شهرية بقيمة 5 فرنك، سيكون من العدل توفيرهم عينا من طرف القبائل. وانطلاقا من هذا المبدأ، التكاليف المترتبة على الدولة ستكون كالتالي بتقييمها شهريا:

135 دركيا على الخيل..... 8100 فرنك

100 دركيا مشاة..... 3000 فرنك

المجموع 11100 فرنك

ومن هذا المبلغ، يجب اقتطاع، لـ 30 من الدرك المحليين

القائمين حاليا..... 3330 فرنك

وبالنسبة للسبايس غير النظاميين المأجورين لبني غليل

الذين سيتم الغاؤهم..... 1782 فرنك

بالنسبة لبني موسى..... 1431 فرنك

المجموع 6543 فرنك

يتبقى بذلك ارتفاع في المصاريف ب 4557 فرنك شهريا. ونجدد الإشارة أن خدمة المراقبة والشرطة أصبحت أفضل مما يجعل من الكثير من المعازل دون حاجة. ولذلك لن يكون علينا الدفع للمواطنين من اجل حراستهم.

ولم أكلمكم بعد، سيدي المحافظ، عن العريب، الذين تركهم تنظيم الـ 21
أفريل على الحالة التي كانوا يتواجدون بها عند وصولكم إلى الجزائر، والذين
يمثلون في الوقت الحالي مجموع 164 من السبايس الإضافيين المأجورين،
هؤلاء العرب يتواجدون في وضعية استثنائية، فبعد أن تم جلبهم إلى راسوة
من طرف الجترال فوارول، تم تجريدهم فيما بعد من أراضيهم التي تم تسليمهم
إياها في البداية بإذن من وزير الحرب، بشكل يجب أن يكون فيه الراتب الذي
يتلقونه، بكل عدل، أن تعتبر كتعويض على الوعود التي لم تنفذ. وقد كان لي
الشرف، في 13 من هذا الشهر، بتوجيه رسالة لكم، أرفع فيها، باسمهم،
احتجاجاتهم التي بدت لي صائبة، فيما يخص هذه الأراضي التي يبدو أن
الظروف تسمح أن يعاد لهم جزء منها، وقبل أن يتم إرجاع الملكيات، فإن
هذا الانصاف لا يسمح ربما بعدم تغيير في حياتهم، بالإضافة إلى أنه، هذه التي
كانوا محجرين على استعمار أراضي بأسعار جد مرتفعة، ورغم ذلك، بما أنهم
يشكلون ميليشية رثة، غير مسلحة وغير مجهزة جيداً، فتمت بعملية فرز لتلك
الحشود. فشكلت فصيلتين صغيرتين، متكونة من أفضل ما يوجد، وهي على
الأقل فصائل قادرة على القتال. سلمت القيادة للملازم الأول علي بن سياتي و
للملازم مصطفى بن شيارق. وتركت الباقي، الذي لا يعتبر سوى حشد غير
منظم، تابعاً للفصيلتين دون أن يكون جزءاً منها. والآن وإن منحت الحكومة
أراضي، فإن هؤلاء سيتوقفون عن الحصول على الرواتب على الفور، أما بالنسبة
للفصيلتين، يمكننا دراسة المسألة لمعرفة إن كان من المناسب المحافظة عليهم. إن

بيل نعملوا لاجباب، ولكنه في هذه الحالة، الأراضي التي تدخل ضمن الأملاك
التي سيولدون اليها، بما أنها لم تمنح لهم إلا مقابل الخدمة العسكرية، كما رتب
بالتجترال فوارول، فإن المساعدة التقنية التي سيتم الاحتفاظ بها لا يجب
اعتبارها كراتب بل كتعويض يمنحنا الحق بالمطالبة بأن يقوموا بتجهيز وإعداد
أنفسهم بشكل كامل. فتحصل بذلك على فصيلتين متكلفتان أقل بثنتين ما
يكلفه نفس العدد من السبايس النظاميين والتيين تقدمان في وقت الحرب نفس
الخدمات.

الحد الآن، سيدي المحافظ، لم نر إلا تنظيمًا للقوى المحلية مفرقة في القبائل،
لحفاظ على النظام وإبعاد العدو الخارجي، ولكن هذه القوة يجب أن تسمى في
الأخير لصالح فرنسا، فمن البديهي أن يتم تسييرها ومراقبتها من طرف ضابط
سامي فرنسي. هذا الضابط يكون تحت أوامرنا، نقيب وملازمين أوليين وثلاث
ملازمين فرنسيين، واحد من هؤلاء سيمارس وظيفة الضابط الدافع، وضمن
مجموع هؤلاء الضباط سيكون مجعلاً عدد الضباط الفرنسيين من السبايس
الإضافيين القاطنين حالياً.

تقبلوا مني، الخ.

مذكرة موجهة للجنرال دامرمون، حول
احتلال النتيجة.

الجزائر في 17 أكتوبر 1837.

لقد تشرفت بتكليفكم لي، عند مغادرتكم إلى عنابة، بالتحضير لعدد عودتكم،
مشروعاً لاحتلال الجزء من إقليم الجزائر المخصص لفرنسا بموجب معاهدة
الصفاء، وهو العمل الذي أتمته اليوم، بعد تفكير عميق لمدة طويلة ولا
أشجع في تقديم افكاري على أنها أفضل ما يمكن ابتدائه في هذا المجال، ولكنني
أشعر لكم على أنها افكاري، لأنكم بأسلوب مونتيني.

منذ أولى لحظات وصولكم إلى الجزائر، فقد صدتم بتفاصيل الاحتلال
الحالي، وبالفعل، هذا الاحتلال لا يتعلق بمخطط متعقل ونهائي، بل لا تعطي
سوى نتائج العمليات المنجزة يوماً بيوم لمواجهة مساوئ الوقت الراهن و
الحاجة التي لطالما تم فهمها بسوء. البعض من هذه العمليات لم تكن،

إضافة لذلك، إلا نوعا من التسوية بين وجهات نظر مختلفة ولا تمثل سوى رغبات محلية.

الوحيد من بين سائلكم الذي كانت له أفكار صافية وعملية للاحتلال العسكري، كان الدوق دو روفينو. ولم يتمكن من تطبيقها إلا على أجزاء صغيرة ولكنه قام بذلك بحكمة وبصيرة. لقد تبنى الاحتلال وفق خطوط دائرية متحدة المركز. الخط الأول تم تشكيله بمجموعة من المراكز انطلاقا من لايبزيت و حتى الخراش. وكانت تضم معسكرات دالي ابراهيم، تيقصر ايرين، بر خادم و القبة، أو كان يستند عليها. تعدد هذه المراكز كان ضروريا في الأصل، لأنه كان من اللازم الانطلاق من قاعدة صلبة، وبهذا الغرض نشر الأمن الأكثر شمولا في هذه المنطقة، تحيط بالجزائر العاصمة بمساحة مبلين وهو ما يدعى الفحص. وبعد انتهاء هذه العملية الأولى، فكر الدوق دو روفينو في إنشاء خط جديد يستند غربا على المزفران و شرقا على الحمير، واحد نقاطه ستكون الدويرة. حسب تفكير هذا الجنرال، المراكز كان بالإمكان ان تكون أقل تقاربها على هذا الخط مقارنة بالخط الأول، ولكنها ستكون أكثر اعتبارا. مشروعه كان يرمي كذلك الى تسليم تباعا الى المجال الزراعي، المباني التي تشيد لإيواء الفرق على الخطوط المتمركزة حين يصبح الاحتلال مترسقا و يتقل الدفاع الى نقاط أبعد.

الجنرال فوارول، الذي تسلم القيادة الانتقالية بعد وفاة الدوق دو روفينو،

تشيد معسكر الدويرة الذي غطط له هذا الأخير، ولكنه لم يربطه بخط دفاعي. ومنذ ذلك الحين، أصبحت هذه النقطة مكانا معزولا و توجب على القوم ربط الاتصالات مع دالي ابراهيم، تأسيس معقلين بالشعاعة و بوعوار. و للاخطورة سيدي المحافظ، انه قد بدأنا ندخل في النظام الخاطئ للخط المستقيم دون استئذ و الذي يمتد حاليا حتى واد يعيش دون هدف عقلاي و محدود في عهد الكونت ديرلون، الحاجة الى ضمان شرطة بسوق بوقاريك و بلدة التي يقام بها، و التي بدأنا بالتأثير و الحركة فيها، طلب مني تشيد مركز صغير محصن بحوش شاوش لإقامة فرقة حراسة محلية تحت أوامر قائد بني حليل مشروعي تم تسليمه من طرف المحافظ للدراسة لدى الجرائد المراجعة آنذاك بالعاصمة و لعقيد الهندسة العسكرية كذلك. و حسب ما قيل لي فقد تم الاعتراض عليه في العموم، و بما ان المحافظ كان يعيل شخصا محو تبه، فان أحدهم قال: ولكنه عوض مركز بسيط من السكان المحليين، لم لا يتم تشيد معسكر فرنسي؟ و من هنا برز الى الوجود معسكر بوقاريك. اقترحت اذن احتلال ممر مقطع خيرة على المزفران، من أجل ربط المعسكر الجديد بخط دفاعي مشكل من النهر و مستنقعات واد بوقاريك. بالكاد تمت مناقشة هذا المشروع. و مع هذا، بعد انطلاق الحرب تم ادراك عبوب الامتداد فكنا على خط مستقيم، و لكن عوض احتلال مقطع خيرة و هو ممر اعتيادي للحجويين، تم تحصين الخط، على نفس الخط، بمراكز أولاد متيل، جبر

شوقلي و سيدي عبد. و اراؤوا كذلك تعطينها من اليمين بتشيد معسكر المعلمة الذي لم يحقق شيئا و استوجب ربطة هو ايضا بالدويرة بمراكز بين عمر و حوش خلاصي.

في عهد المارشال كلوزيل، تم أولا تمديد الخط المستقيم المتواصل بميلين امام بوفاريك، ببناء مركز مراد، و بعد ذلك و في صيف سنة 1836، و ظنا من المارشال انه تمكن من الحصول على مصادقة الحكومة على مخطط لغزو عام للمحافظة، فأراد بناء معسكر مطوق بالشفة، و الذي كان من المفروض ان يستعمله كقاعدة في العمليات التي كان يأمل القيام بها في كل من مليانة و المدينة. و لكن عدم اتفاق وجهة نظره مع آراء الحكومة دفعه الى التخلي عن مشروعه، و الذي لم يتحقق منه سوى البناء الغير الضروري تماما لمعسكر الشفة الذي سرعان ما تم هجره و كذا مركزي سيدي خليفة و واد عيش. هذين المركزين و مركز مراد لم يوقفا تحركات الحجوطيين الذين جاؤوا في العديد من المرات و خاصة في شهر ديسمبر الأخير، لإحراق المزارع في الشغرات ما بين تلك المراكز. قسم التفكير اذن في فرض عوائق طبيعية و باستمرار لصد أولئك الجيران المرعجين، بالاستفادة من بعض حوادث الأرض مثل: الوديان، المجاري المائية، المستنقعات، و هكذا تم انشاء ما نسميه بخط دفاعي. كان يتبدأ عند مصب واد وجر، ابن تم انشاء معقل في تلك النقطة يعرف بذلك الاسم. ويتبع حتى المعلمة مسار الجدول مرورا بسيدي محمد ابن انشع معقل آخر. و من المعلمة يتشكل الخط من واد منحدر الخواف ليصل الى مستنقعات واد بوفاريك، مرورا

بمطبخها سيدي عبد القادر و بن شعبان، المتواجد بالسهل. هذا الخط اطلقه قام الحجوطيون باجتيازها، رغم انه من المؤكد انه ضابقتهم في العديد من المرات في غاراتهم.

اعتقدت انه ليس من غير جدوى، سيدي المحافظ، ان اقدم لكم هذا النسخ القصير عن المادة التاريخية للاحتلال الفرنسي في اقليم الجزائر. عدم وجود استمرارية في الأفكار و غياب خطة عامة للأخطاء التي يتوجب على الإدارة الجديدة تجنبها، مما يفرض علينا وضع خطة و أفكار ثابتة. و في هذا الوضع، هذه الخطة في مجملها يجب ان تنبثق من الاعتبارات السياسية للبلد، و في تفاصيلها تتناسق مع الحوادث الطبوغرافية.

البلدية و القليعة تابعتين لنا بموجب معاهدة النافعة. فاحتلال هاتين المدينتين ان شيء محسوم مقدما. وان كانت القليعة عائقا مهما لنا أمام الحجوطيين، فان البلدية لن تكون كذلك لأنها ليست نقطة إستراتيجية في أي مجال. لذلك فان احتلال القليعة لا بد ان يكون عسكريا و بلدية اداريا بحثا، اذا ما امكني استخدام هذا التعبير. فلا يكون الهدف منها سوى ضمان سيطرة سلطتنا على المدينة نفسها.

أهم تأثير للقليعة هو على ساحل الحجوطيين، و هو منطقة جبلية وعرة. و لذلك فان الحامية التي نقيمها هناك يجب ان تكون مشككة، في الاجمال، من انشاء مدعومين بفصيلة مدفعية الجبال. و اقدر أن 1200 رجلا كافون بهذه النقطة. يمكننا وضعهم في ثكنة محصنة في المنطقة العليا من المدينة. و ليس

يبعد عن هناك، يوجد ينبوع ماء، يمكننا، إن وجدنا ذلك ضروريا، ربطه بالشبكة بواسطة قناة. دراسة مفصلة للميدان عند تواجدها هناك، ستعلمنا أن كان هناك امكانية رسم الخط الذي سيكون بمثابة حدود في ذلك الاتجاه، بحواجز طبيعية مطورة ببعض العمل، والتي حسب بنود المعاهدة يجب أن تمتد من مازفران إلى البحر.

وفيما يخص البلدة، طبيعة احتلالها لا تتطلب الا حامية من 500 رجل، موضوعين في قصبة صغيرة، يتوجب بناؤها في زاوية المدينة الأقرب من واد الكبير، باتجاه مدخل المياه. أسوار المدينة الحالية في حالة متدهورة يجب أن يتم ترميمها دون التغيير من المخطط. ولكن لا يجب الإبقاء سوى على ثلاثة أبواب: باب الدزايو، باب المدينة وباب الجبل.

تظهر البلدة من النظرة الأولى، صعوبة من جانب الدفاع. فهي غائرة داخل ممر ضيق، يُطل عليها من عدة جوانب، ومحفوفة بغابات حقيقية من البرتقال. كما أن كل ضباط الهندسة الذين تم استدعائهم لدراستها من جانب الدفاع، قدموا مشاريع ذات تطبيق مكلف، مطول و تقريبا مدمر للمعراعي الجميلة لهذه المدينة الحلوة. تبني هذه المخططات المختلفة سيجعل من البلدة في الحقيقة مكانا جده محصن يتطلب تواجد فرق عديدة في نقطة، اكرره أنها غير إستراتيجية. ومع ذلك، يجب أن نتأكد من البلدة من القيام بالدفاع في حالة الهجوم. وفي هذه الحالة، ستكون في مواجهة الأعداء الذين علينا مواجهتهم في الفريقين وبكفاية بواسطة السور المتواجد بها بعد أن يتم

ترميمه إضافة إلى القصبة الصغيرة التي اقترح بنائها. قد يعترض البعض ربا بالقول أنه يمكن لأطراف معادية وجماعات من قطاع الطرق التسلل بسهولة عبر عدد لا يحصى من الحدائق والبساتين التي تحيط بنا والقضاء على الكثير من الناس عن طريق اغتيالات جزئية. وهذه فكرة لا يجب الانشغال بها كثيرا، فمن الواجب الاحتياط من عدم التضحية بالأشجار الجميلة للبرتقال بالبلدة. بعض الاغتيالات ستحدث دون شك في الأيام الأولى من الاحتلال، إذا ما تم ترك الحامية بالبلدة تستسلم لأعمال متهورة اغتيادية لدى جنودنا. وإضافة لذلك، فالإجراءات الاحتياطية التي يجب فرضها بحزم داخل الفياق خاصة خلال كل الوقت الضروري للسكان الأصليين للعودة على فكرة الاحتلال، وبصفتنا سادة الميدان مستمكن من منع مجرمي الخارج من الولوج داخل حدائق البلدة. شجيرات الحدائق الأبعد في المدينة تشكل في حد ذاتها سياجا بطول ميل ونصف تقريبا من الكثافة. سيكون من المجد تعزيز هذه العقبات بسد الفتحات بواسطة نباتات شوكية مثل العود، الصبار وعدم ترك إلا ثلاث مداخل توصل بالأبواب الثلاثة للمدينة. هذا ما يجعل الحراسة أسهل، لأن كل تلك العوائق الصغيرة والطبيعية هي عتبات لا يمكن تجاوزها من طرف العرب. وشيء مؤكد أنه سيكون كذلك بالنسبة للحجوبيين الذين لا يملكون سوى القوسان.

ولكن في نهاية المطاف، يقال، يمكن أن تتم مهاجمة البلدة جديا من طرف حشد من المشاة. فكيف ستقاوم عندها ذلك وراء سور ضعيف

ليس له سند سوى قلعة صغيرة ٢ ساجيب عن هذا ، انه سنة 1830 ، تمكن الجنرال روليار من المقاومة داخل البلدة ضد كل قوات بن زمون ومع حائط مفتوح من عدة نقاط ودون قصر ، وبما ان هجوما حقيقيا يمكن فقط ارتيابه من الجبل ، فان معسكر واد الكبير الذي يدخل في المخطط الذي اتفق بتقديمه ، سيحل حركة سكان الجبل بالتسهيل لنا للانتقال من وراءهم حين يأتون لمهاجمة البلدة . نلاحظ ان الدفاع الحقيقي عن هذه المدينة يتواجد من الخارج .

لقد توسعت كثيرا ، سيدي المحافظ ، حول احتلال البلدة ، لأنني املك القناعة (ذكريات شهر ماي الأخير يمكن ان تعطيتها لكم ايضا) انه من الممكن ان يقدم لكم كشائك بالمصاعب . سيتم مكالمكم دون شك عن ضرورة احتلال منبع الماء بواسطة منشأة مكلفة يجب ربطها بنظام الدفاع بمنشآت اخرى ومسيطة . ولكن ، سيدي المحافظ ، لا يمكن للقبائل قطع الماء الذي يزود ينابيع البلدة الا بالتوجه الى مسار واد الكبير من حيث تأتي ، وهذا النهر يمر تحت أسوار المدينة . وهكذا ، لنفترض أن الجبلين قطعوا الماء ، فالبلدة لن يتقصها بذلك . لا بد فقط من النزول إلى قاع النهر للحصول عليه . صحيح أنه في الأوقات العادية فان كتلة المياه لا تملأ القاع بأكمله ، وينبغي الذهاب للبحث عن التيار بعيدا قليلا عن الأسوار ، تحت نار العدو الذي من الممكن أن يأتي من الضفة اليسرى ؛ ولكن بعضا من ضربات القذوس تكفي في هذه الحالة لفتح فجوة من اجل مياقة جزء كاف

من المياه تحت السور في حد ذاته ، إلى الخزان الذي نزل به بواسطة قنطرة . كل هذا بسيط و سهل . وفي الحصيلة ، رغم انه من المنتظر خلال الأيام الأولى حصول بعض الأعمال العدائية الا ان سكان الجبال بحاجة ماسة لسوق البلدة لكي لا يخضعوا قريبا .

لقد تكلمت ، سيدي المحافظ ، في الأعلى عن معسكر لإنشاء بولاد الكبير . من المناسب ان يتم تشييده في نقطة التحام هذا النهر مع نهر شفة . من هذا الموقع المتواجد على حدودنا ، على بعد ميلين غرب البلدة ، يمكننا تشكيل تهديد في آن واحد على سهل الحجوطيين و جبال بني مسعود وبني صالح . يصبح علاوة على ذلك على اهبة الاستعداد على طريق المدينة . ولكن اعم نقطة ايجابية لهذا الموقع هي التغطية الكاملة للبلدة و ابعاد الحرب عن ارضها الغنية لان البلدة يجب ان تكون بلدة سلمية ، بلدة زراعة وصناعة ، يحتاج معسكر واد الكبير الى 2000 رجل منهم 500 من الفرسان . يجب لمهيد طريق مناسبة من هذا المعسكر باتجاه القليعة مروراً بقطع خيرة ، حيث من الضروري بناء جسر و برج لحمايته ، مركز مراقبة سيتم إنشاؤه على مسافة متوسطة من هذا الجسر في معسكر واد الكبير . الضفة اليمنى من النهر ، من مقطع خيرة حتى المعسكر ، يمكن قطع ذروتها حيث ما ليست طيبة ، ستكون عقبة صعبة أمام العرب وعملا قليل التكلفة بالنسبة لنا . نبال حماية حدودنا من الغرب تصبح بهذا مكتملة ، كل المراكز القائمة حاليا مستقلة لوحدها . معسكر المعلمة سيتم تسليمه للمجال الزراعي .

أما معسكر الدويرة المقلص إلى حامية من سرية أو اثنين يمكن أن يستخدم كمستودع عام وتخزن لكل غرب الاقليم . إضافة إلى ذلك وبما أن المكان جيد معاق فإنه يمكننا إنشاء عتبر نقاهة به . معسكر بوفاريك ستواصل اشغاله نظرا لموقعه المركزي .

لنمر الآن إلى الناحية الشرقية . في هذا الاتجاه ، يمكن لأربعة منافذ رئيسية أن توصل العدو إلى أراضينا الأولى ، الواقع بالأحرى ناحية الجنوب من أكثر من الشرق ، هو مضيق واد العكرة وهو الاسم الذي يحمله لاراتش في الجبل . فمن هنا يمكن أن تصلنا قبائل الشيطري و القوات المرسلة من المدينة . الطريق المار من واد العكرة أقصر من مسلك الثنية المنفذ الثاني هو مضيق الحمير المسمى لأربعطاش ، يمكن أن يستخدم من طرف بني جيد و قبائل حمزة . الثالث هو منفذ ثنية بني عيشة المفتوح يسر للعمراوة وكل قبائل الشرق . الرابع الواقع بالضبط على شاطئ البحر ، هو منفذ اشرب واهرب الذي يوفر ممرا للفن القبائل . لا اعتقد أنه يجب القيام بحراسة مباشرة لكل تلك الممرات ولكن معسكرا ب 500 رجل على لاراتش قبالة مضيق واد العكرة سيكون له فعالية مضاعفة وقت الحرب ، و سيضمن لنا منذ الآن خضوع بني معبارة و جبال بني موسى . و معسكر آخر من قوات واد الكبير ، إذا ما تم استقرارها في الموقع الممتاز لبودواو ، يمكنها مراقبة الممرات الثلاث الأخرى بشكل جيد . وإذا ما تم ذلك ، لابد من فتح طرق من البليدة و بوفاريك نحو واد العكرة ، من واد العكرة إلى بودواو مروراً

بشرق الأريعاء و بالحمير ، ومن بودواو إلى الجزائر العاصمة . بما أن كل هذه الطرق تمر بمنطقة سهلة فإن تنفيذها سيكون سهلا و غير مكلف .
لا يمكن على الدخول ، سيدي المحافظ ، في تفاصيل بناء المعسكرات ولكنه يوجد مبدأ يجب أن يخصص للجميع ، وهو أن يكون لكل واحد منها تقليص جيد بشكل يسمح لنا ، دون صعوبات ، تخفيض الحامية عند الحاجة و مراجعة سريعة لأجالي الحاميات المختلفة ، لدينا :

بالقليعة.....	1200 رجل.
برج مقطع خيرة.....	25 رجل.
في المركز الوسيط ، بين مقطع خيرة	
و معسكر واد الكبير.....	200 رجل.
بمعسكر واد الكبير.....	2000 رجل.
بالبيدة.....	500 رجل.
بمعسكر واد العكرة.....	500 رجل.
بمعسكر بودواو.....	2000 رجل.
المجموع.....	425 رجلا.

بأقي القوات العاصمة ستشغل الجزائر و المعسكرات الداخلية . القوات الاجالية لإقليم الجزائر يجب أن يتم تحديثها ، مدة أطول بعد ، طرفة يكون فيها فيلق من 7000 مقاتل عواما على استعداد لخوض عمليات عند أول إشارة و دون عمليات اعدائية ، على أن يتم تقليص الحامية إلى النصف . هذه القابلية الكبيرة للتسرك تعطينا سهولة للاتصال

احتلال يورين من المسير إلى القبية أو مليانة، وهذا فان علاقاتنا مع مد القاهر ستكون دائما جيدة، لأن الدبلوماسية شيء سهل عندما تستند على قوة معترف بها جيدا. إن العرب يعيدون عن جهل قوتنا، بالتاكيد، ولكن التباطؤ في تحضيراتنا يجعلهم غالبا متوقعين، لأنهم يعلمون جيدا أن معنا ثمر دائما عديدة و غالبا شهور عديدة بين التهديد والتطبيق، وإن في تلك الأثناء يمكن لغضبنا أن يهدد وإن قراراتنا يمكن أن تتغير.

لقد تركت سيدي المحافظ، خارج مراكنا، كل المنطقة الجبلية للمنطقة التابعة لنا، ليس لأنني اعتقد بأنه علينا التخلي عنها لنفسها، ولكنني اعتبر أن الاحتلال المباشر سيكون صعبا ودون فائدة. وإذا ما تبنا بالمواقع مثلها اقترحنا، سنضمن خضوع الجبال دون احتلالها، لأننا نكفي ساعات قليلة لاجتياحها، مما يبقى على سكان الجبال في نوح وحنين مقيد. فخوفهم من التورط معنا سيجعلهم حريصين على تحذيرنا من استعدادات القبائل البعيدة والتي يعلم بها السكان الأصليون دوما قبلنا. وهذا ما يجعلنا محاطين بمنطقة سكانها مهتمون بخدمتنا كجواسيس وحتى الدفاع بعد اعتدائنا عن المرور بأراض تابعة لهم، خشية أن يتم خلطهم معهم بانتقامنا.

وانجرا على الاشارة سيدي المحافظ، بأن احتلال مينا على الأسس التي اقترحها، سيطع البلاد في ملجأ من اجتياحات القبائل المعادية.

فيما يخص الشرطة الداخلية، فلا يجب الاعتناء احتلالا على الترتيب العسكرية للقيام بهذا الدور. فقد اثبتت التجربة والأسف أن تعدد هذه الترتيب لا يمنع أية جريمة، وإنه في كل مرة أرادوا أن يتدخلوا كشرطة يتدخلوا بالأمور بشكل معاكس، أما بإيقاف، عن طريق الخطأ، أعداء، فأنهم انهم أعداء، أو ما كان مؤسفا أكثر وهو قتلهم. وهذا حالنا في أغلب مناطقنا يقعون غرباء عن السكان الأصليين حتى ولو أقاموا مرسدين بأفريقيين، أما لعدم أكثر انهم بذلك أو حيلة منهم. فالشرطة لا يمكن أن تؤدي دورها جيدا إلا إذا قام بها القياد أما العرب أو الفرنسيين على قدر من الخليل، ولقد تشرفت بالاقتراح عليكم، في عمل آخر، بربط كل واحد منهم بعدد معين من الدرك، منهم المشاة والفرسان، واقترح أن هذا العمل، تشييد منزل محصن لكل قائد بالمقرية من الأسواق. هذه المنازل ستخدم كمسكن للقياد والقضاة، وكثكنة للدرك، وستكون مقرا للأركان، سرعان ما يتشكل حولها قرى عربية.

قائد بني خليل سيستقر بسوق علي، مزرعة الملكية، التي تحوي مبنى لتساعده بقليل من التصلبات يمكن استخدامه لتلك الوظيفة. قائد بني موسى، سيقيم بحوش بن سيان، الذي يحوي كذلك على مبنى سهل الترميم. أما بالنسبة لقائد الحشنة، فيجب بناء واحد جديد له وإقامته في المنطقة التي للمحمير قبالة موقع سوقه. المسالك سهلة تربط هذه

المقرات بالجزائر العاصمة. و من الجدير بالإشارة ان حوش بن سمان و الموقع الجديد لقواعد الخشنة هي تتوسط الخط واد العكرة و بودواو و بذلك تضاف هذه المراكز لنظام الدفاع العام.

خطة الاحتلال التي اقترحها يمكن ان يتم تطبيقها بطريقة سلمية تقريبا، اذا ما اظهر عبد القادر ارادة طيبة. وحتى لو افترضنا أن له دوافع خفية، فيما انه لا زال يحتاج الى السلام لبعض الوقت، يمكننا دفعه الى الاثبات للعرب، بواسطة افعال علنية، أن من يريدون محاربتنا لا يتوجب عليهم الاعتماد على دعمه، أو على الأقل في الوقت الراهن، وهذا كل ما نحتاجه. وعلى هذا النحو، بمجرد أن نصبح على استعداد للتحرك، من المناسب أمر عبد القادر بتعيين مفوضين من اجل أن تكون الحدود مرسومة بالتوازي معهم. هؤلاء المفوضين، بالإضافة لأولئك المعيّنين من جهتك، سيجوبون الحدود من اراضي القليعة حتى جبال الخشنة، وكل واحد يتم تحديد حقه: هنا عبد القادر، هناك محافظ الجزائر، هذا ما يقال للعرب. و بما ان الأمير ليس له علاقة بشرق الإقليم، كما تنص عليه بنود معاهدة التافة، فان عمل المفوضين لن يمتد حتى تلك المنطقة، لان العكس سيكون دون مصلحة قانونية له، و يمكن أن يصبح ازعاجا لنا. لا يناسبنا ان ننغلق على أنفسنا في دائرة بوبليوس⁽¹⁾. عملية رسم الحدود يجب ان تكون

(1) لئناس بوبليوس كان عضوا في البرلمان الروماني و قد رسم يوما بعضا دائرة حول ملك سوريا ابيفان يمنعه من تجاوز حدودها حتى يجيب قطعيا على كل مطالب الشعب الروماني. و منذ ذلك الحين تستعمل عبارة دائرة بوبليوس للتعبير عن الوقوع في وضعية لا يتم الخروج منها الا بتحقيق شروط محددة.

مدعومة بقيالق من الجيش و متبوعة على الفور باحتلال البليدة. سترسل الى هناك 2500 رجلا من اجل اعطاء دفع قوي للأشغال هناك. و بما انه يوجد بالبليدة العديد من الانقاض، بعد زلزال 1826، فإننا سنجد وفرة في المواد من اجل بناء القصبة و ترميم سور المدينة. الأشغال على وشك الانتهاء. و يمكننا اذن ان ندخل القوات، اذا ما خشنا كثيرا من تبعات الرسم السيء، باستثناء تلك الموجهة لتشكيل الحامية و تأجيل احتلال النقاط الأخرى الى شهر افريل. و لن يمر الشتاء رغم هذا دون نشاط، لانه بإمكاننا استعمال القوات في اشغال الطرقات التي لن تبعدهم كثيرا عن المعسكرات المقامة حاليا.

5.

مذكرة موجهة للجنرال دامريمون، حول
كيفية إدارة الأهالي.

الجزائر في: 18 أكتوبر 1837.

بشرفني أن أرسل إليكم هاتين المذكرتين اللتين كتبتهما بتاريخ 16 و 17
من الشهر الجاري، مع العلم أنه ليس فيها ما يتعلق بالأشغال التي أمرتوني
بإتمامها وعرضها لدى عودتكم. حيث أنني أردت أن أعرض عليكم نظرتي
إلى الكيفية التي يدار ويسير بها الأهالي.
إنه لمن الضروري تحديد الهدف السياسي الذي سوف نتجه في معاملتنا
وإدارتنا للأهالي، ذلك أنه في حالة تكون مجتمع ما من عرقين لا متماهين في
الاختلاف اللغوي والطبائعي، حيث لا رابط بينهما إلا استعمار أحدهما للآخر،
فإن المجموعة المستعمرة تتعايش مع المجموعة المحتلة وفق سياستين: إما
سياسة إقصائية قمعية تهدف إلى عزل واستبعاد المجموعة المحتلة، أو سياسة
سلمية مبنية على إحترام كل طرف للآخر وإشراكه إياه في كل جوانب الحياة،
اجتماعية كانت أو اقتصادية. إن الوثيرة المنخفضة لقدم المهاجرين الأوربيين
لا تسمح لنا - على الأقل في الوقت الراهن - بإحلالهم محل الأهالي، حيث

يتعين على الدولة دفع كل تكاليف الهجرة أولا بهدف إحضار أكبر عدد ممكن من الأوروبيين، ثم التفكير في مخططات إقصائية تتمكن بواسطتها من إنشاء مستعمرات أوروبية محضة في المناطق المراد احتلالها و تكون خالية من الأهالي العرب. نعم، يتوجب على الدولة الفرنسية دفع كل ما يكلفه قدوم المعمرين وإلا فإننا لن نستطيع استغلال الأراضي التي ستركها العرب. نظرا إلى كل هذه العراقيل فإنه يستحسن بل و يتوجب علينا معاملة العرب معاملة حسنة و المحافظة عليهم بيتا إذا لم نرد أن نجد أنفسنا محاطين بأراضي خالية، لا تقدر على استصلاحها و استغلالها و لا نستطيع حتى توظيف العرب لخدمتها في صالحنا. من كل هذه المعطيات التي ذكرت فإنني في إدارة الأهالي أنطلق من مبدأ احترام الأهالي و المحافظة عليهم بهدف إبقائهم على أرضنا.

إن نظرة الشعوب نحو الدولة و طريقة ممارستها للحكم، تختلف من شعب لآخر، فمثلا نحن الفرنسيون نتقبل كل أنواع الحكم و كل الممارسات السلطوية دونما أي تدمير أو شكوى و ندرك أن كل ما تقوم به السلطة، غامضا كان أو معقدا، يصب في صالح الشعب حتما، إلا أن هذا التقبل و الانصياع لا ينفي وجود نوع من الحرية السياسية في إبداء الرأي. أما العرب فهم في معظم الأحيان خاضعون و متقادون تحت سلطة الرجل الواحد، ذلك الرجل الذي يملك حصريا حق التحكم و التصرف في كل ممتلكاتهم و حتى أرواحهم، لهذا فإن حرية إبداء الرأي و المناقشة السياسية و الانفتاح على القرارات المتخذة من طرف السلطة، تعتبر في نظرهم من أبشع صور اغتصاب السلطة. لهذا

من لم الغياء السياسي أن تشين نظاما سياسيا مشابها لذلك الذي تتبعه في فرنسا و تتعامل به مع الأهالي العرب. يجب علينا ترك العرب يحكمون أنفسهم بأنفسهم، أي أننا سنعتمد نظام حكم علي ذاتي أساسه القاعدة الاجتماعية و العرف السائد في أوساط الأهالي العرب، مع إدخال بعض التغييرات التي من شأنها جعل هذا النظام يتأقلم مع عادات و احتياجات الفئة الأوروبية في هذه الأثناء، علينا تركيز اهتمامنا و إعطاء الأهمية اللازمة لذلك الجزء من البلاد الذي يسمى "الفحص" خاصة و أنه يحتوي على مجموعة معتبرة من الأوروبيين. في عهد الأتراك كان الفحص يقسم إلى سبعة مقاطعات، على رأس كل مقاطعة شيخ، يساعده في إدارة شؤون المقاطعة قائد الفحص، أما في عهد كونت إيرلون فقد قام بتقسيم الفحص إلى قرى و وضع على كل قرية حاكم أوروبي له سلطة مطلقة على كل السكان سواء كانوا أوروبيين أو عرب. سيدي الحاكم، بتاريخ 11 ماي أصدرتم قرارا يقضي بعدم خضوع الشيخ لسلطة الحاكم، مما يحول للشيخ إصدار قرارات نافذة غير قابلة للمناقشة، إلى أطلب منكم إعادة النظر في هذا القرار، ذلك لأن تواجد شعبين من أصل مختلف في فحص واحد، لا يقتضي بالضرورة خضوعهما لحكم إدارتين مختلفتين، إذ أن ذلك يوحى بالإنقسام و الفرقة مما لا يخدم مصالحنا. في المقابل، أعتقد أن أفضل طريقة لإدارة الفحص في هذه الظروف تتم بتقسيمه إلى أربع مقاطعات، حيث يحول إدارة كل مقاطعة لرجل أوروبي، هذا الموظف الأوروبي المأجور سيكون تابعا لسلطة العليا للدولة الفرنسية و متعلقا بها أكثر من تعلق الحاكم المحلي الذي

يتمتع باستقلالية نسبية خاصة فيما يتعلق بإدارة الأهالي العرب و المعمرين. يحكم هذا الموظف المعمرين الأوروبيين بطريقة مباشرة و تسري القوانين التي يصدرها على الأهالي العرب بطريقة غير مباشرة عبر الشيخ. يجب أن تأخذ طريقة الحكم طابعا عسكريا يضيف عليها الهيبة و يفرض احترامها و حتى الخوف منها على كل المواطنين، يعود ذلك إلى أن المستعمرات التي نحن بصدد بنائها في إفريقيا ستواجه وسط شعوب ناثرة اعتادت الحرية، فما من سبيل لفرض هيبتها عليها إلا القوة و التنظيم العسكري.

الأحياء الأربعة للفحص هم: بوزريعة؛

دالي ابراهيم، وتشتمل على الأحياء القديمة التي هي بني مسوس، زاوية، وعين زبوجة؛

بئر خادم؛

القبعة، وتشتمل على الأحياء القديمة للحمامة و القبعة).

وظائف قائد الفحص تقتصر على إدارة شرطة الفحص من الأهالي، و حراسة الطرقات، و تأمين مخيمات القادمين من مختلف نواحي البلاد بغرض التسوق في سوق العاصمة.

إننا ننتهج هذه السياسة في الفحص باعتباره مكونا من شعبين مختلفين، لكن هذه السياسة لن تلتزم و طبيعة العيش في الساحل و السهل، حيث ينعلم الأوروبيون باستثناء بعض أصحاب الحانات و الملاهي، فإنه من غير الطبيعي لحكيم أوروبيين على أغلبية ساحقة من العرب. في هذه المناطق ستبقى الإدارة العربية تحكم لوقت أطول. أما مناطق بني خليل، بني موسى، و خشنة فتكون

الإدارة فيها بالشكل التالي: يكون على رأس كل منطقة قائد خاص بها، ولتحكم كل شعبة أو حوش إلى شيخها الخاص، إذ أنه من غير المنطقي حصول الأقلية الأوروبية التل تعد على الأصابع - و الذين لا يملكون شيئا و لا يقدمون أي خدمة لنا - على حكم أوروبي، هؤلاء الأوروبيون عليهم التقيد و الخضوع لما يهليه المحاكم، خاصة بالنظر إلى عددهم الضئيل جدا، و قد أرفقت مذكرتي هذه بقائمة تضم أسمائهم و هي كالتالي:

في خشنة يوجد:

السيد موشيه، في منطقة راسوطة، و معه حوالي خمسة أو ستة عمال.

السيد مرسية، في رغاية، و معه من ثمانية إلى عشرة أشخاص.

في بني موسى يوجد:

المزارع السيد فيالار في حوش بكري، و معه ثلاث أو أربع رجال.

السيد مونتاني في بن شنوف، و معه خمس أو ست رجال.

السيد مانت - قيلهام في حوش كاتب، و معه خمس أو ست رجال.

السيد كلافي في حوش بوقندورة، و معه خمس أو ست رجال.

السيد مونتاقو في حوش عيسوس، و معه خمس أو ست رجال.

مأمور السيد الماريشال كلوزال في بابا علي و معه رجل أو اثنان.

السيد دولوناي في حوش بابا اولاد احمد (المنشأة المقامة مؤخرا).

أما على مستوى بني خليل فليس هناك أي منشآت معزولة، حيث أن

المنشآت الصغيرة و بوفاريك لا تحتويان إلا على الملاهي و الحانات التي ملأت

الغزل و أجساد جتودنا بالسموم.

من المجهول أن نضع الأهالي تحت رقابة شرطة منطقتي الدويرة و بوقاريك،
و منع منحها الوجود المدني التي لا تطبق أن تتحملة بعد.

مترك العرب يارسون حياتهم بالطريقة التي اعتادوا عليها، و مستدع مساحة
من الحرية للأهالي، لكننا مستدع الرقابة على الحكام، فمن دراستنا لسلوكائهم
تبين لنا أنهم يميلون دوما إلى الفساد و الإختلاس. لكل قايد الحق في جباية
الخراج المتعلق بكل النشاطات التجارية القائمة في منطقته، و يكون هذا الدخل
مخصصا لاحتياجات المنطقة من إصلاحات و أشغال عمومية، وله الحق في
استحداث الغرامات التي يراها مناسبة و فرضها على مرتكبي المخالفات و
الجرائم. يتحصل القادة على ثمين في شكل مواد غذائية استهلاكية و ذلك لإقامة
المأدبات و استضافة عدد من المدعوين بموجب وظيفتهم الحكومية، لكنهم عادة
ما يقومون بتجاوزات و اختلاسات لهذه المواد الغذائية و يستغلونها لمصالحهم
الشخصية، و للحد من هذه الظاهرة و جب علينا وضع بعض القواعد التنظيمية
و هي كالتالي:

1* تحديد العلاقات بصورة جد حازمة و منع الصداقات بين القضاة و
القادة.

2* إصدار تعريفة غرامات على كل من يقوم بالاختلاس و إعلام القادة
بذلك.

3* تحديد كميات اللون الغذائية التي يتحصل عليها القادة بطريقة دقيقة حتى
لا يشتري للقادة إختلاسا.

نؤكدوا سيدي الحاكم أنني لا أطلب منع هذه التمويلات أو إلغائها، لأن
ضيوف القايد هم غالبا من المجلس الحاكم، و لأن للعرب باع طويل في الكرم
و الجود و حسن الضيافة، و هي كما تعلمون خصال لا يمتاز عنهم عليها عاقل.

القضاة الأوربيين الملحقين بإدارة العرب هم المراقبون الطبيعيون للقادة و كما
لا يخفى عليكم، فهي مهمة تستوجب أن يكونوا على درجة عالية من القضاة و أن
يتمتعوا بصيرة و حسن عال من الدقة، لأننا مع استفادتنا من مراقبتهم للقادة
وأننا نأمل بإزهاقتهم.

إن الحكم عند العرب هو من البساطة بمكان، إذ ينحصر في إجراءات
أبسط ذات كفاءة عالية (شرطة، درك...) مهمتها حماية الشعب من الصوم،
مكافحة الخراف و محاولة الحد منها خاصة في الأراضي الزراعية باعتبارها
مصدر الأساسي لقوت الشعب، التأهب لاستدراك و منع حدوث الشجارات
البلدية، التأكد من أن يحصل كل الأهالي على حقهم من الماء و ذلك بحفر السواني
و وصلها بالمسالك النهرية، وأيضا تقوم بدور السلطة التنفيذية و التأكد من تنفيذ
في الأحكام القضائية. و كل هذا هو من اختصاص القايد أما السلطة القضائية
فهي يد القضاة، و لفهم دورهم بوضوح، أقدم لكم هذا الشرح المختصر في
الحقوق يتعين على القضاة معرفة القضايا المدنية و الإجرامية، لكن الأثر
زعرا منهم القضايا الإجرامية و تركوا حصرية الفصل فيها للقادة السياسيين
الذين و الأهل، و لم يتبق لهم إذن سوى القضايا المدنية حاليا يستحسن إعادة
القضايا الإجرامية إلى القضاة، و قد بدأنا أصلا في تطبيق هذه التغييرات خاصة
في العاصمة مطابقة بموجب المرسوم التنفيذي الصادر بتاريخ 22 أكتوبر
1998، المحتوي على الوثيقة الرسمية لـ 10 أوت 1995، والتي لم يلائم
أو معارضة أو عرق من القضاة في العاصمة لكنه يحتاج إلى نشر و إعلان على
مستوى القرى، لأن القضاة يترددون في تطبيقه، في كل قضية جديدة تعقد في

جديد، إذا كانت خطيرة. في حين يبقى من صلاحيات القائد تنفيذ العقوبات الخفيفة (القرع بالعصا، الغرامات النقدية...)، و يحق له كذلك معاقبة كل الذين يرتكبون مخالفات أثناء قيامه بجولته اليومية، أما إذا رفعت هذه المخالفات إلى القضاة الذين هم مطالبون بتطبيق القانون فإن مرتكبي المخالفات يحالون على السجن الاحتياطي ريثما يبت القاضي بالنظر في قضيتهم، وفي هذه الحال غالبا ما تكون العقوبات أشد وقعا من الجلد أو الغرامة. أما فيما يخص الجرائم المرتكبة على الطرق الكبيرة، كالسرقة المسلحة مثلا أو سرقة العصابات، فإنها يمكن أن تعرض مرتكبيها لعقوبة الإعدام، وتعرض في العادة على المحاكم الإدارية الخاصة حيث يعتمد غالبا على اجتهاد القاضي للفصل فيها، ومنه فإنني أطلب منكم إنشاء محاكم إدارية تكون الأحكام الصادرة عنها وليدة اللحظة لا القانون. تكون هذه المحاكم مكونة من عسكريين فرنسيين وقاضي معين من طرفكم، وتقوم بمعاملة الأهالي يمثل ما كان يعاملهم به الأغا في عهد الأتراك وتكون لها صلاحيات العدالة الإجرامية، لكن مع ضمانات أكثر من حيث أن أحكامها تخضع لمراقبة الموظفين الحكوميين. إن الظروف التي نمر بها حاليا هي ما يشعري بضرورة إنشاء هذه المؤسسة وإحاقها بالسلطة القضائية في أقرب الأجل، لكنني أدع بين يديكم حرية إلغائها أو حلها حينما ترون ذلك مناسبا.

إن التمييز بين السلطة الجزائية العادية والسلطة الجزائية العليا أو السياسية يعتبر شيئا مألوفا لدى الفكر العربي، ولتوضيح ذلك دعوني أشارككم بعض ما أرسله لي أحد قضاة العرب المعروفين:

"...أما الأشخاص الموكلون بإصدار العقوبات الجزائية وتحديد مصير القتلة

والجرائم، فهم بطبيعة الحال القضاة وذلك لدرايتهم بأمور القانون. في هذه الأثناء يحق لحاكم البلاد -السلطان- إصدار قوانين من هذا الشكل، بصفتي القاضي الأول في البلاد وسلطته مستمدة من القانون".

"القادة هم الحق في التعامل مع لصوص الطرق الكبيرة، الغارين من العدالة، ومعتصي أملاك الآخرين بالقوة."

باختصار، سيدي الحاكم، رأيي هو أن ندع الإدارة للأهالي كما اعتادوا عليها ولا نضج لهم فيها بقدر الإمكان، وأن نتجنب إزعاجهم بالرسميات المتعددة، ولكن ذلك لا يعني أن نهمل حراسة ومراقبة كل خطوات قادتهم ومكافحة الاختلاس بكل ما لدينا من إمكانيات، وفي النهاية يجب علينا انتزاع سلطة العقوبات الجزائية من المحاكم العليا وإعطائها للقضاة.

6.

وثائق متعلقة بإدارة الماريشال كلوزال.

الوثيقة 1.

تقرير حول المؤسسة المزعومة لإنشائها في مصب النافقة، مقابل جزيرة رشقون.

لقد قمنا في شهر أكتوبر 1835 باحتلال جزيرة رشقون وذلك لعدة أهداف منها: 1- مراقبة و منع التصدير غير القانوني للحبوب، 2- فتح معبر تواصل مع تلمسان التي كانت قلعتها مشغولة من طرف الأتراك الذين قاوموا من أجلنا. إن احتلال الجزيرة لم يعد كافيا، لأنها لا تفتح لنا أي جهة على الساحل الممتد على طول 2000 متر، و لا تسمح لنا بربط الاتصال، و لو بالبريد، مع تلمسان. لكن بعثنا الأخيرة لوهران، التي قادتنا إلى تلمسان، نعتزف أن الوسيلة الوحيدة للاتصال مع هذه البلدة هي رشقون. انطلاقا من هنا، لا يوجد من هذه النقطة، إلى تلمسان إلا 14 فرسخ و باستطاعتنا عبورها في يوم أو يومين على الأكثر، في حين أن المواصلات عبر البر تتطلب 6 أيام مشي تقريبا. لهذا فإن إنشاء منشأة على ساحل رشقون هو أمر لا بد منه، علينا الإسراع في إنجاز هذا المشروع وإتمامه في أقرب الاجال لتموين كتيبة تلمسان.

إن الظروف لمي مهياة لنا و في صالحنا لبناء هذه المنشأة، حيث أن قبائل الشرق انصاعت لنا كليا، وأهالي الجانب الأيمن لنهر التافنة مستعدون لإيقاف المقاومة... كل هذا نتيجة للغزوات التي قمنا بها في معسكر وتلمسان والتي تركت أثرا بالغا في نفوس الأهالي، أما عبد القادر فهو لا يستطيع حتى جمع بضع المئات من الرجال.

للاستيلاء على مصب التافنة علينا أمامنا واحد من الحلين :

الأول يتمثل في القيام بإنزال عسكري،

والثاني هو انطلاق جيش من وهران مارا بكل منطقة الساحل.

الحل الثاني هو الأفضل، ذلك لأن إمكانيات النقل البحري متوفرة ولا نحتاج حاليا إلا لباخرة إضافية وبعض الزوارق القوية لنقل كل المعدات التي وصلت إلى تلمسان في شهر جانفي الماضي بعد استيلائنا عليها.

الأعمال المطلوب تنفيذها.

1° بناء جسر يمتد من الضفة الشرقية لنهر التافنة حتى موقع الإنزال.

2° وضع كازمة مدعمة في مقدمة الجسر لتوفير الحماية.

3° وضع كازمة ثانية على الجسر حتى تسهل الاتصالات مع تلمسان.

ولتأمين الحماية المنظمة يلزمنا توفير الوسائل التالية :

ثلاث مجموعات من خبراء المتفجرات حيث مجموعة منهم من العاصمة 400 إلى 500 عامل من جنود المشاة.

مجموعتين مكونتين من ثمانية رجال على الجبهة الأمامية.

مجموعتين مكونتين من ثمانية رجال يتموقعون في رأس الجسر.

أما فيما يخص الحماية فهي ستكون مكونة من 300 رجل في البداية موزعين على توجين يتمركز أحدهما في الجبهة الأمامية والثاني في رأس الجسر، والثاني يوزع على الكازمتين.

تستطيع أن نقدر مدة العمل بشمانية إلى عشرة أيام لكن هذه المدة معرضة للتقصان حسب نوعية الأرض التي ستواجهنا وحسب عدد العمال الذين سيكونون تحت أيدينا.

وجود الباخرة التي حدثتكم عنها أنفا ضروري، وذلك لاحتياجنا إليها كخفة جر مع الزوارق الناقلة للعدة من الجزيرة، كما أننا نستعملها أيضا لغرب الساحل إذا ما تطور النزاع المسلح مع الأهالي العرب.

الجزائر في 14 أفريل 1836

سيادة العقيد مدير التحصينات،

توقيع لومرسي.

بجال فورا على التنفيذ،

توقيع الماريشال كلوزيل.

نسخة مطابقة إلى:

الملازم العام، قائد القوات المسلحة في إفريقيا،

توقيع الفريق بون راباتل.

نسخة مطابقة إلى:

توقيع قال دارلاتج.

الوثيقة 2.

مدونة حول الجزائر العاصمة، مكتوبة من طرف السيد دوراسي وموجهة إلى كافة الوزراء.

19 جويلية 1836.

"الله أراد ذلك إنها مشيئة الله، ولا خيار لنا غير الخضوع للأتراك" هذه هي العبارات التي كان يرددتها العرب تحت حكم الأتراك، شعب قبل الاستعمار حني وهو في أوج قمعه.

بغرض إخضاع الشعب الجزائري وإجباره على تقبل وجودهم، استعمل الأتراك أداتين أساسيتين هما الوحيدتين اللتين على كل مستعمر لهذا الشعب استعمالهما إن أراد النجاح، الأولى تتمثل في فرضهم للطاعة التامة والشمولية في كل شيء، والثانية هي إطراء وتملق كهرياء وجشع البعض منهم بهدف استمراقهم في إخضاع باقي فئات الشعب.

تبع عن هذه الحطة الشيطانية تفرق وحقد وكره تطورا ليصبحا حربا عرقة بين مختلف القبائل المكونة للشعب الجزائري، واستطاع بذلك 18000 رجل تركي فقط، إخضاع شعب بأكمله.

كان العرب يمتقنون هذا الاستعباد لكن مع ذلك كان لسان حالهم يقول هذه مشيئة الله ولا مفر لنا منها.

وهذا اندثرت الجنسية العربية.

عند قيامنا باستعمارنا الجزائر حاول الجزائريون طردنا بكل بغض وكره ذلك يرجع لكوننا مسيحيين، لكنهم تخلوا عن بعض من ذلك الغل تجاهنا لما

وأولاً نخلصنا لهم من الأتراك. لقد نكون في أذهان الجزائريين صورة عن الدولة الفرنسية العظمى خاصة بعد التجازات الإمبراطورية نابليون وكل الفتوحات التي قام بها في الشرق، بضاف إلى هذا التفوق العسكري الواضح لجيشنا عند استيلائنا على العاصمة، وكلها عوامل ستساعدنا على التغلغل بسهولة نسبية في أراضي الجزائر خاصة مع جهل الجزائريين بما ينتظرهم، و توافي بهم بقولون مرة أخرى :

"لقد كنا أمة عظيمة، لكننا عالينا الأمرين تحت وطأة الأتراك، فأرسل الله لنا الفرنسيين لخلصونا منهم، الفرنسيون هم أسيادنا، إنها مشيئة الله"

بإرادة وحزم عاليين من الحكومة، وبخطة إخضاع مدبرة بإحكام ومنفذة بكل حذافيرها، سيكون الاستعمار أكثر سهولة وسرعة، وستكون تكاليف هذا الاستعمار قليلة نسبياً، وستحافظ على سمعة الإمبراطورية الفرنسية العظمى. لكن الظروف لا تسمح لنا بكل هذا نظراً لاستفادتنا لكل طاقاتنا الفكرية والعسكرية في أوروبا.

منذ اللحظات الأولى من احتلالنا لمدينة الجزائر، تميزت الإدارة الفرنسية بهذا الحقد، هذا الغرور، هذه الخفة، تجاه رجال لم نعرفهم حق المعرفة، لم نقدر ماضيهم، آدبنا الأخلاق ومصالح الأمة، تعاملنا معهم دون خطة محددة، وقابلنا أقل مقاومة بإنكاسها وإحباطها وقابل ذلك احتقار ممزوج بحماقة ووقاحة من طرف الجزائريين.

لقد كدسنا 30 ألف رجل في مكان يستطيع بالكاد أن يحتويهم، بدلا من إنشاء المعسكرات والمواقع العسكرية، عندما نحمل أسلحتنا فإننا نفعل ذلك من أجل إظهار قوتنا فقط، من دون أي دافع نبيل، من دون أهداف حقيقية

عندما نولد نتائج محزنة أو ممكنة، إننا بهذا نعلم العرب كيف يقارموننا بل كيف يرموننا أيضا. الأهالي الذين يقفون بجانبنا ويشاقعون عن مصالحنا، هم في غمرة اللهب، السرقة، والقتل. القوضي تعم كل المحافظات، نحن لا ندم حكومة للذين يريدون حكمتنا، ولا نعاقب بحزم من يستحقون عقابا، نحن نقرم بعزل الحاكم واستبداله قبل حتى أن يفهم المهمة الموكلة إليه، وليس علينا على أي عربي أن الحكومة الفرنسية لا تعي ما تفعل، وأن مبعوثيها إلى بريليا هم بدورهم تائهون.

حذرون لا يدرون ما يفعلون. العرب لا يعطوننا أي أهمية، وقد بدأ يتبادر إلى أذهانهم ثورة كبيرة.

إنه بلد كبير ومحترم ومقدر وبارع.. يعتمد على الجبهة الغربية لأن هذه الجهة تتكون من رجال أغنياء ومولعين بالتأمر، هذه الجبهة التي عاشت بيتا، ولم تحمل آمالا مشرقة وتحلم بإعادة تجديد بلدها، وقد بدؤوا فعلا بجمع القبائل الكبيرة وخاصة المحاربة منها، بهدف توسيع امتداد سيطرتها والتقليل من اعتمادنا بل واضطهادنا ثم حشرنا في بعض المناطق الساحلية، كل هذا في ظل وحدة جنسية عربية، يتوجب علينا طمسها، أو التفتقر في عار وصمت أمامها. أما فيما يخص الأمير الجديد، فإن وقت كشف القناع قد حان، لقد نصب نفسه ملكا على الأرض في إفريقيا في حين أنه منحنا السيطرة على الإقليم المائي، لكنني متأكد أنه سيخرق معاهدة السلام قريبا وسيهيئنا على الملأ. إنني كعقيد ليسى لجروح القلب ولكم أتمنى أن أدخل في حرب معه دون حساب قوتي، لأن نهاية هذه الحرب هزيمة هو طعن في قوتنا وسيزيد من ثقة الأمير في قدرته على مهنا والإطاحة بنا. بالفعل، فبعد انتصاره ها هو قد شكل جبهة صار فيها

الملك الحقيقي، والسيد الوحيد. إنه المسيطر في كل ربوع البلد، وحتى إن لم يكن كل الأهالي معه إلا أنه لا أحد يجرأ على حمل السلاح ضده أو مقاومته، ما أقواله... لقد وجد مناصرين خطاء، فهاهو ملك المغرب يمدده ويدعّمه بشتى أنواع الأسلحة، وهاهي تركيا تشارك خطوته وتعلن صراحة أنها لن تتوانى في تقديم الدعم له، وما يتورع من خلفها هو التخطيط لتسخير هذه الانتفاضة لخدمة مصالحها في المنطقة، نعم إنها الجبهة الغربية وهي تعمل بكل ما أوتيت من قوة من أجل عرقلة مشاريعنا، لم تعد تخشى خلف الظلال كلاً، هي اليوم تعمل في وضوح النهار وتحبك مؤامرات بيتا أقل ما يقال عنها أنها جد فعالة، استطاعت جمع مناصرين في كل المناطق، حتى في باريس لديه معوثون معروفون.

كل هذه الظروف السيئة في إفريقيا ضدنا ولا نخدم مصالحنا البتة، وتجعل المعنيين بالتحرك -الحكومة- يشعرون بقهر لا مثيل له، جعلهم يصمتون عن هذه المزايم، هذه الحكومة التي لا تنفك نطالبنا بالانتقام لهذا الإخفاق العسكري، وبإعادة الحياة للجيش الفرنسي. هي حتماً مشغلة بمصالح أخرى في مناطق متفرقة من إفريقيا، قد نست أو نناست جزءاً من جيشها هو الآن محاصر في الشمال الإفريقي، منهزم، انقطعت عنه المئونات إلا بعضاً منها عن طريق البحر، يهان هذا الجيش من طرف الشعب ويعود عبد القادر ليهزمه في كل مرة.

"أنا أقوى من الملك الفرنسي -هكذا يقول عبد القادر في تصريحاته- يلزمه وقت ليستجمع قواه بعد المزايم التي ألحقتها به، أما أنا فلدي 20 ألف و 30 ألف رجل جاهزون عند إشارتي!..."

من حسن الحظ، ومن أجل تكذيب هذه التصريحات الوقحة بطريقة صارمة، فإن وريث العرش بنفسه جاء ليهدينا الانتصار تحت راياتنا: في حملات معسكر و

تسليته قللت من غرور الأمير عبد القادر وقوته. لماذا هذه النجاحات الباهرة في قسط مؤلمة؟ لماذا يتوجب علينا اليوم حماية هذه العوائق التي قصمت ظهر الأمة الفرنسية؟ لماذا يفرض علينا مشاهدة كل المجهودات التي قمنا بها طيلة ست سنوات تلتا؟ لماذا يهان جنودنا ويهزمون من جديد؟ لماذا يهزبون؟ هل كانت كل انتصاراتنا مجرد بريق زائل؟ وهل هي بداية الزوال؟ إن أسس معاني النصر عند هؤلاء لم تكن في إهانة العلم الفرنسي. إن كل هذه المزايم التي قد أخلت الشك في نفوس جنودنا وشعبنا العظيم، فهاهم اليوم يتسلطون على تلك الانتصارات التي حققنا في معارك تلمسان ومعسكر، هل كانت مجرد حظ؟ هل كان الانتصار عائداً إلى ضعف خصمنا أم إلى قوتنا؟ هل انتصاراتنا أقرب لأن تكون ثروات منها إلى خبرة حرب؟ وإذا ما كانت انتصارات وطق معارك عديدة ونقطه بالحكام، فلماذا يا ترى تأتي هذه النكسات الآن؟ أين لنا نحن بإجابات عن هذه الأسئلة إذا كانت حتى الحكومة الفرنسية لا تملك أدنى فكرة عما يجري.

كل الفرنسيين يتذكرون حجم الميزانية -1.200 مليون فرنك- التي أنفدناها لغزو إفريقيا ورغم أننا دخلنا في سلام مع كل أوروبا، مما يعني أن جيشنا يقاتل على جبهة واحدة فقط، إلا أننا نهزم ونتقهقر على سواحل إفريقيا مهالين مسجونين مطهرين.

في الرأي العام الفرنسي ساكتاً، ذلك لأن لا أحد يقبل أن يرى الدولة الفرنسية مهزومة وأن فكرة احتلالنا للعاصمة الجزائر تسبيل لعاب الكثير من الفرنسيين أيضاً فهم يوقعون مسئولية كبرى على الحكومة الفرنسية، التي يجب عليها في هذا الوقت المخرج دعم احتلال إفريقيا بكل ما أوتيت من موارد. لقد حان الوقت لفعل شيء في إفريقيا، الرجوع إلى الوراء مستحيل، خاصة بعد كل ما أنجزناه، هزيمتنا في

المعركتين السابقين يجب أن لا تتكرر، ولن تتكرر، وإلا فإن كل المستولية ستقع على عاتق الحكومة الفرنسية وحدها.

علينا، وبدون أي تأخير، نبنى نظام استعماري في إفريقيا، نظام محكم ومدير، مكون من جنود وقادة، من تدعيمات مادية، من أموال، من مواد غذائية، ويفترض على كل هذه العناصر العمل لاحتلال الجزائر بكل تنظيم، ليس كما يفعل الجيش الحالي، الذي حتى بـ 30000 جندي لم يستطع بل ولم يعرف حتى إتمام الحرب.

كفانا ذلك، كفانا انهزامات، كفانا ضعفا، ما يلزم بلدنا الآن هو القوة والكفاءة، من أجل إظهار قوتنا وسط أوروبا الطامحة. من كلامي أرى الأسئلة تتبادر إلى أفهام الفرنسيين، هل يستوجب هذا حملة روسية، هل هذا يعني صرف المزيد من الأموال؟ هل يعني إفراغ الخزينة واستنفاد الموارد؟

وأجب قائلا أن لا شيء من هذا القبيل سيحدث، وأن خطتنا الجديدة لا تستلزم عددا أكبر من الجنود ولا حتى أموالا أكثر، سنحافظ على نفس الميزانية التي أقرناها منذ ست سنوات، وسنعمد في تغييرنا على أمور تنظيمية بحتة، وسنأخذ بيد إفريقيا إلى التعمير والحضارة، وإن لم نستطع القيام بذلك، فالأحسن لنا أن نعدل عن احتلال إفريقيا ونعود إلى ديارنا. كل ما يلزمنا هو إرادة حديدية وأن نصرخ بأعلى أصواتنا، وأن نصرخ أهاليها في فرنسا معنا: كفانا ذلا، كفانا ضعفا، كفانا مهانة.

يلزمنا لتحقيق هذا الهدف تدعيمكم بـ 50.000 رجل يكوتون في أظهركم ويكونون من مهمتكم جميعا الإطباق على العدو بين جبهتين بحيث لا يتسنى له الفرار، ومن ثم أعمال الدبج والقتل فيهم كما ينقض الصياد على فريسته، بهذا نتعد عن البحر وندفع بهم إلى التوغل في أرضهم ومن ثم بناء مناطق عسكرية تسعنا وتكون لنا معميات دفاع ومعسكرات نعود وننهقر نحوها في حالة الضعف والانهزام!

إذا لم نسكم القبضة على تلمسان في أسرع الأوقات، فإننا نواجه خطرا أكبر من خطر مواجهة أهاليها لنا، وهو خطر استيلاء ملك المغرب عليها أو زحف جيوش أوروبا الموجودة غرب إفريقيا والتي تتحين فرصة استسلامنا للانقضاض عليها إذ أنها تعتقد أن الخلل موجود في جيشنا وأنه لو كان الأمر إليها لاستطاعت إخضاع تلمسان بسهولة، تلمسان هذه المدينة التي صمدت أمام أعنى ألياننا وأرنا الويل من وضعنا أقدمنا على التراب الجزائري.

بعد ذلك تأتي مدينة قسنطينة التي تستوجب مكانتها الاستراتيجية السرعة في إعداد خطة لاحتلالها خاصة وأن احتلالها سيسمح لنا بمراقبة واحتواء وقمع كل المؤامرات التركية المعادية ومن قسنطينة نكون في نفس مستوى المستعمرات الأخرى مثل تونس وطرابلس.

إذا لم نستطع السيطرة على هاتين المدينتين وأبقينا في نفس الوقت 50.000 جندي من قواتنا على تخوم سواحل الجزائر ووهران وعتبة قننا متجدة أمامنا ثورات شعبية لا تحمد، يكون أبطاها رجال لا يكلون ولا يملون مهم الوحيد بحماية الجيش الفرنسي وإضعاف معنويات جنوده بل وإحباطهم ومن ثم إرغاسا على استدعاء مدد من 30 إلى 50 ألف رجل والرجح بهم في خضم المعركة حتى تكون نهايتهم كسابقيهم من الجنود، محاصرين من دون مؤن.

لا شيء يمنع هذا الشعب الجزائري رغم كل فروقاته وعصيته من التوحد والنكتل من أجل تجويعكم وتشيتكم، بهدف إعادتكم من حيث أنتم، لكنه لن يغدر عليكم إذا تحلستم بالعزم والإرادة وإذا جعلتم هدفكم نصب أعينكم وعصمت تخطيط محكم، أحكموا إفريقيا بقبضة من حديد ولا تدعوا هؤلاء الذين يغترون هلاككم فرصة للتنفس إلا بأمركم، عليكم بتشكيل شبكة من المستعمرات يكون لكم فيها الحكم المطلق وبهذا توهنون ضربات عدوكم وتحاصرونه.

من أجل القضاء على هذا العدو المبالغ كثيرا في قوته علينا - كما قلت مرارا وتكرارا - إيقاف دُحف قواتنا المتواصل منذ ست سنوات، ويتعين علينا إيقاف الحملة التي نقوم بها كل خريف... في الوقت الراهن يجب علينا الاهتمام أكثر بكل ما هو إداري وكل ما يتعلق بتنظيم ما يوجد تحت أيدينا أصلا، علينا مراقبة العرب عن كثب في كل النقاط ومنع كل التجمعات وكل المناقشات التي تنحصر أصلا في إعداد المؤامرات من أجل الإطاحة بنا، على البايات المعينين على رأس كل منطقة فرض وجودهم واحترامهم على الأهالي، وسنعمل على ذلك بمساعدة القوات الفرنسية الموجودة بجانبهم، علينا الشروع في بناء المستعمرات بوتيرة أكبر، إلى جانب ذلك فإن قوافل المعمرين الأوروبيين التي بدأت في الوصول إلى الجزائر ستأخذ قريبا مكانها في المستعمرات وتجنب قسما كبيرا من جنودنا عبء التعمير.

النقطة السوداء فيما يخص مقاطعة وهران هي أننا لا نحتل فيها إلا نص دائرة، في هذه الأثناء من المستحسن إضافة 4.000 أو 5.000 رجل يستطيعون التقدم من منطقة لأخرى مع انتصارهم على كل من يواجههم.

أما فيما يخص مقاطعة الجزائر فأنتم لم تتقدموا فيها إلا حتى بوفاريك، في حين سترسل 4.000 رجل متصرفين إلى المدينة مارين بمضيق الشية الشهر.

أما في منطقة قسنطينة، فقد تقدم جيش قوامه 1200 رجل، نصفهم فقط فرنسيون والباقي هم من الأهالي المتمردين، وقد استطاعوا التقدم واحتلال ثمانية عشر منطقة ليس فقط من دون إطلاق أدنى رصاصة، بل أكثر من ذلك، فقد تلقى القائد الأعلى لعنابة مبايعة العديد من القبائل، وهي من أعنى وأشد القبائل المعروف عنها بأسها في الحروب والمواجهات. إننا نسعى إلى التمتع بالطريقة التالية في محافظة الجزائر، في مقاطعة وهران سوف تحتل:

أهالي	فرنسيون	
500	200	مستغانم (بايلك)
0	300	مسنين
0	2.000	وهران
0	1.000	تافنة
500	500	تلمسان (بايلك)
1.000	0	معسكر
0	5.000	السيق (مستعمرة متقلة)
2.000	9.000	المجموع

مقاطعة الجزائر مع تيزي.

أهالي	فرنسيون	
0	3.000	الجزائر، مخازن، مرضى، وإداريين
0	2.000	دون حساب المعمرين في المستوطنات
0	5.000	المراكز بين الجزائر وخط البلدة إلى القليعة
0	1.000	خط البلدة إلى القليعة (مستعمرة متقلة)
0	500	المراكز المتقدمة إلى مصبي نهر التافنة
500	500	مدينة (بايلك)
500	500	مليانة (بايلك)
1000	12.000	المجموع

مقاطعة قسنطينة.

أهالي	فرنسيون	
0	2.000	بجاية
0	2.000	عنابة
0	4.000	معسكر كلوزيل (مستعمرة متقلة)
200		القالا
1.800	1.000	قسنطينة
2.000	9.000	المجموع

الوثيقة 3.

رسالة الماريشال كلوزيل

إلى العقيد راباتل.

باريس في 2 أوت 1836

سيادة العقيد،

إني أقترح عليكم في رسالتي هذه، مخططا يهدف إلى السيطرة الشاملة على
الستعمرة القديمة، والتي توقفت العمليات فيها بأمر من الحكومة.
من أجل وضع هذا المخطط قيد التنفيذ، يكون تحت إمري 30.000 ألف
رجل من الجيش الفرنسي، يحتوي على كل من الزواف والسياس النظاميين،
بالإضافة إلى 5.000 رجل من جنود الأهالي النظاميين، وأخيرا 4.000 رجل
من الملحقين الذين جندناهم خلال فترة العمليات على قسنطينة.
في هذه الأثناء سيصدر الماريشال السيد وزير الحرية أمرا يقضي بإرسال
العدة اللازمة للحملة على عنابة والمتمثلة في :

وحدة حملة ثانية

أربع قطع مكونة من 12 فرقة

ثمانية قطع مكونة من 16 فرقة

أدوات التخيم لـ 10.000 رجل

وسائل نقل للجرحى والمصابين

وبما أنه من المستحيل إرسال العدد الكافي من الأحصنة من فرنسا فإنا
سألتكم في الاستيلاء على بعض الدواب التي تساعدنا في النقل.

ملخص.

مقاطعة وهران	أهالي	فرنسيون
مقاطعات الجزائر و تيزي	2.000	9.000
مقاطعة قسنطينة	1.000	12.000
المجموع	2.000	9.000
	5.000	30.000

الخمسة آلاف رجل من الأهالي سيجندون خلال مدة سنة، أما الثلاثون
ألفا من الجيوش الفرنسية فسوف تعمل على إنقاص عددهم وذلك بسبب
العدد الكبير من العمرين الذين ننتظر إسكانهم في المستوطنات.
بهذا فإن كل المستعمرة ستكون خاضعة لنا، ومنظمة تنظيما معكما،
المستعمرات المتنقلة ستحرص على استتباب الأمن بالتنسيق مع المجموعات
العسكرية للباي.
أما بالنسبة للحرب، فتكون قد انتهت.

العمليات المزمع إجراؤها تنطلق في نفس الوقت في كل المقاطعات وعلى كل حملة التنفيذ بالوصول إلى الأهداف التي سطرناها:
احتلال كل المدن الهامة في البلاد وإنشاء كازمات فيها،
إنشاء مراكز وخيبرات في وسط المقاطعة وموزعة على مختلف النقاط العسكرية التي يجب احتلالها بطريقة دائمة.

التكامل، في منطقة مركزية وإنشاء مستعمرة مركزية من الجنود الفرنسيين يكون بإمكانها التنقل من نقطة إلى أخرى بالسهولة المطلوبة.
وعلى الجنود في نهاية الحملة التمرکز بالطريقة التالية في كل مقاطعة:
مقاطعة وهران.

مستغاثم	أهالي	فرنسيون
0	500	
0	2.000	
0	1.000	
500	500	
1.500	0	
0	5.000	
2.000	9.000	

مقاطعة الجزائر و تيتري.

أهالي	فرنسيون	مدينة الجزائر
0	3.000	
0	2.000	
0	5.000	
0	1.000	
500	500	
500	500	
1.000	12.000	

مقاطعة قسنطينة.

أهالي	فرنسيون	مدينة
0	2.000	
0	1.500	
0	4.500	
2.000	1.000	
2.000	9.000	

ملخص.

أهالي	فرنسيون	مدينة
2.000	9.000	
1.000	12.000	
2.000	9.000	
5.000	30.000	

فلا بد الآن التنفيذ بسرعة، بشدة، كاملة، أتكل، السيد اللوام، عاى تعاونكم.
سوف أذهب إلى الجزائر العاصمة: و إلى ذلك الحين لكم اتخاذ التدابير في كل مكان وخاصة كل ما يساهم في انجاح الحملة.

(1) أصل هذا الجدول، أعطي لوزير الحرب، بهذه الملاحظة المكتوبة باليد
الوزير.

" هذا الرقم يصبح 38.000، بما فيه الزواف و السباهي العائدين، المعتنقون
كقوات فرنسية. لا بد من تنظيم القوات الغير منتظمة التي سيتم إشغالها في لقط
مختلفة، لهذا الشيء أنا مستعد (من 4 إلى 5 آلاف رجل). أوافق أيضا، إذا ذهبنا
إلى قسنطينة، على قوات مساعدة من الفرسان، سوى شهر أو ستة أسابيع، مكونة
من 4 آلاف رجل، بقيمة 50 سنتيم يوميا، و بعض المؤونة.
ماركيز ميزون."

و الذي يكون إيجابيا من 30.000 رجل من فرق فرنسية، 5.000 رجل من
فرق الأهالي العائدين، و 4.000 رجل من فرق الأهالي الغير منتظمين، كليا
39.000

تلاحظون، انطلاقاً من حالة القوات، من الفرنسيين كما من المحليين، المستوجب أن تحتل الاقليم تماماً، أن يملك مستغانم سيتم تحويله إلى معسكرين من القروض أن يستقر الباي ابراهيم والمزاري، مع 1500 رجل من القوات المحلية المأجورين بسعر 1 فرنك لليوم ولكل رجل.

اطلبوا من الجنرال دوليتانغ الاتفاق مع الزعيمين التي قمت بذكرها لضمان تشكيل فيلق لأجل الأول من سبتمبر، متكون من 1500 من المحليين ن كلهم لديهم القدرة على حمل السلاح سواء من الفرسان أو من المشاة، مستعدين للخدمة تحت أوامر باي معسكر والذين سيحصلون ابتداء من يوم تجمعهم وانطلاقهم لهذه المدينة الأجرة المتفق عليها.

سدرج في هذه التشكيلة الأتراك، الكراغلة والعرب، الذين يخدمون في الوقت الحالي بمستغانم، وكل الدواير والزماله والعرب الآخرين الذين يلبون لقاء القائدين ابراهيم ومزاري، بشرط أن لا يتحصل على اجرة سوى الرجال اللاتقنين للقيام بالحرب. يجب استشارة مصطفى بن اسماعيل فيما يخص هذا التنظيم.

هذا الزعيم الخاذق يجب أن يرتب كذلك مع الجنرال دوليتانغ التنظيم النهائي والأكثر أهمية لفرقة من 500 من المحليين الذين سيواصلون أو سيتم استدعاؤهم للخدمة بتلمسان، تحت أوامر الباي. أنه يتطلب أيضاً من كل رجل يتحصل على راتب، كل شروط اللياقة للخدمة فعالة.

يتوجب على الجنرالات الذين يتحكمون بقيادة الاقليم أن يواصلوا بصرامة الحرب على القوات والقبائل التي تعترف وتخدم عبد القادر. ايعثوا بأمر للجنرال بوجو لبحث واختيار، ليس بعيد عن تلمسان باتجاه معسكر، موضع محاذي للحطب والماء وملائم من كل النواحي الأخرى، من أجل إنشاء مخيم مطوق.

بقدر ما تسمح به الظروف، وبعد اختيار مدروس بعناية، يقوم الجنرال بوجو بالبدء أو إتمام أشغال الحفر والتسيج التي ستجعل من المعسكر مركزاً لتأويلها، بحيث أنه سيأمن الاتصالات بين تلمسان ومعسكر.

عليكم بالتداول مع المشرف العسكري مالمسيون دارك حول الوسائل الواجب استخدامها، عندما يحين الوقت لذلك، للإنشاء والمتابعة بشكل دائم لعملية التزويد بالمواد الغذائية بكل من مستغانم، بالثاقفة، بتلمسان وحتى بالمعسكر المحصن بين تلمسان ومعسكر، إذا ما رأينا فيها يخص ذلك الاستغناء في مركز ثابت، والتي يمكن للفرق المشكلة للدعم المتقلة استخدامها والتزود منها في كل مرة يزورون فيها أو يمرون بأحد النقاط التي قمت بذكرها.

وفي الأخير عليكم التنسيق مع عقدهاء المدفعية والمهندسين لترتيب، فيما يخص مجاهم، التدابير التي ترونها مناسبة اتخاذها في دائرة التعليمات الحالية

إقليم الجزائر والنيطري.

بمجرد وصولي إلى الجزائر، سأبدأ عملياتي على البلدة، القليعة، المدينة ومليانة. خدمات التزويد والنقل يجب أن يتم تأمينها. نقطة الانطلاق ستكون بيوفاريك، ففي هذا الميدان وفي الأول من سبتمبر، سيتم تجميع المؤن والمعدات بما في ذلك المعازل التي سيتم وضعها في النقاط الوسيطة بين المواقع التي ستخدها القوات من الشقة حتى المدينة ومليانة.

ستقومون بالتقديم لي عند وصولي، الترتيبات التي حضرتموها لتأمين بأقل عدد ممكن من القوات أمن الميدان بالجزائر والمعسكرات أو المراكز انطلاقاً من تلك المدينة وصولاً إلى الشقة.

يتوجب على الحرس الوطني المشاركة، بطبيعة الحال، في خدمة الميدان. وكل أصوان (الضباط وغيرهم) الإدارة العسكرية يمكن استخدامهم بنسب معقولة.

في الوقت الذي أغادر فيه بوقاريك، معسكر الشقة سيصبح مقرا للعمليات العسكرية لقوات الحملة والذي حسب موقعه سيعتمد على البليدة والقلعة. سيتم اتخاذ إجراءات مسبقة من طرفكم، لأجل أن يتم إنعام هذا المقرر بشكل مناسب، وكما يتم نقل المثنونة من بوقاريك بطريقة سهلة. بالسير نحو المدينة، سأسافر عن طريق مراكز محصنة عند سفح جانبي مضيق التية وعلى مضيق التية نفسه.

نتيجة لذلك، سيكون جيش الحملة مزودا بالمعدات الضرورية للأشغال الواجب تنفيذها، وخدمات نقل المثنونة والمعازل سيتم تأمينها من الشقة إلى المدينة، لنقل المؤن والذخائر التي من الواجب أن تملكها القوات الباقية بهاذين الموقعين.

وأخيرا، سأنتقل من سفوح الأطلس (بالمدينة) نحو مليانة أين سبترك 500 رجل من القوات الفرنسية سيكون لي مثل ما في المدينة وفرصة لتموينهم بالزاد والمعدات.

سوف تقومون بالتشاور، والتحضير لكل شيء، فيما هو من اختصاص رؤساء المدفعية والهندسة، مع المشرف العسكري.

أقليم قسنطينة.

سأوجه إلى عنابة في أجل أقصاه 15 أكتوبر، لأتسلم شخصيا قيادة العمليات العسكرية ضد قسنطينة.

وبذلك، فإنه في ذلك الموقع على الخصوص، يجب إنهاء العديد من التحضيرات وخطوات كبيرة نحو الأمام قبل التاريخ الذي قمت للتو بالإشارة إليه.

تم إصدار أوامر من طرف وزير الحرب للإرسال الفوري إلى عنابة :

1- الكتبة الانضباطية المتواجدة حاليا بكورسيكا؛

2- الكتبة الثالثة من الصف 47 (الفوج المخصص للخدمة بإقليم قسنطينة)، وهي الكتبة التي تكون أو التي سوف تصبح مكتملة بواسطة التجنيد لجند ذوي إرادة صلبة مأخوذين من الأفواج بفرنسا.

3- معدات المدفعية، لوازم التخيم والمركبات الضرورية للحملة. وفور وصول القوات إلى عنابة، سيقوم العقيد دوفيرجي بمسيرة إلى أمام معسكر الدرغان وسيختار موقعا إيجابيا من كل النواحي بين الدرغان وقالة وإنشاء معسكر محصن.

عليكم الاتفاق معه على الفور حول هذه العملية من أجل مساعدته بقدر ما يحتاج إليكم وعلى الخصوص إرسالكم له ثلاث أو أربع معازل التي ستكون ضرورية له بالتأكيد.

وبمجرد الانتهاء من تشييد هذا المعسكر الذي يجب دفع الأشغال به بنشاط كبير، سيتوجه العقيد دوفيرجي إلى قالة إذا ما سمحت الأحداث وعلاقاته الودية مع القبائل، أو سيثبت في الموقع بصلابة وعلى الفور بطريقة تسمح بالتحويل المتتالي للمثنونة والمعدات من عنابة إلى الدرغان ومن الدرغان إلى المعسكر المتقدم أماما ومن ذلك المركز إلى قالة التي ستصبح نقطة انطلاق جيش الحملة ضد قسنطينة.

من المحتمل أن يحدث نقص في وسائل النقل، خاصة الخيول، لدى العقيد دوفيرجي، فيتوجب عليه سد هذا النقص بشراء عدد معين من البغال واستخدام الجمال وحتى الثيران التي يمكن أن يتم تزويدنا بها من طرف القبائل الخليفة. لقد لاحظتم من خلال حالة وضعية وتنظيم القوات، أن 2000 من المحليين غير النظاميين براتب 7 فرنك لليوم، يجب أن يخدموا بقسنطينة تحت أوامر الباي.

عليكم بتوصية العقيد دوفيرجي بالنشاور مع الباي يوسف حول حل العدد
الاجلي على الفور الى 2000 لتفليق المحليين والذي تم تعليق عملية تحييدهم
قبل بعض الوقت. ويتم اختيار الرجال بحكمة وبصيرة.

وباستخدام الأتقي رجل والدعم المرسل من عتابة، كورسيكا وفرنسا،
سيتمكن العقيد دوفيرجي دون شك من التقدم على التوالي الى قلعة كها وضعت
فيما سبق.

وبنأما على هذه التعليقات، يتوجب على المشرف العسكري ارسال طلب منع
الى وزير الحرب من اجل ارسال المعدات الضرورية لتأمين الخدمات التي يمتد
بها في كل المواقع وبدون أي تأخير.

ويتوجب عليكم بنفس القعالية، وبعد الاتفاق مع رؤساء المدفعية والمهندسة،
التسريع بارسال المدفعية والمركبات لفرق الحملة بعنابة. يتوجب عليكم القيام
المباشرة لكل العمليات أو التحضير لها في الأقاليم المختلفة وبالنهائية، كل تفكيركم
وكل مهارتكم يجب أن ترمي الى هدف الوصول بنهاية السنة الى الهيمنة الكلية،
الإخضاع والتهدة للوصاية السابقة للجزائر العاصمة.

يجب الاعلان بعنابة عن وصول جيش معتبر لترهيب الأعداء وتشجيع
أولئك الذين يسرون أو على استعداد للمسير معنا.

سأطلق بعد بضعة أيام، تواصلوا مباشرة مع وزير الحرب الى حين وصول
الى الجزائر.

فكما ترون، أيها الجنرال، الظروف أصبحت ملحة وخطيرة: أدعو الى التماس
والنشاط الذي سبق وأن قدعتم العديد من البراهين وهو ما يستحق الثناء.

تقبلوا مني، السيد الجنرال، الخ

الأجزاء المتعلقة بمعاهدة التافنة.

الوثيقة 7.

ملاحظات الجنرال دامرمون حول الاتفاق المبرم، في السنة 10 من ماي، بين
الجنرال بوجو وعبد القادر، موجهة الى السيد رئيس المجلس وإلى وزير الحرب.

الجزائر في 13 جوان 1837

تم إبرام اتفاقية في الثلاثين من شهر ماي بين الجنرال بوجو والأمير عبد القادر
بنو له لا يمكن تفسير هذه الاتفاقية والتي تنبر آلاف الاعتراضات لتسأل
كيف كان بالإمكان الشكهن بنتيجة مثل هذه لكل المشاريع المعلنة والمجهودات
المقولة من اجل الضعاف الأمير. ونحن بصدد البحث عن الأسباب التي أدت
الى نتائج كذلك الغير متوقعة والجد مؤسفة، والنتائج المترتبة عنها على قوتنا
وبعد استقرارنا في شمال إفريقيا.

هذه الاتفاقية جعلت من الأمير حاكما على الواقع لكل الوصاية القلبية
للجزائر مقوصا منها إقليم قسنطينة والمكان الضيق الذي أصعبه ان يتركه لنا
على الساحل المحيط بالجزائر ووهران. نجعله حاكما مستقلا بما أنه معنيا من
دفع أي جريمة، تم تبادل لمجرمي المطلقين، ولم يتم الحفاظ على الحقوق المتعلقة
بالأموال والصلافة، وأنه سيصبح له أهوان ديبلوماسيين عندنا مثله سيكون لنا

وفي الوقت الذي تم فيه تجميع 1500 رجل بوهرا من القوات الجيدة المقاتلة بإحكام ، والمجهزة بوفرة من المعدات ، وبعد أن تم صرف مبالغ معتبرة ، وفي الحين الذي تم فيه الإعلان عن حرب ضروس ، حرب إبادة بجلاء دون أن يستل السيف من الغمدة ، وفي الوقت الذي كان فيه كل شيء جاهزا للإطلاق الحاسم للحملة بوهرا كما بالجزائر . أقول انه ، وفجأة تم إعلامنا بإبرام معاهدة أكثر ملامة للأمير الذي لو انه كان قد فاز بالمع الامتيازات الا اذا تعرضت قواتنا الانتكاسات الأكثر عارا . فما الذي يمكنه المطالبة به مما يمكننا ان تقدمه له بعد خسارة تامة ؟ قبل ايام قلائل ، كنا نريد أن نجبره وأن نفرض عليه السلام بمعنى وعلى ما أظن أن نعمل عليه الشروط ، وفجأة ودون أن يغير أي طرف من الظروف الظاهرة من وضعيتنا او من وضعيته ، قمنا بإعطائه أكثر مما فكر في طلبه ، ولم يتجرأ على تأمله بالتأكيد اشد المتحمسين المعارضين لاستقرارنا بشمال إفريقيا . لقد قمنا بتوقيع معاهدة غير مشرفة لفرنسا ، وقد تخلينا دون رحمة عن حلفائنا الذين عرضوا انفسهم للخطر من اجلنا و الذين سيدفعون ثمن بأرواحهم ، ويتم وضعنا بشكل ما تحت اهواء أعدائنا . وقبل بضعة أيام كنا نعطي الأوامر بعدم السباح ولتحت أي حجة لعبد القادر بالخروج من مقاطعة وهران ، وحتى أننا كنا نتكلم عن إيقاقه بواد الفضة ، وكنا نصر بكل حق على أهمية الحفاظ على المدينة ومليانة من اجل تعيين بابات مستقلين ونحجب تركيز كل القوة العربية في يد رجل واحد ، وهكذا وبمجرد خط ريشة تنازلنا لهذا الرجل عن إقليم التطري ، شرشال ، جزء من المنتجة وكل أراضي منطقة الجزائر المتواجدة على حاشية الحدود التي سطرها لنا والتي لم تكن له مسبقا عليها أي سلطة أو أطاع . وهذا كل تحضيراتنا وكل معارضتنا وتهديدهاتنا لم تؤد إلا إلى نتيجة اسوء من تلك التي كان من الممكن التوصل اليها لو قمنا بالتفاوض من باريس من خلال أفضل أعواننا الدبلوماسيين دون نقل أي جندي أو صرف أي فلس .

نتائج الحرب كانت محسومة بيا أننا قمنا بالتحضير لكل شيء من اجل القيام بأحد الظاهر لم يكن ليقتل المعركة وان كان قبلها كان سينهزم في كل مكان . من تمسك فرق مشاته وتشتيت فرسانه وكان سيتم طرده شخصيا الى الصحراء . كانت قواتنا فاعدة على الشجول بحرية في كل البلاد . كانت متسلب ما يمكن ونقوم بإحراق الباقي . كانت تنتشر الرعب وتتوثر بقوة على حملة العرب ونقوم بإفهام الجميع انه يجب الاختيار بين السلام مع فرنسا او هجر بلادهم كما ندمرهم كل سنة ، حتى باستخدام فرق صغيرة . كان من المفروض على الأقل تجربة ذلك فكل شيء . كان جاهزا ، المصاريف تم استهلاكها ، جيش مليء بالثقة والمهنية ، فما الذي كنا سنخاطر به ؟ و مهما اقترضا كون عبد القادر عتيقا ومتعلبا فان من المستحيل ان كل من هزائمه وتحل فرقه عنه والشقاق العديد من الزعماء عنه ، لم تجعل منه سهل المعاملة ، وانه في مجلسه لم تتعالى اصوات بان نجاحاتنا كانت من صنع الله وانه يتوجب الاستسلام . وحتى ولو انه تم تقرير اعطائه كل البلاد التي تقدمها له المعاهدة ، كان سياسة أفضل لو تم ذلك بعد إقراره بقوة سلاحنا ومشاهدة العرب لقواتنا تدخل الى كل مكان ، وهم وأملانهم تحت رحمتنا .

وبالنهاية ، ما كانت أهمية التفاوض اذا ما أردنا القيام به بهذا الشكل ؟ لدينا القوة الكافية حتى لو دخلنا في حدود الميزانية العادية لأفريقيا من اجل استقرارنا الراسخ بالمنتجة وحوالي وهران . فمن كان يمنعنا من فعل ذلك ؟ أن يعلن انه في الوقت الراهن ، مستغلق داخل هذه الحدود ، وأنا نريد العيش بسلام مع العرب ، وانه من الآن فصاعدا اسلحتنا لن تستخدم الا للحماية ، داخل حدودنا ، المستوطنين وحلفائنا أو لصد كل الاعتداءات . هذا النظام اذا ما تم اتباعه بكل مثابرة ، اعتدال و بكل طاقة ، كان من المفروض ان ينجح في وقت قصير جدا وكان العرب سيفهمون مزاياء بسرعة . وبما أنهم يعلمون جيدا انه من المستحيل

مقاومتنا أو أكثر من ذلك أخرجنا من البلاد، كانوا سيعودون شيئا فشيئا إلى عاداتهم التجارية وكان الهدوء سيعم لو حده. كان من الممكن ربما لعبد القادر أن يكبر ونحيا هنا ولكنه على الأقل ستبقى المسألة كاملة، سليمة، لما كنا مريوطين، ولكننا حافظنا على إمكانية الاستفادة من كل الظروف المواتية وعلى الخصوص عدم المساس بشرفنا ولم يتم إهانتنا والتقليل من شأننا عند العرب.

بفرنسا توجد الأفكار الخاطئة كثيرا حول عبد القادر: نقرط من قوته، موارد، نظته أميرا كبيرا ونضعه تقريبا على نفس المستوى مع باشا مصر. و يغيب عن نظرنا أن هذا الرجل لم يكن شيئا قبل أربع سنوات وأنه نحن من أعطاه هذه المكانة والنفوذ الذي يتمتع به بسبب أخطائنا فنحن من صنعناه. ونسى تماما: كم ثم إذلاله السنة الماضية، ولم نأخذ بعين الاعتبار حجم الكراهية والتناحر الذي أثاره من أعمال السلب، انتهاكه للعرب، وحاجتهم للتجارة معنا، البؤس والاحباط الذي أصابهم، وأخيرا، وهو أسوأ ما في الأمر، أننا لا نراعي سكان المناطق النائية الذين بعد أن طالبوا حمايتنا، قاوموا العدو المشترك ورفضوا دفع جزية له وهاجموه وحاربوه وقاموا غالبا بإلهاء مفيد لقضيتنا. فكيف سيكون مصيرهم؟ وخاصة قادتهم الذين كدسوا اليوم كراهية وانتقام الأمير؟ هذه المعاهدة لا تنص على شيء لصالحهم. وبالتالي فإنهم سيشترون خضوعهم بإدانة تحالفنا وبالشروط الأكثر قسوة وكذا سيقرونه بدماء بعض المهينين من بينهم. وإذا ما تجحوا في الهجرة وطلبوا اللجوء منا فما الذي يكون مسموحا لنا الرد به؟ وأخيرا، لنرى المستقبل الذي تحضره لنا المعاهدة على حسب ما تم اقتراحه. أعترف أننا لننوي المحافظة عليها وأنها ستدوم بضع سنوات؛ لأنه لو تفاوضنا فقط للحصول على هدنة لبضعة أشهر، أعترف أنني سأفهم أقل هذا النظام، لأننا لن نكون أبدا في موضع في ظروف أحسن للحرب مما نحن عليه اليوم؛ ولكن إن افترضنا أن السلام سيدوم، مثلا، ثلاث سنوات (وهذا الافتراض

ليس مستحسنا لأنه من مصلحة عبد القادر تهدئة وضعه أمور جد مواتية له) ولأننا سرنا بحسن استخدام الوقت لصالحه ليصبح القائد الروحي لهم حينها نعلم نحن مسبقا كحاكمهم المؤقت، لتشكيل دولة واحدة وكبيرة مقرونة بوجد منظمة، ولتجميع كنز كبير من الضرائب التي لن نجرب على رفضها وأكثر من ذلك بالتجارة التي ورغم الحرية المزعومة في المادة العاشرة، لن تتم إلا بموافقتهم ولحسابه، وفي الأخير خاصة، تحسين والرفع من وسائل الدفاع والعدوان ضدنا. محتاط جدا لكي لا يتحضر لصراع جديد مخوم من الآن فصاعدا، جد واعي لكي لا يعترف بتفوق تنظيمنا العسكري، ولكن جد حكيم على أن يقلدنا لمجرد المحاكاة وكي يفقد العرب مزايا خفتهم وتحركهم، بل سينحود على اختراعاتنا التي يمكنه استخدامها. وعندما يحين الوقت لاستئناف الحرب سنجد عربا أكثر عددا، وأفضل تسليحا، وأكثر وعيا وأكثر ثقة. ستكون وسائل مقاومتهم قد ازدادت بقوة وحظوظ انتصارنا ستكون قد انخفضت بنسبة متعادلة.

قلت إن عبد القادر سيصبح الزعيم الروحي للعرب وللوصول إلى ذلك سلوكه سيكون جد حاذق كما سيكون سلوكنا أخرقا. الصلاة كانت تقام في المنطقة كما لا تزال تقام في كامل المشرق باسم سلطان القسطنطينية. وقد تحصل الأمير على أن لقب السلطان سيتم تغييره إلى إمبراطور المغرب والذي يدعي أنه قائم مقامه. فلنتركه يقوم بذلك وقريبا ستصبح الصلاة تقام تحت اسمه. وإذا ما أمسك يوما بهذا السلاح الفتاك في يده فإنه سيصبح متحكما وباستطاعته تخمض الناس حسب إرادته وشحنهم ضدنا بتريعة مضاعفة من الدين والكراهية تجاه الأجانب.

وإذا ما انتقلت الآن إلى تفحص بنود المعاهدة، فإنني أجد أولا بأن الاعتراف بسيادة فرنسا كلمة مفرغة بها أنه لم يتم شرح ما تتمثل عليه هذه السيادة تجاه عبد القادر. بل على العكس، ففي كل مكان يتعامل معه على قدم المساواة. يستمر

الجزء الثاني

بعدم دفعه الجزية ، لديه الحق في اقامة العدالة باسمه ، صك النقود ، لأنه من الواضح انه اذا ما اردنا منعه كنا سنحرص على ذكر ذلك. عبد القادر ليس برجل يتجاهل هذه الملاحظة . فما هي إذن هذه السيادة التي بتفاوضنا مع جعلت منه الحاكم لكل البلاد باستثناء زاويتين صغيرتين ابقتهم فرنسا لها؟ انه لمن الصحيح ان الأمير قد التزم بان لا يقوم بالتجارة الا بالموانئ المحتلة من طرفنا ، و بعدم وهب اي نقطة من الساحل الى اي قوة أخرى دون تفويض من فرنسا. أو ليس هذا الالتزام الذي اصفناه في الشرط الأخير يعتبر افضل اثبات على السلطة المستقلة لعبد القادر؟ و من ناحية أخرى هي غير واقعية قليلا، لان ما لن يفعله بدلس أو بشرشال، سيقوم به في أول ميناء صغير بالمغرب مع من لا ننوي عرقلة تجارته.

اذا ما تفحصت تعيين الحدود الناتج عن البند الثاني، أرى أنه بإقليم وهران، ستبقى مستغانم ومازقران منفصلتين عن وهران و أرزيو، بمعنى انهما ستبقيان في حالة دائمة من الحصار. بما اننا كنا سنحتفظ بهاتين المدينتين كان من الطبيعي ربطها بالناحية التي في حوزتنا. ولهذا الغرض، عوض الانحصر في المقطع كان من المفروض الاحتفاظ بالجبال ما وراء النهر والتي تمتد على طول البحر ومنحدراتها في السهل ، وان لا نتوقف إلا عند مصب الشلف. هذا الملحق أفضل من ريو سالادو⁽¹⁾ والمناطق المحيطة بها.

في إقليم الجزائر، تعيين الحدود اكثر اختلالا ايضا. فما هي الحدود المائلة للشقة التي في ثلاثة ارباع السنة لا يصل منسوب المياه سوى قدمين مما يمكن من اجتيازه من كل ناحية وتسكن الضفة المقابلة منه قبيلة من اكثر القبائل لصوصية واضطرابا بالمنطقة؟ فلم لا تحتفظ على الأقل بالنتيجة ولم التنازل عن جزء من اكثر المناطق ثراة دون مزايا ودون ضرورة؟

من المؤكد ان اطياها كهذه كانت جد متواضعة، ولم يتم التشكيك ابدا ،

الاتفاقية مع عبد القادر

حسب معلوماتي، في حيازة هذا السهل وباحتلالها الكلي من شنوة التي تشرف على شرشال وصولا الى قمم الجبال التي تحدها جنوبا، لقد كنا سادة على طرق المدينة ومليانة و مضيق موزاية (الثنية)، هذا الممر الصعب الذي يعتبر مفتاح النتيجة من جهة والمدينة من جهة أخرى.

البند التاسع يتم التنازل فيه، للأمير، عن جزيرة رشقون⁽¹⁾. كان الهدف من حيازة هذه الجزيرة اعاقا العرب عن الحصول على السلاح والذخيرة بالتافنة والمقرات التي أقمنها هناك كانت تستجيب لهدفها. فلم يتوجب التخلي عنها وما هي مصلحة عبد القادر من هذا الاخلاء؟ الامر له شقين، اما ان يحترم المعاهدة بإرادة حسنة وبالتالي وحسب البند 14 فانه سيتوقف عن القيام بالتجارة بالتافنة؛ او يعد بخرق هذا البند وفي هذه الحالة فان حيازة رشقون ستكون ضرورية لنا لضمان المراقبة.

البند الخامس عشر والآخر، هو كذلك اعتراف بالسيادة المستقلة لعبد القادر، لأنه سيضع أعوانا على قدم المساواة مع أعواننا. صفتهم الرسمية لم يتم تحديدها بعد، ولا شيء ينص على انه يتوجب عليهم الاعتراف بسيادة فرنسا واعتبار أنفسهم كمبعوثي نظام معين من طرفها وتابع لها. وأخيرا ما هي ضمانات هذه المعاهدة؟ وما هو الرهن الذي يقدمه عبد القادر لفرنسا عن رغبته في احترام الشروط، عن صدقه وحسن إرادته؟ لا شيء. وقد ذكر الجنرال بوجو ذلك بنفسه. تطبيق المعاهدة لا يعتمد سوى على الطابع الديني والفكري للأمير. وانه للمرة الأولى التي تستخدم فيها ضمانات مماثلة في تسويات دبلوماسية. ولكن بعد ذلك كيف ستكون في مآمن من انقطاع غير متوقع، من غزو مفاجئ وشامل، الذي سيفلس مستوطنينا ويكلفنا أرواح العديد منهم.

(1) الجنرال دامريمون كان مخطئا هنا. هذا الخطأ ناتج عن ما أسمته المعاهدة برشقون لموقع التافنة التي هي من قبلنا بالتنازل عنها. انظر ملاحظة الصفحة 522.

وبالختصار. المعاهدة ليست مكسبة، لأنها تجعل الأمير أكثر قوة مما يمكن
لانتصار باهر القيام به، وتضعنا في وضعية متزعزعة، دون ضمانات ومتضاهين
داخل حدود سبتة. وليست مشرفة، لأن حقنا في السيادة لا يستند إلى شيء
وقمنا بالتخلي عن حلفائنا. لم تكن ضرورية، لأنه لم يتوقف علينا الترسخ
بالنتيجة وحول وهران، وجعلنا ممن لا يمكن مهاجمتهم حفاظا على المستقبل.
من المؤكد أن السلام يمكن أن يعطي تقدما مؤقتا للبلاد؛ ولكن لنحترس
منه! لا نسي أن هذا السلام هدنة فقط، لمجرد تجنب نهاية فظيعة، يجب البقاء
مسلحين، الحفاظ وتحسين وسائل حركتنا والاستعداد دوما لصد الاعتداءات
الجزئية أو اتمام الحرب بشرف عندما يتم استئنافها. إذا ما اعتمدت الحكومة على
المصادقة العابرة التي تلي هذا السلام، وإن سحبت عددا كبيرا من قواتها، وإن
خففت ولو بقليل من ميزانية المصاريف، فإنها ستفشل في مهمتها ومن شأنه
تهديد مستقبل البلاد وكل المصالح القائمة وتلك التي ستوجد أكثر اعتبارا
قريبا.

الوثيقة 2.

رسالة من الجنرال بوجو إلى السيد الكونت مولي،
رئيس مجلس الوزراء.

بمعسكر التافنة: 29 ماي 1837.

سيدي الوزير؛

لقد اعتقدت دائما أنه يتوجب على جنرال أو رجل دولة أن يعرف تحمل
جزء كبير من المسؤولية أثناء المناسبات الكبيرة، إذا كانت لديه القناعة بأنه
يخدم جيدا مصلحة بلاده. هذا المبدأ المحفور منذ زمن بعيد في ذهني قد
قلت باستخدامه. لقد اعتقدت أنه كان من واجبي، كفرنسي جيد ومواطن
مخلص ومطيع للملك، التفاوض مع عبد القادر حتى ولو أن تعيين حدود
الأقاليم كانت مختلفة عن تلك التي اعطيت لي من طرف وزير الحرب.

ولقد قلت أن الوزير ومكتبه لا يمكنهم الحكم على الفروقات الدقيقة
للمسألة بنفس طريقتي وأنا متواجد بعين المكان ومع كل تلك الصعوبات،
والإضافة إلى ذلك فقد تعرفت من برقية لوزير الحرب في السادس عشر من
بزال يسودنا بباريس أفكار كان من الممكن أن تكون صحيحة منذ سنة أو ثمانية
عشر شهرا، ولكنها لم تعد كذلك على علاقة مع الظروف.

ولقد أعلمتكم في برقية مني في السابع والعشرين (التي مروت بإسبانيا) الأهمية
القليلة التي أرى بها بعدم إعطاء عبد القادر هذه أو تلك القطعة من الأراضي
والتي أجد مكاسب في إعطائه أكثر لأنه كان يوفر لنا ضمانات أكبر من الأمن

ومكاسب تجارية أكثر من بآيات دون نفوذ أردنا إقامتها بيننا وبين الأمير. إن هذا الترتيب في الأفكار هو من دفعني إلى تحطيم التعليقات التي أعطيت لي. ولما تبين أن الشروط هي إما مساواة أو عليا مقارنة بتلك المصادق عليها من طرف وزير الحرب.

احتفظ لفرنسا على مستعانت وأراضيها، حتى لا تتخل عن أي نقطة ساحلية، مع أن التعليقات كانت تسمح لي فقط الاقتصاد على مستعانت المقطع.

وتحصلت على موقع جديد للتجارة مهم إلى حد ما من الساحل، وهو مصب ريو سالادو الأحسن من الثالثة، وأخيرا، تحصلت على تعويضات عن الحرب على شكل أغلبية يمكن أن تطعم ألفي رجل وألف حصان بوهرا لمدة تفوق السنة. وبالتالي لا توجد سوى نقطة واحدة تخص تعيين الحدود بين بقيت فيها تحت الأوامر. أمل أن الحكومة ستري أن هذه النقطة لو حدها ليس بإمكانها أن تفشل معاهدة ستعطينا وعلى الفور علاقات سهلة ومضمونة في أكبر قسم من المنطقة. وستشر الأمن الزراعي في سهل النتيجة وناحية وهران، ستوقف نزف دماء جنودنا وستسمح بالتأسيس في الأخير لشيء ما مستوطنتنا واستقرارنا القوي على أرض إفريقيا. كما سيقرب الباب على التضمينات الغذائية التي هي موضوع نقاشات حادة كل سنة في البرلمان.

ونأمل قريباً أن انخفاض أسعار السلع الأساسية ستسمح بإطعام القوات التي نريد للحفاظ عليها في المنطقة، أرخص مما كانت عليه في فرنسا، وكذا خفض الرسوم الجمركية مما يجعل مكاسب التجارة ابتداءً من هذا العام تسترد الغلات التي صرفناها.

وانظر أن يقال لي: أليست هذه سوى أوامهم؟ من يضمن لكم صدق عبد

نعم! هل أنت متأكدون من أنه سيطبق حرفياً المعاهدة وسيمدكم بالأمن التجاري والزراعي على أراضيكم وأراضيهم؟ أشير إلى أن المعرفة التي اكتسبها حول التجارة الدينية والصداقة للأمير، ونفوذ لدى العرب، أعطيت قناعة عميقة بأن مع الشروط سيتم تنفيذها تماماً. وأنا أنكفل كضامن للأمير وأثبت لي أن وفاءه تحصل هذه المسؤولية الكبيرة على عاتقي.

ومع هذا ما عرفت أنه بين فكرة واحدة جعلتني أتردد: فقد قلت في نفسي أنه يلزم ثلاثة أسابيع إلى شهر من أجل الحصول على مصادقة الحكومة على المعاهدة هذه المسماة الزميمة هي الفصل وقت للحرب ضد العرب وستكون حملة بنصف مليون، فما الفكرة التي سيحلونها على عسكري؟ ولكم كيف تخلصت على كل تلك التوساوس في البداية تحت تصور كل ما هو يريزي ومؤلم في إحراق حصص شعب لا يطلب سوى القواميس ومع من تقاتل من قبلهم؟ وبعدها انكبرت أن الحملة ستكون أكثر مكسداً إذا ما تمت في شهر جويلية الذي سيكون هذه السنة الوقت القوي لحصد المنطقة. ويجب ذلك سأتد في السفارون الشعور المصنوع في شهر جوان، وإذا ما انطلقت الحملة في وقت لاحق، يمكن أن تمتد مدة أطول، بما أنه وحتى الأول من جويلية ستمتلك على فرنسا وسائر الشرق وصحة جنودنا بحالة سيئة.

ولكن هل توجد أن نخسر كل الحملة، وهل هي أيضاً أخطر كافي لكي لا نعاون وصحة جديدة سوف نعطينا حسب ما نطلب، كل المكاسب التي ذكرتها؟ وإذا لم تعني المعاهدة كل ما نتطرقه منها، فألا يمكننا أن نقوم في السنة القادمة بما كنا نريد فعله هذه السنة؟ وهنا ما يشاء العرب، لأنهم فهموا جيداً كل القوة المدمرة لدولة منظمة مثل التي نلهمها، وقد ذكرنا تلك العلاقات ومبعوثو عبد القادر كذلك. فهم يعلمون جيداً أنه من الصعب عليهم مقاومتي ومنعني من إحراق محاصيلهم بل سيقررون أن الصحران لن تكون لديهم سون استوائية. ولهم سيعلمون حين يجرنا لأمام على القوات التي

ربما سيدلني كيف لم تمكنوا من حصر عبد القادر في اقليم وهران مع كل تلك الاقلية ؟ لقد قمت، رغم الرأي الذي اظهرته مسبقا، بفعل كل ما هو ممكن فعلة تنافيا للوصول إلى الهدف، وكنت حصلت من عبد القادر، المسلم نفسه، بعض التنازلات، ولكن القادة الآخرين والمرابطين صرخوا عدة مرات انهم ينظرون الموت على التنازل أكثر من ذلك. فتوجب النقاش عدة مرات للوصول إلى البند الرابع الذي ينص على ان المسلمين الذين سيعيشون على أراضي لن يكونوا خاضعين لسلطة الأمير. هذه النقطة كانت تخص الدين الذي يمسك هؤلاء الرجال به إلى حد التعصب. ولم يلزم اقل من تلك النقاشات للحصول على تنازلات عن بعض الأراضي التابعة لقبائل مغلصة وكانت السبابة الى حماية عبد القادر من أي خطر. وباختصاره لا يوجد أي بند لم يتم احتدام النقاش حوله. لقد طالبت بقوة بكل من تنس وشرشال، ولكن عبد القادر أجاب ان هاذين اليناميين محاطين بالقبائل والذي لا يملك عليهم سوى نفوذ ديني، وأن هذه القبائل حرة برة وجد مستقلة وإذا ما استقرينا هناك فإننا لن نتوقف عن الدخول معها في حروب كما يحدث معنا ببجاية ولكنه يعتقد انه يمكنه ضمان حصوله على حرية ممارسة للتجارة بهاذين الميناءين. كان من الضروري الأخذ بهذه الأسباب التي اعتقد أيضا أنها صحيحة بناء على ما لدي من معلومات.

وانشرف بان ألفت انتباهكم إلى انه اذا ما اعدنا تلمسان التي كانت مكلفة لنا، يمكننا الحيازة على مدينتين لم نحتلها بعد بشكل جاد وهما البليدة والقلعة. أنا مقتنع تماما أنه كان من المستحيل الحصول على المزيد قبل القيام بحرب طويلة مكلفة بالنجاح.

فما الذي سنخسره من لجزيرة نظام سيكون مبنيا على اسس الترتيبات التي أقدمت على القيام بها ؟ فستمكن أولا من تقليص كبير من المصاريف الجارية ومن الخسائر التي تسبب عن الحروب من الرجال والخيول والبغال واللباس والمعدات والدخائر والسعر المقرط للمواد الغذائية، الخ، الخ، الخ.

درة وهران لن تكلفنا شيئا لإطعامها خلال هذه السنة من الاختيار، وسيكون ناسخ من الوقت للشحير، في كل موقع، لاستئناف الحرب في شهر أبريل قبل اننا شعرتنا بخيبة أمل. وفي انتظار ذلك، يتم إخلاء معسكر التنافة، ذو المقر المعيق، ونياحا لياني أكثر من ثلاثمائة ألف فرنك بالمواد الغذائية التي تقدم لي كتعويض.

كلما أمعنت تفحص الاعتبارات التي قدمت، كلما ازدادت قناعتي بأن هناك حكمة في هذا العزم. النقاشات الأخيرة للبرلمان حول قروض إضافية للجزائر تدعمني على الأرجح. جميع الآراء التي تم الإعراب عنها تم تجميعها في المعاهدة التي عقدتها، والسيد تيار شخصيا الذي كان مرة من أشد مناصري الاحتلال المطلق وأصبح ينحصر الآن في منطقة معينة حول قواعدنا وله علاقات صداقة مع العرب. وبهذا كل شيء يخول اتفاقيتي، باستثناء فقررة واحدة من تعليمات وزير الحرب وهي: "يجب الإصرار على نحو مطلق، وأنتم تعلنون عن نية الحجر على المنطقة التي حددتموها حول وهران، ولحصر عبد القادر في اقليم وهران. وفي تلك المنطقة كذلك يتوجب ان تصروا على أن تكون الحدود واد الفضة أو على الأقل الشلف ولا تتنازلوا لعبد القادر لا على مليانة ولا على شرشال."

والأسفل :

"النقاط الثلاثة التي لا يجب ان تتنازلوا عنها هي : السيادة الفرنسية، حصر عبد القادر في اقليم وهران محدودا على الأقل بالشلف، بمعنى تركه خارجا عن شرشال ومليانة، والاحتفاظ بالمنطقة التي قمت بتحديدتها من الجزيرة حتى ريو سالادو."

وما حثني على تحطيم تلك التعليمات، هو أن الفكرة الأولية لتلك الحدود على ما يبدو أنها أخذت من مراسلاتي مع الوزير، وبالتالي هي أفكاري نوعا ما التي أقوم بتعديلها بنفسي.

بعد ثلاث أو أربعة أيام سأخاطب التافنة للعودة إلى وهران إذا ما صادقتكم على اتفاقي، أطلب البقاء شهرا أو شهرين لوضع أسس استقرارنا بالمنطقة المحجوزة، ووضع البنيات التحتية لمسطحة عسكرية أو اثنين. سأحضر لوزير الحرب تقريرا مفصلا حول كل ما اراءه أساسيا للقيام به، وأتوه منذ الآن إلى البركات المالحة لأرزيو ومينامها الجيد حيث من المقروض أن نقيم بالقرب منها منشآت لتجارة يمكن أن تصبح معتبرة. البركات المالحة يمكن أن توفر مدعولا جيدا الروس من البحر الأسود والشعوب الأخرى القادمة نحو اسبانيا لطلب الحديد ويعودون محملين بالملح سيفضلون المجيء إلى أرزيو لأن الحديد يباع بسهولة ويجدون الملح هناك ولأنها أقرب من السواحل الاسبانية والمرفأ أكثر أمنا من فالنسيا حيث تتجه السفن عادة.

إذا لم تصادقوا على اتفاقي، أطلب مع ذلك البقاء للقيام بحملة جويلية، أوت وسبتمبر. وهذه ليست تضحية صغيرة لإصرار كبير اعتقدت أنه من واجبي التحاذه، لأنني سأحصل على تعويض كبير عن المضايقات التي تعرضت لها، عن عطاء دون شك في بداية مفاوضاتي، يكسب رؤية عائلتي الناتجة عن إعادة استدعائي. ولكنه إن توجب، لسوء الحظ، علينا القيام بالحرب، سيكون من العار علي العودة إلى فرنسا قبل أن أثبت مرة أخرى أنني بعيد عن الخوف منها.

لمع كلاحتراماتي،

سيدي الوزير،

خادمكم المطيع جدا والمتواضع، اللواء قائد فرقة وهران.

توقيع: بوجو.

ملاحظة: لقد قمت باطلاع بنود المعاهدة لكل الجنترالات والضباط السامين لفرقتي. وتم الارتياح لها بالإجماع، وتم التصريح بأنه ليس من الحكمة رفض شروط مماثلة. ومع ذلك كان الجميع يتوقعون للقيام بالحرب.

الوثيقة 3.

رسالة الجنرال بوجو إلى الجنرال دامرمون.

بمعسكر التافنة: 29 ماي 1837.

جنرال،

أنا آدين لكم بتصحيح وسأقوم به بكل صراحة. يؤكد عبد القادر انكم لم تقوموا بتقديم أي اقتراحات من أجل السلام. إذن فقد تم خداعي من طرف دوراند الذي كان يلعب لعبة مزدوجة للحصول على تنازلات من الجانبين المتعاقدين بالكذب على الواحدة والأخرى. كان يعمل على الخصوص لمصلحة ثروته: أنه رجل ذكي. لم استخدمه في هذه المفاوضات الأخيرة: بل تفاوضت بطريقة مباشرة.

تقبلوا اعتذاري، جنرال، وانزعوا من ذهنكم الانطباعات التي تركتها اعتقاداتي التي ليس لها أساس.

تلقوا مني، الخ

توقيع: بوجو.

الوثيقة 4.

رسالة عبد القادر للجنرال دمريمونت، التي كتبت
بعد انتهاء السلام.

الحمد لله وحده.

أمر المؤمنين، سيد الحاجي عبد القادر، والمحافظ والحاكم اللامع
دمريمونت، رئيس القوات الفرنسية في الجزائر العاصمة.
يتم الخلاص والسلام ونعمة من الله ورحمته، على من اتبع طريق البر
والعدل.

يجب أن لا نتجاهل السلام الذي حققناه مع الجنرال بوجو. وكنا
نأمل لو أن السلام قد تحقق من خلالكم، لأنك رجل حكيم، لطيف، و
متعود على ما يمارس في مكتب ملوك، ولكن جنرال وهران، الذي كتب
لنا أن لديه توقيع الملك للتعامل، كما حدث ذلك، كما أمضينا معه قرارا
(مرسوما) مصدقا حول هذا الموضوع، كما وصلكم الخبر بأكمله. أنا الآن
معكم حول النية الصادقة والمعاهدة الواقعة بيننا وبين الأمة الفرنسية.
لتعلموا إذا من جانبكم، وثقوا بأن كل شيء سيصبح جيدا وفقا لرغباتكم.
وانكم لن تصابوا بأي سوء مما يمكن أن يقوم به عرب الأراضي المودجودة
تحت قيادتي، بجانب بوفاريك، ومتيجة والمناطق المحيطة بها. وفي بعض

الوثيقة 5.

مقابلة عبد القادر والجنرال بوجو⁽¹⁾.

الجنرال بوجو، الذي كان مدعماً بموقف فارض لوجوده، تمكن من التغلب على الكثير من الصعوبات، وبعد العديد من الرحلات ذهاباً وإياباً بين العسكرين، وجهت له رسالة مغلقة وغير موقعة، ولكنها تحمل ختم الأمير لأن العرب لا يوقعون أبداً.

اقترح الجنرال بوجو لقاء (مواجهة) عبد القادر في اليوم الموالي، كان لقاء على بعد ثلاثة أميال من المعسكر الفرنسي وستة أو سبعة أميال من معسكر العرب. تمت الموافقة على المقابلة دون تردد، ذهب الجنرال بوجو في اليوم التالي إلى المكان المتفق عليه وكان هناك في الساعة 9 صباحاً، مع ستة كتائب، ومدفعية ومجموعة من الفرسان. وهذه هي المرة الأولى التي اضطر فيها إلى التواجد أمام الرئيس العربي من غير حمل الأسلحة. لا يكون اللقاء ليخلو من تقديم قائدة كبيرة، وكان في الواقع، واحداً من أكثر المشاهد المثيرة التي يمكن تحيّلها.

تواجد الجنرال بوجو بعد تسع ساعات في الميدان مع القوات التي رافقت مع العديد من الضباط الذين طلبوا مراقبته، ولم يتم العثور على الأمير. هذا التأخير يفسر بشكل طبيعي بالمسافة الزائدة عن معسكره. كان على عبد القادر قطع سبعة أميال، في حين كان على الجنرال الفرنسي التنقل على بعد ست أميال فقط من جيشه. وبناءً على ذلك، لم تقلق أبداً. مضت خمس ساعات من الانتظار دون رؤية أي شخص، ودون أن يظهر أي شيء عن الزعيم العربي. وفي الأخير،

الأحرار، إن شاء الله، سوف ساكون إلى جانبكم. سأوقف الفوضى، وسوف أجعل كل المسائل والقضايا واضحة، سواء معكم أو مع الآخرين، بحيث لن يبق شيء يتناقض مع العقل. إذا كنتم بحاجة إلى شيء تحت سلطتنا، فسوف نرضيكم ولن نتراجع إلى الخلف. ويجب أن يكون الوضع نفسه من جانبهم بالنسبة لنا. وبوصول رسائلكم، أطلبوا ما تريدون، كما فعلتم، كما سيكون الحال دائماً بالنسبة للأمراء الأصدقاء. أنا أيضاً، سوف أكتب لكم حول كل ما يتعلق بقضايا هذا العالم.

كتب يوم الجمعة مساءً، في الثالث من شهر ربيع الثاني من العام الهجري 1253، بأمر من أميرنا أمير المؤمنين، الذي يجعل الدين متصراً، ليحمه الله وليأت الخلاص من طرفه. - كما هو الآن.

(1) هذا المقال، الذي نشر في ذلك الوقت في كل الصحف، يبدو أن لديه شكل شبه رسمي. كنا نعلم أنه من الواجب تكراره.

الجزء الثاني

في حوالي الساعة الثانية بدأت بعد بعض العرب يلتحقون بالجنرال الفرنسي من بين العرب الذين كانت لديهم علاقات معنا، في الأيام الماضية، وقدموا بعض الكلمات كنوع من الأعذار عن التأخير.

كان الأمير مريضا ولم يغادر معسكره الا في وقت متأخر جدا، وربما كان سيطلب تأجيل المقابلة لليوم التالي. لم يكن بعيدا، وبعد ذلك كان قريبا، لكنه لم يصل. وفي الأخير، جاء رابع متكلم باسمه ليجعل الجنرال بوجو يتحرك قليلا الى الامام، قائلا انه لا يستطيع تأخير لقاء عبد القادر. كان قريبا بحوالي خمس ساعات، أما الجنرال الذي اراد أن يعود الى المعسكر رفقة قواته، فقد قرر أن ينهي المسألة في نفس اليوم، فمضى قدما الى الامام، متبرعا بأركانه.

كنا نسير دون خوف أو ارتياب. كان المسار صعبا جدا، وكان عليه عبور ممر ضيق، عبر التلال، حيث لا يمكن الرؤية بعيدا جدا. بعد المشي لأكثر من ساعة دون الالتقاء بالأمير، لاحظ الجنرال بوجو الجيش العربي بالقرب من الوادي، حيث وقفوا جانبا، في حالة منظمة إلى حد ما، على تلال صغيرة مبعثرة من أجل المراقبة بشكل جيد وواضح. في هذه اللحظة، جاء رئيس "ولهاسة" القبيلة، بوحاميدي، لمقابلته ويقول له أن عبد القادر قريب من هناك، على تلة أشار إليها بأصبعه، وقال انه سوف يأخذه هناك.

كان الجنرال والوفد المرافق له في مواقع قريبة من العدو، وقد كان بإمكاننا أن نحس ببعض الارتياب، ولكن لا يمكننا التراجع. كان الجنرال بوجو مطمئنا تماما، ولكن عددا قليلا من علامات التردد كانت تتجلى من حوله، وقال القتالي: "كونوا هادئين، لا تخافوا." - أجاب الجنرال: أنا لا أخاف من أي شيء، وأنا معتمد على رؤيتكم، ولكن أجد أنه من غير اللائق من رئيسك أن يجعلني أنتظر وقتا طويلا ويأتي من بعيد. - انه هناك، ستراه بعد قليل،

مواجهة الأمير عبد القادر

إلا أن الأمر استغرق نحو ربع ساعة أخرى من السير من أجل لقائه. واصلنا السير وفي الأخير، رأينا الوفد المرافق للأمير الذي تقدم قليلا نحو الفرقة التي كانت بقيادة الجنرال بوجو. كان المظهر يفرض نفسه : يمكن أن نحسب (نعو) 150 أو 200 من رؤساء المرابطين، ذوي البنية الجسدية المميزة، والزي المهيّب. كان جميعهم يمتطون خيولا رائعة كانت تضرب الأرض بأرجلها وتحملهم بأناقة ورشاقة كبيرة. وكان عبد القادر على بعد خطوات قليلة إلى الأمام، على حصان أسود جميل وهو يديره ببراعة مذهلة، في بعض الأحيان كان يحركه على أربعة أقدام لبعض الوقت، وأحيانا كان يمشيه على رجله الخلفيتين. وقف العديد من العرب من أتباعه وقد أمسكوا الركبان، وأجزاء من برنوسه، وفي اعتقادي، ذيل حصانه. لتجنب تأخير الحفل وليبين الجنرال بوجو أنه ليس لديه أي خوف، قام الجنرال بإطلاق حصانه في عدو، وعند الوصول إليه، وبعد أن سأله إن كان هو عبد القادر، حاول أن يضافحه حيث مد يده مثل الفرسان فأخذ الأمير بيده وضافحه وهزها مرتين، ثم سأله عن حاله. - حسن جدا، أجاب الجنرال، وقام بسؤاله نفس السؤال، ومن أجل اختصار كل هذه التمهيدات، والتي عادة ما تكون طويلة جدا بين العرب، دعاه للترؤل إلى الأرض ليكون الحوار أكثر سهولة. نزل الأمير من الحصان ثم جلس، دون أن يجعل الجنرال بوجو يفعل مثله، ثم جلس الجنرال بوجو بجانبه. وكانت الموسيقى تتألف من صوت المزمار، لمنع المحادثة. أمر الجنرال بوجو بأن يصمت، فصمت، وبدأت المحادثة.

كان عبد القادر يبدو شاحبا، وكان يشبه كثيرا تلك الصورة (البورتريه) التي نعطيها تقليديا للمسيح. كان قمه واسعا، لم تكن أسنانه قليلة البياض إلى حد ما وغير منتظمة، كما كان يتميز بالعيون واللحية البنية، وجمجمة متطورة (كبيرة). لم

يمكن زنه يبدو مختلفا من الزياء هؤلاء العرب الأكثر سوقية. كانت ملايسه في ذلك اليوم على الأقل، قلقة، وثلاثة أرباعها غشنة وبالية. هناك أيضا بعض البحث عن البساطة.

قال له الجنرال بوجو "هل تعلمون أن هناك القليل من الجنرالات الذين تحرلوا على وضع معاهدة مثل تلك التي قمت بها معك. أنا لست خائفا من توسيعها والانتظام إلى قوتك، وذلك لأنني متأكد من أنك سوف تسعى للقائدة والمصالح الكبيرة للحياة وستعمل من أجل تحسين الأمة العربية والحفاظ على السلام والانسجام مع فرنسا. - شكرا لمشاعرك الجيدة تجاهي، أجاب عبد القادر. إن شاء الله، سأعمل من أجل تحقيق سعادة العرب، وإذا ما تم تحطيم السلام، فإن ذلك لن يكون خطئي. - وحول هذه النقطة، حاولت أن أتحدث إلى الملك الفرنسي. - عليك أن تكون آمنا للقيام بذلك، لدينا الدين والأخلاق اللذان يتطلبان منا أن نفي بوعدنا، وأنا لم أخلف وعدي أبدا. - أنا أعتمد على ذلك، وهذا السبب أقدم لكم صداقتي الخاصة. - أنا أقبل صداقتك، لكن على الفرنسيين الحرص على عدم الاستماع إلى الفتنة! - لا يجب تسير الفرنسيين من قبل أي شخص وليست بعض الوقائع الخاصة التي يرتكبها الأفراد، التي قد تحطم السلام، والذي يشكل خرقا للمعاهدة أو تصرف كبير للعداء. أما بالنسبة إلى المدنيين من الأفراد، فإننا سوف نعاقبهم بالتقابل. - هذا شيء عظيم، ما عليك إلا أن تعلمني، وسيتم معاقبة المدنيين سأوصي الكرغل الذين مازالوا في تلمسان. - يمكنك أن تطمئن لأنه سوف يتعامل معهم مثل "الحضر". لكنك وعدت بوضع "دوار" في بلاد "حفرة" (جزء من الحمال الواقعة ما بين البحر وبحيرة سغية). - بلاد "حفرة" ربما سوف تكون غير كافية، لكنهم سيضعون بطريقة لا تتداخل مع الحفاظ على السلام.

وقال الجنرال بوجو هل أمرت، وبعد فترة من الصمت، باستعادة العلاقات التجارية في الجزائر العاصمة وحول جميع ما تملك من المدن؟ - لا، سوف أفعل

ذلك بسم واستعاقني لتلمسان. - أنت تعرف أنني لا يمكن أن أعيد إليك عالم تتم الموافقة على المعاهدة من طرف ملكي. - إذا ليست لديك القدرة على التعامل معها؟ بالطبع يمكنك، ولكن يجب أن تتم الموافقة على المعاهدة: هذا ضروري لضمانك، لأنه إذا لمضيتها وحدي، فيمكن لجنرال آخر أن يجعل محلي وينقض المعاهدة وبذلك من اعتبارها من قبل الملك، سوف يكون خليفتي المحافظ عليها. - إذا كنت لا تريد أن أعيد لي تلمسان كما وعدت في المعاهدة، فأنا لا أرى ضرورة للسلام، وستكون هدنة فقط. - هذا صحيح، وهذا قد يكون هدنة فقط، ولكن أنت الذي يفوز في هذه الهدنة لأنه خلال الوقت الذي تستمر فيه، لن تدمر المحاصيل. - يمكنك تدميرها، ونحن لا نهتم، ونحن الآن صنعنا السلام، وسوف أعطيك تفريضا خطيا لتدمير كل ما تستطيع، ولكن لا يمكن أن تدمر سوى جزء صغير جدا فالعرب لا تلصمهم الحبوب. - لا أعتقد أن جميع العرب يفكرون مثلك، لأنهم يريدون السلام كثيرا، والبعض سيشاركني على ادخار الحصاد، من "شكبة" إلى هنا، وكما وعدت لـ "النادي ساكال". - ابسم عبد القادر ابتسامة التكبر ثم طلب كم من الوقت سيستغرق للحصول على موافقة للملك الفرنسي. - سيستغرق ثلاثة أسابيع. - انها مدة طويلة جدا. - أنت لن تخسر شيئا، أما أنا فبلى. - اقترب خليفته "بن حراش"، من الجنرال ثم قال: "ثلاثة أسابيع فترة طويلة، ولا يمكن أن تنظر أكثر من عشرة إلى خمسة عشر يوما. - هل يمكنكم القيادة في البحر؟ أجاب الجنرال الفرنسي. - حسنا في هذه الحالة، أجاب عبد القادر، سوف لن نعيد العلاقات التجارية إلا بعد وصول موافقة الملك وعندما يكون السلام نهائيا. - أنك تؤذي اخوانك في الدين بأقوى عظيم، لأنك تحرمهم من التجارة التي يحتاجون إليها، يمكننا أن نحول دون ذلك، لأننا نحصل عن طريق البحر على كل ما نحتاج إليه.

لم يعتقد الجنرال بأنه ذكر بشكل جيد، وتساءل عما إذا كانت المجموعة التي تركها مع بعض الأمتعة في تلمسان يمكن تأمين مستقبل الضامها إلى ومرة أخرى

أجاب عبد القادر بشكل مؤكد. وقف الجنرال، ولكن الأمير بقي جالساً وبشكل يشير إلى الرغبة في الحفاظ على الجنرال الفرنسي واقفاً أمامه. ولكن ذلك لم يكن لفترة طويلة. قال الجنرال بأنه إذا وقف، أي الجنرال بوجو، يجب أن نفس الشيء. كذلك، ودون انتظار الإجابة، أخذ بيده وابتسم ورفعته من الأرض، مما أثار دهشة كبيرة لدى العرب الذين ربما كانوا قد وجدوا أن هذه الحركة خفيفة قليلاً، وفتحوا أعينهم بشكل كبير. هذه اليد، التي مدها الجنرال بوجو إليهم كانت لطيفة وجيلة، ولكن صغيرة وضعيفة، والرجل نفسه لم يبد قويا جداً.

كان الوقت متأخراً عندما ودع عبد القادر الجنرال بوجو وافترقا، وقد حياء الأول بينافات أصحابه المرافقين الذين كان عددهم كبيراً، والذين تواجدوا على طول التلال التي حملت الجيش كله. وفي نفس الوقت اندلعت موجات رعد طويلة وعنيفة، والتي تضاعفت أصداؤها لتضاف إلى ما يمكن أن يفرضه هذا المشهد. كان الموكب يهتز بصراخات الإعجاب التي تسمع، والتحقّت بالقوات التي جلبها الجنرال، للحفاظ على استمرار زعيم العرب والمنظر الجميل الذي شاهدناه والذي لا يمكن لأحد من هؤلاء الناس الحاضرين هناك أن ينساه أبداً في حياته.

شهود عيان قدروا ما يقرب من 10000 من الخيول في جيش عبد القادر، جمعت في عمق كبير من أسفل إلى أعلى التلال الصغيرة المنتشرة في الوادي، على طول خط أكثر من ميل. ولكنه لا يحمل أثراً منظماً وحساسة للغاية من الانضباط والتي من دونها يكون العدد غير مهم في الحرب. عثر الجنرال بوجو على قوته الصغيرة التي تركها على بعد أكثر من ميل، قلقاً بعض الشيء حول رحلته المليئة بالمغامرة وبالفعل، عندما عاد مع المرافقين له، كنا ننظر فيما إذا كان علينا المضي قدماً لدعمه صدقة. على الرغم من 10000 رجل التابعين لعبد القادر، اعتبر الجنرال بأن الفرص لم تكن

مناسبة للغاية. قال إن "العدد، لا يفعل شيئاً في القضية؛ ليس هناك وجود إلا للتفرد وليس القوة الشاملة. وهذا من شأنه أن يسرع مع كتاب المشاة الست لدينا خطوط الشفعية الخاصة بنا".

ومكلاً انتهى هذا اليوم الذي من شأنه أن يترك ذكريات لا تمحى. لقد ثبت أن عبد القادر كان يريد السلام بجديّة، والآن، إذا كان هذا السلام مصادقاً عليه، مثلما يطمح الجميع، فإن هذا سيثير لقواتنا، التي لا تقل ذكاءً عن شجاعتها، وعبقريّة تنظيم عباطنا في الجيش الأفريقي، إلى بداية حقبة جديدة ومثمرة.

العلاقة المفصلة للاعتداء والاستيلاء على قسنطينة،
في 13 أكتوبر 1837.

من طرف السيد النقيب دو لا تور دو بان،
من الهيئة الملكية للأركان.

كانت الساعة تشير الى 07:00 وكان كل شيء جاهزا: العقيد
لامورسيار والفرق الأولى للزواف وقفت ملتصقة بجانب بطارية الحامية،
وكان رأس الطابور يضغط على الفتحة التي هيئناها في المتراس. أعطى الدوق
ذي نيمور، الذي عين منذ البداية، قائدا للمقر، ووفقا لأمر الجنرال العام،
الإشارة لبداية الاعتداء. وعلى الفور، خرج العقيد لامورسيار ومجموعة من
ضباط الهندسة والزواف، تليهم قواتهم بسرعة من التطويق مع نوع من
الاندفاع والتهور الوارد والمنضبط، وهي في حالة فرار إلى سفح الحامية.
وفي لحظة، وعلى الرغم من صلابة المنحدر والانهارات الأرضية والانقاص
التي انهارت في عداد المفقودين، مع كل حركة، تحت أقدام أيدي المهاجمين،
وقد تم تحجيم ذلك، ويمكن القول أن ذلك كان لصالح طلقات ناز بندق
المحاصر، لأنه في بعض الظروف المعينة، يكون الخطر مساعدا وليس

عنة. وقريبا تم وضع (الخرس) العلم بالالوان الثلاثة من طرف كل من
(الثقب) الزواف غاردورون، على قمة الحامية (القجوة)، وبمجرد ظهور
أول رؤوس العرسيين من البطارية خارج، كان أهل القراس (السور
الواقى أو المعقل) وكأنه اشتعل بالنيران، كان إطلاق النار على طول هذا
الخط مستمرا، وكل المساحة التي كان جنودنا قد خصصوها للبطارية
في الحامية قد عبرت باستمرار بالرصاص، ومع ذلك أصيب عدد قليل
من الرجال في هذه الرحلة. كان المنحدر والسطح والأرضية الصغيرة
فوق الحامية، نيران الجانب بجدران (بناء) قديمة، كما لا يزال قائما لدعم
السور الحديث، والذي كان يمتد إلى ارتفاع كبير. كان بين خطرين، مثل
ميناء صغير حيث أعمدة الهجوم يمكن إصلاحها: الجهد المبدول لتسلق
المنحدر الوعر، تم تنفيذه على الأقل بدون مزيد من الصعوبات التي تقف
في هذا المجال. وصلنا إلى قمة الحامية، وكان هناك شيء أكثر ترويعا، أكثر
شرا من وجود العدو. لغز جارج، على استعداد لابتلاع من لا يعلم، هي
مشتات غامضة وغير مفهومة وطعجات (غرز) تضم مقاطع والتي لا
تؤدي إلى أي مكان ومظاهر المدخل بدون أي مخرج، مداخل وتوابع
مختلطة، أشياء المنازل التي لا أحد يعلم لها أي اتجاه، أو الاتجاه إلى الأمام،
إذا جاز التعبير، أين يوجد سراب خطير يوفر صورة مخيبة للآمال عن
زاوية المدينة، حيث لا شيء يفهم عما يشكل مدينة حقيقية، لكن رصاصات
العدو تعرف الطريق، وكانت تصل دون معرفة المكان الذي ثمر عليه،

وكانت الحرب دون أن تستطيع إلا عليها. في الأخير، بعد أن تم تحييد
الأرضي جيداً، مرت الفرقة التي تم تعيينها في دور العمل على اليمن،
مرفعة صغيرة مكونة من الانقراض المكسمة، التي تظهر أسفلها، وفي
سبع مئة كبير للاخط قوسا كبيرة مزينة لـ "كوديات عاظمى"، واحدة من
الطائرات. عبر المحاطة بالسور، وتظل المدافع ثابتة فيها وراسخة على
استعداد للدفاع عن أجزائها. وفقا لأمر قائد دعم الثقب ساري، التي
قل لخطات قليلة بعدما، تسرع الزواف، دون إطلاق رصاصات واحدة
أو الخربة على العدو، على الرغم من التصرف الرهيب الذي قام به، من
مسافة قريبة، من وراء قطعة الأرض التي تحميهم، وعلى الرغم من إطلاق
النار التي كان غزيرا والمنبعث من الأسوار ذات الفتحات التي أحدثت
في المنازل الكبير. قتل وجرح العديد من الزواف، وملازم الفرقة كسرت
قراعه بثلاث رصاصات؛ ولكن المدافعين دفعوا غالبا ثمن جرائهم. سواء
اندعشوا من الاندفاع في الهجوم، لم يكن هناك الوقت للاعتراف، وسواء
كانوا قد حسموا أمر موتهم في مناصبهم، فإنهم لم يحاولوا الهرب وقتلوا
جميعهم في البطارية. كانت الفرقة المستصرة أمامها، لا تزال ترى الأعداء:
أبعد بكثير على طول الجدار، في أرض منخفضة، خارج زاوية اليمنى تقريبا
توجد بطارية ثانية، مدافع تركية تنتشر وراء القراس. وقد تشكلت مع
كلارة (عربة تستعمل للجبر) وعربات مكسرة (محطمة) ويبدو أنها مصممة
على تحمل العبء الأكبر من المهاجمين. لكن هؤلاء (المهاجمين) لم يسمحوا

لأنفسهم بعيدا أن يأخذهم النجاح بعيدا وفي الأخطار الأخيرة حيث يتم تقديم الفخ لهم، إذا ما خاطروا بالمزيد وبهذه الطريقة، سيتم إسقاطهم بتيار المني الكبير: انهم يشعرون بذلك، وهم يعودون أعقابهم، سوف يحاولون دخول المنزل لطرد المدافعين، وبالتالي ضمان سلامة الجزء الخلفي من مجموعتهم قبل الاستمرار في مطاردة العدو من موقع إلى آخر في الاتجاه الذي أمل عليهم. في الواقع، عادوا إلى نقطة البداية، انتهى بهم الأمر باكتشاف وراء الحطام المحيط بهم، مدخل هذا الموقع الكبير (الواسع) والذي أصبح موضوع الاستيلاء عليه ضروريا. تم تحطيم الباب، قتل بعض العرب وهم يدافعون عن أنفسهم، هرب البعض الآخر، ولكن بقي أكبر عدد من دون مقاومة فهربوا، ولا أحد يعرف أين كان المخرج. أصحاب هذه المباني العظيمة، التي كانت مخازن للحبوب، وجنود الهندسة الزواف الجنود لا يتلاعبون مع محاربة رجال المتراس، وفتح منافذ حديثا قد يستغرق جهدا، فنزلوا عبر عدة نوافذ بمساعدة سلم حملناه معنا، وصرنا إلى الأمام نحو العدو. كان هذا الأخير يرى أن الأمر انقلب عليه، وكان يبدو أقل تحمسا للموت بكل فخر ما لم يكن عليه جنود المدفعية في البطارية الأولى. قتل بعضهم في المعركة، ولكن معظمهم سرقوا: كان هذه جهة المقاومة الأخيرة التي من شأنها المشاركة للقضاء الطابور الأيمن. بعد هذا النجاح الثاني، مشى جنود الهندسة وضباط مختلف المجموعات بصعوبة كبيرة بعد أن سافروا الجدار لينشعوا بالفأس منافذ أكثر بدلا مما

من عليه، وتلقي طلقات نارية دون أن تتمكن من ردها؛ لكنها لن تعود لتقاء العدو لمنع مسارهم وإجبارهم على تمريره على الموقع. كان لديهم الاستعداد للوصول إلى الباب الأول على يمين الحامية وعلى استعداد لمهاجمتها عندما يتوقف القتال.

نحن أمام الطابور الأوسط تواجد عقدة الصعوبات والمركز الرئيسي للمقاومة والمخاطر: كان العقيد لامورسيار يقود بشكل أكثر تحديدا هذا الهجوم. فقد حان الوقت للمضي في المساحة الضيقة التي مسحتها قذائفنا في أعلى الحامية، دون فهم كيف يمكن للتواصل أن يكون موجودا على هذه النقطة بين الأرض المليئة بالأسوار وداخل المدينة. خلق المدفع أرضا من تربة وهمية وأنقاض، التي تتداخل مع التربة الأصلية، والتي أثارت مخارج، قطعت الطريق وسدت المنافذ، وغيرت كلياً حالة الأماكن. اتجه العيارات النارية تشير إلى أن السقوف كانت نقطة البداية. وعلى الفور جلب العقيد لامورسيار السلام، وصعد على سطح أحد البيوت الذي احتلناه، وقد كان لديه فوق القتال الأرضي كطبقة عليا للقتال الجوي. كان النقيب (الكابيتين) ساتنزي، قادما ليحل محل العقيد في هذا التنظيم ليتلقى رصاصة قاتلة. بعد فرز محرات عدة كانت تبدو هناك شوارع لا تؤدي إلى أي نقطة، وانتهى بنا الأمر بمقابلة شخص على بعد خطوات قليلة، ذو أهمية في الوجهة اللاحقة. على كلا الجانبين يتم تنفيذ هذه الغزوات المربعة، والتي تستخدم في المدن الأخرى في المحلات التجارية.

كان معظمها نصف مغلق، تم بلوحات وأنواع من مصراع النافذة. وسجود دخول هذا الممر، من طرف بعض الجنود وإذا بتفريغ (إطلاق نار) مزدوج، أت من هذا المحارب (جمع محارب) على اليمين وعلى اليسار، ليحذر من هذه الأماكن التي تستخدم ككمين للعدو، لكنه هذا الأخير الذي اعتقد أنه بإطلاق النار قد أوقف مشي المهاجمين، وقد رأوهم يصلون إلى الخراب بثبات إلى الأمام، ولم يكن هناك وجود لوسيلة دفاع أخرى غير بالناغاهة منذ تم تجريده من نيرانه، لقد كان يتدفع في هذه الثقوب دون مخرج، بدلا من أن تكون مأوى بالنسبة له، أصبحت فخاخا. العديد من هؤلاء المهاجمين قتلوا، والبعض الآخر هرب واختفي كما لو كانوا قد تمكنوا من التغلغل في الأرض أو الجدران. كنا نتقدم، وبعد بضع خطوات، وجدنا أنفسنا قبالة الباب، وكان قوس بناء يعبر الشارع، ولوحات خشية صلبة تعيق المرور، لم يكن يشبه في وجود هذا الحاجز، الذي يعتبر شرح سبب وجوده صعبا، كان يبدو كخط متواصل من المنازل، السائدة على طول وداخل الجدار واعتبرت كضميعة ثانية، ومن خلال هذا الباب، يتم وضعها في اتصال مع الجدار أو معزولة. ويضرب هذه اللوحات بأعقاب القأس والبندقية ندرك أنها ليست مثبته بشكل دائم، بل بشكل متحرك، ومصممة لتوفير عبور سهل للمدافعين، إما للتراجع أو لحركة هجومية. ومع ذلك، وبسبب المخاوف من العجز وعد قدرة الوسائل المستعملة في هذا الممر، وقد جلبنا الحفائب، ومسحوق البارود، حيث كلف العديد

من خبراء التفجيرات بمسؤولية التصرف بها في الظروف المماثلة، ولكن نرى أن يضطروا إلى اللجوء إلى استخدام هذا المورد، تمكنا من تخفيف هذا الحاجز. اجتمع العرب معا في الشارع، وراء الباب، ولجأوا في هذا الوقت إلى حمل أسلحتهم الجاهزة، عندما يرون الوقت المناسب لإطلاق النار، ويعطونها شبه السماء الممطرة بالرصاص في صفوفنا (موقعنا). أصيب ثقيب الهندسة لوبلان بكسر في الفمخذ بعبارة ناري كاد أن يكون قاتلا، أما كان العديد من الجنود ضحية هذه النيران. ثم اندفع ثقيب الزواف ديموبان، لإغلاق الباب، وبينما يسلط جهده على هذه الكتلة، ضرب في الخنجر، برصاصة فأصيب بجروح قاتلة، ولكن لا يزال يتنفس، تحت تأثير الأخطار الأخرى الأكثر فظاعة، والتي سيتسلم في وسطها قريبا. على بعد خطوات قليلة وراء هذا المشهد كانت تحدث واحدة من أكثر الأشياء الباردة للمحزن والكتابة. إسقاط مبنى صغير، ليكون سببا في تشديد ضيق المر ليسفر عن خنق كل حشد الجنود. كان ذلك أما عن طريق تأثير صدمة صاعقة وغير منتظمة لحركات الفرقة العسكرية، أو نتيجة لمؤامرة من العدو ومن الضغوط التي مارسها عمدا على هذه القطعة من البناء، مما من شأنه أن يجعل الجدار يدمر في نهار. ضربت هذه الكارثة القوات خصوصا الفرقة 2 من المشاة، وأصيب العديد من الرجال دفنوا كليا. قائد الكتيبة سميراني الذي عاش تحت الانقراض التي غطته حتى الصدر للمحظفات قليلة ملاها العذاب في صرخات يائسة مناشدة للإغاثة واحتق في غيب

الوقت لإغاثتهم، حيث استنفد جهوده غير المجدية لتحريك الكتلة الملوثة
الموضوعة عليه وشهد جسمه وهو يتحطم ويلقى حتفه الجسم ببطء.
وبمجرد انتهاء هذا الحادث وإذا بمصيبة أخرى اندلعت هي الأخرى
وهي أكثر بشاعة. وضعت نار قناصة على الأسطح وربما بسبب الحواف
قليلا لتجاوز هذه العقبة والتقدم إلى الواجهة المركزية، ومن أجل
توضيح وضمان الممرات، بدأ العقيد لامورسيار للتو بإطلاق المجموعة
2 من كتية أفريقيا. وفجأة شعر أولئك الذين كانوا في الساحة في هذه
الأحداث وكأن وجودهم في انهباء. وضربوا بقسوة في كل الاتجاهات
وفي آن واحد، بحيث أصبحوا لا يشعرون بما يمرون به، كانت الحياة
لحظة وانتهت بالنسبة لهم. وعندما استعادوا وعيهم قليلا، كانوا يبدو لهم
أنهم يغرقون في الهاوية، وأصبح الليل يخيم عليهم، مع إحساس بغياب
الهواء وشلل في الحركة، وكأن شيئا سميكا، وصلبا، يغلف كل أجسادهم،
كانت هذه قذيفة أحرقت جلدتهم في أجسادهم. العديد ممن تمكنوا من
الخروج من الصاعقة عانى من ألم حاد، والنار تآكل أجسادهم، وتعلق
على ملابسهم وتبعهم أينما ذهبوا؛ إذا كانوا يريدون بذل جهد بأيديهم،
فيجدون أيديهم تحترق. يجب الاعتراف بأن هذا اليوم ولدنا فيه من
جديد، كنا نسعى لتمييزهم وما يحيط بهم، وقد أدركوا أن عيونهم لا
تري مجددا أو لا ترى إلا من خلال وجود سمحابة. العديد منهم لم يمر إلا
بمجرد أزمة كتابة وصدمة من الدرجة الأولى من تلك المعاناة. البعض،

لم يمر منهم من ملابسهم، وقد جردت بشكل كامل تقريبا من بشرتهم
المسوخة والبعض الآخر في هذيان عشوائي وصرخات غير واضحة.
ومع ذلك، فإن الكلمات الأولى التي تسمع بوضوح تلك التي تقول: إلى
الأمم إلى حرية! وقد تلفظها من كانوا أقل إصابة، وبعد ذلك تكررت
بشكل كبير حتى من قبل أولئك الذين لم يعودوا يفهمون معناها. حدث
الفتار في المكان. كان أول مركز رئيسي لهذا الانفجار يبدو أنه قد تم عند
الباب، ولكن إذا حكمنا من خلال المدى الأرضي للحركة والاضطراب
وبعدد الحوادث المماثلة التي تكررت من حولها فإنها مختلفة وبعيدة تماما
عن بعضها البعض وعن هذه النقطة، كنا نعتقد أنها ستشتعل بشكل
متعاقب وسريع في عدة منازل. ربما يجد المحاضرون، في المكان الذي
يوجد فيه رأس نقيينا مخزنا لمسحوق البارود، والذي اشتعلت فيه النيران
قبل وقوع الحادث، بدلا من تنفيذ خطة معدة مسبقا للعدو. عندما انتشر
الهواء زادت أكياس مسحوق البارود التي كانت على ظهور عدة خبراء
المتفجرات، من قوة الانفجارات وتضاعفها. كما كانت الحراطين
التي حملها الجنود أيضا، بمجموعة كبيرة مراكز ونقاطا للنار، ومصدرا
للاشعاعات، التي تعبر في كل اتجاه، وهي مليئة بالنار لتسفر عن هذه
المشاهد الكارثية في هذه الحلقة الرهيبة. في كل هذه الصدمات، وفي إطار
عمل القوات المتباينة جداء كانت التربة قد تأثرت وحفرت، وقد تمزقت
الأرض وارتفعت كدوامة عالية في الهواء. انهارت الجدران وسقطت

إلى أسفل، وكان الجو متصليبا. كنا ننتفسر رمال الحطام فقط، يبدو وكأن النار تمكنت من الدخول عن طريق الفم و الحياشيم، والعيون، وكل المسام. كانت هناك بعض لحظات من الارتباك، ولا أحد يعلم أين كان مكان الخطر: انتابتنا الرغبة في الفرار، من كانوا خارج مجال نشاطها جاءوا والتحقوا بالبقية، والبعض ممن أمكنهم الهروب، جعلوا النيران تلتحق بهم، معتقدين أن كل المساحة متضررة وأن الجميع سيكون معطوبا تحت هذه الجدران وكان عليهم رمي أنفسهم أمام الموت. المحاصرون، الذين قسا بأبعادهم عن الأماكن الأقرب إلى فوهة هذا الانفجار، كانوا أقل معاناة، خارجين من الاضطراب الذي ظل فيه المهاجمون في نطاق هذه الكارثة، وعادوا إلى الشارع مرة أخرى حيث تخلوا عن العديد من الأسلحة النارية لدى مجموعات من المحروقين بشكل جزئي، من جراء الانفجار، والتي كانت مكدسة في جميع أنحاء الباب، وبعد الانتهاء من تخطيط كل ما هو صالح للاستعمال من أجل الدفاع عن أنفسهم، لجأوا إلى البياتاغان حيث وجهوا (الطعنات) لكل من لا يزال يتنفس، وحتى الجثث.

ومع ذلك، وبمرور اللحظة الأولى من المفاجأة الماضية، وبمجرد تلاشي الحجاب الكثيف من الدخان والغبار الذي سيطر على الجو بعض الشيء اليوم، من كانوا قادرين على إعالة أنفسهم واستخدام أسلحتهم، على الرغم من أن عددا قليلا جدا منهم كان في حالة جيدة، ساروا بأنفسهم إلى المواقع الأكثر أهمية للاحتلال. تم إرسال الطابور الثاني من الهجوم لدعم الأول،

وبمجرد حفر هذه الأخيرة أخدودا في المدينة حتى اختفت، وتركت فجوة جرا واضحة. وجاء العقيد كومب مع مجموعات من الفيلق الخارجي 47. تقريبا عندما كان هذا الحادث قد وقع، وتسلم القيادة من العقيد لامورسيار، الذي تعرض للمجروح وفقد بصره في ضوء الانفجار الذي توقف قبل بضع لحظات. وبعد التعرف على حقيقة الوضع والحفاظ على البعض من رجاله بطريقة لضمان ما تم الحصول عليه، مما يعني توسيع دائرة الاحتلال. تراجع الأعداء الذين عادوا بعد الانفجار بجراة إلى الخلف، وهم يعتقدون أننا أبعدنا الغبار من الانقراض، وانسحبوا قليلا مرة أخرى، ولكن دون الخروج من الشارع الذي كنا نريد فتح عمقه. تعرضوا لكمين تقريبا قبالة الباب، خلف كومة من الحطام و من الجثث التي شكلت نوعا من الحاجز أين كانت النار القاتلة، ويات من الضروري طردهم من هذا الموقف المفاجئ بدافع من القوة. أمر العقيد كومب فرقته لإزالة هذا الحاجز، واعداء بالصليب أول من يحقق ذلك. كانت الفرقة تندفع ضد التطويق، وهرع الملازم أكثر، عندما سقط تحت إطلاق نار الأعداء. ومع ذلك لم يصب هذا الضابط، فبعد أن تعثر ضد عقبة، هوى بالانجاء المعاكس لإطلاق النار، ومن كان في الخلف أصيب بالنار قليلا. أصيب النقيب بضربة قاتلة، وقتل العديد من الجنود وسقط الكثير من الجرحى. وكان في هذا الوقت العقيد كومب، المشرف على هذه العملية، قد تعرض لإطلاق نار برصاصين، أصابته واحدة منها في الصدر. بعد

ضمان النجاح الكامل للحركة التي أمر بها، انسحب ببطء من ساحة المعركة، وعاد وحده، بهدوء وبرودة، إلى بطارية خرق، وأعلم القائد العام حول الوضع في المدينة، وأضاف عددا قليلا من الكلمات البسيطة « قائلا انه يشعر بأنه مصاب بجروح خطيرة. و برويته صامدا في مشيته، وطبيعيا في موقفه وتصرفاته وكلامه، لم تكن لنصدق أن هذا الرجل ترك مكان المذبحة للموت. كان هناك في هذا المشهد شيء من الخطورة، من الاقتحار الهادئ، والجمال الصارم من الموت العتيق، ما يشبه الاجلال المسرحي.

وبملاحظة أن البطارية راقبت صف القوات التي دخلت بالفعل الى البلدة فتراجعت واختفت من الأماكن التي يمكن رؤيتها فيها، وأرسلت قوات جديدة معدودة، لسد الثغرات التي تشكلت واستجابة للمتطلبات المتعاقبة حسب الموقف، ولكن دون إعاقة حركة أو التضيق على مسرح العمل. كان الطابور الثالث من الفرقة، تحت قيادة عقيد المشاة 17، وكان بشكل كلي تقريبا في المكان، بالرغم من أن دائرة العمليات لم تكن بعد الا تمليدا بسيطا جدا. اختفاء الزعيمين، العقيد لامورسيار والعقيد كومب، اللذان قادا أول حركة، ترك الأمر معلقا وغير مؤكد. لم يتمكن الجنود من رؤية أي هدف كان في أي اتجاه معين يشار اليهم بشكل إيجابي، دائما بنفس الجرأة وتحدي الخطر، ولكن بقوادون حل حول كيفية الهجوم»

والتراجع كثيرا والتقدم قليلا، وتضييع الوقت في القتال والموت. على يسار الطريق كان لدينا الخط الرئيسي للهجوم، أطلق العنان لتقاطع الطريق الذي وصل بواسطته الى الجانب الأيسر للمهاجمين اطلاق نار رهيب، أمضينا فترة طويلة في التصدي في هذه النقطة لطلقات النار، ولكن في هذه المعركة لا يمكن تحقيق السيطرة على العدو الذي لا يطلق النار الا من جدران المنازل أو عن طريق فتحات المباني. ومع ذلك، فإن موقف القوة الذي بدا عليه، تم توجيهه بصمت واختفى تحت قيادته. تحلت مجموعة من الزواف، بدعم من خبراء المتفجرات عن الحرب في الشوارع، وهو أمر خطير وغير ناجح للمهاجمين، وبدأوا في حرب المنازل، والتي كانت لصالح الطرفين بالتساوي تقريبا. مجموعة أخرى من نفس التنظيم، رمت بنفسها تماما إلى اليسار، مما أدى هجوم متماثل تماما، والتي وجهت البداية ضد بطاريات اليمين. ووجد أيضا جنود من المدفعية التركية الذين دافعوا عن أنفسهم حتى الموت، في بطارية معقل، من هناك كانت تسير ببطء وبصعوبة، وغالبا ما كانت شبه عمياء، عبر الأزقة وباحات المنازل السرية، وغالبا ما يفقد أثر ادارتها، وقال انه للعثور عليها، وجب ثقب الجدران وكسر الأبواب بأعقاب البنادق والفأس، لقهر العقبات والعبور على الطبيعة الخاملة. ولكن بمجرد أن أفرغنا الجانب الدفاعي، جعلناه يكفر غالبا على جهوده البطارية، وكان يبدو في هذا الطريق أكثر خجلا

الجزء الثاني

وغير واثق، وإن كان العدو خائفاً، فقد تأخرنا في التركيز على المحيط، وإيجاد أنفسنا محصورين بين مختلف الخطوط الفرنسية التي فرضت في المدينة، وهذا ما يعني أنه ما كان أكثر تصميمياً كان أكثر تركيزاً على الوسط ولم يعد في الطرفين، حيث ظلت أجزاء من السكان الأقل دفناً، والأقل سطوعاً والأقل كثافة.

تقدمنا إلى الأمام دون الاقتراب كثير جداً من الجدار، ونجح الزواف دون معرفة الأماكن وتحت التأثير الوحيد لإلهامهم، الشارع المؤدي إلى القصبة، كبرى الممرات في المدينة، والتي تمر إلى كل موقف، والشارع الاستراتيجي الحقيقي من خلال عبور هذا البلد العدو، إذا منحت لهم لحظات قليلة قبل أن يتوقف الناس عن الأعمال العدائية، لنم تطويق المدافعين في جميع المواقع حيث وقفوا وجهاً لوجه لهجومنا المركزي، وهددوهم بقطع تراجعها، وألقوا بالرهبة بينهم لمنحهم القوة للمقاومة لفترة أطول.

في الأخير، سلكت ثالث مجموعة من الزواف اتجاهها وسيطاً بين الجدار والشارع الرئيسي، وتغلغلت من بيت إلى بيت، وساعدت على إيقاف أو إزالة نار العدو على يسار الهجوم الكبير. كما وصلت إلى مخزن واسع للحبوب، حيث واجهت مقاومة قوية جداً. العناد الذي دافع به عن هذا المبنى جعلنا نفترض أنه مركز النشاط، في الواقع، بعد الدخول بالقوة في

الاستيلاء على قسطنطينة

هذا الموقف، عبرنا على جثث العديد من الأتراك و"القبائل"، الذين قتلوا هناك، وعبرنا عن طريق الممرات والسلام الداخلية التي توصل الى باب منزل حيث كان يخرج صوت ووقع أقدام معلنا احتلال المنطقة بالقوة، ورائحة العطور أشارت الى أن هذا المنزل ربما كان لشخصية فخمة وأنيقة. فتحنا الباب، وقبل أن يكون لدينا الوقت للاعتراف بأن جميع الغرف العلوية مليئة بالمدافع، بدأت هذه المدافع باطلاق النار عند المدخل بكل هذه الأسلحة. وكان نقيب المجموعة على رأس الفرقة بين نائب ضابط وجندي، وقد قتل أحدهما فيما تعرض الآخر لاصابة وكان النقيب الوحيد الذي لم يصب. أغلقوا الباب ثانية وملثوها بالشقوب، والتي استخدمناها كمنافذ لاطلاق النار على المدافعين في الفناء الداخلي. عندما لاحظنا ضعف صفوفهم وقرارهم، بالرصاص، قمنا باقتحام المنزل. معظم الأعداء هربوا، إلا عددا قليلا من حارب حتى آخر لحظة، حيث هلكوا والأسلحة في أيديهم. كان هؤلاء يبدون عبيد هذا المنزل، وكانوا يحملين بالذهب، كان لديهم كنز ملاك المنزل. وقد كانت امرأة زنجية خاضعة لسيدها، من بين جثث الموتى، حيث قتلت عن طريق اطلاق النار، وكانت مسلحة ببنائغان ومسدس. وعثرنا في زاوية من الشقة على صندوق صغير مليء بالذهب، ومن الأرجح أننا أخرجناه من مكان اختفائه، ووضعناه تحت الحراسة، عندما فوجئنا بالهجوم. كان هذا منزل

بن عيسى، ملازم باي "أحمد"، عندما بحث الرابحون وجدوا أمامهم شارعاً كاملاً من المقاتلين من الأهالي. كان هذا الشارع نفسه الذي انطلق منه إطلاق النار الذي وصل إلى الخط الرئيسي للعمليات، وأوقف صفوف المهاجمين. عندما كان تركيز إطلاق النار خلف المنزل الذي جاء الزواف للاستيلاء عليه، قام هؤلاء بعمل فتحة في الجدار من الجانب العلوي من الطريق، ورموا من خلالها الأثاث رمياً والوسائد، والسجاد والجثث التي تم العثور عليها في الشقة، وشكلوا كتلة بين المتحاربين ومقدمة مجموعتنا الرئيسية، كنوع من الحاجز الذي اعترض إطلاق النار الكثيف. يمكن بالتالي لحركتنا المركزية أن تستأنف مسارها. وعلى بعد مسافة قصيرة وراء هذه النقطة التي توقفنا عندها، كان تقاطع عدة شوارع متباينة، وقد أصبح من الممكن جمع أكبر عدد من قواتنا في مختلف الاتجاهات، وذلك لتداخل وقطع خطوط العدو، وتوسيع وتطوير عمليات شبكة الدفاع بأكملها، والتي ينبغي أن نضيق عليها ونختنقها. ربما كان هذا بدون شك نتيجة كبيرة سرعان ما أدت بالسكان إلى وقف الأعمال العدائية.

ومع ذلك، فإن القائد العام، كان متمنياً أن يعطي الهجوم مزيداً من الوحدة، وأمر الجنرال روليار أن يذهب لتولي قيادة القوات التي كانت في المكان. عندما دخل هذا الجنرال إلى المدينة، عرف أن المسافة التي تفصله عن الأعداء لا تزال قصيرة جداً، بما أن وصول رصاصهم كان على بعد

خطوات قليلة من المكان حيث وقع الانفجار. بعد التأكد من أنه يمكن وصف مساحة كبيرة إلى اليمين، ولكن هذه الطريقة، بتحويل العدو سوف تكون بطيئة وغير فعالة بشكل كبير، لأن كل هذا الجزء من المدينة تملأه السكان المسلحون، وتقدموا إلى الأمام لعبور أول شارع على اليمين، حيث كانت النيران تحدد الحركة المركزية. كانت نيته بالعودة بعد ذلك إلى اليسار ليربح أعلى منطقة من المدينة، واتخاذ المدافعين في نصف دائرة الهجوم، ولكن لم يكن لديه الوقت لتنفيذ مشروعه. وصل إلى مستوى المتحاربين الأكثر تقدماً، وعندما شهد أحد المور مقبلاً إليه وفي يده ورقة مكتوبة: كان الرجل الذي كان يمثل سلطة المدينة ليطلب منا التوقف عن الأعمال العدائية. قام الجنرال بوقف إطلاق النار ووجه المبعوث إلى القائد العام. وعندما عرف هذا الأخير بالرسالة التي يلقي بواسطتها كبار ونبلاء المدينة، مسؤولية الدفاع على "القبائل" والأجانب المرتزقة، وهم يتوسلون أن تقبل باستسلامهم، أعطى رداً إيجابياً، وأمر الجنرال روليار بالاستيلاء على المدينة. مضى هذا الجنرال على الفور إلى القصبة، والمحيط لاحتلال هذا الموقع الهام، لو كان حراً أو يدخله بالقوة، إذا كان بعض أتراك أو "قبائل" حامية المدينة يعتقدون أنهم سيحتلون الدفاع عنها كما هو الحال في القلعة، على الرغم من استسلام السكان. ويدخل هذا المبنى، اعتقدنا في البداية أنه مهجور، ولكن بالتقدم عبر المبنى التي

كان مزدحما بها نحو حافة المنحدرات المحيطة بالجانب الخارجي، لوحظ آخر المدافعين، من أولئك الذين لا يقبلون الهزيمة، وفضلوا الغرق في الوديان، الطريقة الوحيدة التي تمنع تراجعهم. أما البعض منهم، وقبل أن يغرق في الأعماق، استداروا مرة أخرى لتفريغ بنادقهم على الفرنسيين الأوائل الذين كانوا هناك.

عندما كنا فوق الهاوية تماما، اكتشفنا مشهدا فظيعا، منحدر سريع للغاية وقع على أرض القصبة على رأسي الجدار الصخري الذي توجد قاعدته على الحجارة الضخمة الحادة. عند سفح هذا الجدار، في هذا الطابق من الجراتيت، تواجدت أجساد محطمة ودموية من الرجال والنساء والأطفال. كانت موضوعة الواحدة فوق الأخرى، ولونها قاتم وغامض، من الكيفية التي أقيت بها في الرقاق أمام الجميع في مشهد بشع، يمكن اعتبارها في البداية كومة من الحرق. ولكن بعض الحركة التي حانت الحياة جاءت للكشف عن الحقيقة الرهيبة. لقد لاحظنا أهدبي وسيفان منفصلة تلوح وترتجف في خطائهما الأخيرة من التشج. كسرت السلاسل التي كانت تعلق على الأوتاد العلوية من الصخور، حيث يمكن رؤيتها وهي مازالت معلقة، وهو ما أوضح هذا اللغز المخيف: ألقط السكان من السكنية التي كانوا ينامون فيها حتى لحظة السقوط في الكرب والفرع، فهرعوا إلى أجزاء المدينة التي كانت مأوى

لضرباتها، بهدف إيجاد طريقهم إلى الريف. هؤلاء المساكين في دوارهم، لم يعتمدوا على العدو الأكثر وحشية وعنادا، الذي يمكن أن يكون نحن الفرنسيين المتصرمين، على هذه الأماكن المميتة التي لا يمكننا عبورها دون الإفلات من العقاب. وهناك عدد قليل من الآثار للهاجز والرعاة "القبائل" موجودة في اتجاهات مختلفة وكثيرة، ولكن الحشد كان متوجها من خلال هذه المنحدرات التي لم يمكن التوقف عندها؛ وصلت التيارات (المجموعات) الأولى إلى حافة الشلال، مدفوعة بالنفسي سبقتها، ولا يمكن احتواؤها وهي تدخل الهاوية، وأصبحت تشكل شلالا هائلا من البشر. عندما تم تخفيف الضغط بالموت، اعتقد هؤلاء الفارون الذين هربوا من هذا الخطر الأول أنهم تمكنوا من إيجاد وسيلة آمنة لمواصلة الطريق المحفوفة بالمخاطر، حيث انزلقوا على طول الحبال المثبتة على الصخور، ولكن بعدم القدرة على تنفيذ هذه المناورة أو التسرع، هو يكون الحبال غير قوية، تكررت نفس النتائج لأسباب أخرى، وهناك كانت سلسلة طويلة من السقوط القاتل.

بعد وضع موقع في القصبة، ذهب الجنرال روليار إلى شيخ المدينة لضمان حفاظ السكان الرئيسيين على النظام، والاعلان عن المنشآت الكبيرة والعامة والمتاجر المملوكة للدولة. انتقل بعد ذلك عبر الشوارع، بتجميع قوات الجنود التي بدأت في الانتشار دون أمر في جميع الجوانب،

و وضع الحرس في جميع النقاط الهامة. أصبحنا أسياد قسنطينة، وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات من الوقت بعد الاستسلام (التنازل عن المدينة)، دخل الجحترال العام والدوق دو نيمور الى المدينة و ذهب لاحتلال قصر الباي أحمد. لقد كان مشهدا غريبا ومخيفا بالنسبة لأولئك الذين كانوا في القلعة، القادمون من الخارج، دون إعداد لهذا المنظر: إنه يشبه مشهدا من الجحيم، مع السمات البارزة، لدرجة أنه تحت هذا الانطباع، بقتع العقل، من صدمته، أنه يتصور ذلك، لأن هناك أهوال إذا كنا خارج جميع معطيات التجربة، فمن الأسهل أن تبدو وكأنها مسوخ يولدها الخيال من أن تظهر ككائنات قدمها الواقع. ومن خلال الصعود الى القلعة، والوصول الى القمة، كان الجو يبدو دافئا سميكا، يملأ الفضاء تدريجيا، بالوصول الى الجدار، لم نعد ننتفس هواء الأحياء، كان بخارا خائفا، مثل الذي ينبعث من المقابر المفتوحة، مثل غبار عظام محروقة. وبالمضي قدما، يمكن أن ترى رؤوسا وأيدي بارزة من تحت كومة من الركام في الأرض، فيها البعض ممن لقوا حتفهم تحت أنقاض منزل منهار، وأبعد من ذلك، كانت القوضى من الجثث مكدسة فوق بعضها البعض، محروقة ومسودة ومشوهة للعديد من العرب والفرنسيين، من القتل والمتوفين. كان هناك جرحى تحت الجثث الغارقة في الانفجار الذي أطاح بأقدامهم. رأينا أن اللون الطبيعي قد اختفى تماما في الظل الذي صنعته النار والبارود،

وجثث أخرى تلاشت ملابسهم تماما وتركهم عراة. لم يبق هناك الا شيء وحيد ليس له اسم، شيء أسود، مترهل، ذابل، تحول تقريبا الى فحم، مع سطح في حالة يرثى لها، والدم يخرج من كل المسام، ولكن دون أن يتمكن من السيلان، وهذه المجموعات الصغيرة عديمة الشكل التي تصدر نوعا من الصراخ، وآهات والأصوات الكثيرة، التي كانت تشكل منظرا مهيبا، يجمد من الخوف. ما تسمعه الأذان وما تراه العينان، وما تتفسه الحياشيم لا يمكن التعبير عنه بأي لغة.

بينما كان الهجوم جاريا، وحتى قبل أن يبدأ، ومنذ الصباح الباكر، ظهرت حركة غير عادية للهجرة موجودة حول المكان. من كوديا أي، رأينا الحشد العالقة بين المدينة والمنحدرات، والمتواجدة في هذه المساحة، التي تتعرض للحد والجور الذي نسيب فيه دون أي أدنى شك صعوبات وكوارث التسرب. على حافة واد عميق روميل يبرز المشهد الذي كان يحدث فوق قمة الصخور، وتختفي عن الأنظار بعد ذلك كل تلك التقلبات المتعددة، ولكن عثر عليه في وقت لاحق، عندما يخرج من الوادي لينخلد الف الحماة، وعلى طول المنحدرات التي تحيط بمعسكر الباي أحمد. نحر هذا المركز كانت صفوف الرجال المسلحين الخالية من الرجال الكبار العزل والنساء والأطفال، وجميع المجموعات الموجودة بين الخطوط الرئيسية المحشدة عبر الحقول. كان جرماني من

الجزء الثاني

الجيل، يوصلان نحو الحافة العلوية للجزء الأمامي لـ "كوديات أي"، وتم إطلاق بعض القذائف القليلة في منتصف هذه المساحة المتحركة للرؤوس والبرانس التي تغطي ضواحي المدينة الأقرب إلى مواقعنا. الهزات التي تلت سقوط كل قذيفة أشارت إلى وجود آثار قاسية ناجمة عنها. ولكن بتقدم الاعتداء، تباطأ طلقات أسلحتنا، كما لو أن النجاح كان مضمونا مرة واحدة، ونخاف من سحق العدو المهزوم.

وبمجرد تعرفنا على المباني الرئيسية في قسنطينة، تم اختيار واحدة منها لتأسيس مكان للإسعاف؛ مباشرة بعد وقف الأعمال العدائية، تم جمع الجرحى من مكانهم، وأخرج الموتى من تحت الركام، ووضعوا أمام إحدى بوابات المدينة. وتم نقلهم بعد أن أصبح الملتجأ الجديد المتوفر على الأفرشة الكثيرة التي وفرتها المساكن المجاورة بشكل كبير. وفي الوقت نفسه، خصصت مواقع أمام كل مخازن الدولة خوفا من أن يتناولوا التبيد والفوضى، مثل الدودة القارضة، التي تعتمد على هذه الودائع، في كثير من النواحي، لاتخاذ قرارات مصيرية في احتلالنا. وكان جزء من قواتنا في المدينة، في حين أن البقية واصلت انشغالها بالمواقع السابقة. الجنود المتواجدون في الداخل والخارج، الذين مروا من خلال المواجهة والمسارات الحادة التي كانت متنوعة عليهم، انتقلوا بحيوية مدهشة إلى جميع البيوت التي بقيت مفتوحة، والتي تم التخلي عن معظمها، حيث

الاستيلاء على قسنطينة

تمت إزالة الأغطية، والسجاد والفرش والملابس، وكل الأشياء التي وقعت بين أيديهم. العديد من الضباط أظهروا، في هذه المناسبة، سخطا كبيرا وتشفاروا قيا (رزينا)، لأسباب خاصة تعود الى حال بعض الجنود المساكين الذين اعتقدوا، بعد الحرمان الشديد، أنه يمكنهم الاستمتاع بعناصر الرفاه. هؤلاء، في الواقع، اعتقدوا بذلك في قوانينهم، عند العمل على التزود ضد اضطرابات الطقس وصعوبات التخيم على حساب العدو الذي وقع بعد استنفاد قواه بدلا من التراجع، لتجنب كلا الطرفين المصائب الشديدة، والذي لم يمد فرع السلام لخصومه الذين يسبحون في الدم. في صباح اليوم الثالث للاحتلال، تم استعادة النظام. كان الجنود الموزعون في الشوارع التي تم تعيينها بشكل منتظم للفرق المختلفة، مشغولين بتنظيف أسلحتهم وملابسهم، كما هو الحال في الماضي في شوارع أوربا. قل عدد السكان كثيرا بسبب هروب خمسة أو ستة آلاف شخص بسبب الخوف من أسلحتنا التي فصلتهم عن منازلهم على التوالي، وتم تغيير ذلك بعودة كثير من الأسر. رأينا السكان في بعض الناس الشوارع التي تم التخلي عنها على وجه التحديد في مساء يوم دخولنا، جالسين أمام أبوابها بكل هدوء، وهم يشكلون أمام منازلهم دوائر صغيرة، حيث جثم البعض أمام البعض الآخر، وهم يتحدثون بلامبالاة كبيرة، كما لو أنه لم يتم تجاوز حدث غير عادي في هذا اليوم.

وكان عليهم فقط أن يرووا قصصا من الماضي أو عن بلدان بعيدة،
ولست حقائق لا تزال ساخنة، والتي كانوا من الجهات الفاعلة فيها،
والتي كانوا فيها ضحايا.

ملاحظة على ممتلكات الدولة في الجزائر، والاستحواذ على المباني التي
شيدت من قبل الأوروبيين.

قلنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، أنه توصلت إدارة المنطقة (الممتلكات)
بقوة البحث والعمل، إلى المعرفة بدقة كبيرة إلى حد ما ما تملكه الدولة في
الجزائر. يجب أن نشكر الرجال الذين يعملون بجهد لتحقيق ذلك الأمر الذي
يعتبر مهمة مفيدة، التي أصبحت صعبة للغاية والمصالح الفردية التي يتأملون
من أجل تضليلها، و توثيق الوثائق الرسمية، والنتيجة المؤسفة لاضطراب
الغزو.

قدمنا في المجلد الثاني من الحوليات، في الجزء الثاني عشر، صفحة 127،
أسماء المزارع المعترف بها ضمن ممتلكات الدولة في ذلك الوقت في محافظة
الجزائر العاصمة، والتي وضعت في مكان يسمح لنا بالتحرك الفوري. وقد
قدمت الكثير من هذه المزارع تسليحها بمسح الأراضي المنتظم العادي، والذي
أرشد إلى المساحات والموارد المضبوطة. تم منح معظمها بشكل طفيف ما بين
سني 1835 و 1836، لكنه عادت في وقت لاحق إلى الإدارة والتجار الذين
لم يكملوا التزاماتهم، حتى تتمكن الدولة، والتي بدت للمحظة مجردة تماما،

وعادت لتصبح المالك لهذه الأرض الحميلة جدا والتي قد أصبح لصالح الاستعمار الحظي. وبعد ذلك تم اكتشاف ممتلكات جديدة للدولة. لذلك تلك الموجودة في فرن، ما بين بوفاريك والقلعة، وهي كبيرة وجيدة جدا. الممتلكات الريفية الأكثر أهمية بالنسبة للاستعمار هي نتاج ما يقرب لاثني نظرية في هذا الوقت. وهي لا تمثل الا القليل جدا في دخل 187.349 فرنك فرنسي، التي أجريت في عام 1837، والتي لا تتكون بالكامل الا من ايجار الباني الحضرية المملوكة للدولة بأعداد كبيرة والتي تقدره الادارة بـ 1.100.000 فرنك فرنسي. في مجموع 187.349 فرنك فرنسي، التي تحدثنا عنها في وقت سابق، تنقسم الى 44.445 فرنك فرنسي التي جمعت من ايجارات ممتلكات الأثرياء المحيطة في عام 1830. من حيث المبدأ يجب أن تعاد هذه الممتلكات. وقد أحييت جزيا عندما ظهر أصحاب الحقوق وقدموا مستندات الملكية. ولكن هذا التعويض كان يعني بقاء سواد يسب إجراءات معالجة الطلبات، أو فقط بسبب عدم وجود أكبر عدد من المالكين. جزء من الدخل من الممتلكات يتم تخصيصه لشحة التوفير في المدن. والباقي يدفع للتخزين.

خلال وقت قصير من تكليف الجنرال ديميمونت بالتقصير المدينة أثناء محاربتهم من عمليات الاستعمار خارج الجزائر العاصمة، والقصر في محافظة الجزائر العاصمة، من بداية الاحتلال إلى 1 جانفي 1837. وجد أن هذه التكاليف بلغت الرقم 1.134 من الممتلكات في جميع الأقسام بالنسبة التالية:

(1) تم هذا العمل بوحدة واعتمدت في فرن، المراسم التابع (2) الأقسام

201	المنازل والريفيّة
223	المنازل والممتلكات التجارية
710	المزارع والأراضي الصالحة للزراعة
1.134	المجموع

هذه الممتلكات، وفقا لبيانات عقود المبيعات تنقسم الى المواقع التالية:

338	في حليل
183	في موسى
71	عشة
20	ميتجة (دون نسبة أخرى)
179	منازل البلدية
203	المنازل والممتلكات التجارية في البلدية
1	منازل القليعة
28	المنازل والممتلكات التجارية في القليعة
	عمرانوس، إيسير، بني حاد، حموط،
40	وموزاية سوماتا (صومعة)
7	عمرانوس، أو بحلية (النداءات)
20	عمرانوس، أو بحلية
1.134	المجموع

وترتب من هذا الجدول الملاءم للأقسام من الممتلكات من الأقسام

التسليم والحصول عليها خارج الإقليم المخصص لفرنسا بموجب معاهدة
التنازل. أقول، على الأقل، لأنه لا يمكن لنا أن نعرف بالضبط أين تقع هذه
الممتلكات التي لا تحمل تسمية أخرى في مواد عقود البيع، في تلك الخاصة
بنتيجة الغامضة جداً، وأكثر من ذلك تلك التي لا تحمل أي تسمية.

من المحتمل أن تكون مفاجأة أن تعلم أن البيع قد جرى دون تعيين المبالغ
التي تم بيعها، ولكن أعني بغياب التسمية إشارة دون معنى، والغش واضح
نتيجة جهل المشتري، الذي كان غالباً ما يشتري، ما لم يكن له وجود في الواقع.
كما تمنح عقود البيع من قبل الأفراد المعروفين تحت اسم "وليد" أو "بن"، المرتبطة
بممتلكات تسمى الحوش أو التراب، والتي تقع في أماكن تدعى "أوتان".
ومع ذلك، كل هذه الأسماء هي عامة: "وليد" "بن" تعني الابن، والحوش
يعني المزرعة والتراب يعني الأرض و "أوطان" تعني البلد. يبدو الأمر كما
لو، في فرنسا، عند تقديم عقد للبيع يلخص على النحو التالي: الابن باع للسيد
أرضه التي تسمى الأرض، والتي تقع في القسم. بالتأكيد سيكون من الصعب
جداً تحديد موقع هذه الخاصة (الملكية).

على أي حال، الممتلكات 1134، سواء كانت حقيقية أو وهمية، تم الاستحواذ
عليها من 1830 حتى 1836، من طرف 539 فرداً مصنفاً على النحو التالي:

الأوربيون.....	476
المسلمون.....	39
اليهود.....	24
المجموع.....	539

تم تقسيم هذه البعثة 1082 كما يلي:

المسلمين.....	989
الأوربيون.....	90
اليهود.....	3

المجموع..... 1.082

إذا طرحنا مجموع عدد تلك المقتنيات من تلك التي تمت من قبل المسلمين
واليهود، و 90 عملية بيع التي ظهر فيها الأوربيون كالباعين، نجد أنه لا يزال
في أيدي الأوربيين 981 ملكية. وتنقسم هذه الممتلكات كما هو موضح فيما
يلي:

المزارع والأراضي الصالحة للزراعة.....	609
الحدائق والمنازل الريفية.....	177
المنازل والمحلات التجارية،	
الواقعة بالقلعة والبلدية.....	195

هذه الممتلكات المختلفة المقدمة وفقاً لحسابات تعتمد على المساحات المعلنة في
عقود البيع، المقدرة بـ 164523 هكتار. إذا طرحناه من هذا الرقم 11070
هكتار، وهي مساحة الممتلكات التي تم شراؤها خارج أراضيها من قبل
الأوربيين، سيكون هناك 153453 هكتار بالنسبة إلى العقارات المكتسبة على
الكان لنفسه أن الحسابات الأكثر براءة لا يمكن أن تعطي أكثر من 140000.
ولذلك ترى، أنه لو كان بإمكان الأوربيين شراءها كلها، فلا يزال وجود سوء
تفسير لمساحة 13453 هكتار، لكنهم يعيشون من شراء كل شيء. ومع ذلك،

أعتقد أن لديهم نحو ربع مبانى البلاد، والذي هو كبير عندما نفكر في أن كل هذا موجود بين أيدي 476 فرد فقط.

العديد من المعطيات الخاصة بالمساحة خاطئة في عقود البيع. قام المور بأجراء لعبة مفيدة، بفضل سداجة من الأوربيين، الذين يعتقدون أنهم يشترون أماكن مربعة مقابل عدد قليل مئات الفرنكات. والآن، عندما يصلون إلى التحقق من ذلك، غالباً ما يجدون إلا 20 هكتار، حيث سعوا لاكتساب متين أو ثلاثمائة. منذ بعض الوقت، كان الأوربيون مختصون في عقود البيع، الذي يدفعه البائع للمشتري كمقياس للأرض التي ستكون أقل من المساحة المعلنة. أصبح أحد المور الذين تم تطبيق هذا الشرط عليه مديناً للمشتري بمبلغ أكبر بكثير من سعر العقار.

وعلاوة على ذلك، أدلى الاستحواذ من قبل الأوربيين إلى مصدر غير متهي من المحاكمات، بدءاً بالتسميات الغامضة التي جعلت العديد من عمليات الحيازة صعبة جداً. يمكننا أن نرى بالفعل أن الأوربيين، منذ السلام، سعوا إلى البحث عن ممتلكاتهم في سهل، دون أن يتمكنوا من العثور عليها. الباعة تركوا المحافظة، ولا يعرفون أي مستجدات عنه. كما بيعت العديد من الممتلكات غير مقسمة بالكامل من قبل أحد المالكين، دون موافقة الآخرين، كما تم بيع أطفال من أجل آبائهم، وفي الأخير، فإن فحص السجلات يثبت في بعض الأحيان أن نفس الممتلكات بيعت لشترين مختلفين.

في البلدة، معظم المنازل المباعة لم تعد موجودة منذ وقوع زلزال 1826. بدأت المحاكمات بالفعل بشأن هذه المسألة.

التمتع السنوية المدفوعة، أو على الأقل منح جميع عمليات الاستحواذ ارتفعت إلى 295.220 فرنك، لتمثل رأس مال قدره 5.904.400 فرنك؛ التسجيل الوارد عن كل عمليات الاستحواذ هذه، قدر بـ 295.220 فرنك.

الترتيب الجيد الذي سبق الاستيلاء على قسنطينة، سمح في هذه المدينة، بجمع وثائق إيجابية بشأن تنظيم وأهمية عقارات الدولة، في هذا الجزء من الجزائر. مساحة العقارات الريفية هناك كانت كبيرة وبأعداد كبيرة، وندعوها "عزلة". تم تأجيرها للعرب، مع رسم سنوي، يدعى "حكور"، بقدر 13 بوجو وربع زويجة (قياس 25 فداناً) مخصصة للزراعة. يقوم المزارعون، باستغلال "العزلة" التي تخضع للعشور أو العشر، مثل غيرهم من المزارعين. ومعظم "العزلات"، بالإضافة إلى ذلك، توفر كمية مهمة من حزم التبن.

ينتج الـ "حكور" سنوياً 596.250 فرنك فرنسي كمتوسط للإنتاج، أما التبن؛

فما يعادل : 26.469 فرنك فرنسي.

لم تكن جميع "العزلات" تخضع لنفس القواعد؛ فالبعض منها يدفع بعض الرسوم السنوية الثابتة من القمح والشعير، وتدعى "الجبري" وهي مستقلة عن مساحة الأراضي المزروعة في العام. و"الجبري" المعفاة من

العشور. قبل 1828 كان نظام "الجبري" ينطبق على جميع "العزلات".
ومنذ تلك الفترة طبق فقط على العدد المحدود والمتبقي من "العزلات".
وقد أنتج سنويا 86.800 فرنك فرنسي.

كان اليلك يملك أيضا، في محافظة قسنطينة، العديد من القطعان التي
يعطونها كماشية للعرب، نسميهم "عزيب". تحدثنا عن ذلك في المجلد
الثاني من الحوليات.

تتج المباني الحضرية لممتلكات الدولة ما يقرب من 50.000 فرنك.
كانت الإدارة العامة لممتلكات الدولة لمحافظة قسنطينة بين أيدي قايد
الدار أو أمين مخازن القصر.

مرسوم منح راسوتا.

نحن الملازم العام، نظير فرنسا، الحاكم العام للممتلكات الفرنسية في شمال أفريقيا.
باعتبار أن الممتلكات العقارية الواقعة خارج نطاق الحراش غير مزروعة الآن،
وبالنظر إلى أن ملء هذا الجزء من السهل، واستخدام هذه الأراضي البور من
أجل الشاء مؤسسات، وإعطاء قيمة لهذه الممتلكات، سوف تساهم في التوطيد
والدفاع عن الجزء الشرقي من متيجة؛

بناء على اقتراح من مدير المالية، ومجلس الإدارة المنطق عليه،
أصدرنا مرسوما وأمرنا بما يلي:

المادة الأولى.

منح إلى الأبد، إلى ثيوفيل، أمير ميرميرسكي، لاجن بولندي، وفقا للهبوط
والشروط التي تأتي فيها بعد، الممتلكات العقارية المواتية

تعرف بها

حول راسوتا باستثناء الثاني⁽¹⁾ وجناح هياكله والتي تم حفظها للدولة،

(1) تم وضع هذه الممتلكات باسم آخر تحت إدارة المارشال فوزيل، الملقب بـ "مهندس
إنشاء مسكن للمجموعات التي تم إرسالها إلى هذه المنطقة.

حوش مراد حوش غير مراد حوش وبني حوش من زرقعة مع تبعياتها والأراضي الشاسعة والشاغرة المجاورة سوف يعترف بعدم وجود مالك لها.

المادة 2.

لا يستمتع صاحب التنازل بعبارة بعض الممتلكات التي تملك موضوع هذا التنازل إلا على تقرير فعلي لحيازته مكتوب من طرف وكلاء الممتلكات بإذن من مدير المالية. لا يمكن إعطاء هذا الإذن من دون تنفيذ شروط التسوية مع القبائل المجاورة أو مع العرب، التي كانت تخضع لمصادقتها من خلال وسيط مدير المالية، والتي تمت مناقشتها في المجلس¹. وأي نزاع في هذا الشأن سيخضع وسيحاكم إدارياً.

المادة 3.

تحتفظ الحكومة بالقلاع والحصون المسماة المنزل المربع والماء ومجموعة خدمهم العينة كما سيحاكم بشكل ضروري. كما ستحتفظ أيضاً بجميع المواقع التي قد تحتاج لها في وقت لاحق لبناء الحصون والمسكرات أو المؤسسات العسكرية الأخرى. دون أن يكون يطالب صاحب التنازل بأي تعويض عن المؤسسات العينة، وكذلك الأراضي التابعة لها. ومع ذلك، قد يسمح لأصاحب التنازل أن يحتل كل أو جزء من الحصون والمنشآت المتعلقة بالأمر، شريطة أن لا تعبر الوجهة، ما عدا إذا كان هناك إذن الهندسة، التي سوف تبقى مسؤوليتها الرقابية. إذا كانت الحكومة مستخل في يوم من الأيام عن إحدى هذه الحصون أو المنشآت، يمكن بيعها إلى التنازل عنها بالتراضي بعد الخبرة الشافطة وبتأجير الشكل القانوني المنصوص عليه في مثل هذه الحالات.

المادة 4.

يتم منح الاعتراف (التنازل)

- 1 "الإصلاح على نقطة الخاصة، في غضون سنتين من تاريخ المحضر الفعلي لمراد المالي التي سيتمتع بها من خلال هذا المحضر.
- 2 "الانتقال إلى الزراعة الكاملة، في غضون خمس سنوات من نفس التاريخ، التي منحت له في الأراضي الصالحة للزراعة.
- 3 "اعطهم أجزاء المستقعات بالزحف أو القنوات.
- 4 "تحديد الأراضي الممنوحة له، في الجانب حيث تتجاوز مع الأراضي التي لتلك القبائل أو أشخاص آخرين، بالحدائق، أو التحوطات ذات عرض 1 متر.
- 5 "استيعاب وحقق يساوي 55 سنتيمتر.
- 6 "أن يربط على نقطة الخاصة، عن طريق المساحين المعتمدين أو المصادق عليهم من طرف مدير المالية، لوضع الخط بمقياس 40 على ألف للأراضي التي سيتم وضعها تحت الحيازة. ينبغي صياغة هذا المخطط في السنة الخامسة بعد تاريخ محضر التنفيذ الخاص بالتمتع به، ويتم التحقق من ذلك من قبل عملاء في هذا المجال، موافقين على اقتراح مدير المالية، ويستخدم في التحديد بشكل نهائي مدى الامتياز. يتحمل التنازل تكاليف السكن والطعام الخاص بالترقيين المستعملين في هذه العملية.
- 7 "التقديم سوية لإدارة المالية، جدول التنازل، وهذا النموذج الذي يقدمه.

المادة 5.

هذا التنازل حتى من الإيجار والخصم بقية عشر سنوات والتي سوف تكون

انطلاقاً من تاريخ الموافقة على هذا الأمر. ومع ذلك، لا يتم تضمينها في الضرائب المعفاة، وتكاليف العمليات المساحية التي تخضع لها كافة الممتلكات الأخرى.

المادة 6.

عند انتهاء مدة عشر سنوات، يدفع الوكيل للدولة في كل ثلاثي ويدفع مقدم في يد مستلم العقارات في الجزائر من أجل الأراضي المزروعة وغير المزروعة، الصالحة للزراعة وغير الصالحة للزراعة، المحددة في المخطط الذي تحدثت عنه المادة 4، وعلى كل ما يوجد هناك، قسماً سنوياً يقدر بـ 50 سنتاً للهكتار الواحد. هذا الرسم مستقل عن الضرائب التي قد تكون موجودة بعد انقضاء تلك المدة أو أي المعمول بها لاحقاً.

المادة 7.

يمكن للمنايع (المتنازل أو صاحب الامتياز) تخليص (اعادة شراء) القسط السنوي، عندما يتم تحديثها من خلال الدفع للدولة رأس مال يصل إلى 5 بالمئة من هذه الأقساط.

المادة 8.

في الحالات التي تكون فيها الإجراءات القضائية تتدخل نسبياً للمحد من حق ملكية الأراضي التي ستكون تحت الحيازة على التوالي، وسوف تتبع المناقشات على نفقته. وسوف تعود الممتلكات إلى الجانب المدني، ولكن دون أن تكون تكاليف المحضرة قادرة على البقاء في مسؤوليته. في حال كان المانع قد اشترى ممتلكات أخرى لملكين آخرين غير ممتلكات الدولة، مساحات الأراضي الواقعة في منطقة أولئك الذين يخضعون لهذا الترخيص، لن يكون قانون التملك صالحاً في نظر العديد من ممتلكات الدولة رغم مصادقته عليها، وبدون هذا الاجراء الشكلي، فإن المساحة الأرضية بأكملها سوف تعتبر جزءاً من الامتياز (المتنازل) وسيدفع 50 سنتاً للهكتار الواحد.

المادة 9.

إذا عسر المتنازل في محضر أو دعوى قضائية بمساعدة إدارة ممتلكات الدولة، فلا يمكنه طلب تعويض عن الأراضي المدرجة في التنازل، ولن يكون له الحق في الحصول على تعويض متناسب مع سعر القسط السنوي، ولكن بعد أن يكون قد اشترى هذا القسط، لا يكون له الحق في أي تخفيض. ومع ذلك فإنه قد يتلذذ فائداً بدعم إدارة ممتلكات الدولة من كل طعن قضائي للمحد والقانون.

المادة 10.

لا يتم نقل الترخيص على الرهن العقاري الموهون كلياً أو جزئياً إلا بإذن صريح من الحكومة، تحت طائلة بطلان النقل وحقوق الرهن العقاري المتفق عليها. وهذا الشرط يخرس على المتنازل عند اعادة تخليصه للأقساط السنوية.

المادة 11.

في حالة عدم الوفاء بالأحكام والشروط الواردة في هذا الأمر، سيتم إلغاء الامتياز تلقائياً دون أن يتمكن المتنازل (المنايع) المطالبة بأي تعويض عن الزيادة في قيمة العقار الذي يمكن أن يحصل عليه.

المادة 12.

المتنازل لن يكون نهائياً إلا بعد موافقة وزير الحرب.

المادة 13.

مدير المالية هو المكلف والمسؤول عن تنفيذ هذا المرسوم (الأمر).
حرر في الجزائر العاصمة، 3 جوان 1835.
توقيع: د. كولت إيرلون.

أما الموقع أدناه، أمير "مير ميرسكي"، أعلن عن تقبل هذا التنازل الخالي مع جميع البنود والشروط المذكورة أعلاه.

الجزائر، 29 يوليو 1835.

توقيع الأمير مير ميرسكي.

لنسخة طبق الأصل.

وزير الحكومة.

توقيع فاليت دو شيفيني.

لست الموافقة عليه بقرار من وزير الحرب، 7 جويلية 1835.

وزير الحكومة.

توقيع فاليت دو شيفيني.

ملاحظة على الإيرادات الحكومية في الجزائر.

لقد تحدثنا في المجلد الثاني من الحوليات عن رقم الدخل العام في عام 1835 حيث كان يقدر بـ 2.593.472 فرنك فرنسي و 58 سنتيم، طبقا للتوثيق الذي تم الحصول عليها، ولكن الإدارة في جدول الوضع، لم تحسب الألب 2.518.521 فرنك فرنسي و 47 سنتيم. هذا الاختلاف هو على الأرجح بسبب غياب بعض القيم التي نحن تجاهلناها. منذ 1835، زادت الإيرادات العامة. وارتفعت في عام 1837 إلى 3.665.603 فرنك فرنسي و 24 سنتيم، كما سيظهر فيما يلي:

سنتيم	فرنك	
50	181.349	ممتلكات الدولة
47	187.159	التسجيل
35	1.285.752	الجمارك
01	84.962	البراءة
00	100.321	تراخيص بيع المشروبات
24	162.204	المحطات والبواخر ⁽¹⁾
12	2.007.348	الأحالة

(1) نقل البواخر التابعة للدولة ركابا بنفوس مغلقة.

المقرر	فرنك	ستيم
بيع مسحوق النار (البارود)	2007348	212
مختلف المتجات، بما في ذلك	9727	53
مساهمة قسنطينة	627278	69
إيرادات البلدية	1021248	90
المجموع	3665603	24

تنقصنا المعطيات الإيجابية على التدفقات النقدية المستوردة في الجزائر من خلال التجارة والأفراد؛ ولكننا نعرف من الوثائق التي قدمتها الإدارة، أن الشحنات النقدية تقوم بها الخزينة، وقد بلغت في عام 1836 إلى 5.511.567 فرنك فرنسي و92 ستيم. وفي 1837، 7690958 فرنك فرنسي. تمت تغطية النفقات المترتبة عن هذه الشحنات عن طريق الإيرادات المحلية، و باتفاقيات تم التفاوض عليها في البلاد.

نفقات مؤسساتنا في أفريقيا، تتعلق بوزارة الحرب، وكانت تقدر ب 3.982.716 فرنك فرنسي في عام 1837، والتي يجب أن تضاف 4451100 فرنك فرنسي. للقوات البحرية. بإجمالي أو مجموع 44278867 فرنك فرنسي. نحن نعلم أنه ولبعض سنوات، ميزانية الجزائر، في وزارة الحرب، أقل من تلك المتعلقة بالبحرية، في جميع النفقات دون استثناء. وفي السابق كانت الأفواج القادمة من فرنسا، لا تمثل إلا على أساس الفرق بين قائمة السلام وقائمة الاستعداد للحرب. ونحن نرى أن ما زال هناك تفاوت كبير بين الإنفاق والإيرادات. فمن الصعب التنبؤ متى سينتهي كل هذا، لأن الحكومة لا تعرف ذلك حقا وهو ما يبدو أكثر وضوحا من أي وقت مضى، فهي لا تعرف ماذا

تريد أو ماذا تفعل في أفريقيا، وهو ما كان الوسيلة للإنفاق دائما، دون أن نتج ثبوت وهو ما يثير القلق بالنسبة للمستقبل، ليصبح من المقيد لمنع الإحباط، لوضع موارد البلاد أمام عيون الجمهور.

قلنا في المجلد الثاني، أن الحكومة المركزية في الجزائر تحت حكم الأتراك لم يكن لديها دخل منتظم، إلا على ما قيمته ثلاثة ملايين فرنك، ولكن كان لديها القليل جدا من النفقات لدعم البايات الثلاثة في وهران و قسنطينة ونيطري، حيث يقومون بتغطية نفقات محافظاتهم بأنفسهم، من خلال الضرائب التي تسحب والتي يرسل جزء ضئيل منها فقط إلى الجزائر. ومع ذلك، كانت الحكومة تعرف بالضبط ما تجلبه كل محافظة، فقد كانت لديها قاعدة للحساب، على الأقل ثروة الحاكم السابق. كانت هذه القاعدة لدينا بالنسبة إلى قسنطينة، واستتج من الوثائق التي جمعتها الإدارة، ووضعها في الجدول الأخير، والمقتبسة من مصادر أصيلة تقول أن إيرادات بيلك قسنطينة كانت تقدر بـ 5.026.705 فرنك فرنسي، دون احتساب الحقوق المحددة والخاصة ب القائد (القادة) ومسؤولين آخرين. هذا المبلغ هو أكبر بالتأكيد مما لم نفترضه، وإذا كنا نفتقر إلى معطيات إيجابية، سوف تبدو كبيرة عند النظر إلى سوء إدارة البلاد. مع إدارة ذكية تدفع إلى الإنتاج، لكنت لدينا نفس قوة النشاط والعمل مثل الأتراك، ولكان بإمكاننا مضاعفة الأرباح. نختتم هذا المقال بجدول الإيرادات، الذي أعطينا فيه الرقم الكلي.

بيان الدخل في محافظة قسنطينة تحت ادارة الأتراك.

أموال الضرائب، التي تم جمعها من القبائل	1202281..... فرنك.
متوسط قيمة العشور أو العشر	2.880.000..... فرنك.
قيمة ضريبة الزبدة أو البقراجي	19.690..... فرنك.
قيمة الضريبة على الأغنام أو "غرامة الجلب"	38.985..... فرنك.
قيمة الضريبة على الخيول أو "مورج الباشا"	64800..... فرنك.
"بشيرة" أو هدايا الباي	36.000..... فرنك.
"حكور" أو الايجار الخاص بـ "العزلة" ⁽¹⁾	596260..... فرنك.
قيمة تكاليف التبني المفروضة على "عزلة"	26.469..... فرنك.
قيمة الحبوب التي قدمتها "عزلة" التي تخضع	
لـ "الجيري"	86.800..... فرنك.
البراءة على التجار في متجر	1800..... فرنك.
الرسوم التي يدفعها أمناء الشركات	12.852..... فرنك.
قيمة اللوازم التي يقدمها الدباغون	1800..... فرنك.
المجموع	4.967.727..... فرنك.

إيرادات الجزائر

إيرادات الجزائر

التقرير (الدخل).....	4.967.727 فرنك.
الضرائب المفروضة على اليهود	9000 فرنك.
كل المنحة المالية والعينية	43200 فرنك.
المنتجات المتنوعة.....	6778 فرنك.
المباني أو البيلاك الحضرية	50000 فرنك.
المجموع	5076705 فرنك.

ملاحظة على الممتلكات في الجزائر، قبل الاحتلال الفرنسي، بواسطة
تشارلز مانغاي، قائد الهيئة الملكية الهندسية⁽¹⁾

الخدمة الخاصة التي نحن مسئولون عليها تلزمنا بمحاولة حل السؤالين
التاليين:

- 1° قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، ما هي الفئات المختلفة للملاك؟
- 2° كيف كانت تمتلك كل طبقة من هذه الطبقات؟

وسائل البحث التي قدمت لنا من قبل المنظمة خدمتنا لحل هاتين المسألتين
بطريقة اعتقدنا بأنها كاملة الى حد ما. وعلاوة على ذلك، كانت سلطاتنا عبارة
عن تصرفات أصلية وأصلية وضعت في قصر الهندسة و آراء الفنين والقضاة

(1) تشارلز مانغاي ذلك، أو عائلته، نشر في المجلات الجزائرية بفتح البحري
الأثرية التي مارسها بعد. امتد نوعه مع فترة كبيرة القدرة على العمل، والتعبير
بالحكمة ونقطة الملاحظة. لقد توفي وهو ما يزال شابا وأحرب استقلوا عن أنفسهم
الشديد من رحيله كما تأسف لذلك استقلوا من العلماء.

المختلفة، "أيدول" و"أوكيل" الذين كنا على اتصال وعلاقة معهم منذ عام 1834.

ستقدم ملاحظتنا بإيجاز من خلال ما تحصلنا عليه للإجابة على هذين السؤالين.

السؤال الأول.

قبل الاحتلال الفرنسي، ما هي مختلف فئات المالكين في الجزائر؟

تسمى المباني إلى :

1 "الأفراد؛

2 "الشركات؛

3 "بيت المال؛

4 "البيك.

§ I.

الأفراد.

أي فرد، بغض النظر عن أمته ودينه، ولونه أو شكله، قد يصبح مالكا قانونيا بالهدية أو الميراث أو الشراء. الاعتقاد السائد أن الإسرائيليين لا يمكنهم أن يكونوا مالكيين، وكانت هذه واحدة من العديد من أخطائنا.

§ II.

الشركات.

الشركات التي تملك والتي يمكن أن تملك مقسمة إلى سبع فئات هي:

1 "المكة المكرمة والمدينة المنورة،

2 "المرابطون؛

3 "المساجد؛

4 "الاندلس؛

5 "الإنكشارية؛

6 "المياه؛

7 "الطرق.

مكة والمدينة المنورة.

إدارة مؤسسة مكة المكرمة والمدينة المنورة من قبل أوكيل أو وكيل يساعده كاتب العدل أو الموثق، الذي نسميه أيدول. العقارات العائدة للشركة هي أربعة أنواع، وهي:

1 " تلك التي تستخدم الإيرادات لإغاثة الفقراء، الذين تقدم لهم التوزيعات النقدية والخبز كل أسبوع؛

2 " تلك التي تستخدم الإيرادات لصيانة المباني الدينية المقدسة ومكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث ينبغي أن ترسل كل عام؛

3 " تلك التي تستخدم الإيرادات لشراء المسلمين الذين يقعون في الرق في بلد أجنبي؛

4 " تلك التي تستخدم الإيرادات للصيانة والمحافظة على المباني الدينية في الجزائر العاصمة.

أوكيل (وكيل) مكة المكرمة والمدينة المنورة مسئول أيضا عن إدارة العقارات العائدة إلى ثلاثة مساجد الخنفي في الجزائر، والتي هي:

1 جامع مقرين: - مسجد ثكنة مكارون.

2 الامور ومورتو. - مقابل مستشفى باب عزون.

3 اد علي باشا. - من الثكنة المدي العليا.

رواتب الموظفين، والتكاليف التي تفرضها الإدارة من مسؤولية الأوكيل،
على مستوى إيرادات المباني التابعة للشركة.

III §

المرابطون.

المرابطون هي تلك المباني التي تضم قبر القديس أو عن طريق التبرعات
بالمباني، أو دفع التبرعات بمبالغ كبيرة من المال يقوم بها أوكيل المرابطين،
وبعض ما يتحصل عليه من المسلمين الملتزمين من خلال مراسيم الدفن.
تتم خدمة هؤلاء المرابطين من طرف أوكيل أو اثنان أو أكثر، اعتمادا على
أهمية أو اثنين أو قديس.

يوجد عدد كبير جدا من المرابطين، ولكن هناك تسعة عشر فقط من الذين
لديهم مباني.

كل من هؤلاء المرابطين 10 والمباني التابعة لهم، والتي تدار مداخلها
بواسطة أوكيل المرابط، وتستخدم هذه الإيرادات في صيانة المباني ونفقات
الزعماء، والغسوة، والاهتمام بالأوكيل والـ "العلية"، وهم مثل الأئمة الذين

بقراون القرآن على قبر القديس (الوالي). هؤلاء المرابطون 19 الذين لديهم
مباني هم:

في المدينة:

1* مرابط سيدي هلال شارع سيدي هلال.

2* مرابط سيدي علي وفحصي، شارع فيليب رقم 64.

3* المرباط سيدي الشايب شارع قبايتو.

4* المرباط سيدي وجودي، شارع الألوان الثلاثة رقم 91.

5* المرباط سيدي بن أيوب، شارع الألوان الثلاثة رقم 60.

6* المرباط سيدي حامد بن عبد الله، ساحة باب الواد.

7* المرباط سيدي الميراعيشي شارع المدينة، رقم 127.

8* المرباط سيدي محمد شريف، شارع دو بالمسي.

9* المرباط سيدي رمضان، شارع رمضان رقم 16.

10* المرباط سيدي أولياد، شارع ديفان، رقم 108.

11* المرباط سيدي منصور، ساحة ماسينيس، رقم 29-31.

خارج المدينة، في باب الواد:

12* المرباط سيدي عبد الرحمن بالقرب من إقامة ضباط المدفعية.

13* المرباط سيدي عامر تسي، مسكن السيد فينكلار، حراسة الخدمة.

14 "المرايط سيدي سعدي بالقرب من مقر الشرطة (الدرك).

15 "المرايط سيدي يعقوب، التابع الى سالياتريير.

خارج المدينة، في باب عزون:

16 "المرايط سيدي بنكة، تكة "السفاهي" بالقرب من الباب.

17 "المرايط سيدي عبد القادر، في منفذ المتحدرة، في رصيف الميناء.

18 "المرايط سيدي عيسى بالقرب قطار الهندسة.

في جبال الشرق، جرجرة.

19 "المرايط سيدي محمد بن عبد الرحمن.

من المساجد.

المسلمون مضمون، في تقرير الدين، هناك أربعة طوائف الأرثوذكسية أيضا، والتي اتخذت اسم الأئمة الذين يتبعون المذهب. هذه الطوائف الأربع هي: 1 "حنفي، 2 "مالكي، 3 "حنبلي، 4 "شافعي. ليس هناك في الجزائر الحنبلي والشافعي: الأتراك هم الحنفيون، والمالكيون هم العرب. الحنفية كان لديهم 14 مسجدا، والمالكيون كان لديهم 89 مسجدا وجامعا. المسجد صغير حيث يجتمع المؤمنون لتأدية الصلاة كل يوم وخلال الأسبوع، دون انصاعة الكثير من الوقت والذهاب بعيدا للبحث عن مسجد كبير. لا يمكن تأدية صلاة الجمعة في المساجد، بل تؤدي في المساجد الكبيرة أو الجامع.

كل مسجد مالكي لديه مبانى تابعة له. وتدار هذه الممتلكات (المباني)

برئاسة أوكيل المسجد، وتستخدم إيراداته لتغطية نفقات العبادة والاهتمام

بالأئمة، و"الطلبة"، والمؤقتين، وما إلى ذلك من يخدمون المسجد.

الحنفيون ليسوا مثل المالكيين، فكل مسجد مالك منفصل ومختلف. لقد

رأينا في السابق ثلاثة من مساجدهم وهي مقرب وسوزو موتو ومسجد علي

باشا، وكانت تدار من قبل أوكيل مكة المكرمة والشيبة الشورة.

كما يتواجد مسجداً من مساجد الحنفيين في منطقة واحدة لتجد في

مسجد علي بتشين ومسجد خير الدين باشا الذي يدير مانيه أوكيل جامع

سيدي علي بتشين.

المسجد السادس يدعى جامع زقة سعالوي ومبانيه التي يديرها القاضي

الحنفي للجزائر العاصمة.

أما بالنسبة للمباني التابعة إلى نهاية مساجد حنفية أخرى، فتدار من قبل

أوكيل معروف باسم أوكيل ألع سول خيرات مدير الممتلكات مع توجه

إيرادات هذه الممتلكات عن طريق القاضي الحنفي، لتضم بين المساجد الشافعية

التي تشكل معا مجموعة أو مؤسسة سول خيرات. وفقا لاحتياجات كل هذه

المساجد، والموظفون لنفس الغرض الذي تهدف إليه إيرادات المساجد المالكية.

وبهذا تجد المساجد الحنفية أربعة مالكيين (ملاك) جندو وهم عن التسو الشافعي.

1- أوكيل مكة المكرمة والمدينة المنورة لـ:

1* جامع موقرين شارع مكارون، رقم 31.

2* جامع ميزو مورتو، شارع كارتو، رقم 14.

3* جامع علي باشا، شارع المدينة، رقم 95.

2- أوكيل سيدي علي بتشين لـ:

4* جامع علي بتشين نهج القصبة، رقم 19.

5* جامع خير الدين باشا، شارع الحكومة، هيئة الحراسة.

3- القاضي الحنفي للجزائر من أجل:

6* جامع زنقة سطاوالي، شارع أورليان رقم 41.

4- أوكيل سبول خيرات لـ:

7* جامع فادر باشا، شارع باب عزون، رقم 222.

8* جامع القصبة (الخارجي)، شارع القصبة، رقم 237.

9* جامع القصبة (الداخلي)، في المناطق الداخلية من القصبة.

10* جامع شعبان خوجة، شارع القناصل، هدم.

11* جامع حسن باشا، شارع دو ديوان، رقم 100.

12* جامع صيدا، شارع الحكومة، هدم.

13* جامع الحديد مدخل شارع البحرية.

14* جامع الصغير، شارع كليبر، رقم 136.

المساجد المملوكة لخمسة وثلاثين ملكية في الجزائر

تسعة ملاك مختلفين، يتم تمثيلهم بواسطة أوكيل الجامع أو المسجد وأسماؤهم

كالتالي:

1* جامع الكبير، في منتصف شارع دي لا مارين (شارع البحرية).

2* جامع سيدي رمضان، شارع رمضان، رقم 8.

3* جامع الكشش (القشش)، شارع القناصل، رقم 35.

4* جامع بلاطة، شارع دي نيمور، رقم 57.

5* جامع سوق سوقة عمور، شارع كارتو، رقم 150.

6* سوق جامع قبايطية، شارع كارتو، رقم 207.

7* جامع سوق مسن، شارع كارتو، رقم 257.

8* جامع حمام الكشش شارع ليزار.

9* جامع سوق الكتان، شارع باب جديد، رقم 221.

10* جامع كوشات بولاية شارع بولاية.

11* جامع الملاك شارع بلور رقم (1).

12* جامع سيدي ملاح، شارع جيتول، رقم (1).

13* جامع سيدي حامد مشدلي شارع سالوست، رقم 13.

14* جامع سيدي حامد الشفارة، شارع لا جيراف (شارع التوافقة) رقم 42.

15* جامع سيدي بوقدوره شارع كليبر، رقم 39.

16* جامع سيدي عبد المولى، شارع الأهرامات، رقم 9.

17* جامع حوات سيدي عبد الله، شارع سيدي عبد الله، رقم 32.

18* جامع عيص سلاوي.

19* جامع صباغين، شارع الحكومة، هدم.

20* جامع خوجة نيري، شارع باب عزون، رقم 24.

- 21 "جامع السويبر، زقاق هيئة الأركان، رقم 52.
- 22 "جامع فوكين عبد الله الحاج، شارع القصبة، رقم 147.
- 23 "جامع سيدي محمد الشريف، شارع دو بالمبي (شارع النخيل).
- 24 "جامع بن غاور علي شارع سطاوالي، رقم (1).
- 25 "جامع سيدي حامد بن عبد الله، شارع الإشراف، رقم (1).
- 26 "جامع سيدي درفود (داوود) شارع السودان، هدم.
- 27 "جامع بير جبة شارع قاربا، رقم 7.
- 28 "ش هدم جامع كوشات الأوكيد شارع بتولومي، هدم.
- 29 "جامع عين شاع، حسين، شارع باب الجديد، رقم 238.
- 30 جامع باتيستن، ساحة الحكومة، هدم.
- 31 "جامع عقبة شرشال شارع أكرميموت، رقم 4.
- 32 "جامع عين عبد الله الحاج شارع القصبة، رقم 110.
- 33 "جامع أكميت شكور، شارع دي تولون، رقم 14.
- 34 "جامع الراتة، ساحة الحكومة، هدم.
- 35 "جامع قبل فندق، الزيت شارع باب عزون، رقم 191، هدم.
- 36 "جامع الديارين شارع باب الواد، رقم 84.
- 37 "جامع دار القاضي الملكية، شارع باب الواد، رقم 100.
- 38 "جامع حامن بن عبد الله الزواوي، شارع سو كجيه، رقم 48.
- 39 "جامع سيدي علي والحفصي.
- 40 "جامع عقبة سلام، شارع فوكين، رقم 39.
- 41 "جامع سيد علي ومليان.
- 42 "جامع الخرامات، شارع باب جديد، رقم 227.
- 43 "جامع سيدي المارشي، شارع الشقة، رقم 127.

- 44 "جامع حومة سيللاوي، شارع مستور، رقم 11.
- 45 "جامع سيدي عبد الرحمن، شارع الميثاق، رقم 66.
- 46 "جامع سيدي علال.
- 47 "جامع مسجد حومة وبشحة، شارع القناصل، رقم 82.
- 48 "جامع كاحاسور.
- 49 "جامع مسجد خرب وجنان، شارع لاهوم رقم 23.
- 50 "جامعير اجناز شارع العقرب (شارع سكوريون)، رقم 24.
- 51 "جامع قيب حمام يتو، شارع التجارة، رقم 17.
- 52 "جامع قدام حمام يتو، شارع القصبة، رقم 12.
- 53 "جامع سيدي العربي شارع تورفيل، رقم 5.
- 54 "جامع شطبي، شارع لوكدور، رقم 27.
- 55 "جامع مليان، شارع القصبة، رقم 60.
- 56 "جامع أولاد سلطان، شارع كتاروجيل رقم 30، هدم.
- 57 "جامع حومة تيرافوي، شارع دي لير، رقم 7.
- 58 "جامع رمضان باشا.
- 59 "جامع سيد والعربي، شارع سيدي عبد الله رقم 3.
- 60 "جامع قايد علي، شارع السودان، رقم 47.
- 61 "جامع كشاوة شارع بوتان، رقم (1).
- 62 "جامع بن شمون، شارع باب جديد، رقم 198.
- 63 "جامع الأخي عبد العزيز.
- 64 "جامع سيد حامد بن علي، شارع الأمير الطور، رقم 76.
- 65 "جامع حمام وقايد موسى، شارع طيبة، هدم.
- 66 "جامع السبت وأرس شارع الفتنة، رقم 3.
- 67 "جامع سيد عبد العزيز بونعالة، شارع الخليل (موشامو)، رقم 3.

الأندلسيون (الأندلس).

الأندلس يتمون إلى الشعب الجزائري والذين ندعوهم المور (المغاربة).
يتحدر الأندلس من عرب إسبانيا الذين كانوا يبحثون عن ملاذ آمن في
أفريقيا، بعد فتح مملكة غرناطة، ويدعون النسب إلى بني أمية ويطلق عليهم
اسم الأمويين.

وقد احتفظ الأندلسيون بشيء من التعليم الذي توارثوه عن آبائهم، كما أن
تقاليدهم وبعض استخداماتهم ذات اختلاف كبير عن تلك الخاصة بسكان
الجزائر.

عندما هرب العرب إلى أفريقيا ضمن العائلات التي جاءت إلى الجزائر،
كان العديد منها تعيش في الفقر المدقع. أما المهاجرون الأغنياء فقد ساهموا
في مساعدة هذه الأسر واشتروا بعض المباني التي تقرر أن تستخدم إيراداتها
في إغاثة الأندلس الفقراء. في وقت لاحق، انضمت بعض المباني الأخرى إلى
الأولى بنفس الوجهة والغرض.

تدار جميع هذه الممتلكات من قبل أوكيلين المعروفين باسم أوكيل الأندلس،
اللذان يطبقان رسوم الإدارة على ما تم جمعه من إيرادات هذه المباني لإغاثة
الفقراء من الأندلس (الأندلسيين)، دون صرف الالتئام عن بقية الفقراء بلا
حول ولا قوة من المسلمين.

الإنتكشارية.

كانت الإنتكشارية سبغ ثكنة في الجزائر وهي:

- 68 " جامع بر خيصة، شارع المسلمين، رقم 3.
- 69 " جامع بربور، شارع القصبة، رقم 303.
- 70 " جامع حمام القصبة، شارع بالين، رقم 14.
- 71 " جامع باب الحديد، شارع دي لا فيكتور، رقم 4.
- 72 " جامع جامع الزيتون، شارع باب جديد، رقم 352.
- 73 " جامع آرس سلاوي، شارع غرينادا، رقم 28.
- 74 " جامع سيدي منصور، ساحة ماسينيسا.
- 75 " جامع سيدي جودي، شارع الألوان الثلاثة (تروا كولور)، رقم 25.
- 76 " جامع سيدي فلشحة، شارع دو شيفال، رقم 3.
- 77 " جامع نسادولي، شارع فليب، رقم 35.
- 78 " جامع حيسوكا.
- 79 " جامع بن سلطان، شارع الألوان الثلاثة، رقم 95.
- 80 " جامع ستنا مريم، باب الواد، رقم 295.
- 81 " جامع سيدي حيسوكا.
- 82 " جامع ركروك، شارع القفطان، رقم 17.
- 83 " جامع سيدي عبد الرحمن قرب إقامة ضباط المدفعية.
- 84 " جامع سيدي عامر تستني، في خندق باب الواد.
- 85 " جامع سيدي جامع، خارج باب الواد.
- 86 " جامع المسالة خارج باب الواد.
- 87 " جامع مسجد سيدي بنكة خارج بابعزون.
- 88 " جامع زويتز المولى الحسن، شارع بوتان، رقم 34.
- 89 " جامع العباس، شارع دلثا، رقم 2.

- 1 "دار انكشارية خراطة، مستشفى كاراتين.
- 2 "دار انكشارية باب عزون دار، مستشفى باب عزون.
- 3 "دار انكشارية الحديثة، ثكنة المدية العليا.
- 4 "دار انكشارية جديدة، ثكنة المدية السفلى.
- 5 "دار انكشارية سنة موسى، ثكنة باب فرنسا.
- 6 "دار انكشارية امتى دروج، ثكنة القناصل.
- 7 "دار انكشارية مكارون، ثكنة مكارون.

ويتضم كل مركز إلى عدد من الثكنات التي تضم من 100 إلى 200 رجل. العديد من هذه الثكنات، أو بالأحرى أرقامهم، هم ملاك لمباني مختلفة. هذه المباني تدار من قبل أوكيل يعينه المضجع، والذي يستخدم إيراتها لتحسين موقف وجود الإنكشارية، الذين ترقوا في وظائف بارزة ومهمة، وحصلوا على ثروة كبيرة. ليس من الممكن أن نحدد عدد المضاجع التي يملكونها، وليس هناك معلومات كافية. ومع ذلك، يبقى ذلك غير مهم جدا، وجميع العقارات العائدة للإنكشارية، نتمى حقوقها إلى الحكومة الفرنسية.

المياه.

قنوات المياه، التوافير، وصنابير المياه، وما إلى ذلك، وعموما كل شيء يتعلق بالمياه من مسئولية إدارة خاصة برئاسة زعيم يعين قائد العيون.

بصفة عامة، كانت المباني المملوكة للمياه تدار من قبل قائد العيون، وإيراداتها موجهة لصيانة القنوات مثل قنوات المياه، الخ.، وفقا للشروط التي يفرضها قانون إدارة المياه، والمباني التي وضعت تحت تصرفها لجمع الإيرادات. لكن في بعض الأحيان لا تكون المباني المتعلقة بالمياه تحت إدارة "قائد العيون"، ولكن إدارتها تكون بواسطة شيخ البلاد (نوع من المحافظين أو الحكام)، الذي يجب أن يسهر على ضمان استعمال الإيرادات بواسطة قائد العيون وفقا لنية ورغبة الجهة المانحة. كما نجد في بعض الأحيان، وفيما يتعلق بالمجاري المائية أو بعض التوافير الخاصة، وكيل من نوع خاص، مكلف بإدارة الممتلكات المخصصة لهذه التوافير أو المنابع أو المجاري المائية، والذي يستخدم إيرادات هذه المباني للاهتمام المستمر بهذه المباني والمنشآت الخاصة بهذا الميدان.

الطرق.

تخصص بعض المباني القليلة لصيانة الطرق التي يتم تحديد شكل خاص. في هذه الحالة، هناك وكيل واحد مختص بإدارة المباني المخصصة للطرق المحددة، ولديه إيرادات من هذه المباني يتم توظيفها للصيانة المناسبة لهذه الطريق.

III 9

بيت المال.

بيت المال عبارة عن إدارة يسيرها قاضي (بيت الملجي)، ويساعد القاضي

"عادل" أو كاتب العدل. هذه الإدارة تدفع لحكومة باشا 400 بوجو شهريا (720 فرنك فرنسي). والتي يكون لها الحق من خلالها في:

- 1 "إدارة العقارات العائدة لثروة الأفراد الذين ليس لديهم وريثة؛
- 2 البيع في المزارع العلني للممتلكات الخاصة بثرثة الأفراد المتوفين دون وريثة؛

- 3 "البيع أيضا في المزارع العلني للممتلكات التي صودرت من قبل باشا على الأفراد. في الحالتين الأخيرتين، تدفع عائدات البيع في الخزينة العامة. بيت المال ليس مالكا، وهو مجرد مدير للممتلكات التابعة للدولة أو للأفراد. يتكفل بيت المال بما يلي:

- 1 "تغطية نفقات دفن الفقراء؛

- 2 "تقديم صدقات لـ 200 فقير كل يوم خميس؛

- 3 "تقديم الهدايا للباشا خلال الاحتفال السنوي بالعام الجديد، إلى جانب الضباط وأهل بيته.

VI §

اليلك.

وتعود ملكية هذه الممتلكات من المياهي إلى اليلك. أصبح اليلك صاحب ممتلكات بطرق أخرى، وهي:

- 1 "بتملك العقارات التي يقوم بها

لأفراد، وأنشاء المياهي بنفقاتها؛

- 2 "من طريق تبرعات الأفراد، أثناء حياتهم، في خزينة الدولة؛

- 3 "بالوراثة، يدعو عدة أفراد الدولة لثرت منهم كليا أو جزئيا؛

- 4 "وأخيرا عن طريق مصادرة الممتلكات الخاصة لفائدة الخزينة العامة.

كيف تتم المصادرة؟ لن نستطع الإجابة على هذا السؤال لعدم وجود

معلومات كاملة مؤكدة. ومع ذلك، فإننا نعتقد بأن القانون لا يسمح للباشا

بمصادرة الملكيات الفردية، إلا بعد مداولة (مجلس) كبيرة أو صغيرة،

ونتيجة لهذا القرار من تلك المداولة أو أخرى، يتم بيع اليلك في مزارع علني

للممتلكات التي تمت مصادرتها. إذا احتاجت الدولة إلى المياهي المصادرة،

يقوم الخزناجي (نوع من وزير المالية)، بحطب عدد من المزايدات بحيث

تتجاوز مزايداتهم تلك الخاصة بالأفراد. في الواقع، يمكن للباشا أن يفعل

ما يريد من خلال اتخاذ المسؤولية على عاتقه. والمتفقون في البلد قالوا لنا أن

الباشاوات في أغلب الأحيان، يتصرفون دون استشارة أحد أو دون إجراء

مداولة أخرى. ولهذا كانت هناك تغييرات كثيرة على هؤلاء القادة ذوي

السيادة، الذين تسهم حياتهم المهنية تقريبا دائما بكارثة صورية.

المياهي التي تملكها الدولة والتي تقع في المناطق الداخلية من المدينة،

كانت تدار من قبل الخزناجي. كانت تدار من قبل المياهي التي تملكها الدولة والتي تقع خارج المدينة، كانت تدار من قبل

خوجة الخيل (كاتب الخيول)، وهو ما يشبه الرئيس التنفيذي العام للعقارات الريفية.

الإيرادات والمباني المملوكة للسلطان، مثل تلك التي تقع في الداخل وتلك الواقعة خارج مدينة، يتم دفعها إلى الخزينة ليتم استخدامها لتسديد نفقات الدولة، بعد خصم المصروفات (النفقات) الإدارية.

السؤال الثاني.

قبل الاحتلال الفرنسي، كيف كانت مختلف الطبقات تمتلك العقارات؟

I §

ممتلكات الأفراد.

الباني المملوكة للقطاع الخاص، يقع "الملكية" أو الأوقاف (أو الحبوس).

ما معنى ممتلكات "الملكية".

"الملكية" يعني الحر والمستقل، ومباني "الملكية" هي التي يمكن مملكتها بجارها، أو تبديلها، أو رهنها، والتصرف بها بمحض إرادته، وحسب رغبته.

ما هي ممتلكات الأوقاف (الحبوس).

الحبوس يعني المسجون والمترم والمحتجز. في بناء الأوقاف الحبوس، تكون الممتلكات المباشرة والممتلكات المقيدة الميدان تنتمي (تعود) إلى شخصين مختلفين.

دستور الأوقاف (الحبوس).

فصل الممتلكات المباشرة والممتلكات النفعية يتم بمادة دستورية لأوقاف

الحبوس. يتقدم المشرع أو الذي توهب له الملكية في "المجالس" "المجالس" هو المحكمة العليا للمسلمين، في البلدان المسلمة، ويتألف من العلماء أو المفتين والقاضي، ومبعوث من الجيش المجيد، وهذا يعني السلطات الدينية والقضائية، ومندوب عن رئيس الدولة. يظهر الموهوب له حقوق الملكية، ويؤكد أن المبنى الذي يريده في الحبوس ينتمي إلى "الملكية".

ثم يعلن عن تشكيل مبنى أوقاف الحبوس.

ويبدأ بنفسه ليستمتع بذلك مدى الحياة؛

ثم أولاده من خلال تحديد حصة كل واحد منها للتمتع بحق الانتفاع من البناء؛

ثم نسل أبنائه والأجيال القادمة الآتية من بعد ذلك، عن طريق قسمة حسب السلالة والفرع، طالما مازالوا مرتبطين بالمبادئ الإسلامية، وتحديد النسب بالنسبة إلى الذكور والإناث للتمتع بها والاستفادة منها.

وإذا مات الجميع، وبالتالي اختفت الأسرة وانطفأت، تنتقل الضمانات إلى الشركة التي يريد المشرع وحب هذه الهدية.

يعلن هذا الدستور الخاص بالأوقاف عن طريق "المجالس"، وتبقى مدى الحياة، ولا يمكن أن تغير، ولا يمكن التنازل عنها في تقرير الأحكام، حتى يجمع الله أفضل الوارثين، ميراثه، والأرض وكل من يعيش فيها، ومن يجرى على إجراء أية تغييرات على أو تنازلات، سيعاقبه الله على جريمته، كما

سيكون مصير كل أولئك الذين يتهكون هذه الأحكام بصفة غير عادلة. يصدر القاضي حكمه حسب بيان هذا "المجلس" وهذا ما يجعل دستور أوقاف الحبوس مؤكدا بشكل نهائي.

آثار أوقاف الحبوس.

بالنسبة إلى هذا الدستور الخاص بالأوقاف أو الحبوس، ينتمي الممتلكات المباشرة للمؤسسة أو الشركة، ولا يمكن للشركة أن تفرض فيها. وبوجود أحفاد ونسل الموهوب له (المستوح له)، سيتملكون الممتلكات النفعية، ولا يمكن التفريط فيها إلى الأبد. لأنه، أولا، لا يمكن إلزام الشركة التي تعود إليها هذه الممتلكات النفعية بانقراض الأسرة.

كما لا يمكن إقحام أطفالهم الذين يأتون للاستمتاع بهذه الممتلكات، ولا يكون ذلك عن طريق رئاسة آبائهم، بل لأنهم مدعوون بموجب القانون الذي تفرضه أوقاف الحبوس، والرئيس الموهوب له الأصلي. لا بد على أصحاب الممتلكات النفعية سحب الضريبة على دخل (البرادات) الممتلكات، وهو المبلغ المطلوب للحفاظ على المبنى في حالة على الأقل مساوية لتلك التي كانت دائما عندما تواجد دستور الأوقاف (الحبوس).

هذا الالتزام بالعيانة كان ميسرا لإدخال نوعين من المعاملات، وهي عقد إيجار "الجلسة" وبيع "أنا".

استئجار "الجلسة".

مياني الأوقاف بحاجة إلى إصلاح، وصاحب الملكيات المفيدة أو النفعية لا يرغب أو هو غير قادر على الإصلاح بنفسه، ويتعامل بالتراضي مع فرد يعطي له المبنى بعقد الإيجار بناء، شرط أن يقوم بالإصلاحات اللازمة، و يتفق على الإيجار السنوي المناسب.

عند القيام بالإصلاحات، يصبح للمبنى قيمة أكبر. ويقوم المستأجر بموجب هذا بتأجير المبنى بثلاث الإيجار السنوي الذي يتجاوز أكثر أو أقل المبلغ المنصوص عليه بين المستأجر والمؤجر الأصلي.

هذا الفرق بين مبلغ الإيجار هو ملكا للمستأجر الإيجاري، وهذا هو الحق الذي نسميه "الجلسة" في المقاطعات الغربية، وبين علماء الناس في الجزائر، أما في الجزائر العاصمة فنسميه "القعدة" في اللهجة السوقية المتدلية، و"خالو" في مصر.

ماهية "الملكية".

متنوع الأوقاف، الذي هو المؤجر البدائي (الأولي)، لديه الحق فقط في القسط المنصوص عليه في البداية بينه وبين المستأجر أو مالك "الجلسة"، لكن هذه الأقساط يجب أن تدفع دائما له كما تم الاتفاق عليه. هذا القسط أو بالأحرى الحق في هذا القسط هو ما يدعى "الملكية". "الملكية" إذا هي الحق في القسط السنوي الثابت وغير المتغير، التي تعود إلى متنوع الحبوس، والتي أجر بموجب الشروط المنصوص عليها أعلاه، إلى شخص آخر.

الجلسة.

إجمالي قيمة استئجار المبنى يتكون إذن من "الجلسة" "الملكية" معا. لكن

القيمة الإيجارية الإجمالية للممتلكات متغيرة، فقد يتغير بتغير الظروف المختلفة من سنة إلى أخرى. ومع ذلك، فإذا كانت "الملكية" ثابتة، يجب أن تكون "الجلسة" متغيرة، ولذلك يمكن أن تكون إيجابية، أو سلبية أو حيادية، وهذا يتوقف الإيجار الحالي الذي يكون أكبر، أو أصغر أو يساوي "الملكية" أو الإيجار المنصوص عليه في الأصل. هذه هي مخاطر مستاجر "الجلسة".

صاحب "الجلسة" يقدم وفقا لتقديره.

كلما احتاج البناء إلى إصلاح جديد، والإصلاح ضرورة قصوى للمحافظة على قوة المبنى، حيث يكون التزيين والتحسينات مسؤولية "الجلسة"، صاحب "الملكية" و "الجلسة" تساهم بشكل متناسب في القسط الذي يسحب من المبنى. وتبقى سندات "الملكية" بحوزة المالك.

المرجعون القوريون يرجعون كل كلمة "الجلسة" بحق الإشغال. وربما هذا ما يقصر أن صاحب "الجلسة" هو صاحب الحق الحصري لتقديم المبنى للتأجير، وبالتالي تقديم الحق في الإشغال.

من البيع إلى "الآنا"

النوع الثاني من المعاملات الفرعية من خلال ضرورة الحفاظ على المباني هو البيع للـ "آنا": ويتجسد فيما يلي:

يجد صاحب الملكية النفعية نفسه غير قادر على القيام بالإصلاحات اللازمة لبناء الجبوس لصالحه، فيبيع، بالمتوسط القسط السنوي والدائم، والذي يجب أن

يظهر فيه ويعترف به حتى لا يعود بأية مشكلة لهؤلاء الذين لديهم حق الانتفاع من بيع الجبوس، بالقول أن بيع المبنى للفرد هو لإجراء بعض الإصلاحات اللازمة أو إعادة البناء.

والإنشاءات التي يقوم بها المشتري لا تتخذ اسم "زينا"، وتصبح ملكية المطلقة يتمتع بها ولديه وفقا لتقديره.

جميع الإصلاحات في البناء بعد هي من مسؤولية المشتري.

المبنى يصبح ملكية "المالك" بين يدي المشتري، إلا إذا كان مرهونا، بامتياز يقدم له قسما (أجرا) منظما متفق عليه، و يستمر إلى الأبد، دون زيادة أو نقصان.

وهذا ما يسمى "آنا" (القسط السنوي)، حيث أن "آنا" هو تمثيل للجبوس الأولية، والذي بعد موعده انقراض الأسرة يدفع إلى الشركة (المؤسسة) التي سيعود لها الجبوس، والتي جعلتها المؤسسة رهنا عقاريا بامتياز على المبنى لتقديم لها الـ "آنا".

سندات الملكية الأصلية بين يدي صاحب "الزينا". صاحب "آنا" يحتفظ بنسخة من هذه السندات.

الاختلافات بين "الجلسة" و "آنا".

هناك اختلافات جذرية ما بين "الجلسة" و "آنا"، فقد ربطنا الأولى بالإيجار والثانية بالبيع. فمن الضروري أن نلاحظ هذه الاختلافات التالية، وهي:

١ "في" الجلسة، إصلاح للمبنى، بعد المعاملة البديلية، يتطلب دعم صاحب الملكية، ودعم "الجلسة". في "أنا"، صاحب "الزينة" هو وحده المسؤول،
 2 "في" أنا، المشتري يأخذ السندات الأصلية للملكية من يد البائع، "الجلسة"
 تبقى السندات في يد المؤجر،

3 "في" الجلسة، المستأجر لديه الحق في أخذ المبنى المؤجر عندما يناسبه، وهو لذلك ملزمة بإعادة أخذه، هذا عادل بما فيه الكفاية، لأن المستأجر لا يعيد المبنى إلا بقدر الإيجار الذي سيكون أقل من المنصوص عليه في الأصل مع المالك، وبهذا يخسر المستأجر، ولكن المؤجر لا يخسر شيئاً، لأن المستأجر جعل البناء أفضل مما كان عليه عندما تم تأجيره، في "أنا" ليست هي الحالة نفسها،

4 والإحالة إلى "الجلسة" تحدث بالتراضي بين المستأجر والمؤجر، والمؤجر يوافق على عدم إقحام الورثة في ذلك، في حين أن الإحالة إلى "أنا" يكون فقط عن طريق العدالة، ويفضل حكم "المجالس"،

5 "في" الأخير، الإحالة إلى "أنا" لجميع أنواع المباني. أما الإحالة في "الجلسة" لا يتم إلا بتعيين المحلات التجارية، والحمامات، والمصانع، وما إلى ذلك، ولكن لا يمكن أن يحدث نفس الشيء مع المنازل أو العقارات الريفية.

II §

ممتلكات الشركات (المؤسسات).

ممتلكات الشركات تأتي كما يلي:

١ "الامتياز الذي تقوم به الشركات عن طريق وكيل على الأموال وحساب هذه الشركات،

2 "التبرعات المباشرة لهذه الشركات،

3 "الأوقاف (الخيوس) بسبب اقراض نسل مشي الأوقاف.

أياً كان مصدر ممتلكات الشركة، لا يمكن التخلي عنها. لا يجوز للمؤسسة أن تحصل على الممتلكات النفعية لأكثر من ثلاث سنوات. ومع ذلك، وبعد إذن حكم "المجالس"، يمكن للشركات بيع المباني بـ "أنا" ما لم يكن لديهم وسيلة للإصلاح حتى تنتج دائماً تقريباً نفس الحصة من دخل المباني الأخرى، أو تبادل المباني مقابل مباني أخرى ذات نسبة متساوية على الأقل، تعطي هذه المباني المصلحة العامة بإعادة استثمارها بالآليات التي تشقها هذا الغرض، وذلك ليحل محل خاصية النقل من مبنى إلى آخر ذي القيمة المتساوية.

III §

ممتلكات بيت المال.

المباني التي توجد بين يدي بيت المال تعتبر مؤتمنة، لأن:

1 "بيت المال يقوم فقط بإدارة المال الموجود في عيانتها، ويجب أن

ترجع الممتلكات إلى الورثة لدى موته،

2 "يمكن أن يغيره فقط حتى وقت المرافعة العامة، لصالح عزيمة الأوقاف.

والناب والأتات التي يتركها الأفراد المشوقون دون ورتة، أو من المصادر على
ممتلكات بعض الأفراد.

يمكن لبيت المال استجار للمدى القصير فقط، أو البيع في المزاد العلني
لصالح من الدولة.

§ VI

ممتلكات اليبك

ممتلكات اليبك هي "الملك". يمتلكها اليبك بناء على اختياره، ولكن لا
يمكن أن يبيعها إلا في المزاد العلني العام ومن خلال وساطة بيت المال.

13.

نظرة على عين ماضي وحرة

عين ماضي

عين ماضي هي مدينة صغيرة محصنة، على بعد رحلة أيام إلى الجنوب الغربي
من المدينة، في الصحراء تماما وخارج إقليم محافظة الجزائر العاصمة. لا
نعرف فترة تأسيسها. ولكن نحن نعلم جيدا أن ذلك كان قبل دخول الأتراك إلى
الجزائر، كما هو الحال بالنسبة إلى توفورات عاصمة إمارة صغيرة، حيث حكمت
عائلة أولاد علي، التي لا تزال موجودة. لقد جردت هذه الأسرة بظهور أسرة
تيجيني التي قاومت في العام الماضي حصارا طويلا ضد عبد القادر. كانت هذه
الأسرة مغربية الأصل، حيث ما زالت لديها ممتلكات هناك.

عندما استقر الأتراك وفرضوا سيطرتهم في الجزائر، حاولوا عدة مرات
انخضاع عين ماضي، ولكن هذه المدينة كانت قلعة على المقاومة أو تحويل
العاصمة إلى هدايا. ومع ذلك، كانت في إحدى المرات مرغبة على الاستسلام
لمحمد الكبير، باي وهران. كان ذلك في 1783. وكان هذا الاستسلام مؤقتا،
لأنه بعد مرور عامين، وجد محمد الكبير نفسه في حاجة إلى التوجه عين ماضي.

الجزء الثاني

وهي الرحلة الثانية التي كانت فاشلة بعد حصار دام أكثر من شهرين. بين هذه حملتين، قام الأمير العربي الذي حكم في عين ماضي والذي كان جد التيجيني الحالي بإصلاح وزيادة حصون ووسائل دفاع المنطقة.

في عام 1826، رأى شقيق تيجيني نفسه، الذي كان يحكم، بأنه قوي بما يكفي لاتخاذ الهجوم ضد الأتراك. سار حتى ماسكارا (معسكر)، وحاصرها. كان قد سيطر بالفعل على ضاحيتين، عندما أسرع حسن باي الى وهران لإنقاذ المكان. خاض تيجيني معه معركة في سهل غريس ولكن خيانة مجموعة من العرب له، جعلته يهزم ويقتل بعد أن دافع وقاتل ببسالة. استمر حسن باي، في السعي نحو مصالحه، وجاء دوره لمحاصرة عين ماضي، لكن التيجيني الحالي الذي يدعى الحاجي محمد بن سالم تيجيني، الذي خلف شقيقه، أجبره على التراجع بعد حصار دام أربعة عشر يوما. تمت ملاحقة الباي، في تراجعه ففقد الكثير من محاربيه (جنوده).

لا تملك عين ماضي أكثر من ثلاثمائة منزل، وتحتوي على قصبة صغيرة ذات جدار من الحجارة في حالة جيدة، وسميكة جدا، ومحاطة بالأبراج. لها ثلاثة أبواب وبوابة. يغطي كل باب بحصانة خارجية من البناء. وتحيط بالمدينة حدائق جميلة، تشكل جدرانها الخارجية هي أول جدار صد متحد ومركز في المدينة، وقادر على الدفاع عنها. ينبوع عين ماضي، الذي يعطي اسمه للمدينة، لا تجري مياهه داخل جدرانه، لكنه قريب جدا. هناك في المدينة ثلاثة آبار وفيرة تلي احتياجات السكان.

ملاحظة على عين ماضي وحمزة

هناك طريق بدا لي مثل ذلك الموجود في المدينة وفي عين ماضي: في اليوم الأول من السير، والذي كان قويا جدا، وهو يؤدي إلى "القصر"، وهي قرية من قبيلة زيناكرة. المنطقة ما بين المدينة و"القصر" هي أرض جبلية.

بالخروج من "القصر" وبعيدا قليلا عن هذه القرية، يدخل المرء إلى سهل واسع، مزروع بشكل جيد ويسقى من عدة أنهار، وأهمها واد وارك (وارق). وتقطنه قبائل مختلفة، وأول من واجهناها (التقينا بها) هي قبيلة أولاد مختار، ثم أولاد سيدي عيسى، في المركز الذي وصلنا إليه في اليوم الثاني من السير. في اليوم الثالث قمنا بعبور جزء من سهل يسمى تاجين، وينتهي عند أولاد الشايب.

في اليوم الرابع، فإننا كنا لا نزال نجوب سهل تاجين، ووصلنا إلى الشوقرة، في قرية تسمى سيدي بوزيد. هذه القرية، التي بنيت بالحجر قبل الحدايق التي تسقى جيدا، عند سفح سلسلة من الجبال المنخفضة التي تسمى جبل عامر.

في اليوم الخامس، قمنا بعبور جبل عامر، حيث وجدنا منابع كثيرة في كل خطوة ووصلنا إلى بلدة صغيرة تسمى تجمونت، في الجزء السفلي من جنوب المنحدر. هذه المدينة، التي هي ذات أهمية في البلدة، بفضل الحدايق والمياه التي تتوفر فيها بكثرة.

في اليوم السادس من رحلتنا إلى عين ماضي. عبرنا للوصول إلى هناك الجزء الشمالي من سهل المزي، الذي تقع هذه المدينة في وسطه. ويتقطن هذا

السهل القوية (قبيلة) نرى وفقا لهذا الطريق، أننا لم نستغرق الا ستة ايام من السير على الاقدام للوصول الى عين ماضي انطلاقا من المدينة. ولكن هذا يستغرق العرب بشكل متفرق، فواصل عبد القادر استغرقت سبعة ايام للوصول خلال الحصار. ورحلة مثل هذه تتطلب عشرة ايام بالنسبة الى جيش اوروبي. وفي رحلة يومين من السير شمال غرب عين ماضي توجد بلدة صغيرة تدعى لقروونات، والتي لا تزال بعيدة عن حمل نفس الاهمية العسكرية.

حمزة

لقد كنا مهتمين بحمزة منذ بعض الوقت، وهذا هو السبب الذي جعلنا نعتقد أنه يجب أن نضيف بعض المعلومات الجديدة إلى ما سبق أن قيل في هذا البلد في المجلد الأول من الحوليات.

الطريق المؤدية من الجزائر إلى حمزة من خلال العبور عبر معسكرنا قارا مصطفي، وجسر بني بني، الموجود على بعد ثلاثة أميال. كانت الطريق بين النخيم والجسر صعبة جدا وهي أسوأ جزء من الطريق. الجسر موجود على وادي بني بني، والتي تأخذ القليل من اسم ايسير ووادي الزيتون (نهر الزيتون). هذا هناك يتلقى نهر أورنجي، الذي يتدفق من الغرب إلى الشرق في هذه المنطقة التي تسقى وتروى بهذين النهرين تعيش قبيلة الكراغل، والمعروفة باسم وادي الزيتون، التي لجأ جزء كبير منها إلى أراضيها منذ 1838.

لدى جسر بني بني ثلاثة أغوام، وقد كسرت واحدة منها بحيث يتكون الطريق إلى حمزة على هذا الجسر، يقطع الآن النهر على جسر موجود في الأعلى.

يرى الجسر بما أن النهر عميق جدا في هذا المكان، وهو يتلقى تيارات حليقة. وخلال فصل الشتاء، حيث الأمطار غزيرة، يكون العبور في معظم الأحيان مستحيلا.

فوق بني بني وصولا إلى قراغ ير قال (برغال) الهضبة مولييه، يتبع الطريق مسار الوادي، الذي هو يكون مفتوحا للغاية في هذا الموقع. على يمين الطريق توجد جبال بني جيا، وعلى اليسار جبال بني خلقون، ولكن على مسافة كبيرة جدا لديها تأثير كبير على الاتصالات (السرايات والطرق). الطريق فوق الجسر، أو بالأحرى جسر بني بني، أقيمت ويقطع النهر ثلاث مرات. ويدهى المعبران الأولان جسر الرخام (مقطع الأبرام) أما الثالث، فيسمى معبر رداغ البرغال. ومباشرة بعد هذا المعبر تظهر الهضبة التي تحمل نفس الاسم. هذه الهضبة ترابية، ويمدخل سهل لكن الحرمات ينتشر فيها. وفي الأعلى هناك مصدر وفير للمياه. كان هذا المكان في النقطة الثالثة للقوات التركية، التي ذهبت من الجزائر إلى حمزة، وكانت القطعان السانطان مما فتدق الحمير ومن بني.

الهضبة المسماة قراغ البرغال يعلوها متخدر حشاش يجمعها سهل حمزة وهو على بعد ميلين من أصلها الطريق حرة على هذه الهضبة، ومع ذلك ولعدة نصف ساعة من المشي وبعد الشقوق، كانت وحرارة مقطوعة ببعض الحفر.

يستغرق العرب أربع ساعات من المشي، من قراغ ير إلى حمزة البلاد مفتوح ومن السهل الوصول إليه ودعوا لها عثرنا في الطريق على بعض الحدائق التي

تكون جافة في الصيف، ما عدا الكبيرة منها، وتسمى واد الكرم، والحيط، وهو تقريبا في ثلثي الطريق.

حصن حمزة، الذي يسمى أيضا في البويرة المنزل المربع. هذا النوع من المبانى الملية، يجمعها جدار قوي، حيث تكون منصاته عبارة عن مدرجات في هذه المباني. هذا الحصن أو كما يسميه العرب البرج، ليس أكبر من حصن ماتيفو وهذا يعني، أنه أصغر بكثير من حصن (برج) باب عزون في الجزائر العاصمة. السائر الأربعة (التراس أو الجدار الواقى) تخلو من التصدعات والحصون والقلاع. هناك باب واحد ونقطة خندق. يقال أنه لا تزال هناك أربعة مدافع، رفعا "القبائل" في عام 1830. يقع الحصن على الضفة اليسرى لمجرى مائية، والتي يشكل اتحادها النهر الذي يصب في البحر قرب بوجي (بجاية)، ويحمل على خرائطنا اسم أدوز. يمر هذا التيار أو المجرى المائي جنوب الحصن، على بعد مئات الأمتار القليلة. يتدفق في هذا المكان في اخدود ذي عمق كبير.

كانت هناك مسيرة يومين من حصن حمزة الى البيبان: الأولى كلها سهل، والثانية نصف تضاريسها سهل والنصف الآخر جبل.

بعد أربع ساعات من السير غرب حمزة، على طريق المدينة، يوجد الحصن المدمر لصور الغزلان، وهناك توجد أنقاض (آثار وبقايا) أوزيا، وليس في حمزة، كما قلت عن طريق الخطأ في المجلد الأول. هناك بالفعل أطلال قرب حمزة، ولكن ليست تلك التي تسمى صور الغوزلان.

لقد تحدثت في بداية نشر حوليات جزائرية، عن الأخطاء اللاإرادية التي سقطت سهوا في الأجزاء الأولى من إصداري، والتي قمت بتصحيحها في الأجزاء التي كان من المفترض أن تصدر في تلك الفترة. وأن بضد اكتمال هذا الالتزام. لقد تلقيت بعض الشكاوى المباشرة أو غير المباشرة. كان علي أن أنظر إليها بعناية واهتمام، وتصحيحها بالاستناد على أدلة أخرى، لأنني لا أريد من ذلك إلا العدالة والحقيقة. هنالك أيضا بعض الأخطاء الواقعية التي أتيت لي الفرصة للاعتراف بها شخصيا، بعد نشر الجزئين الأولين. في الأخير، وبما أنني لم أتمكن من مراقبة طباعة هذه المجلدات، ظهرت هناك أخطاء مطبعية في مقطعين أو ثلاثة مقاطع، والتي تقول عكس ما كنت قد كتبت. بعد هذه المقدمة القصيرة، سأدخل في الموضوع.

قلت في الصفحة 59، من الكتاب الثاني، من المجلد الأول، بأن مجموعة الاحتياط التي عقدت اجتماعا في تولون، بعد رحيل جيش حملة الجزائر العاصمة،

كانت تحت قيادة الجنرال لاتور فواساك. لقد أعطت في كتابة الاسم بسبب تشابه في الأسماء. لم يكن السيد دي لاتور فواساك الذي قاد هذه المجموعة، بل كان السيد فريستاك.

قلت في الصفحة 89، الجزء الثالث، المجلد الأول، بأن شخصا كان في وضعية الحصول على معلومات صحيحة، قد أخبرني بأن الباي حسين قد قاد خصم على مبلغ كبير للسيد دو بومونت، خلال تسجيلات القسط السوي لانتقرا. ظهرت صحيفة تشير إلى الاعتقاد بأنني قلت بأن ذلك كان متاسبا للسيد دو بومونت. أنا أنكر رسميا هذا التفسير. وأنا على اقتناع الآن كما سأكون دائما، بأنه لو حدث هذا الخصم لثم ادراك ذلك لصاحب الحق.

قلت في الصفحة 93 من المجلد الثاني، الكتاب الحادي عشر، بأنه تم تخفيض عدد رجال الكتائب الموجهين إلى حملة بجاية إلى 800 حتى 600 رجل، وأن هذا التخفيض لم يكن له سبب آخر غير إرادة قائد الحملة، الذي كان على استعداد للصاعقة في تسهيلات الإدارة. وقد تم اعلامي بأن هذا القائد كان السيد تريبيل، والذي أعلن خلال قراءة هذا المقطع، لا دخل له في هذا التخفيض، وأن حديثه الذي ذكرته فيها بعد، لم يظهر أي تعبير مؤكد من الذي أعطيت للموضوع. واستج من هذا أنني كنت على خطأ، وأن السيد الجنرال تريبيل المحترم كان يتوقع المقاومة، والتي وجدها بالفعل بجاية. إلى جانب ذلك، حتى لو أن الجنرال تريبيل يعتقد بأنني أسأت إليه، إلا أنني ربطت شخصيته الثيلة والحميلة دائما بالعدل.

دواني القضية ماكتا (مقطع)، لم تذكر فرقة هندسية، بقيادة النقيب جاكين.

الذي يتصرف بشجاعة كبيرة، وهذا ما كان يتوفر في جزء معين من المشاة القدامين في مؤخرة الجيش، للحفاظ على التراجع في اللحظات الأكثر صعوبة. كان العقيد موسيون من بينهم. كتب لي هذا الضابط السامي بأنه لم يقتل ثلاثة بحول، كما قلت، ولكن اثنان فقط، وأنه لا يتدخل في التزامات الفرسان، وأن موقفه كان في الواقع أكثر فائدة من محاربة الغوغى وقبادة المحاربين.

بالحديث عن الصفحة 278 من المجلد الثاني، حول المحاولة التي كانت تحت قيادة الكونت دي ابرلون لإنشاء بن عمر في البليدة، أقول أن السكان رفضوا لقاء السيد تلقى ماري، ولم يجد أغا العرب أنه من المناسب التفكير في إجبارهم، وجلب هذا المغاربي إلى الجزائر العاصمة. وهذا ما ترفت عنه رغبة السيد ماري تفسيرات حول الموضوع، وأن هذا لم يكن السيد الحقيقي لسلوكه. علم هذا العقيد من العرب الذين كانوا في البليدة عن قضية ماكتا، التي لا تزال غير معروفة في الجزائر العاصمة، وهذا ما جعله يقرر جلب بن عمر، لأنه كان يخشى أن لا يكون رد الفعل على هذا الحدث حياديا، لدى سكان الجبل، وهو التمرد الذي لا يمكنه القتال ضده. سأكون أسفا جدا لأنه لم يتم تصديق نيتي ورغبتني في تقديم أعمال إدارة السيد ماري في وضع غير مستحب. ونحن نختلف في الرأي في الكثير من الحالات، بحيث استطعت إلقاء اللوم على التدابير التي لا تحكم عليها بنفس وجهة النظر، ولكن هذا كل شيء. ومع ذلك، لدي تجربة شخصية لصعوبات موقف الوسيط بين الأوربيين والعرب، وهو الموقف الذي وقع فيه السيد ماري ووقعت فيه

أيضا. لم يكن هناك شيء أكثر صعوبة، من أن يحكم عليك بالخطأ أو أن تكون عرضة لسوء الفهم.

نعود الآن إلى بعض الأخطاء المطبعية التي تغير معنى كلامي. في الصفحة 181 من المجلد الأول، بدلا من السيد جيرونت، يقرأ اسم السيد جيراندو.

نقرأ في الصفحة 343 من المجلد الأول، أن القليعة توجد على الضفة اليمنى لمازافران. يجب استبدال هذه الكلمات بالضفة اليسرى.

في الصفحة 207 من نفس المجلد، بدلا من هذه الكلمات بدأ الحرب مع العرب والأكواخ، وهي تقرأ كما يلي: بدأت الحرب مع الأشجار والأكواخ. في الصفحة 286 من المجلد الثاني، بدلا من كلمات البابا كان من الأهالي نقرأ: كان البابا حفيرا، وأسفل هذا المقطع بقليل، بدلا من هذه العبارة: دين الله لم يفهم، فإن نصها كما يلي: دين الله فهم.

في الصفحة 377 من نفس المجلد، وبدلا من هذه الكلمات، ما لم تكن تفكر في كيفية العد في Erlon، قراءة: ما لم تكن تفكر في القيام بذلك تحت قيادة الكونت دي إيرلون، العبارة المقصودة هي ما لم تفكر القيام به إلا تحت قيادة الكونت دي إيرلون.

وبالإضافة إلى هذه الأخطاء الخمسة الكبرى، هناك بعض الأخطاء الواردة في المجلد الأول بما يتعلق بأسماء عربية. ولكن كل هذه الأسماء تقريبا أعيد ذكرها في المجلد الثاني بشكلها الحقيقي.

نظرة على الحاضر

الاحتلال والاستيلاء على قسنطينة كان بداية فترة لم يكن علينا الاهتمام بها في هذا المجلد. ومع ذلك، فإنها ترتبط بنقطة البداية، أي معاهدة التافة، التي لقيتها بالفعل صفة حساسة لتقييم دقيق، ومن ناحية أخرى، من الطبيعي أن يبحث القارئ في هذا الكتاب عن شيء يضعه في أرضية الأحداث الحالية، ووجدت نفسي مضطرا لتقديم هذا المقال من بعض أسطر والذي ينهي المجلد الثالث من حوليات جزائرية.

في محافظة الجزائر العاصمة، كان الاحتلال القوي لمنطقة منبجة، والتي احتفظت لنا به معاهدة التافة، قد انتهى. في الغرب، كان لدينا معسكر في وادي العلايق على بعد ميل من الضفة اليمنى للشفة وفي الشرق كان لدينا معسكرين في موقع سوق الحميز، ونطلق عليه معسكر القشوق، أما المعسكر الآخر فيسمى قارة مصطفى، على بعد ميل ونصف من المعسكر الموجود على التلال، على الضفة اليسرى من بومولوا، بالقرب من النقطة التي يترك فيها النهر اسم واد قنارقة والذي تحملته في الجبل. يوجد معسكر آخر عند مدخل واد

الجزء الثاني

ضيق واد الأكر (واد العكري). نحن نحتل الآن منطقة البليدة والقليلة، ولكن الوصول إلى هاتين المدينتين لا يزال غير مسموح للمستوطنين المتواجدين في بوفاريك والمعالم والدويرة، التي لا تزال محتلة بواسطة الحاميات الصغيرة، إلى جانب المعسكرات الأولى التي بنيت تحت قيادة الدوق روفيغو. هناك أكثر من ذلك في الدويرة، وهو المستشفى العسكري الجميل جدا. ترتبط المعسكرات فيها بينها بواسطة المخايين وبعض المواقع الوسيطة الأخرى.

الاستعمار يسير ببطء خارج فحص، وقد تخلى العرب إلى حد كبير عن البلد للذهاب إلى أراضي عبد القادر. أما رجالنا فكانوا قلقين باستمرار من سكان حجوط، الذين يقومون بسباقات مستمرة. لم يعد يمكن للمرء أن يتوقع إيقافهم بعقلانية، ونحن نحتل بلدهم. لا يجب أن نفهم أن الحجوطيين هم فقط الأعضاء السابقون من القبيلة، ولكن المغتربون في أراضينا أيضا، من الذين انسحبوا وغادروا بلدهم بأعداد كثيرة. فهم خصوصا الذين ارتكبوا أعمال لصوصية كان علينا أن نشكو منها، ولم يستطع عبد القادر فعل شيء لمنعهم، وعلى العكس، فقد كان يدفعهم إلى ذلك.

في محافظة وهران كنا مزدربين من احتلال المنطقة بأكملها من الاقليم العقيم الذي خصص لنا. ومع ذلك، كان لدينا قوات ميسرغين وفي خيم قبلي. ومن المفهوم أنه لدينا أيضا معسكر في رشقون في أرزيو وفي مستغانم، أين شهد السكان الأصليون بعض الزيادة. كانت هذه النقطة في تقدم الدوار والزملة

نظرة على الحاضر

الذين ما زالوا دائما معنا، يحتلون ضواحي بريدية وميسرغين. أما تلك الموجودة في وهران فهي بعيدة عن التمتع بأمان تام. يعتبر الغرابية (القرابة) بالنسبة الى هذا الجزء من البلاد مثلما يعتبر الحجوطيون بالنسبة لمتيجة.

كنا نمتد (نتوسع) في محافظة قسنطينة، أكثر من أي مكان آخر. كان هناك خطان للاتصال تضمنهما المعسكرات، وهما يربطان العاصمة و عنابة، والآخر مع ستورا، أين استقرينا هناك عشرة أشهر. وعلاوة على ذلك، نحن نحمل "لا كال"، على حدود تونس، وميلاح، وهي قرية كبيرة تقع بين قسنطينة وجيجل، وهي بلدة صغيرة وميناء صغير وضعت تحت قبضتنا حديثا. لا تزال بجاية محتلة، وتستمر في كونها نقطة عديمة الاتصال مع الآخرين.

هذا فيما يخص الوضع المادي، ولتطرق الآن للوضع السياسي. انتهك عبد القادر علنا المعاهدة، التي كانت مخرجة (مزعجة) بالنسبة له. أسس سلطته في منطقتين مهمتين في محافظة قسنطينة، أين كان ممنوعا من تقديم عمله (نشاطه). هاتان المنطقتان هما مجانة، التي جعلته سيد موكب البيان، التي تسميها الأبواب الحديدية، ومنطقة الزاب، أين توجد بكرة وكل مدنها الصغيرة التي تحدثنا عنها في المجلد الثاني، الكتاب العاشر. كان لديه خلقاء في هاتين المنطقتين، وليس هناك شك في أنه كان يسعى للتوسع أكثر. هذا ما كان ينبغي أن يكون وهذا ما هو عليه. نعتقد جيدا أن الأمير، الذي استولى على الأراضي مع أن المعاهدة لا تعطيه أي حق لذلك، لا يريد التنازل تحت أي ظرف

من الظروف، حتى عن تلك التي يسودها الغموض في تلك المعاهدة للتناقض حول حيازتها بوجود سبب واضح. تلك المناطق هي حمزة ومياعوه، والتي كان حريصا على الحصول عليها مباشرة بعد الاستيلاء على قسنطينة، لكي لا يكون المدعي، ولكن المدعي في هذه العملية الدبلوماسية، والتي تعتبر دائما الموقف الأفضل. لم يكتب بهذا النهب (الغضب السلطاني) الذي جرى باصرار رجل كان يعتقد أنه يتق في نفسه وما قام به، كان عبد القادر، كما تعلم، يعيق التجارة، ولا يدفع المساهمة في الخيول، وفي الأخير، ما هو أكثر خطورة على مستوطناتنا الاستعمارية، هو قيامه بتنظيم عملية سطو ضلنا، أو على الأقل لم يفعل شيئا لقمعها. لو كانت لديه اعتبارات لصالح معاهدة النافذة، لكانت بالتأكيد رؤية القبائل المجاورة تخضع لنظام منظم وسياسة دقيقة. ومع ذلك، لم يكن هناك شيء، على الأقل بالنسبة للعلاقات مع هذه القبائل، التي تنصرف تماما كما تفعل في زمن الحرب.

انتهت مسألة أحمد باي، الذي كان يتكلم مع مجموعة الفرسان على حدود تونس. لقد اختفى بريقه بتواجدها، بلا شك، ولكن أيضا بوجود عبد القادر، الذي طارده فواته من بسكرة، حيث كان يأمل في العثور على حق اللجوء. الآن ما الذي ستقوم به؟ من المحتمل جدا أن الحكومة لا تعرف، وأنها سوف تتحرك تحت تأثير بعض الأحداث غير المتوقعة، وربما غير المجدبة والغريبة والبعيدة عن هذه المسألة. يكاد يكون هذا ما يحدث دائما، على ما يبدو.

في قضايا هذا العالم. قال رجل دولة يعرف الكثير، بأنه لا يمكن أن تصدق كيف أن جرعة المنطق الذي ينظم المصائر (الوجهات) السياسية للشعوب ضعيفة جدا. ومع ذلك، كانوا يسرون، وبعد مرور بعض الوقت، وصلوا إلى الهدف الذي اختاروه. كانت هناك قوة تعلوهم وهي التي كانت تقودهم، وتتكفل بجمع الجهود غير المتناسكة والمختلة للحكام والمحكومين في نتيجة منطقية. ومع ذلك، لا يجب أن تغفل عن المبدأ الحكيم الذي عبر عنه أجدادنا في هذه الكلمات: ساعد نفسك، تساعدك السماء! هذا هو الأمر المؤكد.

جدول المحتويات

الواردة في المجلد الثالث.

الجزء الأول

الكتاب 17.

وصول المارشال كلوزيل الى الجزائر بصفته الحاكم العام. - مرض الكوليرا.
- تعيينات البايات. - الحملات في محافظة الجزائر العاصمة. - أحداث عتابة
وبجاية. - حملة معسكر. - معركة سيغ. - معركة الهبرة. - دخول الفرنسيين
الى معسكر وحريق هذه المدينة. - نهاية حملة معسكر..... 1

الكتاب 18.

الأحداث التي وقعت في الجزائر خلال حملة معسكر. - المفاوضات مع عبد
القادر. - المارشال كلوزيل ينتقل الى تلمسان. - دخول الفرنسيين الى هذه
المدينة. - مساهمة تلمسان. - احتلال "المشوار". - معركة الشافنة. - عودة
القوات الفرنسية إلى وهران و قوات المارشال الى الجزائر العاصمة. - حملة
الجنرال بيرغون في محافظة وهران..... 19

الكتاب 19.

عودة المارشال كلوزيل الى الجزائر العاصمة. - حملة أطلس. - استدعاء الجنرال أوزيه. - جوزيف المملوك، باي قسنطينة. - رحلة المارشال في فرنسا. - الحملة الجنرال أرلونج المؤسفة. - معسكر التافنة. - الهزيمة والقبض على باي المدية الذي تم تعيينه من قبل المارشال. - الجنرال بوجو في أفريقيا. - معركة ونصر سيكاك. - أحداث بوجي (بجاية). - قتل القائد سليمان 97

الكتاب 20.

المارشال كلوزيل في باريس. - خطة جديدة للاحتلال. - العمليات العسكرية في الجزائر العاصمة ووهران. - عودة المارشال كلوزيل الى الجزائر العاصمة. - بعثة (حملة) الجنرال دمريمونت. - ثورة القبائل من بون (عناية). - الاستعدادات لحملة قسنطينة. - حملة قسنطينة. - الخسارة والتراجع. - التموين (التزود) في "المشوار" بواسطة الجنرال لوتانغ. - توغل العرب في ميثيجة 129

الكتاب 21.

الإدارة الاستعمارية. - إنشاء راسوتا. - إنشاء الرغبة. - الامتيازات (التنازلات) المختلفة. - بوفاريك. - المزرعة النموذجية. - مؤسسة ادارة الأوقاف التنفيذية. - تحليل الأعمال الإدارية المختلفة. - السيد بريسون، أمين

جدول المحتويات

المخازن المدني. - الأشغال العمومية. - ميناء الجزائر العاصمة. - حركة سكان أوروبا. - التعليم العام. - إزالة المؤسفة للمستشفى العسكري 171

الكتاب 22.

الجنرال بروسار في وهران. - التموين في تلمسان بواسطة عبد القادر. - تعيين الملازم العام الكونت دو دمريمونت حاكما عاما. - وصوله إلى الجزائر العاصمة. - رحلة الجنرال بوجو إلى وهران. - حركات عبد القادر في محافظة تبطري - الجنرال دمريمونت في محافظة الجزائر العاصمة. - ثورة القبائل الشرقية. - البعثات (الرحلات) إلى يسر ومعركة بودواو. - الجنرال دمريمونت، بعد تهدئة الشرق، ينتقل إلى الغرب. - الأحداث في محافظة وهران. - المفاوضات مع عبد القادر، ومعاهدة التافنة. - إخلاء معسكر التافنة وتلمسان..... 193

الكتاب 23.

الوضع في محافظة بوجي (بجاية). - وصول الجنرال دمريمونت. - المفاوضات مع أحمد باي. - الاستعدادات للحرب. - محاولة التدخل من تركيا. - معسكر مجز عمار. - مهمة (رحلة) قسنطينة. - وفاة الجنرال دمريمونت. - الاستلاء واحتلال قسنطينة 233

جدول المحتويات

الكتاب 24.

- وضع المسائل (القضايا) في محافظة الجزائر العاصمة وهران خلال حملة
قسنطينة. - أعمال الإدارة المدنية للجنرال دمريمونت . - مرسوم (قرار)
حول "القبائل". - تعيين حدود المحاكم في الجزائر العاصمة. - مرسوم حول
المعاملات العقارية. - دولة الزراعة والتجارة 273

الجزء الثاني

1. - رسالة إلى السيد ديجوير بشأن قضية الجزائر 293
 2. رسالة حول الأفارقة، لرئيس تحرير مجلة سافريشيا 317
 3. - تقديم المذكرات الموجهة للجنرال دمريمونت حول (سباهي) غير النظامية
والدرك من الأهالي 329
 4. - المذكرات الموجهة للجنرال دمريمونت حول احتلال متيجة 337
 5. - المذكرات الموجهة للجنرال دمريمونت عن كيفية إدارة أهالي 353
 6. - الوثائق المتعلقة بإدارة المارشال كلوزيل 363
- الوثيقة 1. - تقرير حول الانشاء لتشكيل تجويف (مصب نهر) التافنة قبالة
جزيرة رشقون 363
- الوثيقة 2. - ملاحظة على الجزائر، المقدمة للوزراء والمحرة من طرف السيد
رانسي 367

الوثيقة. 3 - رسالة من المارشال كلوزيل الى الجنرال راباتيل.....	377
7. - أجزاء متعلقة بمعاهدة التافنة.....	385
الجزء 1 - ملاحظات على الاتفاقية التوقعت يوم 30 ماي بين الجنرال بوجو وعبد القادر، موجهة إلى رئيس مجلس الإدارة ووزير الحرب الجنرال دمريمونت.....	385
الجزء 2. - رسالة من الجنرال بوجو الى السيد الكونت مول، رئيس مجلس الوزراء.....	393
الجزء 3. - رسالة من الجنرال بوجو الى الجنرال.....	399
الجزء 4. - رسالة من عبد القادر الى الجنرال دمريمونت ، المكتوبة بعد اختتام السلام.....	409
الجزء 5. - مقابلة عبد القادر والجنرال بوجو.....	403
8. - العلاقة مفصلة بين الاعتداء والاستيلاء على قسنطينة، 13 أكتوبر 1837، بواسطة النقيب لاتور دو بان، من الهيئة الملكية للأركان.....	411
9. - ملاحظة على ممتلكات الدولة في الجزائر، والاستحواذ على المباني التي شيدها الأوروبيون.....	435
10. - قرار التنازل راسوتا.....	443
11. - ملاحظة على الإيرادات الحكومية في الجزائر.....	449

جدول المحتويات

12. - ملاحظة على الممتلكات في الجزائر العاصمة قبل الاحتلال الفرنسي،
بواسطة تشارل مانغاي، نقيب الهيئة الملكية للمهندسين 455
13. - إشعار (بيان) حول عين ايلاد وحمزة 461
14. - عودة الى الماضي 487
15. - لمحة عن المستقبل 491

نهاية جدول المحتويات



هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الـ 50 لعيد الاستقلال

Assala
culture

57، شارع ديدوش مراد، الجزائر
هاتف/فاكس: 021 444 700
www.assala-culture.com

